النظرية الإجتماعية

و

نقد المجتمع

(الأراء الفلسفية و الإجتماعية للمدرسة النقدية)

تأليف

زولتان تار

ترجمة و تعليق

الأستاذ الدكتور . علي ليلة

كلية الآداب – جامعة عين شمس

٢٠٠٤م

المكتبة المصرية

للطباعة والنشر والتوزيع

٣ ش أحمد ذو الفقار – لوران الإسكندرية

تليفاكس : ٠٠٢/٠٣/٥٨٤٠٢٩٨

محمول : ٠١٢٤٦٨٦٠٤٩

النظرية الاجتماعية
و
نقد المجتمع

(الآراء الفلسفية والاجتماعية للمدرسة النقدية)

تأليف
زولتان تار

ترجمة وتعليق
الأستاذ الدكتور على ليلة
كلية الآداب - جامعة عين شمس

هذا الكتاب ترجمة للنسخة الانجليزية
للمؤلف

ZOLTAN TAR

THE FRANKFURT SCHOOL
THE CRITICAL THEORIES OF MAX
HORKHEIMER
AND THEODOR W . ADORONO

مقدمـــــــة

ابتداء من عشرينات هذا القـرن ظـهرت الاتجاهـات النقديـة للنظرية السوسيولوجية المعاصرة لكى تفرض طابعها على خريطة علم الاجتمـاع ، برزت هذه الاتجاهات باعتبارها تكوين جنينى تخلق مـن داخل الانسان الكلاسيكية المسيطرة على علم الاجتمـاع حتـى ذلـك الحيـن . ولعبت هذه الاتجاهات النقدية دورها فـى اتجـاهين ، الأول اعادة النظر فى تنظير المـرحلة السابقة ابتداء بأكثرهـا راديكاليـة ، وانتهاء باكثرها تقليدية ومحافظة ، والثانى نقد المؤسسـة الاجتماعيـة القائمة بحثا عن مستوى أعلى من الحرية ، وتجنبا لأدنـى مسـتويات القهر .

التفكير وإذا خريطة النقد الاجتماعى قد ضمت روافد عديـدة ، فقد كان الفكير النقدى الذى قدمته مدرسـة فرانكفـورت هـو الرافـد الأساسى بين هذه الروافد وذلك لإعتبارين . الأول أن النظرية النقديـة لمدرسة فرانكفورت ظهرت فى البداية باعتبارها امتدادا للماركسـية ، تسعى وراء دعم مقولاتها النظرية عن طريق البحث الاجتماعى الواقعى والامبيريقى ، والثانى أنها كانت نتاجاً لسياق قهرى يحـاول أن يقـهر الحرية الانسانية ، وهى الظاهرة التى جعلت أفكار هذه النظرية نـاقدة دائما للكبت ، مؤكدة أنه إذا كان فرويد قد أكد بأن تأسـيس الحضـارة يحتاج الى الكبت فإننا – حسبما يذهب هربرت ماركيوز – نعيش فـى عصر الكبت الفائض .

من هنا كان اهتمامى بنقل أفكار التنظير النقدى الـى المكتبـة العربية ورأيت أنه من الأفضل أن يكون النقل عن طريـق التـأليف ، والى أن يتحقق فالأسرع أن يتم عن طريق الترجمة ، والأكثر اكتمـالا أن تكون الثانية مرحلة متقدمة على الأولى ، وهو ما شرعت فيه .

وابتداء قراءتى فى النقد الاجتماعى [illegible] النقديه لمدرسه فرانكفورت تشكل جوهر البناء النقدى . لذلك فقد [illegible] بأفكار مدرسه فرانكفورت ووجدت من خلال مسحى [illegible] هذه ثلاثه أعمال عن المدرسه هى مؤلف مارتن جاى (الخيال الجدلى) ، مؤلف بوتومور (مدرسة فرانكفورت) ، ثم مؤلف [illegible] (مدرسه فرانكفورت ، النظريات النقدية لماكس هوركهايمر وتيودور ادورنو) . وتيقنت ان المؤلف الأخير أكثرها شمولا وعمقا ، ومن ثم فقد قررت نقله الى العربية ، مع تقديم دراسة عن خريطة النقد الاجتماعى ، حتى يتضح لنا موقع مدرسة فرانكفورت على خريطه النقد الاجتماعى ، كمقدمة للكتاب حينما يظهر باللغة العربيه

ولكى يكون الأمر أكثر وضوحا كان عنوان الكتاب باللغة العربية هو (النظرية الاجتماعية ونقد المجتمع . الآراء الفلسفية الاجتماعية للمدرسة النقدية) وهو عنوان يختلف عن عنوان المؤلف باللغة الانجليزية . وقد كان هذا التغيير لاعتبارين الأول ان الكتاب باللغة الانجليزية لم يتحدث فقط عن هوركهايمر وأدورنو كما أشار الى ذلك عنوانه بل وردت فيه أفكار كثيرة من رواد النقد الاجتماعى ، والثانى أن مدرسة فرانكفورت كانت تسمى أحيانا بالمدرسة النقدية ، واحياناً أخرى بنظرية المجتمع ، وأحياناً ثالثه بالنظرية النقدية . اضافه الى ان لكل لغة رموزها ومسمياتها الأكثر قبولا

واذا كنت أتمنى أن يلقى هذا الجهد المتواضع قبول الجماعة العلمية ، التى ينبغى أن تكون هى دائما اطار الحكم والتقييم فإننى قبل أن أنتهى أجد لزاما على أن أتوجه بالشكر الى زميلى وصديقى الأستاذ الدكتور محمود الكردى أستاذ علم الاجتماع بجامعة القاهرة على الجهد الذى بذله معى فى مراجعة النسخة العربية لهذا الكتاب اضافة الى مشورته القيمة سواء فيما يتعلق بلغة الترجمة واو بطلب التعليق على قضايا معينة تتطلب قدرا من الشرح والوضوح

لذلك أتوجه له بكل الشكر والاحترام على مشاعره المخلصة والأمينة .

كما أشكر صديقى الدكتور شـــحاتة صيـــام ، بكليـــة الخدمـــة الاجتماعية جامعة القاهرة فرع الفيوم الذى ساعدنى فى متابعة طباعـــة هذا الكتاب ، وفى مراجعة أصوله إضافة الى ملاحظاته القيمـــة فيمـــا يتعلق ببعض الأفكار التى وردت فى الكتاب ، جزاه الله عنى كل خير .

وأخيرا أتمنى أن يلقى العمل قبول زملائى من الباحثين ، بحيـث نتحرك جميعا لتطوير فكرنا دعما لمصرنا العزيزة الغالية .

وعلى الله قصد السبيل

العجوزة ١٩٩٢

الفكر النقدى فى علم الاجتماع
جماعاته وتياراته

بقلم
دكتور / على ليلة

النظرية السوسيولوجية وتيارات النقد الاجتماعى

يكشف تأمل تاريخ الفكر الاجتماعى والتنظير السوسيولوجى فى علم الاجتماع عن تفاعل جدلى شامل على المستوى العقلى للانسان ، يساعد فى النهاية على تحلق أنساق أو تيارات فكرية تشهد على اكتمال مرحلى للتفاعل الجدلى فى ظل ظروف اجتماعية وتاريخية محددة ، يؤدى فى النهاية الى تبلور سياق فكرى شامل ومتكامل ، يسعى الى تجسيد تصوراته فى الواقع الاجتماعى أو الارتقاء بهذا الواقع المُعاش . حيث التطابق مع نسق الأفكار ، وهو التطابق الذى يشهد على اكتمال مرحلة التطور الحضارى للانسان ، وفى قلب هذا التفاعل الجدلى يكمن جوهرا ديناميا يشكل أساسا لطاقته الدافعة أو المحركة ، إذ يصبح الواقع والفكر على مفترق طرق يضم بصورة مكثفة كل التطرقات المحتملة للعلاقه بين الواقع والفكر ، ويكشف التصوير السكونى لهذه العلاقة عن تناقص قائم بين العناصر المشكلة للوجود الاجتماعى والفكرى على أحد المحاور ، وعن سعى دائم الى التلاؤم بين العناصر المتناقضة بحثا عن الاكتمال على محور اخر ، فى بداية الحركة الجدلية يكون التناقض ، بينما يكون الاكتمال والاستقرار هو نهاية وهدف ذات الحركة .

من هذا المنطلق يتحقق التطور الحضارى على محورين ، أو لنقل شكلين الأول حينما يتطور الواقع الاجتماعى والحضارى متجاوزا

نسق الأفكار القائم ، يطرح متغيرات واقعية جديدة تثبت تخلف الأفكار عن متابعة تفاعلات الواقع وعجزها عن تقديم حلول ناجحة لمشكلاته . ومن ثم تصبح التطورات الواقعية ظرفا ضاغطا يفرض ضرورة تجديد نسق الأفكار حتى يصبح متلائما واحتياجات التفاعل الواقعي حلا للمشكلات وتأسيسا للتكامل والاستقرار . على المحور الأخر أو الشكل الثاني قد يكتشف الفكر تخلف الواقع الاجتماعي ومن ثم يتولى نقده و تثويره ، تمهيدا لدفعه الى التطابق – في قلب المستقبل – مع نموذج ما ينبغي أن يكون عليه المجتمع ، في الحالة الأولى يكون الفكر رجعيا أو ماضيا بالنسبة للمجتمع ، بينما يصبح في الحالة الثانية نقديا أو مستقبليا يسعى الى دفع المجتمع الى الأمام .

ويكشف تأمل حركات النقد الاجتماعي عن وجود مستويين لهذا النقد ، في المستوى الأول يعبر النقد الاجتماعي عن حركة احتجاج اجتماعي شامل يستهدف التأكيد على ضرورة التغيير الأساسي والجوهري للأنماط الحضارية القائمة ، وإذا كان هذا النقد يبدأ بتحليل سلبي لعيوب السياق الاجتماعي القائم ونقائضه ، فإن مضمون النقد الاجتماعي تجسده حركة احتجاج تنظر الى الواقع كشئ يمكن تشكيله وتغييره . أعني كشئ مرهون بإرادة الفاعل (١) ويتطلب هذا التغيير الأساسي للأنماط الحضارية توفر ثلاثة شروط ، الشرط الأول يتمثل في تخلق تناقضات متنوعة بين العناصر المشكلة لهذا الواقع بحيث تفقده تكامله من ناحية ، وتجعله من ناحية ثانية عاجزاً عن إشباع الحاجات الأساسية للانسان ، وايضا عن الوفاء بالمتطلبات الأساسية للمجتمع باعتباره تجمعا انسانيا ، ويتمثل الشرط الثاني في امتلاك الحركة النقدية لتصور مثالي لما ينبغي ان يكون عليه المجتمع ، بحيث يصبح هذا التصور المثالي لما ينبغي أن يكون هو الاطار المرجعي لتنفيذ ما هو قائم .

وإبراز عرضيته وجزئيته ونقصه ، وإبصار اكتشاف الآليات التي تحكم عملية الانتقال من الشكل الناقص والمعيب الى الشكل المكتمل . ويتصدر الشرط الثالث بضرورة امتلاك الحركة النقدية لقوى اجتماعية تصبح هي الفاعل الثوري الذي ينتقل بالمجتمع مما هو كائن الى ما هو ينبغي ان يكون . مؤكده بذلك اكتمال حركه التحول الاجتماعي والحضاري . وبداية تحلق واقع حضاري أو إجتماعي جديد ، يضيق نطاقه او يتسع بحسب درجة شموله النقد وراديكاليته .

على خلاف ذلك تتحدد مهمة المستوى الثانى من النقد الاجتماعى الذى نجده أقل راديكالية وشمولا ، ذلك لأن النقد من هذا النمط يصبح نقدا ثقافيا وتنويريا فقط ، إذ يستهدف الذين يؤكدون على هذا النمط من النقد عملية التغيير الثقافى والتنويرى لتشكيل توجهات ثقافية وقيمية جديدة تحكم التفاعل الكائن فى الواقع الاجتماعى والحضارى . وهى هنا تستهدف خلق ثقافة جديدة تقود التفاعل والعمل داخل اطار المؤسسة القائمة ويتبلور هذا المستوى من النقد الذاتى حينما تنحدر الحركات السياسية الراديكالية وتقتصر أهدافها على النقد الذاتى والثقافى للمجتمع . أو حينما لا يكون الفاعل الثورى الذى يهدف الى التغير الراديكالى للمجتمع مهيئا بما يكفى لتنفيذ مهام النقد ومتطلباته . هذا النقد قد يصبح هو المستوى المسموح به حينما يثبت الواقع ويؤكد صلابته أمام الانتقادات الموجهة إليه (٢) ، حيث يسعى هذا الواقع الى استيعاب مضمون النقد بما يدعم بنائه وصلابته ويفقد النقد مبرره ومشروعيته . ويبرز هذا المستوى النقدى فى المراحل التاريخية التى يكون فيها الواقع الاجتماعى قويا وقادرا على استيعاب تناقضاته مؤكدا على وحدته وتكامله ، أو حينما يقتصر النقد الاجتماعى على فضح وتفنيد ما هو قائم ، وامتلاك القدرة على الانطلاق الى ما ينبغى ان يكون عن طريق امتلاك نموذج مثالى ومستقبلى يتحرك نحوه المجتمع والتفاعل ، أو حينما لا يمتلك التيار النقدى قوى التحول الاجتماعى او الفاعل الثورى

إما لأن النقد لم يكن يسعى الى عملية التحول الشامل والراديكالى ، أو لأن القوى الثورية إستوعبت قيم النظام أو المؤسسات القائمة فأصبحت جزئا منها عاجزة عن الخروج عليها . أو أن القوى الثورية التى افترضها التيار النقدى كأداة للتحول محدودة الطاقة ، ومن ثم فهى غير قادرة على فرض التحول .

ويوضح البحث فى تاريخ الفكر الاجتماعى عن وجود موجات متتابعة من النقد الاجتماعى الشامل الذى يظهر عادة نتيجة لعجز التنظيم الاجتماعى عن التكيف إما مع البيئة الخارجية المحيطة أو متطلبات التطور المستقبلى ، بحيث تبدأ كل موجة من هذه الموجات من إدراك الانسان لضعف القدرة التكيفية للتنظيم الاجتماعى للتلاؤم مع بيئته ، أو قصوره عن اشباع الحاجات الأساسية للانسان فى اطاره ، أو عجزه عن تطوير آليات الحركة والتحول من داخله . بحيث يبدأ النقد الاجتماعى عادة بنقد الأفكار التى قد تؤكد على شرعية التنظيم الاجتماعى القائم ، ثم الانتقال بعد ذلك الى نقد التنظيم الاجتماعى ذاته لفضح تناقضاته ، ثم تقديم تنظيم اجتماعى بديل يتلائم مع شعارات الفكر النقدى ، إضافة الى تلاؤمه واشباع حاجات الانسان فى اطاره ، الى جانب امتلاكه القدرة على التكيف والسياق البيئى المحيط .

وفى هذا الاطار يمكن اعتبار نظريات العقد الاجتماعى التى بدأت بتوماس هوبز وجون لوك وديفيد هيوم وجان جاك روسو تعبيرا حقيقيا عن الموجة الأولى من الفكر النقدى الذى استطاع تأمل التنظيم الاجتماعى القديم للكشف عن بعض عيوبه أو نقائصه ، فى محاولة للانطلاق الى بناء نظام اجتماعى جديد تتحدد فيه العلاقات بين مكونات هذا النظام بما يساعد على خلق استقرار اجتماعى جديد سواء فيما يتعلق بالعلاقة بين الدين والدولة ، أو العلاقة بين الدولة والمجتمع المدنى ، أو العلاقة بين الانسان والمجتمع من ناحية وبينه وبين الدولة من ناحية

ثانية (٣) . وتعتبر الطبقة البرجوازية هى الطبقة التى تحملت أعباء التحول خلال هذه الفترة . حيث عملت على اضعاف الروابط التقليدية ، وقضت على الارستقراطية الزراعية ، وعملت على ظهور الثورة السياسية فى فرنسا والصناعية فى انجلترا (٤) .

وترتبط موجة النقد الاجتماعى الثانية بظهور المجتمع الصناعى الذى ساعد على تجسيده وخلقه فكر التنوير الأوروبى . وإذا كانت حركة النقد الأولى قد بدأت من الفكر ، تحمل عبئ طلقاتها الأولى رواد مثل مارتن لوثر وكالفن من داخل الدين ، وجاليليو وكوبرنيكس من داخل الفلك ، وروجر بيكون وفرنسيس بيكون من داخل العلم ، وهوبز وهيوم ولوك وجان جاك روسو من داخل الفلسفة فإن بداية الحركة النقدية كانت هذه المرة من الواقع . واذا كانت البرجوازية فى المراحل التاريخية هى التى تحملت أعباء التحول الاجتماعى حتى جسدته ، فإنها من خلال المجتمع السياسى الذى تخلق عن الثورة الفرنسية ، ومن خلال المجتمع الصناعى الذى تخلق عن الثورة الصناعية ، بدأت تسعى للحصول على ثمار التحول . وثارجدال فكرى عريض برزت من خلاله مواقف نظرية وايديولوجية متباينة .

بعض هذه الموقف النظرية يرى أن البرجوازية قد انجزت حقاً أعظم الثورات السياسية والاقتصادية فى التاريخ ، غير أن العملية الاقتصادية فى المجتمع الصناعى ليست من صنعها وحدها ، بل تحملت أعباءها البروليتاريا الصناعية الجديدة . ومن ثم فإستمرار حصول البرجوازية على معظم عائد العملية الاقتصادية فى مقابل حرمان البروليتاريا من نصيبها يعبر عن ظلم شامل وعن سوء تنظيم اجتماعى (٥) . فى مقابل ذلك أكدت مواقف نظرية أخرى على حق البرجوازية – باعتبارها الطبقة البروتستينية المتطهرة – فى الحصول على معظم عائد العملية الانتاجية من ناحية لأنها بجهدها التاريخى هى التى خلقت هذا العائد ، وثانيا لأن مشاعرها الغيرية تفرض عليها عدم الاستمتاع

الاستهلاكى برأسمالها ، بل إننا نجدها تعيد توجيه رأسـمالها لإعـادة الانتاج الاقتصادى الاجتماعى فى المجتمع . لتوفير فرص العمل الـذى يعمل بها الآخرون ، ولإنتاج السلع التى تشبع حاجات الآخرين أيضـاً . إذ تتحمل هذه الطبقة أعباء تجسيد الرسالة التاريخية والإيمانيـة التـى تدور حول بناء مجد الله فى الأرض (٦) . وبين الموقفين برز الموقـف الثالث الذى رأى فى البرجوازية والبروليتاريا عناصر فى تقسيم العمـل الاجتماعى الذى يسود بناء المجتمع الصناعى الحديث ، و من ثم فلكـل دوره فى عملية الإنتاج وبناء المجتمع . وايضا لكل منهم نصيبه شريطة أن يخفف أصحـاب رأسمال من غلوائهم وأن يخفف العمال من حقدهم. (٧)

وبغض النظر عن المواقف النظرية التـى حـاولت تشـخيص مشكلات المجتمع الصناعى ، فالمؤكد أن هذا المجتمع كان يعانى مـن عدة مشكلات أساسية على الفكر أن يقدم حلا ناجحـاً لـها . ونظـراً لاختلاف المواقف النظرية فقد كان منطقيا أن يحدث اختـلاف حـول طبيعة المشكلات الأكثر محورية .

فمثلا نجد أن الماركسية تشـكل مشـكلة المجتمـع الصنـاعى باعتبارها تتعلق أساساً بأوضاع الطبقة العاملة . حيث يرى ماركس أنـه إذا كان هيجل قـد إفترض ان الاشكال الاجتماعية والسياسية أصبحـت مطابقة لمبادئ العقل ، فإن وجود البروليتاريا يناقض الواقعية المزعومة للعقل ، لأنه يعرض أمامنا طبقة كاملة تقدم دليلا على نفى العقل ذاتـه . فالمصير الذى تلقاه البروليتاريا ليس تحقيقا للامكانات الانسانية ، بل هو العكس من ذلك يعتبر نفيا لها . وإذا كانت الملكية هى أول ما يتميز بـه الشخص الحر ، فإن العامل البروليتارى ليس حراً وليس شـخصاً ، إذ أنه ليست لديه ملكية ، وإذا كانت أوجه النشاط التى تمارسـها الـروح المطلقة من فن ودين وفلسفة هى التى تؤلف ماهية الانسان ، فإن العامل

يظل الى الأبد منفصلا عن ماهيته ، إذ أن حياته لا تـــترك لـــه وقتـــا يمارس أوجه النشاط هذه .

وفضلا عن ذلك فإن وجود البروليتاريا لا يقتصر تأثيره الضـــار على المجتمع العاقل الذى قال به هيجل فى كتاب (فلسفة الحق) ، بـــل هو يضر بالمجتمع البرجوازى كله . فالبروليتاريا تظهر مـــــن خـــلال عملية العمل ، وهى القائم الفعلى بالعمل أو الآداء فى هـــذا المجتمـــع . غير أن العمل كما بين هيجل ذاته ، يحدد ماهيـــــة الإنســـان والشـــكل الاجتماعى الذى تتـــخذه ، ومن ثـــم فإذا كان وجود البروليتاريا يشهد (بالضياع التام للإنسان) ، وكان هذا الضياع ناجماً عن طريقة العمـــل التى يؤسس عليها المجتمع المدنى ، فمعنى ذلك أن المجتمـــــع شـــرير بأكمله . وان البروليتاريـــا تعبر عن سلبية تامة ، أى عـــــن (عـــذاب شامل) و (ظلم شامل) . وبذلك تتحول واقعية الحـــق والعـــدل الـــى واقعية البطلان والظلم والعبودية (٨) .

على خلاف ذلك نجد تشخيصا آخر للمشـــكلة . حيـــث يراهـــا دوركيم مشكلة أخلاقية بالأســـــاس . فقـــد رأى دوركيـــم أن المجتمـــع الصناعى يواجه أزمة اخلاقية خطيرة ، وذلك لغياب العنصر المعيارى، ومن ثم إنعدام التآزر بين الأفعال أو ضبطها ، الأمر الذى يهدد بحالـــــة من الفوضى الهوبزية الشاملة ، أو حالة من الأنومى كما يحددها إميـــل دوركيم .

ويبرز دوركيم إنهيار البناء الأخلاقى للمجتمع كعـــــامل يشـــكل أساس مشكلة المجتمع الصناعى . ومن ثم فأزمة هذا المجتمـــع ليســـت أزمة إقتصادية (٩) . وإنما هى أزمة أخلاقية أساساً . وهى الأزمة التى ترجع من ناحية – اتفاقا مع كل من دى بونـــال ودى ميســـتير وســـان سيمون – الى إنهيار قوة المعتقدات الدينية ، الأمر الذى أدى الى تخلق فجوة أخلاقية (١٠) .

ومن ناحية أخرى الى إهتزاز الأخلاق التقليدية وإنهيارها وعدم احلال نسق أخلاقي مكانها ، ومن ثم فلم تعد القواعد لها قوتها الملزمة ، الأمر الذى يعنى أن حضارتنا فى حالة أزمة أخلاقية وتسودها حالة الأنومى Anomie ، وهى الحالة التى لها آثارها على مستويين . المستوى الفردى حيث يدخل الانسان الى الارتباط بالأخلاق من خلال مدخل اللذة ، وذلك يعنى إغفال إلتزاماته نحو المجتمع ، ومن ثم يؤدى ذلك الى إضعاف التضامن الاجتماعى (١١) . أما على مستوى المجتمع فهى تخلق حالة من الاستقطاب الاجتماعى حيث الدولة تقوى اكثر فاكثر ، فى مقابل الجماعات التقليدية التى أصابها الانهيار ، الأمر الذى يترك الفرد أعزلا فى مواجهة الدولة التى تقهره وقد تدفع به الى اليأس (١٢) .

ويتفق الموقف الثالث مع بعض جوانب الموقف الأول من ناحية ومع جوانب ثانية من الموقف الثانى من ناحية اخرى ، وهو مع الموقف الأول يرى أنه وأن نشأ النظام الصناعى أو الرأسمالى الحديث استنادا الى الاعتقاد فى القيم البروتستينية الداعية الى التقشف والعمل الدؤوب ، فإنه بمجرد اكتمال بناء هذا النظام يبدأ فى السيطرة على أعضائه من خلال السلطة البيروقراطية كآليات فى الضبط والسيطرة . اضافة الى التنظيم العلمى والتقدم التكنولوجى حيث نجد أن المجتمع يتحول من موقف المتغير التابع للخلق الفردى الى كونه متغيرا مستقلا يخضع له الوجود الفردى . ومن ثم فإذا بدأ الفرد بإرادته فى تخليق النسق الاجتماعى فإنه ينتهى الى الخضوع لحتميته . ذلك يعنى تأكيد هذا الموقف على الطابع القهرى للنسق (١٣) . وهو القهر الذى أكده فيبر بقوله إننا مهددون بالتحول الى أمه من العبيد .

وبين المواقف الثلاثة اتفاقات واختلافات ، حيث يتفق موقف فيبر (الأخير) مع موقف ماركس حول الطابع القهرى للنظام الاجتماعى غير أنه يختلف معه فى تحدد القهر عند ماركس بحدود الطبقة

البروليتارية بينما يتسع القهر عند فيبر لكى يشمل المجتمع كله . على خلاف ذلك يرى دوركيم (الموقف الثانى) أن القهر والإلزام الاجتماعى من الأبعاد المميزة لعلاقة الانسان بالمجتمع ، غير أن الانسان لا يحس بهذا القهر مفروضا عليه ، ولكنه من جانبه ينجذب نحو إلزام المجتمع . إن روابطنا بالمجتمع تتأسس بخيوط من حرير غير أن لها قوة حلقات الحديد .

إذا فقد طورت هذه المرحلة تيارا نقديا كاملا تضمن عديدا من الروافد التى تولت مهمة النقد من زاوية تختلف عن زوايا الروافد الأخرى ، غير اننا نستطيع التمييز داخل هذا التيار النقدى الشامل بين مستويين من النقد . النقد الشامل والأساسى والذى يستهدف تغيير النمط الحضارى للمجتمع تغييرا راديكالياً وشاملا ، وهو النقد الذاتى حاولته الماركسية حينما قدمت المجتمع الشيوعى بإعتباره المجتمع الذى ينبغى أن يحل محل المجتمع الرأسمالى المتخم بالتناقضات .ويشير المستوى الثانى الى نوع من النقد الثقافى أو التنويرى الذى يحاول ممارسة النقد الموجه الى بعض جوانب النظام القائم دون حاجة الى تغييره أو تأسيس تحوله . فدوركيم ينتقد الانهيار الأخلاقى ويقدم سياسة لإصلاح هذا الانهيار دون المساس ببناء المؤسسة الاجتماعية القائمة . وتصبح القضية الأساسية بالنسبة لفيبر هى كيف نواجه هذا النظام الذى تؤدى البيروقراطية دورا أساسياً فى اطاره الى حماية البشر من بطش اسلوب الحياة البيروقراطية الذى يهدد بمحاصرة أرواحهم . مرة أخرى يتم النقد الفيبرى من داخل المؤسسة الاجتماعية المستقرة .

فإذا حاولنا التعرف على طبيعة القوى الاجتماعية للتحول الاجتماعى فإننا سوف نجد أن النقد الاجتماعى لدوركيم وفيبر يستهدف اصلاح بعض جوانب المجتمع القائم ، تلك التى تعانى من حالة الانهيار ، بينما نجد ان النقد الاجتماعى المنطلق من النظرية الماركسية يقدم البروليتاريا الصناعية باعتبارها قوى التحول الاجتماعى .

في هذا الاطار يؤكد ماركس أنه حينما لا يمكن إلغاء العمل كلية – لكونه العملية التى ينتج بواسطتها الانسان أساسيات حياته – فإنه يمكن محو الاستغلال والعمل المغترب والقهر كلية من الخبرة الانسانية ، حيث يجد العمال أنفسهم – وهم أكثر من يعانون من هذه الظروف – فى لحظة يتحركون للقضاء على رأس المال والسلطة من يد قاهريهم ويتحقق ذلك حينما يتكشف وعى البروليتاريا ، ومن ثم تنتظم صفوفها وتعى حركتها ، وتقدم على عمل ارادى واضح تحطم من خلاله كل متضمنات النظام الرأسمالى ، من حيث أبنيته التحتية والفوقية ، وعملياته الأساسية . وبذلك تصدق الصرخة الماركسية (يا عمال العالم اتحدوا ...) فليس البروليتاريا ماتفقده – فى النظام البرجوازى – سوى قيودها وأغلالها لكى تربح من بعد ذلك عالما بأسره (١٤) . ذلك يعنى أن الإلغاء الحتمى للطبقات والصراع الطبقى سوف يصل بالبشر الى حالة يؤدى فيها النمو الحر لكل إرادة على حدة الى النمو الحر للجميع (١٥) .

ويستمر جدل النقد الاجتماعى ، حيث ظهور الموجة الثالثة للنقد وهى الموجة التى وجدت بصورة جنينية فى بناء المرحلة السابقة ، مرحلة المجتمع الصناعى ، ويمكن القول بأن المرحلة السابقة قد انتهت بدون أن تحقق ممكنات النقد . فمن ناحية استمر قهر المجتمع الصناعى ، وتحول ليصبح قهر المجتمع التكنولوجى المتقدم ، الذى خلق حضارة قاهرة لكل الممكنات الانسانية . واذا كانت الحضارة تحتاج الى فرض قدر من الكبت ، فإن الانسان فى الحضارة التكنولوجية أصبح يعانى من الكبت الفائض ، أصبح الفرد اكثر خضوعا واصبحت آليات المجتمع لإخضاعه أكثر خداعا ومراوغة ، اضافة الى ذلك فقد فشلت البروليتاريا فى أن تكون قوى التحول الاجتماعى ، بل أنها أصبحت أكثر اندماجا فى المجتمع التكنولوجى . إضافة الى ذلك أصبح المجتمع التكنولوجى المعاصر يعانى بدرجة أعمق من الانهيار الثقافى . حيث

اصبحت القيم الثقافية للمجتمع عاجزة عن اللحاق بالتغييرات التكنولوجية المتسارعة .

وإذا كان المجتمع التكنولوجى المتقدم قد أكمل عملية إخضاع الفرد وقهره ، فإنه قد إتجه بعد ذلك الى فرض القهر خارج حدوده حيث اتجه الى الشعوب الصغيرة الساعية الى الحرية والمطالبة بالاستقلال ، فى محاولة لإعادتها من جديد الى عصر الاستعمار ، ولقد كانت كوبا وفيتنام مثالا على سعى المجتمع التكنولوجي بهدف قهر شعب بأكمله . ويمكن القول بأن ملحمة نضال الشعب الكوبى والفيتنامى شكلت أساطير ألهبت خيال الشباب على مستوى العالم أيا كانت مواقعه . فقد أدى انتصار الثورة فى كوبا ومقاومة الشعب الفيتنامى الناجحة للعدوان الأمريكى الى أن يشعر اليسار الجديد بحدة عمق الأزمة داخل المجتمع البرجوازى (الأمريكى فى الأساس) وأن يبدأ فى الاعتقاد بإمكانية إحداث تغييرات راديكالية فى المؤسسة البرجوازية (١٦) .

وتعتبر صناعة الثقافة من المشكلات التى أسسها المجتمع التكنولوجى المتقدم ، ولا يستند الفكر النقدى فى طرحه لهذه القضية على الطرح الماركسى لها ، وهو الطرح الذى يذهب الى القول بأن الأفكار المسيطرة فى كل عصر هى أفكار الطبقة الحاكمة . فى هذا الاطار يمكن النظر الى التكنولوجيا الحديثة باعتبارها قد عظمت الفاعلية التى تجذرت بواسطتها هذه القيم فى المجتمع ككل . وبدلا من ذلك فقد نظر الى التكنولوجيا والوعى التكنولوجى باعتبارهما قد أنتجا ظاهرة جديدة اتخذت شكل " ثقافة الجملة " الموحدة والتى لا جذور لها ، وهى الثقافة التى تجهض النقض وتخرسه (١٧) . ذلك يعنى أن المجتمع التكنولوجي قد نجح فى تعميق عملية خضوع الفرد للنظام الاجتماعى ، ليس من خلال البيروقراطية والسلطة فقط – كما هى الحال فى مجتمع فيبر الصناعى – ولكن من خلال القيم والثقافة والتنشئة كذلك .

يضاف الى ذلك أن المجتمع التكنولوجى قد بدأ يشهد أنماطاً مختلفة من الصراع الاجتماعى . ولتوضيح ذلك نجد أنه استنادا الى تصورات فيبر عن انتشار الادارة والانتاج الرشيد ، ظهرت نظرية الثورة الادارية . وقد أدى الحوار المبكر بشأن التكنولوجيا الى تأسيس كثير من الدراسات الشاملة المتعلقة بالمجتمع الصناعى ، والمجتمع الصناعى المتقدم ، وفى محاولة فهم ظواهر هذا المجتمع قدم الفكر الاجتماعى نموذجين من الفهم . ويتمثل النموذج الأول فى التفسير المحافظ لظواهر هذا المجتمع وهو التفسير الذى أكد قبل كل شئ على الالغاء التدريجى للاختلافات الطبقية الأساسية ، (وهى الظاهرة التى يمكن النظر إليها باعتبارها تشير الى انتشار نمط " مجتمعات الطبقة المتوسطة " حيث تلطيف الصراع الطبقى أو إلغائه تماما . والانهيار الأيديولوجى المرتبط بذلك ، وتعتبر الماركسية أكثر الأمثلة تجسيداً لذلك . ويشير النموذج الثانى الى التفسير الراديكالى الذى برز من خلال كتابات أليان تورين Alain touraine(١٨) . وبرغم ادعائه بأن البناء الطبقى لرأسمالية القرن التاسع عشر قد تحول بصورة شاملة فإنه قد أكد على ظهور تصدع أساسى جديد فى المجتمعات الغربية ، (وبنفس المنطق فى المجتمعات الاشتراكية لشرق أوروبا برغم اختلاف السياق) ، حيث حلت الأنوع الجديدة للصراع (والتى يمكن أن نمثل لها بأفعال الحركات الاجتماعية ، والاستجابة لها منذ عقد الستينات) جزئيا محل الصراعات الطبقية القديمة ومن وجهة نظر تورين فإن الجماعتين المتصارعتين فى المجتمعات الصناعية المتقدمة (والتى يمكن تسميتها أيضا مجتمعات التكنوقراط أو المجتمعات المبرمجة) . ليستا البرجوازية والطبقة العاملة ، ولكن بين هؤلاء الذين يسيطرون على الأبنية الاقتصادية والسياسية لصناعة القرار من ناحية ، وبين هؤلاء الذين اختزلوا الى حالة من المشاركة التابعة من ناحية ثانية (بطبيعة الحال تضم المجموعة الأولى كبار ملاك رأس المال بينما تضم المجموعة الثانية عمال الصناعة) (١٩) .

وإذا كانت المشكلات السابقة هى بعض المشكلات التى يعيشها الانسان فى المجتمع التكنولوجى المعاصر . فإنه كان منطقيا أن يتوجه النقد الاجتماعى فى هذه المرحلة – بعد تشخيصه لملامح الأزمة – الى محاولة نقد ما هو قائم بهدف خلق مجتمع تنتفى فيه التناقضات القائمة ، وارتباطا بذلك فقد إتجه الفكر النقدى لتيار اليسار الجديد – بكل فصائله – الى التحدى العلنى الصريح للمجتمع البرجوازى ، وللمؤسسة العسكرية الصناعية ذات الجبروت الشامل ، وأيضا للسياسة الخارجية العدوانية التى ينتجها الامبرياليون الجدد . إتجه النقد أيضاً للضغوط الاقتصادية والقمع السياسى الذى يعانى منه البشر فى الداخل ، كذلك انتقدت الثقافة العامة والأيديولوجيا الواسعة الإنتشار (٢٠) . وكذلك صناعة الثقافة ، التى تعنى فى الحقيقة تشويها للعقل .

ويمكن القول بأن النقد الاجتماعى لليسار الجديد قد وجد تعبيره الأيديولوجى والنظرى وتبريره الأخلاقى فى الأيديولوجيا الراديكالية التى أصبحت أحد العناصر البالغة الأهمية فى تشكيل الوعى الاجتماعى للبشر فى المجتمعات الغربية . ويمكن تتبع جذور هذه الأيديولوجيا فى العقائد اليسارية التى تبنتها البرجوازية الصغيرة التقليدية ، وهى العقائد التى تأثرت بالفلسفة البرجوازية الحديثة وبعلم الاجتماع الحديث . ويكشف تأمل المقولات الايديولوجية للفكر الاجتماعى النقدى الحديث عن وجود عناصر جد متناقضة تتداخل مع بعضها البعض لتأسيس بناء فكرى فيه من الوجودية وفيه من المثالية ، وفيه النزعة الانسانية للماركسية ، وحتى فيه تبنى لبعض تكنيكات البحث فى علم الاجتماع الأمريكى . كل ذلك يتداخل مع بعضه البعض لكى يشكل فكر إحتجاج على ممارسات النظام الاجتماعى ، وليس فكرة ثورة تستهدف الاطاحة الشاملة بهذا النظام . بصورة أدق تعبيرا فهو " النقد الاجتماعىالحديث " يعبر عن فكر الصفوة البرجوازية المثقفة ، وهل يمكن أن تسعى البرجوازية الى الاطاحة بنظام أبدعته ؟ ، ذلك مستحيل .

يبقى بعد ذلك أن نحدد طبيعة النقد الاجتماعى لهذه المرحلة وإذا كنا قد اتفقنا أن هذا النقد يعبر عن ايديولوجيا الشريحة البرجوارية المثقفة ضد المجتمع التكنولوجى الحديث ، فإنه من المتوقع أن لا تسعى هذه الشريحة الى نقد يفترض السعى الى إحداث تغيير شامل فى بناء النظام .

يؤكد ذلك أن النقد قد ظهر فى نطاقات أقرب ما تكون الى الاندماج فى بناء النظام فقد ظهر فى الدوائر الثقافية وبخاصة حرم الجامعات ، وبين الطلاب أبناء البرجوازية أساساً . والجامعة والبرجوازية هى مكونات ملتحمة عضويا ببناء النظام وإن كانت هناك بعض الافتراقات التى تحدث أحيانا بين طلاب الجامعات والنظام ، وأحيانا أخرى بين أبناء البرجوازية والنظام . غير أن الشئ المؤكد أن الجامعة والبرجوازية يعتبرا من المكونات الأساسية لبناء النظام . نتيجة لذلك فهذا النقد الذى توجهه الى النظام ليس نقدا يسعى الى تغيير أسس النمط الحضارى التكنولوجى ، بل هو نوع من النقد الثقافى التنويرى الهادئ الذى يشكل احتجاجا لحظيا ، عابرا ومؤقتاً ، لكونه ليس إلا رد فعل أو استجابة لبعض الممارسات المنحرفة للنظام . لا يسعى الى التغيير الشامل ، ولا وجود لقوانين حتمية وشاملة تحكمه .

ومن الطبيعى أن لا تكون لهذا المستوى من النقد الاجتماعى قوى للتحول الاجتماعى التى تجسد أهدافه ، وإذا كانت البروليتاريا هى القوة الاجتماعية المؤهلة لفرض التحول الاجتماعى فى المجتمع الصناعى كما تصورت الماركسية ذلك . فإننا نجد أن النقد الاجتماعى فى المجتمع التكنولوجى الحديث قد رفض القيادة الايديولوجية والسياسية للطبقة العاملة (٢١) . وكذلك الأحزاب الماركسية – اللينينية باعتبارها أنها ليست ثورية بما يكفى ، وباعتبار أنها اندمجت فى نظام رأسمالية الدولة وتجردت بالتالى من مهامها الثورية السابقة (٢٢) .

في مقابل ذلك رأى النقد الاجتماعي الحديث في الجماعات الخارجة على النظام قوى اجتماعية تتولى نقده وتحريك ضميره وإن كانت عاجزة عن تحويله تحويلا راديكاليا . لقد ظهرت جماعات الهيبز والطلبة والشباب عامة ، والملونين باعتبارهم قوى النضال المحدود في هذه المرحلة ضد الرأسمالية المتقدمة . حيث كانت هذه الجماعات صادقة في رفضها لممارسات النظام الرأسمالي على الصعيد العالمي أو المحلي كذلك لزيف ونفاق أسلوب الحياة البرجوازي . لقد حاولت جماعات اليسار – خاصة تلك التي أخلصت لأفكار س . رايت ميلو – في أن تربط بين نقد الثقافة السائدة ونقد النظام السياسي وإطفاء طابع سياسي على نضالها . إلا أن أهدافها وتكتيكاتها قد تركزت في البداية على أمور الثقافة والتنوير ، وحتى عندما شارك أعضاء اليسار الجدد في الأنشطة السياسية الواسعة التي جرت تحت شعارات راديكالية . فقد كانوا قبل كل شئ يختارون اساليب اللاعنف (٢٣) جاعلين هدفهم الرئيسي هو تحريك ضمير المجتمع الأمريكي على أزمة المجتمع العظيم . غير أننا نجد أن طلاب وشباب اليسار الجديد في الجامعات بدأوا ابتداء من منتصف الستينات تقريبا يتبنون موقفا أكثر تشدداً في عدم مساومته . فلم يعد الموضوع الأساسي هو النقد الراديكالي للمؤسسة الاجتماعية القائمة والمستقرة ، ولا تحريك ضمير المجتمع ، بل التغيير المباشر للنظام القائم . وللمؤسسات والعلاقات الاجتماعية عن طريق خطوات فعالة من بينها الاساليب العنيفة . فقد تجاوز النقد الاجتماعي لهذه الجماعات المطالب الفئوية المحدودة الى مطالب اجتماعية وسياسية تلمس قضايا هامة في البناء الفوقي للمجتمع البرجوازي الحديث . لقد تعلم الشباب والمثقفون المتمردون من تجربتهم الخاصة مدى استحالة حل المشكلات أو القضايا العامة داخل الحدود الضيقة للمؤسسة الاجتماعية القائمة . لقد أبرزت خبرة الستينات لهم تأكيد لينين أن عليهم لكي يحققوا حريتهم الخاصة فإن عليهم أن يشنوا نضالا ليس من أجل الحرية الأكاديمية فحسب ، ولكن من أجل حرية محمل البشر في المجتمع من أجل الحرية السياسية (٢٤) .

ومع ذلك فالمعتقد أن النقد الاجتماعى لليسار المعاصر قد واجه ازمة ، فقد طورت الرأسمالية الياتها بصورة عاليه ومتعاظمة . وهى الأليات التى أدت فاعليتها على جبهات ثلاث ، الأولى تشويه صورة اليسار الجديد والنقد الاجتماعى الذى يبشر به باعتبارهم صعاليك أو بوهيميين Beatniks ، وقد لعبت الصحافة الشعبية ووسائل الاعلام والاعلان دورا رئسياً فى هذا الصدد . حيث يحرمهم هذا التشويه من أى جاذبية جماهيرية ، ومن ثم تتعمق عزلتهم الى حد كبير . وعلى الجبهة الثانية يحاول النظام الاجتماعى التطوير المستمر لذاته بما يجعله يستوعب النقد الموجه إليه ، بما فى ذلك إعادة التنشئة لجماعات اليسار ليعمل الجميع وفق قيم المجتمع العظيم .

ويعتبر العنف هو الجبهة الثالثة التى يتجه إليها النظام الاجتماعى والسياسى ضد هذه الجماعات ، لردها مرة أخرى الى الصواب الذى يلقى قبولا من المجتمع ، يحدث ذلك على الصعيد المحلى أو العالمى على حد سواء .

٢- النظرية النقدية على خريطة النقد الاجتماعى

نقصد بالنظرية النقدية مجموعة القضايا التى تشكل اطاراً نظرياً لنقد النظام الاجتماعى القائم ، أو الكشف عن تناقضاته ، بحثا عن نظام اجتماعى تنتفى فيه هذه التناقضات . فى هذا الاطار توجد صلة عضوية بين النظرية النقدية وبين النظرية السوسيولوجية العامة . الأولى تعتبر نسقاً فرعيا من الأخيرة ، وتؤدى وظيفة مخالفة . وكلاهما يعكس الحالات التى ينبغى أن يكون عليها النسق الاجتماعى .

وإذا كانت بعض نماذج النظرية السوسيولوجية تحاول ادراك النسق الاجتماعى من مطق كونه نسقاً مستقراً ومتكاملا ، باعتبار أن حالة

الاستقرار والتكامل النسبى هى الحالة الأساسية للنسق . فإن النظرية النقدية تحاول استكشاف مواطن التناقض وعدم الاستقرار ، وتطويرها بحيث تلعب دورها فى تغيير النسق الذى أصبح يعانى قدرا من التناقض بهدف خلق تكامل جديد .

من هنا فقد يحدث التعايش بين النظريات المؤكدة على الاستقرار والنظريات المؤكدة على التغير ، أو أنهما قد يلعبان دوران متكاملان ، أحدهما تدرك بصورة أكثر كفاءة مواطن التناقض وآليات التغير . بينما تركز الأخرى على متطلبات الاستقرار ومستلزمات التكامل (٢٥) . بيد أنه لفهم موقف النظرية النقدية فى ضوء النظرية السوسيولوجية العامة فإنه من الضرورى أن نعطى إهتماما لمجموعة الاعتبارات التالية :

١- أن النظرية السوسيولوجية منذ تبلورها كنظرية علمية وحتى الآن ، قد اهتمت بمشكلة النظام الاجتماعى ، غير أن زاوية الاهتمام وطبيعته قد إختلفت من مرحلة الى أخرى . وإذا كانت مشكلة تأسيس النظام الاجتماعى من قلب فوضى البشر هى الحالة التى ألهمت الخيال السوسيولوجى لتوماس هوبز ، وديفيد هيوم ، وجون لوك ، وجان جاك روسو ، فإن طبيعة النظام الملائم لاحتياجات البشر هى الحالة التى شكلت موضوعا لكتابات الأنساق الكلاسيكية للنظرية السوسيولوجية وهى الكتابات التى ضمت أعمال كارل ماركس ، ماكس فيبر ، إميل دوركيم وفلفريدو باريتو . وارتباطا بذلك نجد أن النظرية النقدية قد أدركت مشكلة النظام الاجتماعى ، على عكس الادراك الهوبزى لها . حيث تمثلت مشكلة النظرية النقدية فى سطوة المجتمع الرأسمالى التكنولوجى المتقدم ، وقهره للانسان . فقد تحولت الرأسمالية الليبرالية الى رأسمالية احتكارية ذات نزعة فاشية .

٢- إنه برغم اتفاق النظرية النقدية على الموقف النقدى من النظام الرأسمالى المعاصر . إلا أن النظرية النقدية تضم بداخلها نظريات نقدية فرعية تختلف عن بعضها العض من حيث الإطار المرجعى ، أو من حيث مستوى الايمان بالعنف الثورى ، أو من حيث طبيعة القضايا موضع الاهتمام أو المساحة التى يغطيها النقد . هل يتسع النقد ليتناول أسس النظام الاجتماعى القائم أم يضيق ليقتصر على مجموعة التناقضات الهامشية والمحدودة . فى هذا الاطار نجد أن النقد الاجتماعى الذى تولى ريادته س . رايت مليز يؤكد على ضرورة إعمال الخيال السوسيولوجى لتحليل المجتمع تحليلا كليا وشاملا بهدف الكشف عن آليات الاستغلال وتزييف الوعى (٢٦) . ذلك أن جوار النظرية النقدية التى تعتبر امتدادا للنظرية الماركسية فى ايمانها بالانهيار الحتمى للنظام الرأسمالى ، وقيام البروليتاريا بدورها التاريخى فى الاطاحة بالنظام وإن اختلفت مع الماركسية الكلاسيكية فى التأكيد على المصدر الخارجى لوعى البروليتاريا ، حيث يأتيها وعيها من الخارج ، وهى المهمة التى يضطلع بها الحزب الثورى (٢٧) . ويعتبر جورج لوكاش خير ممثل لهذا الاتجاه ، على خلاف ذلك نجد النقد الاجتماعى الذى يتبنى قضايا العالم الثالث ويعبر عن تفاعلاته ، ويعتبر فرانز فانون من أبرز رواد هذا الاتجاه ، حيث أكد على امكانية أن تحل ثورة الفلاحين محل ثورة البروليتاريا ، وأن تلعب بعض العناصر الثقافية لثقافة المستعمرات دورها فى الثورة وفى الحفاظ على الهوية من الضياع (٢٨) . فى هذا الاطار تشكل نظرية نقد المجتمع التى طورتها مدرسة فرانكفورت تعبيرا عن رفض البرجوازية المثقفة لبعض ممارسات النظام الرأسمالى فقد لعبت هذه النظرية دورها فى كونها شكلت التيار الرئيسى الذى دعم التيارات النظرية الثلاث السابقة . وسوف تشكل هذه النظرية جوهر اهتمامنا فى هذه المقدمة .

٣- ارتباطا بذلك فإنه لا يمكن القول بنظرية نقدية واحدة ، بل هناك نظريات نقدية عديدة ، تختلف من حيث طبيعة المجتمع الذى تنظر له ،

هى هو المجتمع الشمولى أو الفاشى ، أم المجتمع الرأسمالى التكنولوجى المتقدم ، ام المجتمع الامبريالى . كذلك تختلف هذه النظريات من حيث وجهة نظرها فى علاقة النظرية بالممارسة هذا الى جانب اختلافها من حيث أطرها المرجعية فى هذا الاطار نطرح ملاحظتين ، الأولى أنه برغم تبايناتها المرجعية أو اختلاف نطاقها فإن ذلك لا يمنع من اشتراكها فى مجموعة من المقومات الأساسية كتلك التى تتعلق بإدانة النظام الرأسمالى ، أو بالموقف من الثقافة الاستهلاكية أو المركب الصناعى العسكرى للمجتمع الرأسمالى المتقدم . غير أنها قد تختلف عن بعضها البعض فيما يتعلق ببعض المقولات الأخرى كالموقف من استخدام العنف ، أو طبيعة الحلول التى تقدمها لمشكلة النظام الرأسمالى . وتتعلق الملاحظة الثانية ببروز الماركسية كإطار نظرى مرجعى ألهم كل هذه النظريات . ولا نقصد هنا الأخذ بمقولات النظرية الماركسية ، بل بالروح النقدية والانسانية للماركسية ، وخاصة ماركس الشاب . بيد أن هذا لا يمنع وجود بعض النظريات النقدية التى إلتزمت بالمقولات الأساسية للنظرية الماركسية مع قدر من التجديد لبعض هذه المقولات فى مقابل وجود بعض النظريات التى وإن انطلقت من الماركسية إلا أنها إنتهت بالخروج عليها ، ذلك بخلاف وجود بعض النظريات النقدية التى إحتفظت فقط ببعض جوانب روح النقد الماركسى فقط .

٤- أننا نعتقد أن ظهور تيارات النقد الاجتماعى بنظرياته المتنوعة فى النصف الأول من القرن العشرين كتعبير عند جدل إنسانى شامل للأفكار ، ندرك إطاره الأزمة التى بدأ يواجهها علم الاجتماع الأكاديمى، وهو العلم الذى يستلهم الشروع الوضعى سواء فيما يتعلق بإجراءاته المنهجية أو فيما يتصل ببنائه النظرى . وهى الأزمة التى تعبر عن فشل منطق التنوير ذاته ، حيث تعتبر أفكار التنوير هى الإطار الذى تبلور استنادا اليها المشروع الوضعى وأمام هذا الفشل فإننا نعتقد أن النقد الاجتماعى يمكن اعتباره بقدر ما تعبيراً عن المشروع المثالى الذى بدأ يطرح نفسه من جديد من خلال تنظيرات نقدية عديدة نذكر منها

النظرية النقدية والاتجاه الثنوميثودولوجي [1] . وهو التطور الذى صور بدقة فى مؤلف ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو (جدل التنوير) .

ذلك يعنى أن هناك جدل أو تعاقب تاريخى حول تتابع تجلى كل من المشروع الوضعى أو المثالى ، من خلال نماذج أو نظريات تتولى تناول الواقع الاجتماعى بالبحث والتحليل سعيا وراء الفهم والادراك . يؤكد ذلك أننا إذا تأملنا الروافد الأساسية للنقد الاجتماعى فسوف نجدها أميل الى الروافد المثالية ، نذكر منها مثالية هيجل ، وماكس فيبر ، والروح الانسانية لماركس الشاب ، ومقولات الفكر الوجودى .

٥- ويتعلق الاعتبار الخامس فى النظر الى المجتمع الأمريكى بإعتباره المعقل الأساسى لنظريات النقد الاحتماعى ، ولقد تحقق ذلك لثلاثة اعتبارات ، الأول أن النقد الاجتماعى الأوروبى والتى تجسد أفكاره مدرسة فرانكفورت قد هاجر فى الثلاثينات من هذا القرن تحت وطأة النازية الألمانية ومعسكرات الإبادة فى أوشفيتز .

حيث كان غالبية أعضاء المدرسة من المفكرين اليهود الألمان ، ويتمثل العامل الثانى فى اعتبار الرأسمالية الأمريكية تمثل أقصى مستويات النظام الرأسمالى المتقدم ، بكل ما يترتب على ذلك من سيطرة العنصر التكنولوجى على الحياة .

١- يطلق بعض الباحثين العرب عن خطأ - ويشاركهم فى ذلك بعض الباحثين الأجانب - الاتجاه المثالى باعتباره مرادفا للاتجاه المحافظ أحيانا أو الرجعى أحيانا أخرى . بينما الحقيقة تشهد أن الفكر المثالى فى أساسه فكرا ثوريا يميل الى النقد والى التطور أستشهد على ذلك بمثالية هيجل الذى أكد على أن العالم يتطور بناء على تطور الأفكار ، استنادا الى المنهج الجدلى . والجوانب المثالية عند ماكس فيبر ، حيث أكد من خلالها على قدرة الأفكار والقيم على بناء نظام اجتماعى اقتصادى شامل ، والسعى بعد ذلك الى تغييره والسيطرة عليه . فهو فكر يؤكد على المثال الذى ينبغى أن يكون ، والذى يجب على الواقع أن يتغير ليتطابق معه .

وانتشار مبدأ السيطرة الكاملة ، والقهر الكامل ، اضافة الى صناعة الثقافة والاتجاه نحو القضاء على الفردية . وهى كلها قضايا تدخل ضمن اهتمام النقد الاجتماعى ، ويتعلق العامل الثالث باعتبار المجتمع الأمريكى هو المجتمع الامبيريالى الأول الآن فى النظام العالمى . فهو القوة المسيطرة على النظام العالمى ، ومن ثم فهو القوة التى تسعى دائما لملاحقة حركات التحرير من أجل القضاء عليها ، ثم هو المجتمع الذى يعمل على فرض التبعية على مجتمعات العالم الثالث بحث وجدنا النقد الاجتماعى المتعلق بأوضاع العالم الثالث يتصدى لمثل هذه القضايا .

واستنادا الى الاعتبارات السابقة نحاول فى الصفحات التالية تحديد معالم خريطة النقد الاجتماعى . بالعمل على توضيح الفصائل الأساسية لهذا التيار النقدى ، بيد أننا ينبغى ونحن ننجز ذلك أن ننبه الى ثلاثة اعتبارات . ويتعلق الاعتبار الأول بتداخل جماعات النقد الاجتماعى ومن ثم فإن فصلنا إياها عن بعضها البعض يعتبر فصلا تعسفيا بصورة أساسية ، حيث يستند تداخلها الى حد كبير بالنظر الى روح النقد التى تسودها اضافة الى رفضها لواقع المجتمع الرأسمالى أو التكنولوجى . ويتمثل الاعتبار الثانى فى عدم دوام المقولات النظرية لأى من النظريات النقدية داخل اطار النقد الاجتماعى . إذ من الممكن أن تتخلى بعض النظريات عن بعض المقولات التى بدأت بها ، لتكتسب أو تطور أخرى تحل محلها . حدث ذلك بالنسبة لليسار الجديد من طلبة الجامعة والمثقفون البرجوازيون ، حيث نجدهم قد تبنوا العنف فى مواجهة النظام بعد أن تأكد لهم رفض النظام لمطالبهم ، بل اتجاهه الى استخدام العنف ضدهم . وقد حدث نفس التطور بالنسبة للنظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت حيث بدأت عن اقتناع بالمقولات الماركسية ، واتجهت الى اجراء البحوث الميدانية وفقا لهذه المقولات ، غير أن هذه المدرسة قد انتهت فى النهاية الى رفض المقولات الماركسية ذاتها . (٢٩)
ويدور الاعتبار الثالث حول تغير مواقع جماعات النقد الاجتماعى ، فقد يحدث تغيير المواقع على المستوى النظرى ، حينما تتبنى أى من

جماعات النقد مقولات نظرية أخرى فى مقابل التخلى عن بعض مقولاتها . وقد يحدث تغيير واقعى للمواقف حينما تعزف بعض الجماعات عن استخدام العنف بعد أن كان عنصرا اساسيا فى توجهاتها النظرية ، او تتبنى بعض جماعات اليسار استخدام العنف لأن النظام ما زال مصرا على قهرها وعلى تناقضاته لا يرغب فى الاستجابة لمطالب هذه الجماعات . ولمحاولة رسم خريطة النقد الاجتماعى فإننا سوف نجد عدة جماعات للنقد ، وإن اختلفت عن بعضها البعض فى بعض القضايا، إلا أن هناك بعض العناصر المشتركة التى تسود بينها ، بعضها بدأت مكانته تضعف ويتضاءل دوره ، بينما البعض الآخر يتزايد دوره الى حد كبير ، بحيث يقترب من تشكيل المجرى أو التيار الأساسى للنقد الاجتماعى ونعرض فيما يلى لأبرز جماعات النقد الاجتماعى .

١- ويستند الاتجاه الأول فى النقد الاجتماعى الى النظرية الماركسية فى صورتها الكلاسيكية مع بعض التغييرات المحدودة فى بعض المقولات الماركسية انعكاسا للتغيرات التى أصابت المتغيرات الواقعية التى تتصل بها هذه المقولات . ويعتبر جورج لوكاش مثالا واضحا على هذا التيار النقدى . ولنأخذ مثالا على ذلك موقفه من البروليتاريا والوعى الطبقى كقوة من قوى التحول التاريخى . حيث يؤكد لوكاش على استناد المهمة التحريرية للنظرية النقدية الى موقف البروليتاريا فى المجتمع الحديث . ويذهب التشخيص الذى وصل إليه الى أنه حتى البروليتاريا لا تمتلك المعرفة الصحيحة ، فى هذا الاطار يميز لوكاش بين الوعى الطبقى الامبيريقى للبروليتاريا (وهو الوعى الذى قد يكون زائفا) والوعى الطبقى الصحيح (الذى قد ياتى الى الطبقة من خارجها) . وقد عبر هوركهايمر عن هذه الفكرة بقوله : تظهر الوظيفة الاجتماعية الحقيقية للمنظر النقدى حينما يشكل – بالاضافة الى دوره – وحدة دينامية مع الطبقة المقهورة . ومن ثم فإن ابرازه التناقضات

الاجتماعيه ليس لمجرد التعبير عن موقف تاريخى محدد ، ولكـــن باعتباره قوة بداخله لتأسيس التغير الاجتماعى .

فى هذا الاطار يؤكـــد لوكـــاش أن الظـــروف القائمـــة فـــى الرأسمالية الحديثة قد تعجز البروليتاريا عن تأكيد وعيها الثـــورى ، ومن ثم فإن الحزب الثورى يمكن أن يساعد على انضـــاج الوعـــى البروليتارى ، ويصبـــح وعى البروليتاريا علـــى هذا النحـــو مقدما لها من الخارج . (٣٠)

٢- ويتميز الاتجاه الثانى بكونه حركة نقدية ذات طـــابع اجتمـــاعى ، ويتولى س . رايت ميلز الريادة الروحية والفكرية لهذا الاتجـــاه . والى جانب اعتبار أفكار س . رايت مليز امتدادا للفكر الأوروبـــى فى اطار النظرية السوسيولوجية ، خاصة تلك النماذج النظرية التى اهتمت بالقضايا التاريخية والاجتماعية الشاملة ،وأبرزها نظريـــات كل من ماركس وماكس فيبر . اضافة الى أنه يمكن اعتبار أفكـــار س . رايت ميلز انعكاسا لتفاعلات وتغيرات هامة وقعت فى اطـــار البناء الاجتماعى للمجتمع الأمريكى منذ بداية القرن التاسع عشـــر وبخاصة البناء الطبقى ، الى جانب قضايا الطبقة العاملـــة . (٣١) فقد انتشرت أفكار س . رايت ميلز على نطاق شامل بين جماعـــات اليسار الجديد فى أوروبا والولايات المتحـــدة الأمريكيـــة ، حيـــث أشاعت بينها روح النقد الاجتماعى ، وبخاصة بين جماعات الشباب والطلبة .

وقد وجدت كثيرا من جماعات اليسار الجديد ريادتها النظريـــة فى س . رايت ميلز الذى كان أحد القلة مـــن علمـــاء الاجتمـــاع الغربيين البارزين الذين أدركوا بشكل كامل الامكانات التحريريـــة الكامنة فى اليسار الجديد والنقد الاجتماعى الذى يقدمه للمجتمـــع . وفى محاولة من س . رايت ميلز لتحديد معنـــى اليســـار والنقـــد

الاجتماعى الذى يبشر به نجده يؤكد (لقد سمعنا مرارا من جـانب العديد من ضيقى الأفق المنسجمين مع أنفسهم القول بـأن معنـى اليسار واليمين لم يعد لهما وجود الآن ، بفضل التاريخ والعقـل ، وأعتقد أنه من الممكن الرد عليهم كالآتى : اليمن يعنى – ضمـن أشياء أخرى – ما تفعله الآن ، وأن تحتفى بالمجتمع كما هو ، كأحد الهموم الجارية ، أما اليسار فإنه يعنى – أو يجب أن يعنى – عكس ذلك بالضبط ، فهو يعنى النقد البنائى للمجتمع والنظريات التى قـد تظهر فى اطاره . وهذه الانتقادات تسترشد فى العادة من الناحيـة الأخلاقية بالمثل الأخلاقية الانسانية العليا للحضارة الغربية . وقبـل كل شئ بالعقل والحرية والعدالة . أن تكون يساريا يعنى أن تربـط ما بين النقـد الثقافـى والسياسـى ، وأن تربـط بيـن كليـهما بالمطالب والبرامج . (٣٢)

وابتداء من ١٩٥٠ تبدى النقد الاجتماعى الـذى قـاده س . رايت ميلز قويا ، لكونه قد تناول موضوعات جوهرية مثل مجتمـع الجملة ، والسلطة والتضخم ، والفراغ ومشكلات العـالم الثـالث ، ومنظورات تناوله . ويمكن أن نضم اسهامات ديفيد ريزمان الـذى ركز على الانسان الذى ينقصه التوجيه فى السياق الاجتماعى فـى مؤلفه The only crowd الذى صدر فى عام ١٩٥٠ حيث يرجع نقص التوجيه الى التغيرات البنائية التى انتابت المجتمع الأمريكى . (٣٣) . والملاحظ على هذا الاتجاه أنه وإن ظهر فى اطار الواقـع الأمريكى باعتباره ناقدا له ، إلا أنه يشترك مع البرسـونزيه فـى رفض التفكير الأمريكى على الطريقة الامبيريقية . ومن ثـم فقـد اعتمد أنصار هذا الاتجاه فى تأسيساتهم النظرية على مقولات الفكر الأوروبى ، وبذلك فهم امتداد لهذا التفكير فى جـانب كبير منه ، يؤكد ذلك رسالة من س . رايت ميلز الى أحـد أصدقائه مـن

الاشتركيين البريطانيين ، حيث كتب له (اننى حينما أكتـب لـك فأننى أشعر بطريقة ما أننى على حريتى بأكثر مما هـو معتـاد ، وأعتقد أن السبب فى ذلك يرجع الى أنى أكتب فى معظـم الوقـت لبشر أعتقد أن غموضهم وقيمهم تختلف الى حد ما عنى ، غير أنى معك أشعر أننى أكثر ايجابية) (٣٤) . ويمكن أن ندخل فى هـذا الاتجاه حنا أردنت Hannah التى مارست النقد الاجتماعى ملهمـة بالفلسفة الوجودية الألمانية . (٣٥) ومن الملاحظ أن هذا الاتجاه قد استند فى تحليلاته الى النظرية الأوروبية ، حيث نلاحـظ تـأثيرا واضحا للأفكار الماركسية ، والوجودية ، ومدرسة التحليل النفسى ، والفكر الأوروبى الرومانسى لأوروبا . (٣٦) إضافة الى ذلك فإننـا نجد أن حدة النقد ليست عالية عند هذا الاتجاه .

٣- ويشكل النقد الاجتماعى المنبثق عن أوضاع العـالم الثـالث أحـد الاتجاهات الفعالة خلال عقدى الستينات والسبعينات . اضافة الـى قدرة هذا الاتجاه على تطوير تنظير قادر على التشـخيص الدقيـق والموضوعى لظواهر العالم الثالث ، ما يتميز به هذا التنظير كذلك أنه يغطى الجوانب الاقتصادية والسياسية لمجتمعات العالم الثـالث ، وأيضا طبيعة العلاقات التى تربطها بالقوى العالمية المتقدمة . فمما لاشك فيه أن استقلال مجتمعات أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية لـم يكن كاملا – كما يدعى أصحاب هذا الاتجاه ، بل فرضت التبعيـة والهيمنة على هذه المجتمعات من قبل القوى العالميـة المتقدمـة . الأمر الذى دفع الى نشأة حركات الاحتجاج التى مارست النقد فـى إتجاهين . الأول نقد القوى العالمية التـى تفـرض الإسـتعمار أو التبعية أو الهيمنة ، بهدف الحفاظ على الاستقلال والهوية الوطنيـة أو القومية العالمية ضد مجتمعاتها أو التى تعمل بقيمها وسـلوكياتها على تشوية الذات الوطنية .

وفى هذا الاطار كان منطقيا أن يتجه النقد الإجتماعى إلى الأنظمة والمؤسسات السياسية الحاكمة داخل هذه المجتمعات ، وثانيا إلى الشرائح البرجوازية المتعاونة مع النظام السياسى والمؤسسات المحلية من ناحية ثانية . وإذا كان هذا الإتجاه الثانى (بريادة رواد مدرسة فرانكفورت) قد أوضح لماذا أصبحت الثورة مستبعدة وغير محتملة بل و مستحيلة فى عالم يخشى أن يفقد مع الثورة أمتيازاته ؟ فإن النقد الإجتماعى فى العالم الثالث يكشف لماذا أصبحت الثورة ضرورية وممكنة بل وحتمية فى عالم بات يعى أنه ليس أمامه ما يخسره سوى أغلاله ؟ وإذا كان السؤال الرئيسى بلنسبة لهربرت ماركيوز يتعلق بلماذا لم تتحقق الثورة ، ولماذا أصبحت شبه مستحيلة فى عالم يمتلك لأكثر من نصف قرن القوة الكلاسيكية للثورة ، أى البروليتاريا الصناعية (٣٧) . فإن السؤال الذى بدأ هاما بالنسبة لقانون يتعلق بكيف يمكن أن تقوم الثورة فى عالم لا وجود فيه للقوة الكلاسيكية للثورة ، ونعنى بها الطبقة العاملة الصناعية ؟ حيث يجيب بعد تأمله لأوضاع العالم الثالث مؤكدا على إمكانية قيام طبقة الفلاحين بالثورة كبديل للبروليتاريا الصناعية . فهم (الثوريون الوحيدون الذين يربحون كل شىء وليس لديهم شيئا يخسرونه) . (٣٨)

وعلى خلاف اتجاهات النقد الاجتماعى فى المجتمعات المتقدمة نجد فى العالم الثالث رموزا نضالية ألهمت توجهات النقد فى هذه المجتمعات نذكر منهم ماوتسى تونج ، فرانز فانون ، باتريس لومومبا ، وتشى جيفارا .

٤- ويشكل رواد مدرسة فرانكفورت الاتجاه الرئيسى للنقد الاجتماعى ذلك لأن أفكارهم وقضاياهم بدأت تتغلغل وتغذى الاتجاهات النقدية الأخرى . وقد نشأت مدرسة فرانكفورت خلال عقد الثلاثينات من هذا القرن فى محاولة منها لدعم وتطوير بعض مقولات

النظرية الماركسية بالأستفادة من إجراءات البحث الإجتماعى وأبرز ممثلى هذه المدرسة هم ماكس هوركـــهاير Max Horkeimer وتيودور أدورنو theodore W. adorno ، هربـــرت مـــاركيوز HeberMarcuse وجيرجون هابير ماس Jurgen habermas.
ثم بدأت المدرسة حوارها على جبهات عديدة ، فهى من ناحية قـــد ابتعدت عن النظرية الماركسية ، وأيضا لأن بعض المقولات لم تعد بعد ملائمة للمجتمعات التكنولوجية المعاصرة وممكنات الثورة فيــها . إضافة إلى ذلك فهم يؤكدون على مواجهة الماركسية لأزمة تتعلق بمكانة الطبقة العاملة والدور الذى يمكن أن تلعبه . حيث لا ينفـــى هذه الأزمة إلا دوجماطيقى مكابر يرى دائما – عن خطأ – أن كـل شىء بالنسبة للماركسية على أحسن ما يكون . ومن ناحيـــة ثانيـــة هاجمت الوضعية وفكر التنوير بإعتبار أنهما شكلا أساســـا للعقـل الأدائى ، ولتعاظم دور التكنولوجيا الذى أصبـــح قـــهريا لوجـــود الانسان فى المجتمع التكنولجى الحديث . ومن أهم المؤلفات فى هذا الصدد (جدل التنوير) لكل من ماكس هوركهايمر وتيدور أدورنـو . ومؤلف هربت ماركيوز (العقــل والثــورة) (والانســـــان ذو البعد الواحد) .

وقد هاجر أعضاء المدرسة الى الولايات المتحدة بعد صعـــود النازية الى الحكم وقيام معسكرات الإبادة الجماعية فى أوشـيفيتز ، حيث بدأت المدرسة توجه نقدها الى قضايا عديدة فـــى المجتمـــع الرأسمالى المتقدم ، كقضية السيطرة الشاملة ، والقضاء على قيمـــة الفردية ، والقهر التكنولوجى وصناعة الثقافة وفيما يتعلق بـــالجذور الفكرية لمدرسة فرانكفورت نجد أنها الى حد كبير تعتـــبر امتـــدادا للفكر المثالى خاصة هيجل ، ثم ماكس فيبر ، كذلك ترجع النظريـــة فى تأكيدها على الفردية الى الفكر الوجودى . ويمكن القـــول بـــأن أوضاع الجماعة اليهودية – كأقلية – فـــى المجتمـــع الألمـــانى ،

والاضطهاد النازى للجماعة اليهودية من أهم المؤثرات التى لعبت دورا أساسيا فى تشكيل فلسفة المدرسة ووجهة نظرها فيما يتعلق بمختلف القضايا . (٤٠)

٥- وتشكل جماعات الهيبز ، والعودة الى الطبيعة ، وبعض الجماعات الوجودية Beatniks التجمع الخامس للنقد الاجتماعى ، ويتميز احتجاج هذه الجماعات بالطابع السلبى الذى يتخذ شكل الابتعاد عن المجتمع والهروب منه . وإذا كان النقد الاجتماعى لليسار الجديد يؤكد على إيمانه بمجتمع دائم التغيير عن طريق العمل الثورى ، فإن الوجوديين وجماعات الهيبز ساديون يتعلقون بالحب واللاعنف وهو ما يحتقره اليسار الجديد ، تؤمن هذه الجماعات بالحكمة الحدسية بمساعدة المخدرات بينما يؤمن اليسار الجديد بالنمطق الجدلى .

وبرغم هذه الاختلافات الداخلية فهما يشتركان فى كراهية البرجوازية ومجتمع الوفرة ، ولكل ما هو منظم وقديم ، يتحدان أيضا فى كل ما يتعلق ببراءة الإنسان وشر النظم السياسية الحاكمة ، وبرغم ابتعادهم عن أفكار هيجل وماركس ، فإن أفكارهم تجد استجابة وانتشارا بين الشباب المعاصر . (٤١) ما تتميز به هذه الحركة أيضا نوع من الاحتجاج الصوفى ، الذى يتضمن بعضاً من الأفكار الدينية ، وبعضا من الأفكار التى تشير الى كراهية المدينة الغربية ، إلا أنها عاجزة تماما عن تأسيس مجموعة من المقولات النظرية التى تضفى نوعا من المشروعية عليه .

ويؤكد إدوارد باتالوف أنه ليس هناك شك فى صدق رفضهم للممارسات التى سادت المجتمع الرأسمالى ولزيف ونفاق الحياة البرجوازية ، ويقارن لورانس ليبتون Laurence lipton بين

الموقف النقدى للوجوديين البوهيميين والموقف النقدى لليسار فـــى الثلاثينيات ، مؤكدا أن الوجوديين البوهيميين لم يكونوا راديكاليين ، فلم تكن لديهم برامج محددة بوضوح . ويتميز احتجاجهم فى الغالب بالطابع السلبى الذى ينحدر أحيانا الـــى نـــوع مـــن الهروبيـــة أو الانعزالية . ولكن على الرغم من كل ذلك فقد كان لهم تأثيرهم الذى لا يمكن إنكاره على الشباب المتمرد فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد كانوا هم أول من بشر بعد الحرب برفع المبـــدأ الفوضـــوى الرافض للتنظيم المستقر وقد حاولوا تطبيقه . وقد كانوا هم أول من أعلن الحرب على سيكولوجية الاستهلاك . وخرجوا بنقـــد ســـافر لروح الامتثال التى سادت أمريكا فيما بعد الحرب ، وبرغم عـــدم تمسكهم بنظرية محددة فقد تبنوا بعض التعاليم الوجودية والدينيـة – الفلسفة الآتيـــة مـــن الشـــرق (وخاصـــة بوذيـــة الـــزن Zen puddhism) وهى التعاليم التى أصبحت بعد ذلـــك جـــزءا مـــن الترسانة الأيديولوجية لليسار الجديد .

٦- وتعتبر الجماعات من خارج النظام هى آخر قواعـــد أو منطلقـــات النقد الاجتماعى ، وتشكل فى مجموعها تجمعا غير محدد الملامـــح يضم بداخله عديدا من الجماعات التى قد لا تتجانس أحيانا فيما بين بعضها البعض وبالتأكيد هى لا تتجانس مع الأغلبية فى المجتمـــع الصناعى المحيط ، ما يؤكد تجانسها هو أنها تقف موقفا مضادا من المؤسسة الحاكمة . من هذه الجماعات الطلبة والمتعلمين والمثقفين الذين بإمكانهم السعى لإلغاء القيود التى يفرضها النظام عليـــهم أو على المجتمع بعامة ويدخل فى إطار هذا التجمع كل المنبوذيـــن أو اللامنتميـــن ، والجماعـــات العنصريـــة ، والفئـــات المســـتغلة أو المضطهدة ، والعاطلون عن العمل أو العاجزون عنه حيث يقـــف هؤلاء خارج العملية الديمقراطية . إذ تعبر حياتهم عـــن الحاجـــة الملحة والمباشرة والضرورية لوضع حـــد أدنـــى مـــن الشـــروط والمؤسسات التى لا تحتمل . وعلى هذا النحـــو فـــإن معارضتـــهم

ثورية وإن لم يكن وعيهم ثوريا . فمعارضتهم تسدد الضربات الى النظام من الخارج ، ومن هنا كان عجزه عن دمجها به . فهم يشكلون قوة بدائية تخرق قواعد هذه اللعبة ، موضحة أنها لعبة زائفة . وعندما يتجمع هؤلاء البشر ويسيرون فى الشوارع بلا سلاح وبلا حماية مطالبين بالحقوق المدنية الأولية والأكثر بدائية ، فإنهم يدركون أنهم يعرضون أنفسهم للكلاب والحجارة والقنابل والسجون ومعسكرات الاعتقال وحتى الموت ، غير أن إصرارهم على عدم المشاركة في اللعبة الاجتماعية بعد الآن أصبح حقيقة واضحة تشير على الأرجح الى نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى (٤٢) .

فإذا شكلت المجموعات السابقة الفصائل الأساسية للنقد الاجتماعى فإننا نعتقد أن الموقف النقدى الذى طورته مدرسة فرانكفورت قد أثر على الخريطة العامة للنقد الاجتماعى لأربعة إعتبارات نذكرها فيما يلى :

أ - ويتمثل أول هذه الاعتبارات فى استناد مدرسة فرانكفورت الى النظرية الماركسية خاصة فى مقولاتها الفلسفية ونزعتها الإنسانية العامة . بحيث أغفلت مدرسة المقولات الاقتصادية للماركسية ، وهو نفس ما فعلته الاتجاهات المتنوعة للنقد الاجتماعى التى طرحت أفكارها النقدية بالنظر الى الروح النقدية للنظرية الماركسية كإطار مرجعى . ثم تطور الأمر بحيث أصبح التنظير الذى قدمته مدرسة فرانكفورت هو الإطار المرجعي لغالبية النقد الذى طورته جماعات اليسار الجديد فيما يتعلق بالمجتمع الرأسمالي المتقدم .

ب- أننا نجد أن من الاختلافات الأساسية للنقد الاجتماعي لكل من مدرسة فرانكفورت والماركسية . أن النظرية الماركسية تفضح

تناقضات النظام الرأسمالي تحليليا ، وذلك لكي توضح للفكر الثورى طبيعة التناقضات الكامنة فى هذا النظام والحاكمة لهذه التناقضات ، وذلك لكي يعمل الفعل الثورى على تعميق هذه التناقضات بما يساعد على دفع عجلة انهيار النظام الرأسمالي . على خلاف ذلك نجد أن الصفوة الفكرية لمدرسة فرانكفورت ذات الطبيعة البرجوازية تنتقد النظام ، وقد تكشف عن تناقضاته ، غير ان ذلك لا يتم بهدف التعجيل بانهياره والقضاء عليه ، ولكن بهدف إصلاحه لخلق المجتمع العظيم ، وهى الطبيعة أو الموقف الفكرى الذى تغلغل وإنتشر لكى يشكل الموقف الأيديولوجي لغالبية فصائل النقد الاجتماعي .

ج- أنه من ناحية الأسبقية التاريخية نجد أن مدرسة فرانكفورت هي أول جماعات النقد الاجتماعي التي تبلورت فى البداية (تحت اسم معهد البحث الاجتماعي) ، حيث كان هدفها تطوير الفكر النقدى للماركسية فى طابعه الإنساني ، غير أنها تخلت عن هذه الاستراتيجية وتبنت إستراتيجية خاصة للنقد الاجتماعي تستند الى متغيرات غير تلك التى تستند إليها النظرية الماركسية . ولقد كان لأسبقيتها التاريخية من ناحية ، وممارستها النقد الاجتماعي وفق منطق مخالف من ناحية أخرى دوره فى شيوع أفكارها لدى الاتجاهات الأخرى للنقد الاجتماعي (٤٣) .

د- أنه إذا كانت مدرسة فرانكفورت تمارس النقد الاجتماعي وفق متغيرات غير المتغيرات الماركسية ، فإننا نجد أن إتجاهات النقد الاجتماعي الأخرى تمارس عملية النقد وفق ذات المتغيرات التى طورتها مدرسة فرانكفورت ، من هذه المتغيرات مثلا أن البروليتاريا لم تعد هى قول التحول الاجتماعي فى المجتمع الرأسمالي المتقدم . بل أن التحول الاجتماعي ليس من الضروري أن يكون شاملا وجذريا ، فى محل ذلك برز الشباب والطلبة

والجماعات الخارجة على النظام باعتبارها قوى إجتماعية تتولـــى عملية النقد الاجتماعي . وهو المتغير الـــذى تـردد كثـيرا فـى أيديولوجيات مختلف الجماعات . إضافة الى ذلك فأننـــا نجـد أن مدرسة فرانكفورت فى ممارستها لعملية النقد الاجتماعى قد استندت أساسا إلى المتغيرات الثقافية والسيكلوجية وأسقطت تماما المتغيرات الاقتصادية ، وهو الموقف الفكري الذى تردد عند مختلف جماعات النقد الاجتماعي ، الى جانب ذلك نجد أن هدف النقـد الاجتمـاعي لمدرسة فرانكفورت ، وبالتالي لمختلف جماعات اليسار الجديـد ، ليس نقد النظام الرأسمالي ولكن نقد شـكل مـن أشـكال النظـام الرأسمالي .

لكل هذه الأسباب فإنه برغم اعتبار مدرسة فرانكفورت إحدى جماعات النقد الاجتماعي ، إلا أنها الجماعة التى أثر فكرها علـى خريطة النقد الاجتماعي بكامله ، وهو الفكر الذى سـنتعرض لـه بالتحليل فى فقرة تالية .

٣- نشأة النظرية النقدية ومراحل تطورها [١]

تعتبر مدرسة فرانكفورت ظاهرة معقدة ، وأسـلوبا مـن التفكـير ارتبط أساسا بما أصبح يعرف (بالنظرية النقدية Critical theory) التى اتسعت وفسرت بأساليب عديـدة . ولقـد شـكل معـهد البحـث الاجتماعي الأساسي التنظيمي الذى نشأت المدرسة مستندة إليه . حيـث تأسس المعهد رسميا فى ٣ فبراير سنة ١٩٢٣ استنادا الى قـرار وزارة التعليم ، بحيث ارتبط المعهد فى البداية بجامعة فرانكفورت – وقد كـان

---

[١] – عادة يعبر عن مدرسة فرانكفورت بالنظرية النقدية ، أو النظرية النقديـة للمجتمـع ولذلك نقصد بالنظرية النقدية فى العنوان أفكار مدرسة فرانكفورت كما وردت فى مؤلفات روادها .

المعهد ذاته نتاجا أساسيا ودائما لعدد من المشروعات البحثية ذات الطبيعة الراديكالية التى نفذها فى عشرينات هذا القرن فليكس فيل Felix weil ابن أحد تجار الغلال الأثرياء ، الذى نظم فى صيف ١٩٢٢ " اسبوع العمل الماركسى الأول " وهى الندوة التى شارك فيها كل من جورج لوكاش Lukacs فريدريك بولوك Pollock و فيتوجل Wittfogel ، حيث دارت معظم المناقشات حول مؤلف كارل كورش ، " الماركسية والفلسفة Marxism and philosophy وقد رغب فيل wiel فى تنظيم مقابلات أخرى من هذا النوع . غير أنه حينما برزت فكرة تأسيس مركز أكثر دواما للدرسات الماركسية أعاد فيل توجيه جهوده وموارده المالية نحو هذا المشروع (٤٤) .

وقد تأسس المعهد فى ظل مجموعة من الظروف الخاصة التى نتجت عن إنتصار الثورة البلشفية فى روسيا ، واندحار ثورات وسط أوربا ، وبخاصة فى ألمانيا . و فى هذا الإطار يمكن النظر إلى تأسيس المعهد بإعتباره استجابة للحاجة التى شعر بها المثقفون اليسار نحو إعادة تقييم النظرية الماركسية فى ظل الظروف الجديدة . وبهذا المعنى شكل المعهد جزءا هاما من حركة فكرية شاملة أصبحت تعرف فيما بعد " بالماركسية الغربية " western marxism والتى تميزت من ناحية بإعادة التفسيرات المتنوعة ذات الطبيعة الفلسفية – الهيجلية أساسا للنظرية الماركسية فى علاقتها بالمجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، إلى جانب تميزها من ناحية أخرى بالنظرة النقدية المتزايدة لتطور المجتمع والدولة فى الإتحاد السوفيتى . وبرغم ذلك لم يشكل المعهد فى المرحلة الأولى مدرسة متميزة ، ولكن حسبما يذهب مارتن جاى Martin jay ، لم تظهر فكرة المدرسة بصورة محددة إلا بعد أن أجبر المعهد على ترك فرانكفورت (ولم يستخدم مصطلح مدرسة فرانكفورت إلا بعد عودة المعهد إلى ألمانيا فى عام ١٩٥٠) (٤٥) .

وبرغم تنوع وجهات النظر النقدية لأعضاء معهد البحث الإجتماعى ، إلا أنها تشكل فى مجموعها روافد أساسية للمدرسة النقدية ، التى أسس بدايتها على ما أشار الأرجنتينى فليكس فيل ، الذى ذهب إلى ألمانيا للدرسة وحصل على درجة الدكتوراه فى ١٩٢١ من جامعة فرانكفورت ، والذى وجه جهوده فى النهاية إلى تأسيس معهد البحث الإجتماعى الذى يهتم بإجراء البحوث حسب المنهج والأيديولوجيا الماركسية .

وقد ضمت عضوية المعهد فى مرحلة البداية عدد من المفكرين ذوى التوجهات اليسارية فى الغالب . نذكر منهم كارل جرونبرج Karl Grunberg، فيلكس فيل ، الذى أنشأ مجلة تهتم بتاريخ الاشتراكية ، ماكس هوركهايمر Max Hokheimer ، تيودور أدورنو T.W.Adorno هربرت ماركيوز Herbert Marcuse إريك فروم E.Fromm فريدريك بولوك F . pollock هنريك جروسمان H.Grossman ريتشارد سورج R.S Orge ، كارل فيفوجل K.Wittfogel ليو لوينثال Leo Lwenthal ، هذا بالإضافة إلى جورج لوكاش ، وكارل لوكاش .

فإذا تأملنا أعضاء المعهد المؤسسون للنظرية النقدية ، فإننا نطوح مجموعة من الملاحظات التالية :

١-أن معظم أعضاء المدرسة ينتمون إلى مثقفى الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة ، ومن ثم فقد كانوا يقودون حياة برجوازية مترفة، ومنهم من كان إبنا لرجل أعمال مثل (فيلكس فيل ، وماكس هوركهامر) ومن شأن هذا الوضع الطبقى أن لا يجعلهم متعاطفين مع الأيديولوجيا النقدية للماركسية الكلاسيكية التى تدافع عن أوضاع طبقة البروليتاريا ، إضافة إلى اعتبارهم عنصرا مكونا فى بناء

المجتمع البرجوازى قد ينتقدون بعض جوانب الخطأ فى بناء المجتمع البرجوازى غير أن ذلك من أجل مزيد من الأكتمال وليس سعيا للقضاء عليه .

٢-أن معظمهم كانت له فى البداية ميولا يسارية بل وماركسية . بل أن بعضهم قد لعب دورا نشطا فى الأحزاب الماركسية والأشتراكية ويكفى أن أربعة منهم كانوا أعضاء فى الحزب الشيوعى . غير أنهم تخلصوا من هذا التوجه الأيدولوجى أو احتفظوا بصورة مخففة منه ، بعضهم انشق على الجماعة لادراكه الابتعاد الواضح عن الماركسية مثل لوكاش وبولوك ، بينما احتفظ البعض الآخر بروح النقد الماركسية متخليا عن كثير من مقولات هذه النظرية ، بحيث أسسوا فى النهاية ما يمكن أن نسميه بالماركسية الغربية ، أو الماركسية البرجوازية .

٣ – أنهم كانوا بنتمون إلى تخصصات متنوعة تبدأ من الفلسفة إلى الاجتماع إلى علم الاقتصاد وعلم النفس ، وكذلك الأدب والسياسة ومن ثم فقد توفرت لهم الرؤية المتكاملة الزوايا لذات الواقعة . ولقد أدى هذا التكوين إلى نتيجتين ، الأولى إتجاههم إلى البحث الاجتماعى التى تتعاون فيه أنساق معرفية عديدة ، والثانية إستيعاب اطارهم فى النقد الاجتماعى لمتغيرات غير المتغيرات الأقتصادية كالمتغيرات الثقافية و السيكلوجية .

٤- أن غالبيتهم كان ينتمى إلى الديانة اليهودية . وقد لعب هذا الانتماء دورا فى الأحداث أو المتاعب التى تعرض لها هؤلاء الرواد ، قبل لتعرض لإحتمالية الابادة فى أوشفيتز وكذلك خبرة الهروب إلى الولايات المتحدة ، إضافة إلى خبرات المهجر المؤلمة . إلى جانب ذلك فقد أثر الأنتماء اليهودى على تمسكهم بالمجتمع البرجوازى مع العمل على تخليصه من بعض شروره إلى جانب أننا نلاحظ تأثير

هذا الأنتماء على نوعية القضايا التى تصدوا لها بالبحث والدراسة كقضايا النزعة المضادة للسامية ، وقضايا التحيز ، والقضايا المتعلقة بالشخصية الفاشية .

٥- أنهم برغم تجمعهم حول موقف نقدى من الواقع المعاش أو من التفاعلات التى أفرزها المجتمع الرأسمالى أو التكنولوجى المتقدم ، أو فى الإنطلاق من الماركسية كإطار مرجعى . ألا أنهم اختلفوا على بعضهم فى النهاية . وقد تأرجح الخلاف حول مستوى الرومانسية أو الواقعية فيما يتعلق بمعالجة القضايا المطروحة للحوار . أو الخلاف حول تبنى العنف أو الركون إلى التأمل السلبى ، حول الإيمان بالماركسية مثل جرونبرج وفليكس فيل اللذان كانا أكثر إلتزاما بالمقولات الماركسية بينما كان البعض الأخر أقل التزاما بها مثل هوركهايمر ، ادورنو ، وجيرجون هابير ماس . ومنذ البداية نستطيع القول بأن الجماعة قد حددت إطار عملها فى نطاق القناعات الأساسية التالية :

أ- أن أفكار البشر هى نتاج للمجتمع الذى يعيشون فيه وذلك لأن فكر البشر يتحدد اجتماعيا ، وهنا نلاحظ خروجا على المقولة الطبقية التى أكدت عليها النظرية الماركسية .

ب _ أن على المثقفين أم لا يتبنوا موقف الحياد الموضوعى . إذ لا ينبغى أن يفصل المثقف الحقيقة عن متضمناتها القيمية ، وعلى المثقفين أيضا أن يقفوا موقفا نقديا من المجتمع موضع الدراسة وفى ذلك خروجا على الإطار الوضعى ورفضا له ، واقترابا من الماركسية والمثالية النقدية .

ج- أن على المثقفين أن يقفوا بالمثل موقفا من فكرهم ، عليهم أن يوضحوا علاقة هذا الفكر المجتمع بالقائم ، وبالمعرفة التى

ابدعت اجتماعيا ويتصل ذلك الى حد كبير بتأكيدهم على بنـــاء التأمل ، وأيضا بالتطور الفكرى المتتابع الذى لحق بأفكارهم .

د- أنه إذا كانت الماركسية هى نظرية المجتمع الصناعى فى مرحلة النشأة أو الرأسمالية الأولى ، فإن المجتمع الصناعى طرأت عليه تحولات جديدة فرضت ضرورة إعادة فحص كفـــاءة النظريـــة الماركسية فى ضوء المتغيرات الجديدة للبحث عن إطار نظـوى جديد للنقد الاجتماعى ولفضح التناقضات القائمة .

هـ- أنه إذا أردنا الوصول الى فهم حقيقي للمجتمع ، فإن ذلك ينبغـــى أن يتحقق من خلال إدراك العلاقة المتبادلة بين البناء الاقتصادى للمجتمع والنمو النفسى للفرد ، والظواهر الثقافية السائدة . حيث يعتبر ذلك حـــروجا على الرؤية الماركســـية ، واقترابـــا مـــن التحليل النفسي والفكر المثالي .

واستنادا الى ذلك فقد أكد أعضاء المدرسة على ضرورة أن تقود هذه القناعات الى تطوير نظرية نقدية للمجتمع فى كليتـــه . وذلك لفهم القوى الفعالة والكامنة فيـــه وراء ســـطح الفوضـــى الظاهرة للأحداث التاريخية . فقد يبدو التاريخ إراديا ، غـــير أن القوانين التى تحكم ديناميابته ينبغى أن تصبح معرفتها علمـــا ، ويجدر أن نشير فى هذا الصدد الى أن نشأة النظريـــة النقديـــة لمدرسة فرانكفورت قد مرت بعدة مراحل أساسية تحركت فيـــها النظرية نحو اكتمال بنائها النظري بحيث نجد أنها أصبحت أكثر نضجا من الناحية الفكرية فى المرحلـــة الأخـــيرة إذا قارناهـــا بالمرحلة الأولى . ولقد تميز هذا النضـــج ببعديـــن ، الأول أن تبلور أفكارها النظرية كان له صلة بالمتغيرات التى طرأت على السياق الاجتماعى المحيط بالنظرية ، فقد تحركت النظرية مـــن سياق عدائى فى ألمانيا النازية الى خـــبرة وآلام المـــهجر فـــى

الولايات المتحدة ، الى سياق اجتماعي ملائم ومرحب فيما بعد العودة الى ألمانيا ابتداء من ١٩٥٠ . بحيث انعكست التطورات التى طرأت على السياق على طبيعة أفكار النظرية ، ويتمثل البعد الثانى فى اتجاه النظرية من تبنى بعض المقولات الفلسفية فى مختلف المجالات الفكرية الى تبنى منطق البحث الاجتماعي، خاصة التى تتعاون فيه مجموعة الأنساق المعرفية ، ولقد تضمن ذلك ابتعادا عن الأصول الماركسية للمدرسة الى تبنى بعض قضايا علم الاجتماع وتكتيكاته . واستنادا الى ذلك نستطيع تمييز أربعة مراحل أساسية فى تاريخ النظرية .

١- المرحلة الأولى (١٩٢١ - ١٩٢٨) :

واستغرقت هذه المرحلة نحو سبع سنوات رأس المجموعة خلالها كارل جرونبرج . الذى كانت لديه قناعة أساسية تتمثل فى أن المجتمع المعاصر يشهد تحولا من الرأسمالية الى الاشتراكية ، ومن ثم نجده من الناحية المنهجية يؤكد على التفسير المادى للتاريخ . فالظواهر الاجتماعية ليست إلا انعكاسا للحياة الاقتصادية . وأن عمليات انتاج الحياة المادية هى التى تحدد عمليات الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية . وقد تميزت إدارة جرونبرج لمعهد البحث الاجتماعي حينئذ بكونها إدارة ذات طبيعة ديكتاتورية . حيث أكد أنه لا يمكن الاقتناع بإمكانية أن يشارك فى إدارة المعهد أو إنجاز دراساته أشخاص ذوى مداخل منهجية متباينة . هذا الى جانب أنه لم يكن لديه قناعة بأهمية البعد السيكولوجي فى التفسير . وهو الأمر الذى جعله يختلف عن ماكس هوركهايمر رائد المرحلة التالية . الى جانب ذلك فقد تميزت معالجة القضايا خلال هذه المرحلة بالطابع الامبيريقى ، وهو الطابع المفضل عند جرونبرج .

أما اهم المجالات التى تم التعرض لها بـالبحث والدراسة فهي (المادية التاريخية ، الأصول الفلسفية للماركسية ، الاقتصاد السياسى النظرى ، ومشكلات الاقتصاد المخطط ، مكانة البروليتاريا والحركة العمالية ، وتاريخ الأحزاب والمذاهب ، علم الاجتماع من حيث الموضوع والمنهج) . (٤٦) ويكشف تأمل الطابع الأكاديمى لهذه المرحلة عن تميزها ببعدين ، الأول التزامها بالخط الماركسي ، وذلك تحت تأثير الثورة الاشتراكية فى روسيا ، والصحوة التى عاشتها بعض الأحزاب الشيوعية الأوروبية الأمر الذى جعل جورج لوكاش يؤكد أن باستطاعة هذه الأحزاب المساعدة فى تأسيس وعوى طبقة البروليتاريا .

والثانى محاولة إثراء التحليلات الماركسية عن طريق الاستفادة من إجراءات اليحث الإمبيريقى فى دعم هذه القضايا للمساعدة فى تحول المجتمعات الأوروبية الى الاشتراكية (٤٧) .

٢- المرحلة الثانية (١٩٢٩ وحتى منتصف الثلاثينات) :

وقد استغرقت هذه المرحلة هى الأخرى حوالى سبع سنوات تقريبا. وقد تولى إدارة المعهد أثنائها ماكس هوكهايمر ، وبرغم استمرار الشكل الخارجى للإدارة حسب تقاليد جرونبرج . فقد اختلف هوركهايمر عن جرونبرج فيما يتعلق بطبيعة الموضوعات التى ينبغى التصدى لها بالحث والدراسة (٤٨) .

فمن الناحية المنهجية نجده ينفى منذ البداية الدكتاتورية المنهجية لجرونبرج ، مؤكدا أن المتهج الذى ينبغي اتباعه فى دراسات المعهد ينبغي أن لا يكون الهيليجة الفجة التى ترى أن الروح هى أساس العلم والتاريخ ، ولا الماركسية المتطرفة التى ترى أن النفس البشرية والقانون والفن و الفلسفة ليست إلا مجرد انعكاس للاقتصاد .

وأن المنهج الذى يوصى به ينبغي أن يستوعب التفاعل الجدلى بين الحقيقة المادية والحقيقة العقلية ، هذا الى جانب التأكيد على الدور المستقل للثقافة فى صياغة التفاعل الاجتماعي ، إضافة الى مطالبته بالعودة الى ما قبل التخصص فى معالجة مختلف الموضوعات .

الى جانب العمل على ربط البعد الإنساني فى الماركسية ببعض عناصر الفكر البرجوازى على أمل أن يشكل ذلك نظرية تستطيع أن تقدم تفسيراً لتفاعلات المجتمع فى المستقبل ، وفى محاولة تحديد طبيعة موضوعات البحث خلال هذه المرحلة فإننا نجدها تنتمي الى ثلاث مجالات :

أ- البناء الاقتصادى للمجتمع .
ب-النمو أو التطور النفسى للفرد .
ج- الظواهر الثقافية (٤٩) .

وتتمثل أهم منجزات هذه المرحلة فى الاستعانة بوسائل البحث الممتازة والمتقدمة التى استخدمت فى أمريكا وإمكانية ملائمتها والاستفادة منها ، هذا الى جانب الوقوف على عتبة تطوير نظرية نقدية عن المجتمع ، غير ملتزمة بالخطوط الماركسية ، تحاول فهم الواقع بالنظر الى المتغيرات الإقتصادية والسيكولوجية والثقافية والحضارية وهى المتغيرات التى تحدد فى مجموعها طبيعة الحياة الاجتماعية (٥٠) . ويكشف تأمل ملامح هذه المرحلة عن بروز الأبعاد الأساسية التالية :

- ويتمثل أول هذه الأبعاد فى بداية الانفصال عن النظرية الماركسية ويتمثل ذلك فى رفض أن تكون الماركسية هى الإطار

المرجعى لترتيب عناصر الواقع الاجتماعي ، ومن ثم رفض أن يكـون البناء الفوقى مجرد انعكاس للبناء التحتي .

- التأكيد الموضوعى على المتغيرات المفسرة للواقع الاجتمـاعي وهى المتغيرات الاقتصادية والسيكولوجية والثقافية . والى جانب أننـا تلاحظ الابتعاد عن الالتزام بالتصور الماركسى لترتيب متغيرات الواقع، فإننا نلاحظ البعد عن التناول الأيديولوجى للقضايا والميل الـى تنـاول القضايا تناولا عمليا .

- السعى للالتقاء بعلم الاجتمـاع الـبرجوازى أولا مـن خـلال الاستفادة من المناهج التى طورها البحث الاجتماعي الأمريكى ، وثانيـا عن طريق العمل على بناء إطار نظري قادر على استيعاب متغـيرات غير الماركسية ، كالمتغيرات الثقافية والنفسية ، وثالثـا العمـل علـى تأسيس البحث الاجتماعي الذى تشارك فيه أنساق معرفية متباينة .

٣- المرحلة الثالثة (من منتصف الثلاثينات وحتى ١٩٤٩) :

وهى فترة المنفى ، أو الفترة المأساوية فى تاريخ المدرسة . حيـث الهجرة من ألمانيا الى الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد تمـيزت هـذه المرحلة ببعدين ، أحدهما داخلى والآخر خارجى ، ويتمثل البعد الداخلى فى حالة علم الاجتماع داخل ألمانيا خلال الفترة النازية .

حيث كانت النازية على كراهية لعلم الاجتماع باعتباره العلم الـذى لديه القدرة على كشف الخرافات الاجتماعية (٥١) . ويذهب أدرنو الـى أن كراهية الاشتراكيين القوميين لعلم الاجتماع ليس إلا خوفا من قدرتـه على الكشف عن القوى الحقيقية بالمجتمع ، وعـن تبـاين المصـالح ، وطبيعة علاقات القوة ومكمن جماعات الضغط . ومن ثم فليس غريبـا أن يلغى البحث الإمبيريقى بتوجيه سياسى خلال هذه الفترة .

فى هذا الإطار انتظر كثيرا من علماء الاجتماع الإبادة ، إما بسبب آرائهم السياسية أو بسبب أصولهم العرقية ، ومن ثم فلكى يتابعوا حياتهم الأكاديمية ، اضطر فريق منهم الى الهجرة من ألمانيا ، فذهب مانـــهايم الى إنجلترا ، وجايجر الى الدانمارك ، ورينيه كوينج الى سويسرا ، أما أعضاء معهد البحث الاجتماعى المهتم بتطوير النظرية النقدية وبخاصة هربرت ماركيوز ، تيودور أدرنو ، وماكس هوركـــهايمر فقــد ذهــب جميعهم الى الولايات المتحدة ، بينما بقيت مجموعة ثانية مـــن علمـــاء الاجتماع فى ألمانيا تكتب أفكارها بحسب الأيديولوجية النازيـــة منـــهم هاينز فيفر H . pfeffer وأندرياس والتر A . walter وجانتور إيسن G . ipsen فى حين اتجه فريق ثالث للعمـــل فـــى المجـــالات غـــير الحساسة واختاروا فى هذا الصدد دراسة الفولكلور كبديل لعلم الاجتماع (٥٢) .

ويتمثل البعد الخارجى فى طبيعة حياة الذين هاجروا الى الولايـــات المتحدة الأمريكية ، حيث وجدوا أنفسهم يعيشون موقفا وجوديا موتـــورا ، فهم فى مأزق بين الحل الخاص الذى قدمته النازية للمسألة اليهودية عن طريق الإبادة ، وبين جفاف حياة المنفى ، وهو الإحساس الـــذى جعـــل هوركهايمر يؤكد (أننى عرفت اليوم أن هيدجر كان أكثر الشـــخصيات التى عرفتها عظمة فى حياتى) .

والذى عبر عنه أدرنو بقوله (إن مثقفى المنفى لابد أن ينالهم بـــلا إستثناء أذى ، فهم يعيشون فى بيئة لم يستوعبوها ، محرومين من لغتهم، ومنتزعين من إطارهم التاريخى والاجتماعي الذى يمنـــح معرفتـــهم قيمـــة) .

استنادا الى ذلك تبرز الملامح الفكرية لهذه المرحلة بـــالنظر الـــى بعدين الأول اتجاه المدرسة الى استبدال نظرية الصراع الطبقـــى عنـــد

الماركسية بنظرية صراع الإنسان فى مواجهة الطبيعة كجزء من نظرية شاملة عن السيطرة Domination . إضافة الى بداية اختفاء مصطلح الطبقة من النظرية النقدية فى هذه المرحلة ، والاتجاه فى عملية التفسير نحو ربط العوامل السيكولوجية بالعوامل الاجتماعية ، (٥٣) .

واختفاء الأمل فى قيام ثورة البروليتاريا وخيبة الأمل فى قيام اشتراكية حقيقية السوفيتى (٥٤) .

أما البعد الثانى فيتمثل فى اتجاه المدرسة الى معالجة قضايا الوجود الإنساني ، كقضية لماذا ينحدر البشر الى نوع من البربرية بدلا من العمل على تحقيق أكثر الشروط الإنسانية ملائمة ، أيضا قضية نفى التنوير والحاجة الى تنوير جديد ، وتحول التقدم الذى لا عائق له – شعار التنوير – الى تردى لا عائق له أيضا . وفى هذا الإطار عولجت قضايا تتعلق بطبيعة العلم ، المدرك للحقيقة والشوق لرفض الحدود القومية (٥٥) .

وفى نهاية هذه المرحلة اتجهت جماعة المدرسة النقدية اتجاهات متنوعة فى المنفى . فالتحق هربرت ماركيوز بالمخابرات المركزية الأمريكية ، ثم عمل بعد ذلك أستاذا بجامعة هارفارد ، وجامعة برانديس اليهودية . واتجه إريك فروم الذى انفصل عن الجامعة منذ عام ١٩٢٩ الى ممارسة التحليل النفسي فى نيويورك .

بينما عاد هوركهايمر وأدرنو ثانية الى ألمانيا فى عام ١٩٤٩ ، وحدث خلاف بين ماركيوز وهوركهايمر نحو النظام الرأسمالى الذى اعتبره شكلا من للمجتمع ينبغى الحفاظ عليه فى مواجهة الإدارة التسلطية ، وهو الأمر الذى اعتبره هربرت ماركيوز خيانة لمعتقدات الجماعة ، ويمكن تحديد أهم ملامح هذه المرحلة على النحو التالى :

التخلى الكامل عن المقولات الماركسية ، حيث فصلت المدرسة نفسها عن النظرية الماركسية ، فقد أدت على التركيز على المتغيرات السيكلوجية والثقافية فى التفسير إضافة الى رفض البروليتاريا كقوة ثورية . الى جانب خيبة الأمل فى نتائج التطبيق الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى .

- أثار خبرة الإبادة الجماعية على البنية العقلية والسيكولوجية لأعضاء الجماعة ، وقد دفع ذلك الى نقد التنوير باعتباره المؤسس للعقل الآدائى المسئول عن المركب التكنولوجى القهرى . والتصدى لقضايا كالشخصية الفاشية ، والنزعة المضادة للسامية والتحيز .

خبرة الألم فى المنفى داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث هم غرباء على هذا المجتمع ، منتزعون من سياقهم الاجتماعى والثقافى ، يتحدثون لغة غير لغتهم ، ومع ذلك لأن الولايات المتحدة مجتمعا استضافهم ، فهم يؤكدون وفائهم للنظام الرأسمالي الليبرالي ، الذى يعتبر نظاما ينبغى الحفاظ عليه .

٤- المرحلة الرابعة (١٩٥٠ - وحتى نهاية الستينات) .

وقد تميزت هذه المرحلة بعودة معظم مفكرى الجماعة الى ألمانيا حاصه ادورنو وهوركهايمر ، ويمكن تحديد ملامح هده المرحلة بالنظر الى بعدين ، الأول هو ظهور مجموعة جديدة من التفاعلات الواقعية ، فقد ظهر إتجاه لتركيز الثروة ووسائل الانتاج ، بحيث تزامن ذلك مع حالة الوفرة التى تعيشها المجتمعات الرأسمالية ، وهو التطور الذى قطع الطريق أمام امكانية قيام الثورة الاشتراكية . ومن ناحية أخرى الدور الذى لعبته البيروقراطية السوفيتية وحياة الرعب التى انتشرت فى

الاتحاد السوفيتي فى المرحلة الستالينية ، حيث هاجم هوركهايمر النزعة التسلطية التى بدأت تسود هذا المجتمع .

هذا الى جانب ظهور نوع من التركيز على دعم الحقوق الأبويـــة فى الدستور الألمانى وهو الأمر الذى كان يخشى معه بعـــث الميـــول الفاشية من جديد (٥٦) .

ويتعلق البعد الثانى بعلم الاجتماع ذاته حيث واجهت عملية إعـــادة تأسيسه عدة عقبات أساسية نذكر منها :

أ- أدى الإتجاه الى حل مشكلات المجتمع الملحة الـــى اســتهلاك طاقة وجهد الباحثين فيها بحيث ترك ذلك نطاقا ضيقا للجهود العقليـة أو النظرية

ب- أدت سنوات الحكم النازى التى استمرت ١٢ سنة الى خلق فجـــوة فى الحياة الأكاديمية ، والإنعزال عن التطـورات العالميـــة ، إمـــا بسبب هجرة علماء الاجتماع البارزين ، أو بسبب تنـــاول قضايـــا هامشية أو جزئية بالبحث أو الدراسة ، ومن ثم ظـــهرت الحاجـــة ماسة لتجاوز هذه الفجوة .

ج- افتقاد التراث الإمبيريقى ، الى جانب المكانة غير المحددة التى بـدأ علم الاجتماع يحتلها بين العلوم ، الأمر الذى دفـــع أدورنـــو الـــى التخلى عن التنظير مؤكدا الحاجة الى تصحيح أفكاره مـــن خـــلال البحث الإمبيريقى .

د - استمرار كراهية المسئولين لعلم الاجتماع ، وهو الاتجاه الذى عـبر عنه هيلموت شميدت أثناء أن كان عضوا فى البوندستاج قـــائلا (نحن نحتاج لا الى هذا العدد الكبير مـــن مـــن علمـــاء الاجتمـــاع

والسياسة . نحن نحتاج الى من يمتلكون مهنا حقيقية ، ما نحتاجه اليوم بصورة ملحة من يمتلكون مهنا عملية) (٥٧) .

أما من ناحية المنهج فقد اهتم أعضاء الجماعة بالبحث الإمبيريقى حيث ظهر اهتمام بالمدخل الذى تتعاون من خلاله أنساق معرفية عديدة ذلك الى جانب التأكيد على عدم إنفصال علم الاجتماع عن الفلسفة ، وتمييع الحدود بين العلوم . لأن الكلية الحقيقية الأساسية ، هذا الى جانب إستيعاب بعض مقولات نظرية فرويد عن التحليل النفسى (٥٨)

٤- الجذور الفكرية للنظرية النقدية

من الموضوعات التى تستحق التأمل علاقة النظرية النقدية بالتيارات الأساسية التى تبلورت فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى ، إضافة الى تأثير تفاعلات السياق الاجتماعي سواء فى ألمانيا أو فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وبرغم تعرض النظرية لذات المؤثرات الفكرية خلال مختلف مراحل تطورها إلا أننا نجد أن الوزن النسبى لفاعلية أى مؤثر بالنظر الى المؤثرات الأخرى كانت تختلف من مرحلة الى أخرى ، وإن بقيت ذات المؤثرات الفكرية والواقعية التى ساعدت على بلورة الفكر النقدي لمدرسة فرانكفورت .

١- النظرية النقدية والعودة الى الفكر المثالي

تجاوزت النظرية النقدية الفكر الماركسى واتجهت الى الاقتراب من موضوعية هيجل وتشاؤمية شوبنهاور . ويرجع ذلك الى عدم الاتفاق مع عديد من المقولات الماركسية ، مثل مقولة أن البروليتاريا كقوة ثورية لإحداث التحول الاجتماعي والمقولات المتعلقة بالاغتراب أو انهيار النظام الرأسمالي .

وفى محاولة التعرف على الملامح العامة لأفكار هيجـــل . نجـده يفسر التاريخ الانسانى والطبيعي باعتباره تحققا متطورا للفكرة الكليـــة المطلقة . ومن ثم فكل مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية على السواء ، فى حركتها التاريخية ليست سوى تجليات لهذه الفكرة الكلية المطلقـــة . ولإدراك جوهر هذه الفكرة الكلية المطلقة نجد أن التفكير يعمـــل عنـد هيجل عن طريق السلب ، يبدأ بفكرة إيجابية تكون فى نفـــس الوقـت مرفوضة من قبل فكرة سلبية ، يضعها الفكر أيضا ، ثم يحاول تركيـب فكرة جديدة ، وهذه الفكرة الجديدة يضع لها أيضا فكرة سلبية مقابلـــة ، ليضع تركيبا لهما ... وهكذا يعمل الفكر عملا دوريا مستمرا (٥٩) .

ومن ثم يصبح وجود عنصر النفي هو الدليل على ضمان التطور . فإن أدرك الفكر أن هناك تفاوتا بين ما أنجزه الانسان وبيـــن امكاناتـه الحقيقية ، وأن ما أنجزه ينبغى رفضه نحو الأفضل ، فإنه يســتطيع أن يتطور ويتطور الى الأمام . وفى نطاق الفكر ميز هيجل بيـــن الفكـر العادى والفكر التأملى ، ورأى أن ما يبدو عن طريق الادراك العـــادى يقينا لأول وهلة هو بالحقيقة ليس يقينا كله ... وبهذا المعنـــى يصبـح الكفاح ضد الإدراك العادى هو المقدمة الأولى للتفكير التأملى الجـزئ . وبهذا المعنى ميز هيجل بين المعطيات الحسية والوجود ، فالوجود هـــو جوهر الشئ ، ولا يدرك إلا عن طريق الاستنباط أو إعمال الفكر أنه لا يوجد فى زمان أو مكان ولكنه يوجد كفكرة (٦٠) .

وتحدث تأثرها بتفكير هيجل نجد أن النظرية النقدية لا تقنع بتأسيس الأبنية النظرية لتصنيف واقع مظهرى . فهدفها أن تتغلغل داخـــل هـذا المظهر لتكشف عن المبادئ الحقيقية أو قوانين الجوهـــر التـــى تحـدد العمليات الاجتماعية . ويصوغ أدرنو ذلك قائلا (كما لا تثق الفلسفة فى خداع المظاهر ، فإننا نجد أن النظرية النقديـــة لا تثـــق فـــى الوجـــه الحضاري للمجتمع . ولكونها تهتم بكل ما يحافظ على تماسك المجتمـــع

فإن عليها أن تحرك الصخرة بحثا عن الوحش الذى يكمن تحتها (٦١) .

ونلاحظ أيضا تأثير الجدل الهيجلى فى قول أدورنو معبرا عن تاريخية المجتمع قائلا (أن المجتمع ليس مفهوما قانونيا يمكن تثبيته بواسطة تعريف ، بل إننا نجده يحتوى على ثراء تاريخى لا حدود له).

ثم قول هوركهايمر فى مؤلفه (خسوف العقل) (لقد قيل لنا أن الديالكتيك) كمنهج يعنى أن نفكر فى التناقضات وذلك بهدف أنه بمجرد حيرتنا بالتناقضات فى الشئ فإننا نرفض التناقض ذاته) (٦٢)

هذا الى جانب أن النظرية النقدية قد أخذت عن شوبنهاور دفاعه عن المجتمع الرأسمالي وتشاؤميته . إذ أكد جورج لوكاش (أن فلسفة شوبنهاور تعبر بصورة غير مباشرة علما للدفاع عن الرأسمالية ... فقد فسر كل الجوانب السلبية للمجتمع الرأسمالى باعتبارها خصائص دائمة الارتباط بالظروف الانسانية العامة ، ونتيجة لذلك فقد أعلن أن النضال ضد شرور النظام الرأسمالي جهدا لا معنى له ولا أمل فيه .) (٦٣).

وتنعكس تشاؤمية شوبنهاور على تشاؤمية هوركهايمر فيما يتعلق بمستقبل المجتمع ، حينما يدعى قائلا (أن العدالة الكاملة لا يمكن أن تتحقق فى التاريخ ، وذلك لأنه حتى لو استبدلنا الفوضى الحالية بمجتمع أفضل فإن بؤس الماضي لا يمكن إصلاحه) (٦٤) .

ونتيجة لذلك تضمنت النظرية النقدية دائما عنصر الحزن ، وفى هذا الإطار يؤكد هوركهايمر أنه بعد تأسيس المجتمع الجديد فى المستقبل ، فإن سعادة أعضائه لا يمكن أن تعوض بؤس الذين حطمهم المجتمع المعاصر ، وقد سمى أدورنو نظريته بأنها (العلم الحزين) فى مقابل (العلم الجديد) لنيتشه (٦٥) . إضافة الى تأكيد النظرية النقدية

على التأمل كمنهج تحت تأثير هيجل وشوبنهاور ، وهو التـــأمل الـــذى نحده مجسداً فى مؤلف س . رايت ملير " الخيال السيوسيولوجى " .

٢- النظرية النقدية والماركسية ، من الاتصال الى الانفصال :

وإن ادعت النظرية النقدية تحت تأثير جرونبرج أنـــها تســتهدف تعميق الماركسية إلا أنها انتهت بالخروج عليها كما حــدث علــى يــد هوركهايمر ، الذى يعنى بالنقد أنه قد نقد بالنظر الى العقـــل الخـــالص وليس بالنظر الى النقد الجدلى للاقتصاد السياســـي . إذ يؤكــد أن دور الخبرة التاريخية يكمن فى إعادة تنظيم المجتمع على أساس من العقـل ، حيث يعتبر ذلك عنصراً محوريا بالنسبة للنظريـــة النقديـــة . أو قــول هابيرماس إن الماركسية ليست إلا جزءاً من فكر التنوير ، وهو الفكـــر العقلانى الذى يرى فى المجتمع جزءاً من العالم الطبيعى ، ومـــن ثـــم ينبغى البحث عن القوانين التى تساعدنا فى التحكم فيه والسيطرة عليه ، أليس ماركس هو القائل (أن التحول من الرأسمالية الـــى الاســـتراكية يخضع لقوانين حتمية ذات طبيعة حديدية ، وما صــــراع البروليتاريـــا والبرجوزية إلا نوعا من الملاكمة الوهمية) (٦٦) . إضافة الى ذلـــك تنتقد النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت الماركسية فيما يتعلق بالقضايا التالية :

أ- فهى تنتقد النظرية المادية فى المعرفة ، والتى تشترك فيها الماركسية مع الوضعية ، حيث خبرة الحواس هى نقطة بداية الفكر . فى حيـــن تذهب النظرية النقدية الى معارضة إرجاع المعرفة الى الحواس . إذ يؤكد ماكس هوركهايمر مقتبسا من فرانز كافكا قوله (أن الحـــواس . التى اعتبرها علم النفس لفترة طويلة هى نقطة البدايـــة ، ليســت إلا نقطة نهاية الـــتطور ، فالحواس ذات طبيعـــة تاريخيـــة ، متغـــيرة ومشروطة) (٦٧) .

ب- بينما تذهب الماركسية للتأكيد على الأولوية الإنطولوجية للمادة على الوعى ، ترفض ذلك النظرية النقدية . وتـــرى أن الـــذات تـــدرك الموضوع من خلال نوع من التفاعل الجدلى معه ، باعتبارها نتاجـــا لسياق اجتماعى تاريخي واحد .

ج- بينما ينتقد ماركس فيورباخ لإدراكه الحقيقة من خلال نـــوع مـــن التأمل وليس من خلال الممارسة أو الجهد البشرى المحسوس ، يؤكد هوركهايمر على موقف تأملى خالص فى مواجهة الحقيقة ، باعتبـــار ان التأمل هو أعلى ما يطمح فيه الانسان .

د- أنه بينما ترى الماركسية أن الشخصية هى نتاج لظروف اجتماعيـــة وإقتصادية محددة يذهب هوركهايمر وأدورنو الـــى أن المعتقـــدات السياسية والاجتماعية للفرد ليست إلا تعبيرا عن الميول الكامنة فـــى عمق شخصيته .

هـ- فى حين ترى الماركسية أن الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية يتم بواسطة الفعل الثورى للبروليتاريا الواعية التى تعمل على تدمـير الجهاز السياسى والمادى للرأسمالية ، مبقية على وســـائل الانتـــاج باعتبارها عنصر الاستمرار التاريخى ، نجد أن النظريـــة النقديـــة ترفض هذه النظرة ، وترى أن الشر يكمـــن بكاملـــه فـــى الجـــهاز التكنولوجى باعتباره أحد وسائل القهر ، فالتكنولوجيا هى الاســـتخدام الشرير للعلم والحضارة . وفى مؤلف جدل التنوير يؤكـــد أدورنـــو وهوركهايمر أن الرعب والحضارة لا ينفصـــلان . فـــلا يســـتطيع الانسان أن يقضى على الرعب ويستبقى الحضارة .

و- أن العقل وليس الفعل الثورى هو الوسيلة الرئيسية للتحرير ، وفـــى ذلك يؤكد هوركهايمر ، أن العقل لايستطيع أن يجسد عقلانيته فـــى مرض هذا العالم الذى ينتجه الإنسان ويعيد إنتاجه ، إذ يتحقق ذلـــك

عن طريق النقد الذاتى ، حيث يصبح الإنسان أمينا مع ذاته ، وبحيث لا يخضع العقل لأى سبب غير حقيقى فى إدراك الحقيقة التى تعتبر من أهم خصائص العقل .

ز- تؤكد النظرية النقدية على أن الثقافة والأيديولوجيا تلعب دورا مستقلا فى المجتمع . وأن القول بالحتمية الاقتصادية الخالصة فيه نوع من السذاجة ، ومن ثم ترفض النظرية النقدية مناقشة علاقة البناء الفوقى بالبناء التحتى . هذا الى جانب أنها ترى أن البروليتاريا لم تعد قوى صالحة للثورة أو لتأسيس التحول الاجتماعى . هذا الى جانب إغفال النظرية النقدية للبعد التاريخى فى فهم تفاعلات المجتمع .

٣- النظرية النقدية وتفنيد المشروع الوضعي

إذا قلنا أن النظرية النقدية قد اختلفت مع الماركسية فيما يتعلق ببعض القضايا ، فإنها ظلت تعكس روحها النقدية للواقع ، ولو كان ذلك بحسب مقولات جديدة . إلا أن موقفها من الوضعية تميز بالقطعية التامة . حيث شكل نقد فلسفة العلم الوضعية جوهر المرحلة الثانية من تطور النظرية النقدية فى مواجهة علم الاجتماع الوضعى أو ما يسمى بعلم الاجتماع الإمبيريقى ، وفيما يلى أهم هذه القضايا :

أ- أن علم الاجتماع قد تحرك الى وضع حدث فيه انفصال حتمى بين النظرية والمنهج من ناحية وبين المجالات الواقعية من ناحية ثانية .

ب- أدى اهتمام علم الاجتماع الوضعى بالتأكيد على التناول الجزئى لنطاقات محددة للبحث ، أو لقضايا بسيطة أو محدودة الى افتقاده إدراك الكلية الكامنة حتى ولو من خلال التركيب لأن إطارها مفتقد أساسا ، وفى حين ركز كونت على العلاقات السببية بين الأجزاء

ركزت النظرية النقدية على الرؤية الكلية التى تشكل إطـــارا لـــهذه الأجزاء .

ج- أدى سعى الوضعية الى تحقيق الدقة العلمية وتكميم الحقـــائق الـــى ضياع المعنى الجوهرى للظواهر الاجتماعية . وارتباطا بذلك فقـــد أدى تمثل الوضعية لنموذج العلم الطبيعى فى علم الاجتماع الى فصل المعرفة الثابتة عن بعدها الأخلاقى ، وهو ما يعنى استبعاد الموقـــف الأخلاقى للباحث عن طريق الإدعاء بأن علم الاجتمـــاع هـــو علـــم محرر من القيمة وهو ما يعنى أيضا أن هذا العلم يمكـــن أن يكـــون أدائيا بالنسبة للقوى الاجتماعية المتسلطة ، أو هـــو وســـيلة للتحكـــم والهيمنة كما حدث فى الرأسمالية المتقدمة (٦٨) .

د- أدى انفصال العلم عن الفن من وجهة نظر الوضعية الى فقد وضحالة المشروع السوسيولوجى . كما أدت محاكاة العلم الطبيعى الى اســتبعاد التأمل الذى يعتبر مصدرا للتبصر العميق فى الميكانزمات المجتمعيـــة التى تتولى قهر الانسان فـــى المجتمـــع الرأســـمالى أو التكنولوجـــى المعاصر .

هـ- أنه بينما استبعدت الوضعية علم النفس من العلوم ، حيث أكد كونت أنه لا مكان لعلم النفس فى مملكة العلوم ، وأكد دوركيم علـــى تفـــوق القدرة التفسيرية لعلم الاجتماع على علم النفس . نجـــد ان المدرســـة النقدية ترى أن المتغيرات السيكلوجية هى المتغيرات المحددة للجوانب الاجـــتماعية والثقافية . بل رأت مدرســـة فرانكفـــورت أن ازدهـــار النزعة التسلطية النازية يعتبر انعكاسا لتأثير السلطة الأبوية فى العائلة الألمانية (٦٩) . يضاف الى ذلك أن أفكار فرويد فيما يتعلق بعلاقـــة الكبت بالحضارة شكلت مقولات أساسية فى البناء النظـــرى للنظريـــة النقدية .

و - انه اذا كان هناك فرق بين العقل الموضوعي والعقل الأداتي . فاننا نجد أن النظرية النقدية أكدت على الأول بينما أكدت الوضعية على الثاني . العقل الاداتي يركز على الوسائل وقيمته تتحدد بفاعليته في السيطرة على الانسان والطبيعة ، وهو العقل الذى استخدمه المجتمع البرجوازى بكفاءة عالية . فى مقابل ذلك ترى النظرية النقدية ضرورة التحول الى العقل الموضوعى الذى يؤكد على الغايات ويرى أهمية التناغم كمبدأ جوهرى فى الحقيقة الكلية . واذا كان هناك عالمان عالم المظهر وعالم الجوهر ، فإن العقل الأداتى يركز على الأول بينما العقل الموضوعى يركز على الثانى .

ز - يميل التراث الوضعى الى النظر الى البشر باعتبارهم كائنات لا قوة لهم فى مواجهة المجتمع . حيث نجد دوركيم مثلا يؤكد أن الفرد يجد نفسه فى مواجهة المجتمع كقوة أسمى منه عليه أن ينحنى أمامها ، إضافة الى ذلك يؤكد فيبر أن الفرد فى المجتمعات البيروقراطية (اشتراكية أم رأسمالية) ليس إلا ترسا فى آلة كبيرة . فى مواجهة ذلك ترى النظرية النقدية أن المجتمع ناتج عن العمق الداخلي للإنسان (٧٠) . ومن ثم تؤكد النظرية النقدية على العلاقة الجدية بين الفرد والمجتمع ، كذوات مستقلة غير خاضعة تعكس جوانب الحقيقة الكلية.

٣- خبرات الواقع المؤلمة

وتشكل الخبرات الواقعية التى عايشها رواد المدرسة النقدية مكونا أساسيا فى البناء الفكرى للنظرية النقدية ، أدى الى تميز النظرية النقدية بالطابع الحزين . وتعتبر خبرة معسكر الاعتقال والإبادة فى أوشفيتز وخبرة الهجرة والحياة فى المنفى من الخبرات المؤلمة الكامنة فى عمق ذاكرة رواد المدرسة النقدية . وهى الخبرات التى نعرض لأبعادها على النحو التالى :

١- لفهم خبرة معسكر الاعتقال والإبادة بأوشفيتز نرى من الضـــرورى فهم التحول الذى حدث للرأسمالية فـــى ألمانيـــا مـــن الرأســـمالية الليبرالية الى الرأسمالية الاحتكارية حيث حل التخطيط محل اقتصاد السوق وقامت الدولة باحتكار مهمة السيطرة النقدية . وهو النظـــام الذى كان له تأثيره على وظيفة الجماعـــة اليهوديـــة فـــى النظـــام الرأسمالى ، باعتبارهم أدواتاً لصياغة تراكم رأس المال – حيـــث تحوات سيطرة الدولة على رأس المال الى سيطرة وحشـــية علـــى الذين يملكونه . وأصبح ينظر الى اليهود – الذين كـــان عليـــهم أن يفروا إلى خارج ألمانيا – بنوع من الشك [١] . فى هـــذا الإطـــار ظهرت خبرة الاعتقال و الإبادة حيث كان معسكر أوشفيتز للإعتقال والإبادة من أكثر التجارب ألما ، ومن الواضح أن خبرة أوشـــفيتز تركت بصماتها على العقلية اليهودية . وهى التى عبر عنها أدورنو بقوله المأثور (أنه لا شعر ولا غناء بعد أوشفيتز) ، وحيـــث أكـــد هوركهايمر (أن ظلم الماضى لن ينتهى أبدا ، حيث لم تلق معانـــاة أجيال الماضى أى تعويض) (٧١) . ثم يحاول هوركـــهايمر أن يجعل هذه الواقعة التاريخية واقعة فلسفية وإنسانية عامة حينما يؤكد (أن البشر الحقيقيين فى عصرنا هم الشهداء الذين ذهبوا احتراقـــاً فى أفران الجحيم حيـــث الإهانـــة والمعانـــاة . إذ يعتـــبر شـــهداء معسكرات الاعتقال هم الرموز الحقيقية لإنسانية تناضل من أجـــل الولادة .

وتصبح مهمة الفلسفة والنظرية الاجتماعية أن تترجم ما فعلوه الى لغة ينبغى أن تسمح حتى لو كان ذلك مـــن خـــلال أصواتـــهم الضعيفة التى أسكتها الطاغية) (٧٢) . ثم يؤكد أدورنو نفس هذا

---

(١) – نعرض لهذه الخبرات من وجهة نظر رواد المدرسة المنتمين للجماعة اليهودية كما أحسوها وليس من الضروري أن تكون وجهة نظر موضوعية . فـــالمؤكد أن اليهوديـــة ارتكبوا فى هذه الفترة عديدا من الأخطاء التى أضرت بالاقتصاد الألماني " المترجم " .

المعنى قائلا (أن الحاجة الى منح المعاناة صوتا كى تتحدث عن نفسها ينبغى أن يعتبر شرطاً لكل حق ، فالمعاناة هى الموضوعية ، والتعبير عنها ينبغى عنها أن يكون موضوعيا) . ذلك يعنى أن النظرية النقدية تخضع لضغط الانسان الذى يسعى للتعبير عن ذاته.

ثم تنتقل الجماعة اليهودية بهذه الخبرة المؤلمة الى المستقبل حينما يؤكد ماكس هوركهايمر قائلا (أن جدول عملنا يتطلب منا أن نقلل الداء الخبيث ونمنعه من الانفجار ثانية) ... ثم يقول (نحن لا نهدف الى وصف التحيز ، ولكننا نحاول تفسيره من أجل المساعدة على استئصاله) (٧٣) .

ذلك يعنى أن النظرية النقدية فى كثير من مقولاتها الأساسية كانت تعبر عن خبرة الجماعة اليهودية بالمجتمع الرأسمالي ذو الطبيعة الاحتكارية أو الفاشية بحيث كانت دراسات رواد فرانكفورت – المنتمين للجماعة اليهودية – بعد ذلك محاولة لتجنب وقوع هذه الخبرة ثانية . ومثال على ذلك كان الهدف من دراسة الشخصية الفاشية كما عبر هوركهايمر عن ذلك (منع ظهور الفاشى المحتمل) [١] .

١- وتعتبر المشاعر المتعلقة بخبرة الهجرة والحياة فى المنفى من الأحاسيس التى أسهب فى وصفها مؤلف تيودور أدورنو وماكس هوركهايمر (جدل التنوير) . ومنذ البداية يستشهد أدورنو و هوركهايمر بقول إنجلز فى وصفه للهجرة ، حيث قال (تعتبر

---

(١) – برغم قيام أوشيفتزات كثيرة فى العالم العربى قامت بها اسرائيل فى دير ياسين وتل الزعتر ، وصابرا وشاتيلا ، والقدس لم يتألم الضمير اليهودى لذلك ولم يُستثار العقل العربى الكسول لكى يحول هذه الوقائع التاريخية الى وقائع فلسفية وإنسانية عامة كما فعلت الجماعة اليهودية بخبراتها المؤلمة .

الهجرة هى الظاهرة التى تحول كل شخص الى غبى ، الى حمـــار ass ، الـــى وضيع مشهـــور ، إذا لم ينجح فى الهـــروب منـــها كلية) (٧٤) . ويعبر برتولد بريخت الكاتب المسرحى والشـــاعر عن هذه الخبرة بعد رحلة طويلة عبر سيبريا وصــــل فيـــها الـــى كاليفورنيا قائلا (لأنى طردت من بلدى فإنه كان على أن ألتحـــق بالبائعين فى سوق هوليود ، حيث يباع الكذب ، كنت أشق الممرات القديمة ، التى أنهكتها خطوات الذين بلا أمل ، لم أعرف حينئذ الى أين أذهب وحيثما ذهبـــــت تسمع أذنـــــــــى ما اسمك ، عجباً ... كأن هذا اسماً لأحد العظماء) (٧٥) .

وقد عبر توماس مان فى رسالة له عام ١٩٥١ عن هذه الخبرة قائلا (إن لدى نوعا من الخوف غير العقلانى من أدفن هذا البلـــد الذى لا يعطينى شيئا ، ولا يعرف شيئا عنى) ويصـــور تيـــودور أدورنو ما يحدث للمهاجر فى منفـــاه قائلا (حيث يختـــزل البشـــر الى مجرد خبرات لحظية لا تترك أثرا . فلا قيمة لما كــــان عليـــه الانسان فى الماضى حينما يواجه بما هو عليه الآن (٧٦) .

ذلك يعنى أن كتابات المنتظرين النقديين تعبر فى هذا الإطـــار عـــــن تأملات نقدية لمجموعة من المثقفين الفارين من النازيـــة الألمانية ، حيث صعقهم الوحش الفاشى ، وارتعدوا من الخـــوف (حينما انهـــار وجودهم) وهى الخبرة التى تم التعبير عنها فـــى مؤلف دياليكتيك التنوير .

اضافة الى ذلك هناك مؤثرات الفكر الوجودى ، حيـــث نلمـــح ترددا لأفكار هيدجر ، وكيركجارد ، وكارل يسبرز ، وجان بـــول سارتر . إضافة الى تأثير التحليل النفسى لفرويد على أفكار هـــذه النظرية حيث نلمح تأثير الوجوديـــــة علـــى أفكـــار هوركـــهايمر

وأدورونو ، بينما كان للتحليل النفسى وطأته على أفكار هربـــرت ماركيوز إضافة الى تأثير مُثل وأفكار الديانة اليهودية .

٥- المقولات العينية للنظرية النقدية :

كأى نظرية تحاول أن تطور تصوراً للواقع الاجتماعي ، يتضمـــن بناء النظرية النقدية مجموعة من القضايا التى تتداخل منطقيا لكـــى تشكل تصور النظرية للواقع ومن المنطقى أن تتصل هذه القضايـــا بالجذور الفكرية للنظرية من ناحية ، وتصورها لنموذج المجتمــــع فى المستقبل ، أو ما ينبغى أن يكون عليه المجتمع من ناحية ثانية . ونعرض فيما يلى لأهم قضايا النظرية النقدية .

١- التأكيد على الفرد فى مواجهة المجتمع :

تضمن اهتمام مدرسة فرانكفورت بالظواهر الثقافية تأكيدا خاصـــا على الفرد باعتباره جوهر الفكر والعمل . وبخاصة مـــن خـــلال علـــم النفس والتحليل النفسي ، وحسبما يذهب مارتن جاى فقد تولـــدت لـــدى هوركهايمر حساسية خاصة . من خلال دراساته الأولى لكانت ، أهميـــة الفردية باعتبارها قيمة لا ينبغى أن تغفل تماما تحت وطـــأة متطلبـــات الكلية . وقد قدر هوركهايمر التأكيد على الفرد فى أعمال كل من كـــل من دلتاى ونيتشه (٧٧) .

وفضلا عن ذلك فقد كان هوركهايمر متعاطفا مع بعـــض جوانـــب الفلسفة الانسانية التى أصبحت تعرف فيما بعد بالفلسفة الوجودية ، التى عبر عنها حان بول سارتر بتأكيده المعهود على الفرد . ويوجد ارتبـــاط ملحوظ باهتمام فيبر الســـابق بمصير الفرد فى المجتمـــع الرأســـمالي الحديث .

وقد أكد هوركهايمر فى مقال له عن التاريخ وعلم النفس أن علـــم النفس الفردى هام للغاية لفهم التاريخ . إضافة الى أريك فــروم الــذى عمل على تأسيس علاقة بين التحليل النفسى والماركسية عــن طريــق توسيع نطاق تفسيرات فرويد بالنظر الى تاريخ الفرد لكى تضم المكانــة الطبقية للعائلة والموقف التاريخى للطبقات الاجتماعية (٧٨) .

وقد ظل الاهتمام الرئيسى للنظرية محصورا فى نطاق علم النفــس الفردي ، غير أنه بظهور الاشتراكية القومية فى ألمانيا أصبح الاهتمــام يتركز فى قضيتين ، الأولى خصائص الشخصية فى علاقتها بالســلطة والثانية ، النزعة المضادة للسامية (٧٩) .

ويمكن القول بأن اهتمام النظرية النقدية والقيم المؤكدة عليها يرجع لعاملين ، الأول أن النظام الاجتماعى أصبح قهريا للفرد وأن الفرد قــد بدأ يفقد حريته واستقلاله فى مواجهة سطوة النظام وهو ما يعنى أنــه إذا كان توماس هوبز قد أسس النظام فى قلب ازدهار الأنانية والنزعـــات الفردية فإن النظرية النقدية حاولت على العكس من ذلك تحرير الفــــرد من قهر النظام وسطوته .

ويتمثل العامل الثانى فى تأكيد النظرية النقدية على الفردية تحــت وطأة تأثير الأثر الفعال الذى يمكن أن يلعبه الدور الفردى فى التاريخ ، تأكيد ذلك الدور الذى لعبه ستالين فى روسيا وهتلر فى ألمانيا النازية .

٢- الانتقال من السيطرة الجزئية الى السيطرة الكلية :

فى التعبير عن السيطرة الشاملة التى أصبح الانسان يعاني منها فى المجتمع الرأسمالي المتقدم ، نقتبس هربرت ماركيوز حينمـــا يتحـدث مدينا المجتمع الرأسمالي الحديث قائلا (لم تكن معســكرات الاعتقـال

مجتمعا رهيبا بصورة شاذة ، فما رأيناه هناك كان صورة والى حد مـــا مثلا للمجتمع الجهنمى الذى نغوص فيه كل يوم ...) (٨٠) .

وفى مؤلفه الانسان ذو البعـــد الواحـــد يؤكـــد أن (البشـــر فـــى المجتمعات الصناعية الحديثة مضللون وجهلـــة وفاســدون فعـــلا ... فالحضارة التى نعيشها قائمة على أساس إخضاع الغرائز البشرية ... ثم يذهب أيضا الى أنه إذا قال فرويد بأن الكبت ضرورى للحضارة ، فإننا نعانى اليوم من الكبت الفائض) (٨١) . وفى مكان آخر يؤكـــد أن استقرار النظام الاجتماعى يتم على أساس تبنى الانسان البعد النقـدى أو التفكير السلبي .

ويرجع الحديث عن السيطرة التى يفرضـــها النظـــام الصنـــاعي الحديث بالأساس الى ثلاثة هم ماس فيبر ، وارنـــر زومبـــات ، إميـــل دوركيم . فدوركيم هوالذى قال أن المجتمع يخلق أفراده علـــى غـــراره وما هم سوى أدوات لإشباع حاجاته الأساسية (٨٢) . وقد أكد مـــلكس فيبر قائلا أن الانسان وإن أنشأ النظام الرأسمالى ، إلا أنه يتحول بعـــد ذلك الى ترس خاضع تماما فى إطار آليات هـــذا النظـــام . ووارنـــر زومبات هو الذى صك مصطلح الرأسمالية الأخيرة أو الحديثة . والتـــى تتميز بتغير فى طبيعة الطبقة الحاكمة ، عن ما كان فى الرأسمالية قبـــل ذلك ، وأيضاً بتضخم جهازها البـــيروقراطى ... ويوافـــق مـــاركيوز وهوركهايمر على ذلك . مما دفع الأخير الى تبنى مصطلـــح جيمـــس بيرنهام (الثورة الإداريـــة) (٨٣) . وتؤكـــد المدرســـة النقديـــة أن السيطرة لها ثلاثة جوانب ، الأول السيطرة علـــى البيئـــة الفيزيقيـــة ، والثاني سيطرة الانسان على الآخر ، والثالث إخضاع الطبيعة البشرية ، ثم يؤكد على تداخل أنماط السيطرة الثلاث ، فالحضارة تعنى بشكل عام قهر الغرائز البشرية وتقييد إشباعها وإذا كانت الســـيطرة وإذا كـــانت السيطرة مفروضة من الآخر أياً كانت درجة عموميته ، فإن على الأنـــا

أن يتواكب مع هذه السيطرة من خلال التكيف ... ومـــن ثـم أصبـح التكيف قدر الانسان المعاصر ، وهو تكيف شامل وإرادى يصدر عنـه بهدف البقاء (٨٤) .

فى هذا الإطار تؤكد النظرية النقدية على مســألتين ، الأولـى أن التكيف وإن كان موجودا قبل ذلك ، إلا أن الحضارة الرأسمالية الحديثـة تفرض عليه أن يكون سريعا يلاحق التغيرات التى يفرضها الآخـر وأن يكون منتشرا ، أى يشمل كل جوانب الحيـاة . والثانيـة أن المجتمـع الحديث تحول من السيطرة المفروضة بالقوة القاهرة الى نوع مخـادع وماكر من السيطرة ، حيث تنجز هذه الأخيرة عن طريـق اسـتيعاب أوامر السادة من خلال عديد من العمليات العقلية والنفسية والاجتماعيـة والثقافية (٨٥) .

وتؤكد النظرية النقدية أنه إذا كان فكر التنوير هو الذى أسلم الـى هذا الوضع ، فإن جدل التنوير هو الذى يتولى القضاء عليه . مؤشرات ذلك ارتفاع معدلات الجريمة والتمرد ، والهروب من الحياة الواقعية من أجل الحياة فى عالم مخدر مثال على ذلـك أيضـا ظـهور الفاشـية ، والتسلطية والسيطرة .

٤- التحول من الاغتراب الاقتصادى الى الاغتراب الاجتماعي :

فى معالجة النظرية النقدية للاغتراب نجدها تؤكـد أن (العمـال والمديرين فى النظام الرأسمالى مغتربين ، لأنهم محرومين من إشـباع حاجاتهم الأساسية ، فالعمل لا شخصى والاستهلاك مغترب . سلوكياتهم مدفوعة بالمصلحة وليس بالحب . إنهم قد يكونوا أطبـاء أو محـامين لكنهم بالتأكيد ليسوا بشراً) (٨٦) . فى هذا الإطار تؤكـد النظريـة النقدية على لسان هابيرماس أنه إذا أكدت النظريـة الماركسـية علـى الاغتراب الاقتصادى ، فإننا نرى اليوم الاغتراب الاقتصادى لـم يعـد

هدفاً للنضال السياسى الذى يجب أن تمارسه البروليتاريا . ذلك لأن الاغتراب الاقتصادى يظل قائماً فى ظل اغتراب ثقافى أوسع نطاقاً ولتوسيع نطاق الاغتراب يلجأ النظام الرأسمالى المتقدم الى آليات عديدة منها :

أ- أن يتولى النظام خلق ما يمكن أن يسمى بالحاجات الكاذبة أو الزائفة لدى البشر . فهى حاجات صنعتها وسائل الاعلان والاتصال الجماهيرى ، وإذا كان الانسان يحرص على إشباع الحاجات الأساسية للانسان ، فإن ذلك خير وسيلة للقضاء على حريته ، أى خلق الانسان المتكيف ذو البعد الواحد فما إنسان البعد الواحد إلا ذلك الانسان الذى استعان عن الحرية بوهم الحرية .

ب- وتتمثل الآلية الثانية التى يلجأ إليها النظام فى القهر والتسلط من ناحية ، وفرض التكيف على الفرد من ناحية أخرى . وإذا كنا نعانى من نوعين من القهر ، القهر الحضارى والقهر الفائض . فإن القهر الفائض هو الذى يخدم مصالح السيطرة السياسية من ناحية وخضوع الانسان من ناحية أخرى . ولا يستطيع البشر القضاء على القهر الفائض لأن أوضاعهم تفرض عليهم ذلك .

ج- وتتمثل الآلية الثالثة فى جذب البروليتاريا فى الرأسمالية المتقدمة للمشاركة والتفاعل حسب قواعد اللعبة الرأسمالية . فممارسة المواطنين لحق الاقتراع فى الديمقراطيات الحديثة ، والاشتراك فى التظاهرات والاحتجاجات يظهر وجود حريات لا وجود لها ، ومن ثم فباستطاعة النظام الرأسمالى إلغاء التناقض وترسيخ الاغتراب عن طريق تزييف الوعى بميكانيزم الديمقراطية .

لكن ما هو الطريق الى تجاوز الاغتراب كما تصوره قادة النظرية النقدية ، وإذا كان كارل ماركس يلغي الاغتراب عن طريق إلغاء المجتمع الطبقى وسيطرة البشر على البشر ، فإننا نجد هور كهايمر يقف موقفا رومانسيا ، حينما يؤكد أن القضاء على الاغتراب يتم عن طريق التأمل والنقد الذاتى حيث يؤكد (على إمكانية الوصول الى الحقيقة من خلال النقد الذاتى للعقل فى مرحلة يسودها الاغتراب الكامل) . وعلى خلاف ماركس الذى رأى إلغاء الانسان المغترب واستعادة الانسان الكامل من خلال تجاوز التناقض الرأسمالى ، يؤكد هربرت ماركيوز على الانفصال عن القيم السائدة ، واستيعاب قيم مضادة ، وهو حل لا يبدو منطقيا الى حد كبير .

٤- التحول الى ما بعد الراسمالية المتسلطة ، الآليات الأساسية :

بينما نجد أن التحول من نموذج بنائى الى آخر واضحة فى النظرية التقليدية ، وبينما هى أشد وضوحا فى الماركسية ، فإننا نجد أن النظرية النقدية تعانى نوعا من الغموض فى هذا النطاق . ومنذ البداية نجد النظرية النقدية تؤكد على لسان هور كهايمر وماركيوز ، أن البروليتاريا لم تعد القوة الاجتماعية الصالحة للقيام بدورها التاريخى فى الإطاحة بالنظام الرأسمالى . لأنه قد تم إستيعابها داخل النظام الرأسمالى بوسائل عديدة .

غير أن النظرية النقدية – بديلا لذلك – تطرح سؤالا يتعلق بآلية الانتقال من المجتمع الرأسمالى المسيطر ، وللإجابة على ذلك طرحت ثلاثة تصورات لعملية التحول ، ويقدم جورج لوكاش التصور الأول لعملية التحول على الطريقة الماركسية ، حيث يقدم موافقة كاملة على استخدام العنف باعتباره ضرورة تاريخية . إضافة الى ذلك تأكيده على أن البروليتاريا باعتبارها القوة الأساسية للتحول . يتحقق دورها إذا

اكتمل وعيها ، وهــو الوعى الذى يأتيها مــن خارجهـــا بواسطـــة الحزب الثورى (٨٧) .

على خلاف ذلك يؤكد هربرت ماركيوز على ضرورة الانفصـــال عن النظام وتبنى قيم مضادة . إضافة الى التأكيد على العنف الذى تقوم به جماعات غير طبقة البروليتاريا ، يسميها بالجماعات الخارجة علـــى النظام ، ويقصد بها الطلبة ، الزنوج ، والفقراء .

ويرفض هابيرماس العنف والثورة ، ويميل الى اتجاه انسانى مسالم وهو نفس الحال الذى يسلم به أدورنو ، حيث الاعتماد على النقد العقلى الخالص فضحا للنظام وتوضيحا للحقائق .

وفى الحقيقة أدى بحث النظرية النقدية عن الفاعل الثورى وفشـــلها فى العثور عليه الى وقوف منظريها مواقف متباينة فى عـــام ١٩٦٠ ، حيث انسحب أدورنو الى برجه العاجى ، بينما تحرق هور كهايمر شوقا الى الله ، وتحالف ماركيوز مع أطفال الثورة الصغار ، إذا جاز لنـــا أن نستخدم تعبير هابيرماس قاصدا حركة احتجاج الطلبة (٨٨) .

د . على ليلة
القاهرة فى ١٩٩١

مراجع المقدمة

أولا مراجع المقدمة

١-ادوارد باتالوف ، فلسفة التمرد ، نقد الأيديولوجيـــا اليســارية الراديكالية ، ترجمة سامي الــرزاز ، دار الثقافــة الجديــدة ، ١٩٨١ الطبعة الأولى ص ١١.

٢-نفس المرجع ص ١١ .

٣-السيد الحسيني ، أحمد زايد ، على ليلة ، تاريخ الفكر الاجتمـاعى ، دار قطرى بن الفجاءة ، ١٩٨٨ - الطبعة الأولى .

4-Badie Bertrand & Pierre Birnbaum, the sociology of the stats (Trans) by: Aruthur Goldhumer, the University of chicago press, chicage, London, 1983 , p 80.

٥- على ليلة النظرية الاجتماعية المعاصرة ، دراسة لعلاقة الانســان بالمجتمع ، دار المعارف الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ ص ٨٥ .

6- Parsons, T:the structure of social Action, New york , Mac Geaw – Hill, 1973 , p. 522.

7- Durkheim, Emile: Morale, Education (Trans) By E. K. Wilson and H. Schruer, New York The free press 1961 , p. 73.

٨-هربرت ماركيوز ، العقــل والثــورة ، هيجــل ونشــأة النظريــة الاجتماعية ، ترجمة فؤاد زكريا ، الهيئة المصريــة العامــة للتــأليف والنشر ، ١٩٧٠ ، الطبعة الأولى ، ص ٣٢٧ .

9-Giddens , Anthony: Capitalism and Modern Social Theory, An analysis of the writtings of Marx , Durkheim and Max Weber, Cambridge , University press, London, 1971 . p 95.

10- Zeillin, Irving, Ideeology and the development of soci-oiogical Theory. Prentice – Hall of India, New Delhi, 1969, Pp . 31 .

11- T iryakian, Edward . A Sociological explanation, New York, 1969, p. 31 .

12- Ibid. p, 31 .

13- T . Parsons, Op Cit, p. 510.

١٤- كارل ماركس ، فريدريك انجلز : البيان الشيوعى : ص ٦٨ .

15- Irving Zeitlin, Op, Cit p, 108.

16- Marcure, Herbert: Five Lectures, psychoanlysis politics and Utopia, Boston, 1970, Pp. 83- 48 .

17- Buck – Morrs , susan : "The origin of Native Dialectic, theodor W . Adorno , Walter Benjamin and the Frank – furt school , Brighton , Harvester Press , 1977 Chap 9 - 10.

18- Bottomore, T . B . : The Frankfurt School Tavistock publication , london , New York . 1984 , 39 .
19 – ibid , p . 39 .

٢٠- ادوارد باتالوف ، مرجع سابق ، ص ٦ .

٢١- نفس المرجع ، ص ٦ .

٢٢ – نفس المرجع ص ٦-٧ .

23- **Green,** Gil : New Radicalsm, Anarchist or Marxist, New York 1971 , p. 83 .

٢٤- ادوارد باتالوف ، مرجع سابق ص ١٤ .

25- Bern stein, Richard J : The Reconstruction of social and politcal theary, methen Coltd, 1976, p. Viii .

26- Fay , Brain : social Theory and Political practice, london, Allen,unwin, 1975 , p. 37.

27- T . B. Bottomore: Op, Cit, p. 30.

٢٨- موريس كرانستون ، اليسار الجديد ، تحرير ، دار النهار للنشر ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ١١ .

29- Brain Fay : Op, Cit p. 62.

30- T . B . Bottomore, Op, Cit, p. 30.

31- Bottomore, T . B : Critics of society, Radical Thought in nort America, Pantheon Book , New York , 1966 p. 27.

32- Mills, C. Wright: Letter to the New left (Im) chaml waxmann (Ed) the end of ideology Debate, A Clarion Book, New York, 1968, p.138.

33- T .B . Bottomore, Critics of society, Op, Cit, p. 61 .

34- Cwright Mills, Op, Cit, p. 126.
35- T . B . Bottomore, Critics of socity , p. 68.

٣٦- ادوارد باتالوف ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .

٣٧ – هربرت ماركيوز ، الانسان ذو البعد الواحد ، ترجمة جورج طربيى ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٣ ، ص ٦ .

٣٨ – موريس كرانستون ، مرجع سابق ، ص ١٣ .
39- Jay, Martin The Dialectical imagination, Boston, little, Brown Co ., 1973 ,p .49 .
40- Ibid., p. 72.

٤١- ادوارد باتالوف ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

٤٢- موريس كرانستون ، مرجع سابق ، ص ٨٩-٩٢ ، وانظر أيضا هربرت ماركيوز ، الانسان ذو البعد الواحد ، ص ٢٦٦-٢٦٧ .

43- Martin Jay : Op Cit, p. 53.

44- T . B . Bottomore, the Frankfort school, Op. Cit,pII .

45- Lichtheim, George: From Marx T Hegel, London, Orbach, Chambers, 1971, p.32.

46- Tar, Zoltan: The Frankfurt school, the Critical Theories of Max Hork hiemer and Theodor W. Adorono,John woley, Sons , New York 1976,p.20.

47- Ibid., p.23.

48- Ibid., Pp. 25 . 26 .

49- Susan Buck – Morss: Op, Cit, Pp. 52-55.

50- T . B . Bottomone, The Frankfurt school, Op, Cit,p.42.

51- Zoltan Tar : Op , Ccit , p. 77.

52- Ibid ., p. 118.

53- Ibid ., p. 89.

54- Ibid ., p. 90.

55- Ibid ., p. 92.

56- Ibid ., p. 133.

57- Ibid ., p. 135.

58- Ibid ., p. 138.

٥٩ – قيس هادى أحمد ، الانسان المعاصر عند هربــرت مــاركيوز ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ الطبعة الأولى ، ص ٢٥ .

60- George Lichtheim Op Cit, p. 67.
61- Zoltan Tar : Op, Cit, p. 79 .

62- Ibid ., p. 97 .

63- Ibid ., p. P.p 51-53.

64- Ibid ., p. 118.

65- Richard Bernstein : Op, Cit , p. 120 .

66- Zoltan Tar : Op, Cit.p. 103.

67- Ibid ., p 105.

68- Ibid ., p 77.

٦٩- على ليلة ، مرجع سابق ، ص ٦٣٢ .

70- Martin Jay , Op, Cit p. 173.

71- Ibid ., p 176.

72- Zoltan Tar : Op, Cit, p. 164.

73- Ibid ., p 116.

74- Ibid ., p 117.

75- Ibid ., p 117.

76- Ibid ., p 101.

77- Ibid ., Pp.103-104.

78- T . B . Bottomore, Frankfurt school, Op, Cit, p. 20.

٧٩- هربرت ماركيوز ، الانسان الانسان ذو البعد الواحـــد ، مرجـــع سابق ، ص ١١٧ .

٨٠ – نفس المرجع ، ص ١١٩ .

٨١ – على ليلة ، مرجع سابق ، ص ٥٠٨ – ٥١٤ .

82- Brain Fay , Op, Cit p. 83 .

83- T . B . Bottomore, Frankfurt school, Op, Cit, p. 45 .

٨٤- هربرت ماركيوز ، الانسان ذو البعد الواحد ، مرجع سـابق ، ص ١١٧ .

٨٥ – نفس المرجع ص ١١٨ .

٨٦ – نفس المرجع ص ١٢٠ .

87- Zoltan Tar , Op, Cit, p. 173.

88- Ibid ., p. 181 .

تصـــديــر

بنهاية القرن الرابع قبل الميلاد ، جرى الإندفاع الميتافزيقى العظيم للفلسفة السابقة على الفلسفة الرواقية ، والأفلاطونية والأرسـطية فـى مجراه المألوف . حيث ظهرت فى هذه الفترة مدرستان للفكر الفلسفى ، المدرسة الرواقية stoics والمدرسة الإبيقورية Epicureaus وتمكنتـا من السيطرة على العصور الهيلينية Hellenic والامبريالية Imperil التى جاءت بعد ذلك ، ولم تكن هاتان الفلسـفتان مـهتمتان بـالوجود والطبيعة وأن تركز اهتمامها الأساسى على الانسان ، كلاهمـا يعتـبر مدارس فلسفية للأخلاق ومن هذا المنطلق نجد أن هذه المدراس كـانت ترغب فى مساعدة الانسان على تأسيس دفاع يتسم بالكبرياء فى مواجهة أعاصير العواصف والقدر .

وقد وقع تغير مماثل فى هذا القرن الذى نعيش فيه ، وهو التغير الذى تمثل فى الانتقال من المجال الانطولوجى (١) .

---

(١) – يشير المعجم الفلسفى الى كلمة ontology أنطولوجيا ، بمعنى أمـور عامـة ، وتعنى : الأمور العامة هى ما لا يختص بقسم من أقسام الوجـود التـى هـى الواجـب والجوهر والعرض ، بل تقال على الموجود من حيث هو كذلك فتعم جميع الموجـودات . فهى قسم من أقسام ما بعد الطبيعة . (تعريفات الجرجانى) . أما فى الفلسفة المعـاصرة يعنى موضع الأنطولوجيا ، الأشياء بالذات فى مقابل الميتافيزيقا النقديـة ، وفحواهـا أن الفكر حاصل بذاته على شرائط المعرفة ، وأن الأشياء تدور حوله لكى تصير موضـوع إدراك علم ولا يدور هو حولها (لالاند) . (أنظر فى ذلك مراد وهبة وآخرون : المعجـم الفلسفى ، دار الثقافة الجديدة ، الطبعة الثانية ١٩٧١ ص ٣٢) وفى تعريف آخـر فـإن النطولوجيا ontotogy ، مبحث الوجود تشمل النظر فى طبيعة الوجود علـى الإطـلاق مجردا من كل تعيين أو تحديد ، بذلك يترك للعلوم الجزئية البحث فى الوجود من حيـث هو متغير ، والعلوم الرياضية تبحث فى الوجود من حيث هو كم أو مقدار . أما البحـث فى الموجود من حيث وجوده على الإطلاق فمن شان مبحث الوجود – ما بعـد الطبيعـة عند القدماء (الميتافيزيقا) – ويدخل فى مبحث الأنطولوجيا البحث فى خصائص الوجـود

الى المجال الذاتى ، من المجال النظرى البحت الى ما هـو عينـى أو واقعى

ومرة أخرى نجد أنفسنا فى مواجهة مدرستين فلسفيتين تجلى مـن خلالهما هذا الانتقال الشبيه بالانتقال الذى حدث فى العصر الـهيلينى . هاتان المدرستان الفلسفيتان هما الفلسفة الوجودية والنظرية النقدية . وقد اتجهت الوجودية مباشرة الى الانسان الفرد . وعلى هـذا النحـو فقـد استمرت فى السير حسب الخط أو الاتجاه الكلاسـيكى ، بينمـا تـرى النظرية النقدية أن تحقيق الذات والسعادة على المستوى الفردى يعتمـد على البيئة المجتمعية فى كليتها .

إذ يستطيع الانسان أن يحقق ذاته فى مجتمع متحرر من الحاجـات وأيضا متحررا من القهر الذى يمارسه الانسان على أخيه ، أعنى فـى مجتمع تتأسس فى إطاره الشروط اللازمة لقيام وجـود بشـرى يتسـم بالكبرياء[١] .

العام لوضع نظرية فى طبيعة العالم والنظر فيما كانت الأحداث الكونية تقوم على أسـاس كونى ثابت أو تقع مصادفة واتفاقا .=

= وفيما إذا كانت هذه الأحداث تظهر من تلقاء نفسها أم تظهر عن علل ضروريـة ، أى تجرى وفق قوانين المادة والحركة ، وفيما إذا كانت هذه الأحداث تهدف الـى نـهايات أم تجرى عفوا عن غير قصد أو تدبير – وفيما إذا كان هناك إله وراء عالم الظواهر المتغير ، وفى صفات الله وعلاقاته بمخلوقاته وغيرها من تلك المسائل الميتافيزيقية . أنظر فـى ذلك : توفيق الطويـل ، أسس الفلسفة ، دار النهضة العربية ، الطبعة السابعة ، ١٩٧٩ ، ص ٨٧ (المترجم) .

(١) يلاحظ أن كلمة الكبرياء الانسانى تتكرر كثيرا فى أحاديث رواد مدرسة فرانكفورت ، وذلك باعتبار أنها كانت مطلبا يهوديا وكرد فعل لصنوف القهر والمهانـة التـى تلقتـها الجماعة اليهودية فى ظل النظام الفاشى أو النازى ، أو خلال الفزار والهرب ، أو خـلال الحياة فى مجتمع النفى " المترجم : .

وبرغم ذلك ، فإننا نجد أن هذا العالم الذى يعيش البشر فى إطاره ، هو الذى يشكل نطاق اهتمام هذين الاتجاهين . وهو الأمر الذى يذكرنا حينئذ بالفلسفة الرواقية والأبيقورية من حيث كونهما لم يناضلا من أجل المعرفة التأملية القانعة بذاتها بل قصدت كل منهما أن تكون علاجا أو إصلاحا . ومن ثم فقد تمثل هدفها فى تحقيق الوحدة بين القيم والحقائق، وما هو أكثر من ذلك ، تحقيق الوحدة بين النظرية والممارسة (الثورية) ، فعن طريق كشفها للتحليل فإنها تترك الجوهر يسطع من خلاله ، وتوضح الفلسفة الوجودية لنا الطريق الى الجوهر . وعن طريق رفض المجتمع الشرير القائم والحفاظ على صورة المجتمع الفاضل حيه – وهو المجتمع الأكثر إنسانية – فإن معنى ذلك أن النظرية النقدية قد رغبت منذ البداية فى المساعدة على تغيير المجتمع .

ويعنى شعار التغيير المقصود للمجتمع تغييره راديكاليا وليس تدريجيا أو إصلاحيا ، وذلك من أجل المساعدة على آدائه الوظيفى الأفضل ، وهو الأمر الذى يمنح النظرية النقدية مكانة فى التاريخ العقلى للماركسية . وفى الغالب تعتبر النظرية النقدية اسماً زائفاً Nom de guerre لماركسية متعلقة Intellectualized . وفى هذا الإطار تقف مدرسة فرانكفورت على نفس خط التفكير الذى أسسه جورج لوكاش George lukacs فى مؤلفه (التاريخ والوعى الطبقى History & and class consciousness ومؤلف كارل كورش Karl Korsch (الماركسية والفلسفة Marxism & philosophy) حيث شكل كليهما السلف الذى بشر بالنظرية النقدية دون أن يرتبطا بها فى الحقيقة

وعلى هذا النحو تخلق شكل من الماركسية بدون ظهور الحزب الشيوعى المرتبط بها ، بل إننا نجد أن النظرية قد نقلت قضايا من الماركسية المحدثة Neo-Marxism الى الطلبة المتمردين من اتباع اليسار " الجديد " .

وفى بداية الثلاثينات من القرن التاسع عشر عمقت مدرسة فرانكفورت ميولها نحو الماركسية . وذلك حينما أصبح صعود النازى الى السلطة واضحا ومؤكداً . حيث أصبح يُنظر الى الماركسية باعتبارها سلاحا ضد الفاشية التى اتخذت شكلا جديدا . وفى هذا الاطار ينبغى النظر الى دراسات المعهد التى تناولت قضايا النزعة الفاشية (فى مؤلف السلطة والعائلة Authoritat and Familie) والذى نشر فى سنة ١٩٣٦ .

بل أننا نجد أن المرحلة الأولى من حركة الشباب الألمانى ملزالت تسمى نفسها " الحركة المضادة للفاشية " Anti Authoritarian movement . استنادا الى ذلك لم تصبح العناصر الأساسية للماركسية – المادية التاريخية والجدلية ، والبناء الفوقى والتحتى ، والحتمية الاقتصادية ، ونقد النظام الرأسمالى والصراع الطبقى – من الأجزاء الرئيسية المكونة للنظرية النقدية ، وحتى لو استخدمت الأخيرة هذه العناصر فإنها تستخدمها عادة بطريقة معدلة وعامة للغاية [1] .

ولقد كان فريدريش بولوك Friedrich pollock هو الدارس الوحيد فى مجلة البحث الاجتماعى Zeitschrift fur siz forschhu الذى عمل فى إطار الفكر السياسى وللوهلة الأولى ، فإننا نجد أن

---

(١) من الواضح هنا أن النظرية الماركسية كنظرية نقدية كان لها أهدافها وسياقها الاجتماعى الذى تتولى نقده ، هذا الى جانب أنها تمتلك قوى التغيير الاجتماعى التى تتولى تجسيد أهداف النقد . غير أننا نجد أن هناك خلاف بين الماركسية والنظرية النقدية من حيث السياق الأهداف والقوى الاجتماعية الذى يتمثل السياق الاجتماعى النظرية النقدية فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر فهى قد ظهرت كرد فعل للنازية ، هذا الى جانب ان البروليتاريا ليست قواها الاجتماعية وليس من أهدافها القضاء على النظام الرأسمالى " المترجم " .

النظرية النقدية " الماركسية المحدثة " تجعل من المضمون الماركسي الكامن فى التنوير البرجوازى موضوعا . بل إنها تنظر إليه فى الحقيقة باعتباره تنويرا جديدا

ومثلما هو الحال فى كل حالات التنوير ، فإننا نجد أن هناك نوعا من الاهتمام أو الإلتزام الذى يوجه معرفة النظرية النقدية . التى تشكل عنصرا مكونا فى الممارسة الموجهة نحو المستقبل . والاهتمام كما يحدده هوركهايمر Horkheimer صراحة ليس إضافة للإدراك أو المعرفة المتنورة ، ولكنه شئ ينبثق عن جوهرها الأساسى . إذ تتجه النظرية النقدية ضد النظريات التقليدية الراسخة ، حيث نجد أن حركات التنوير تكون دائما هى حركات المعارضة . وعلى هذا النحو تهدف النظرية النقدية الى تذكيرنا بالمعاناة التى لا يمكن تحملها ، وهى تطلب منا أن نشهر بالظلم الشائع وأن ندعم المقاومة ضده ، ومن ثم نساهم فى القضاء عليه [١] .

وقد ذكر الصراع ضد النزعة الفاشية فعلا . وفى هذا الصدد تحولت النظرية النقدية الى معارضة " ظروف الاستعباد " بكل ما يصاحبها من مكونات أيديولوجية أو ميتافيزيقية ، ولا يمكن أن نقصر الصرع على " المجال الواقعى " Realebene ولكنه ينبغى أن يتسع ليشمل تغيير الوعى ، وتعتبر هذه فكرة هربرت ماركيوز Herbert

---

(١) يتكرر كثيرا حديث النظرية النقدية – وبخاصة مفكرى مدرسة فرانكفورت عن المعاناة ، والتشهير بالظلم ، ودعم المقاومة وهى الأفكار التى تتصل بالأزمة الخاصة التى عاشتها الجماعة اليهودية فى فترة الحكم النازى بألمانيا . حيث تعرض اليهود لبعض صنوف المعاناة . وهى التجربة التى حاول المفكرون اليهود جعلها تجربة انسانية عامة . فأصبحت معاناة الانسان فى المجتمع التكنولوجى الحديث ، وطرحت الدعوة لمقاومة جوانب الظلم ، والاختزال الحادثة فى هذا النظام ، وأصبحت فئات الطلبة والشباب هم المؤهلون للمقاومة ، وهى الأفكار التى ترددت كثيرا عند ماركس هوركهايمر ، وبعد ذلك عند فيلسوف الشباب هربرت ماركيوز (المترجم) .

الشائعة عن رفض مجتمع الاستهلاك ، حيث القهر Marcuse الخارجى الذى تم إستيعابه ، وهو القهر الذى يقود الى اختزال الانسان الفرد من خلال الإشباع الشهوانى المباشر ، ومن ثم يعوق تكشف شخصيته الحقيقية . حيث تبتلع " الإدارة الكاملة " المدير ذاته . وفى هذا الإطار تعمل النظرية النقدية بإيجابية من أجل التحرير ، من أجل " تحقيق النصر القادم للإنسان " من أجل مجتمع حُر لأفراد مستقلين ، ومن أجل مجتمع عقلانى وكذلك من أجل " الحياة الفاضلة " . ومن المؤكد أن هذا الجانب الإيجابي للنظرية النقدية قد ظل غامضا عن قصد . " فالمطلق لا يمكن لا يمكن وصفه " ولكن يمكننا الشوق إليه فقط ، كما كتب هوركهايمر فى رثائه لأدورنو Adorcno " فالآخر " هو الذى ننطلق من خلاله بالحكم على المجتمع الحاضر .

وتميز مدرسة فرانكفورت بين نموذجين من العقل reason ، أحدهما يساعد على التنوير أو التحرير ، وهو يقدر الظروف الانسانية استنادا الى أفكار الثورة الفرنسية – عن العدل والسلام والسعادة Gluck . أما النموذج الآخر فهو على نقيض العقل السابق وهو العقل الآدائى Insteumental reason . الذى يقدم – بدون تفكير أو تأمل – الوسائل الفعالة لإنجاز أى هدف يلقى القبول والموافقة . وتتصل هذه الصياغة التصورية (بالعقلانية الآدائية) Zweckrationalital عند ماكس فيبر ، وهى العقلانية التى تميز العصر الحديث . ويسيطر هذا التفكير التكنوقراطى اليوم فى مجال الصناعة والإدارة . وهو يعمل فقط على إعادة انتاج الظروف البنائية القائمة التى تساعد على السيطرة ولا تساعد على التحرير ، ويفسد هذا النوع من التفكير الباعث على التنوير.

ويقابل الفكر الاجتماعى لمدرسة فرانكفورت علم الاجتماع الإمبيريقى فى السياق السابق . حيث يهتم علم الاجتماع الإمبيريقى بأن يوافق على الحقائق الاجتماعية باعتبارها حقائق شبه محايدة . وهو فى

ذلك يشبه العلوم الطبيعية " من حيث النزعة الى تقديس الحقائق " وهى التى تعنى " تمجيد كل ما هو قائم " . ومن ثم يعتبر هذا العلم مضاد للتنوير .

واستنادا الى ذلك فإن على علم الاجتماع أن يقطع روابطه مع جذوره الفلسفية خلال فترة التنوير ، كما فعلت الوضعية ، حيث يؤدى عزل الحقائق الفردية والاجتماعية الى إمكانية أن تكون هذه الحقائق أكثر قابلية للقياس الكمى والسيطرة عليهما ، غير أنها فى ذات الوقت سوف " تتشيأ " إذا استخدمنا تعبير لوكاش فى هذا الصدد . وحسبما تذهب مدرسة فرانكفورت فإنه – على النقيض من ذلك – يجب النظر الى الحقائق الاجتماعية فى سياق " الكلية المجتمعية " Societal Totality . ومرة أخرى نجدها تستخدم مفهوما يُعتبر لوكاش هو أول من قدمه . وفى هذا الإطار تؤكد النظرية النقدية أن على الباحث أن يبحث عن العلاقات الداخلية المتبادلة بين الظواهر الاجتماعية ، وأن ينظر إليها فى اتصالها بالقوانين التاريخية التى تحكم حركة المجتمع . وذلك على نقيض علم الاجتماع الزائف أو الذى يهتم بالمظهر ، حسبما يذهب هوركهايمر [١] .

---

(١) تعتبر مقولة الكلية من المقولات التى طرحتها الانساق النظرية للقرن الثامن عشر والتاسع عشر ابتداءً من المثالية الموضوعية لهيجل ، والوضعية الفرنسية لأوجست كونت ثم بعد ذلك برزت بشكل واضح عند ماركس من ناحية ، ودوركيم من ناحية أخرى . الفارق أن الوضعية ترى أن تفسير الظواهر الاجتماعية بالنظر الى الكلية المجتمعية القائمة ، كلية ما هو كائن . بينما تؤكد الهيجلية والماركسية – على ما بينهما من خلاف – على ضرورة تفسير الظواهر المجتمعية ليس بالنظر الى الكلية الكائنة ، باعتبار أن ما هو كائن يمثل حقيقة ناقصة وعابرة ، ولكن بالنظر الى كلية ما ينبغى أن يكون ، حيث تشكل هذه الكلية معقل الحقيقة والجوهر . ويبدو أن الكلية كما أن الكلية كما يدركها الفكر النقدى لمدرسة فرانكفورت خليط بين الرؤيتين معا . فهى تفسر المعاناة بالظلم القائم ، غير أننا نلمح لدى مفكريها شوقا صوفيا الى ما ينبغى أن يكون حيث واقع اجتماعى ينتفى

وثانيا يخلط علم الاجتماع الوضعى الحقائق الاجتماعية بالموضوعات المادية الخاصة بالعلوم الطبيعية . ومن ثم فهو على استعداد للموافقة على الحقائق بأسلوب متحرر من القيمة . ويغفل هذا النوع من النزعة العلمية Scientism حقيقة أن القضايا المتعلقة بالظواهر الاجتماعية تستند – بلا استثناء – الى أحكام معيارية مسبقة . إذ يكون على الباحث " أن يلائم الشئ للمفهوم " حسبما يذهب أدورنو ، وليس المفهوم للشئ ، وإذا تجاهلنا هذين المطلبين المتعلقين بالعلم الاجتماعى ، فإن العلم الاجتماعى ، يميل حينئذ ، لكى يصبح جزء متكامل من المجتمع القائم بدلا من أن يصبح وسيلة للنقد وخميرة للتجديد ومن ثم يصبح العلم الاجتماعى ذاته إحدى قوى الانتاج التى تسهم فى إعادة انتاج علاقات القوة القائمة . وعلى هذا النحو فإن التقدم العلمى الاجتماعى ليس أقل ذنبا من العلوم الطبيعية التى تساعد على ازدهار المشروعات الصناعية عن طريق سيطرتها على الطبيعة .

وبصورة عامة ، ينظر الى ما يسمى " بالحوار الوضعى " أعنى الحوار حول علم المنهج methodology باعتباره يمثل المرحلة الأخيرة فى تاريخ النظرية النقدية . ويعتبر ذلك صحيحا من الناحية الزمنية . طالما أن هذه المناقشات قد حدثت فى الخمسينات والستينات من هذا القرن ، غير أنها صحيحة بصفة جزئية فقط بالنظر الى مادة أو جوهر هذه المناقشات . وذلك لأن نقد علم الاجتماع الإمبريقى يشكل الهدف الأساسى لمدرسة فرانكفورت . حيث يعتبر الخلاف الأول حول المنهج Methodenstriet فى الأصل عنصرا مكونا فى بناء النظرية النقدية . وفى الحقيقة ، فإنه بإمكان الباحث منا أن يؤكد أن شيئا يشبه إعادة تأسيس المذهب الأصلى قد تحقق عند نهاية " المرحلة الثانية " من تاريخ المدرسة ، غير أنه قد تحقق وفق خطة مختلفة .

فيه الظلم والشر والمعاناة . وتصبح المقاومة والرفض لديها هى وسيلة العبور مما هو كائن الى ما ينبغى ان يكون (المترجم) .

وقد شهدت الثلاثينات من هذا القرن محاكمات موسكو التـــى أدت الى القضاء كلية على المعارضة . وقد أدى ذلك بدوره الـــى إضعـــاف فرص فاعلية الماركسية غير الحزبية بصورة خطـــيرة . وفـــى سـنة ١٩٣٩ برزت الى الوجود المعاهدة التى عقــــدت بيـــن هتلـــر Hitler وستالين Stalin . وفى السنوات التى تلت ذلك وقف الغرب والشــــرق على السواء ، يتابعون بلا حول ولا قوة إبادة هتلر لليهود Jewry فـــى أوروبا . ومن الواضح أن هذه الأحداث قد دفعت بقوة – وإن لم تكـــن وحدها – كلا من هوركهايمر Horkheimer وأدورنو الـــى تأسـيس بحث عميق وثاقب فى شرور عالمنا ، وقد بلغ نتاج بحثهم ذروته فـــى مجموعة من الأفكار العميقة التالية :

أن ما يجب أن نهتم به الآن شئ أكثر من تجـــاوز الفاشــية ، وأن الماركسية سوف لا تكون وحدها قادرة على تحقيـــق الخـــلاص . إذ لا يتمثل المرض الخبيث فى استغلال الانسان أو السيطرة القهرية عليـــه ، ولكن يتمثل فى مبدأ السيطرة ذاتها . التى يحتفى بها وينظر إليها فـــى العادة نظرة إيجابية ، باعتبار أنها تشكل أساس التيســـير التكنولوجـــى للحياة . فى إطار ذلك ينظر الى السيطرة علــــى الطبيعـــة ، والقيـــود المصاحبة لها باعتبار أنه ليس هناك مـــا يبررهـــا ، أو فـــى الحقيقـــة باعتبارها تجليا لحالة الخصومة بين الانسان والطبيعة . هذا الى جـــانب أن التكنولوجيا تستغل الطبيعة أيضا ، ويصبح السؤال الذى نطرحه فـــى هذا الصدد ، هل هناك احتمال لظهور نوع آخر من التكنولوجيا ؟ نوعـا لا يستغل الطبيعة ، ومن ثم يصبح التصالح مع الطبيعة هـــو الـــهدف الجديد . وبذلك يصبح انتهاء التوتر بين الذات والموضوع أمرا مرغوبا فيه ، وتشترك مدرسة فرانكفورت – على الأقـــل مـــن حيـــث ميلـــها الميتافيزيقى – بصورة غير متوقعة فى هذه الفكرة مع الفلسفة الطبيعيـــة Natural philosophi لإيرنست بلوخ Ernst Bloch وهى الفلســـفة

التى من المتوقع أن تعمل على بعث الفاعل الطبيعى Natural subject لشيلينج Schelling .

ويعتبر تصنيف البشر ضمن الكائنات ، والشئ المفرد فـى إطـار المفهوم العام . فى حد ذاته نوعا من السيطرة . ومن ثم فإنـه ينبغـى حماية الانسان الفرد من ذلك حتـى يمكـن لـه أن يسـتعيد تفـرده ، وخصوصيته وغيرته . إذ يمتلك الفاعل الذى لديه استقلال أكثر ، أعنى الأنا الرشيد ، قدرا من التردد والعنف الذى يتجلى من خلال السـيطرة على الطبيعة أو على التابعين من البشر الآخرين وأيضـا مـن خـلال السيطرة على الذات ومن ثـم يكـون لـدى الأنـا ميـولا أبويـة – Patriarchal ، وبذلك يصبح العنف طبيعة ثانية للانسان . وكنتيجـة لذلك ، فإن السيطرة لا تجعل الانسان سعيدا ، ولكنها تنتقم فى الحقيقـة منه على هيئة نوع من الاغتراب .

وفى النهاية فإن ذلك يعنى أن السيطرة غير الاقتصادية توجد أيضا حيث تعتبر الرأسمالية شكلا واحدا فقط للسيطرة . ولقد بدأت السـيطرة فى الحقيقة منذ وقت طويل ، حيث يمكن تتبع آثارها حتـى العصـور الأسطورية فليس هناك معنى آخر للفصل الأول من سفر التكوين الـذى قال أنه ينبغى أن يكون الانسان سيد الطبيعة ، فمن المفترض أن تكـون السيطرة قادرة على الحفاظ على بقاء الرأسمالية والبرجوازية .

وفى هذا الإطار تذهب النظرية النقدية أبعد من النقطة التى بـدأت منها فالسيطرة التى شهدت الماركسية بها ، وحكمت بالقضـاء عليـها، تبدو باعتبارها جزءا من حالة النظام العامة .

وفى المرحلة الأخيرة أظهرت مدرسة فرانكفورت ميولا مماثلة لميـول هيدجر فى تقليله من شأن التكنولوجيا ، والمنطق الأرسطى ، والفـاعل

الديكارتى ، وبرغم ذلك لا تريد مدرسة فرانكفورت عن وعى أن تشترك فى أى شئ مع هذا الفكر الرومانسى المحافظ .

وقد طورت النظرية النقدية الأخيرة موقفا خياليا عرف بالمحاكاة (memesis) وهو الموقف الذى يتناقض مع الاتجاه العقلانى الموجه نحو تحقيق الهدف أو امتلاك القوة . وعلى هذا النحو يمتلك هذا الموقف كل الخصائص المميزة لحالة البدائية primordial حيث تسود الصورة والرقص بدلا من الوسائل machinery والصيغ Formula . ومن ثم فإن العودة الى المحاكاة قد تشكل نوعا من التطور الى الخلف وعلى أى حال فإنه بعد نمو العقل ، قد تصبح العودة الى المحاكاة ضربا من المستحيل ، ومن ثم فالمحاكاة ليست يويوبيا بالأسلوب الذى يفهمها به إيرنست بلوخ ، ولكنها بالأحرى شوق الى " الجنة المفقود " أو حنين الى رومانسية ما قبل التاريخ .

وقد ادعت النظرية النقدية فى أحد المواضع بأنها التنوير الجديد ، مع أنه قد قيل لنا أن التنوير ذاته موضع إدانة الآن . إذ لم ينحدر التنوير فقط الى نوع من الوضعية ولكنه فى الحقيقة قد سمم بنفس القدر وحسبما قال بيكون أن المعرفة هى القوة ، وأن تأكيد الصدق يكمن فى المهارة Know-How . بذلك تكمن فى العقل – مدفونة فيه – جراثيم خسوفه ، وعمليته واختزاله الى مجرد آداه للسيطرة والتحكم الشامل . وفى العادة يكون العقل المستعبد دقيقا وعبقريا مثل العقل المحرر ، وهو الأمر الذى يشير الى " جدل التنوير " حيث يدمر التنوير ذاته ، ومن ثم ينتهى الى حالة من وإستنادا الى ذلك نجد أن البربرية ليست نتيجة لقوى خارجية ، فهى لا تظهر الى الوجود بفاعلية أعداء الحضارة . وقد عملت النظرية النقدية على الجمع بطريقة لا تاريخية بين تنوير القرن الثامن عشر مع اتجاهه المضاد للكنيسة والنظام الاقطاعى ، ونضاله ضد خسة الأقوياء وغباء الجماهير من ناحية ، وبين روح العلم

الطبيعية والميكانيكية والنتائج التقنية Technical المترتبة عليها من ناحية أخرى ، حيث تميز الأخيرة بدايات العصور الحديثة . وفى هذا الإطار لا تعتبر النزعة الشمولية نتيجة للميول غير العقلانية ، ولكنها تولدت عن التنوير حيث تجسد النزعة الشمولية وحدها نتائجه ومنجزاته النهائية . وبنفس الأسلوب ، فقد حطم التنوير الطبيعة الى موضوعات وذرات وجعلها تؤدى وظيفتها لصالح العقلانية الصورية المؤثرة ، والنزعة الشمولية التى تتحكم فى العالم الانسانى ، حيث تمت المعالجة الكمية للفرد أولا ، ثم أخضع بعد ذلك للإدارة الكلية أو الشاملة غير أن هذه الاتهامات التى تنسب الى التنوير ينبغى ان توجه بصورة ملائمة ضد التكنولوجيا. وفى النهاية فقد أثمر هذا التفسير المتجانس تاريخيا مجموعة من النظريات الغامضة التى تعنى بالحاضر فقط [١] .

وفى الأساس كانت النظرية النقدية تبتنى الرأى القائل بأنه نظرا لأن العقل الآدائى Instrumental reason قد حقق درجة عالية من الاستقلال ، فإنه ينبغى إعادته الى نفس الخط مع العقل الانبثاقى المتنور ، بحيث يقوم الأخير بتوجيه الأول ، وبهذا الأسلوب ، فإن

---

١ – من الخصائص الأساسية لفكر التنوير الإيمان بالعلم ، ونتيجة لهذا الإيمان بالعلم . وقدرة الانسان على الاستفادة منه فى تنظيم المجتمع ، برزت دعوة قوية – نظرللإنجازات التى حققتها العلوم الطبيعية ، تؤكد على ضرورة تأسيس علم للمجتمع وأن هذا العلم ينبغى أن يتشبه بالعلوم الطبيعية ، وأن يتبنى مناهجها . حيث رفعت الوضعية هذا الشعار ، وذلك تحت دعوى أنه ما دام الكون يخضع لقوانين شاملة تحكم حركته وفاعليته ، وما دامت الطبيعة قد اكتشفت فاعلية بعض هذه القوانين فى نطاق الظواهر الطبيعية ، فإنه من المنطقى أن تتبنى ذات المناهج لكشف فاعلية هذه القوانين فى نطاق الظواهر الاجتماعية كذلك . واستطرادا لهذه النزعة العلمية بدئ فى معالجة الانسان والتفاعلات الانسانية معالجة كمية ، أى بالنظر الى البشر أو استجاباتهم باعتبارها مفردات يمكن الوصول الى تعميمات بشأنهم ، باستخدام الأرقام كتعبيرات رمزية عنها . وتعمق هذا الاتجاه فى محاولة ضبط البشر فى سياقاتهم من خلال السيطرة على البشر واقعيا ، وهى قضية أثارت حفيظة مفكرى فرانكفورت ، حيث نلمس ذلك بصفة خاصة فى كتابات هربرت ماركيوز " المترجم " .

الأشياء سوف تؤدى فاعليتها بصورة صحيحة . وبرغم ذلك فإنه يعتقد أن النزعة العلمية والتكنولوجية تتضمن أهدافها الخاصة بها . الى جانب ذلك نجد أن الإدارة الفنية Technocracy مستقلة كلية ، بل إننا نجدها لا تستطيع أن تتغلغل من الخارج من خلال فرض الأهداف الى تشبع الحاجات البشرية ، وهو الأمر الذى يعنى التخلص الذاتى من العقل . وفى هذه الظروف تواجه الفرد قوى لا عقلانية ونهائية بصورة واضحة ، وهى القوى التى بمجرد تولدها عن العقل أصبحت تمتلك الآن استقلالاً . ونتيجة لذلك وجدت مدرسة فرانكفورت نفسها أخيرا على اتفاق مع التحريفيين Revisionists فى الأقطار الاشتراكية الذين نظروا الى الإدارة الفنية والبيروقراطية باعتبارها العدو الأول . وحدث نتيجة لذلك انجذاب بين هؤلاء التحريفيون وبين منظرى مدرسة فرانكفورت .

وبالنسبة لإيرنست بلوخ Ernst Bloch يوجد أمل فى إطار العالم المادى ذاته ، حيث يمثل الانسان فقط التجليات الأسمى والأكثر تطورا لهذه الملامح الميتافيزيقية الخاصة بالعالم . وعلى خلاف إيرنست بلوخ نجد أن مدرسة فرانكفورت فى مرحلتها الأخيرة عجزت عن التطلع بامل نحو مستقبل أكثر إشراقا ، ويمكن للباحث منا أن يدرك نوعا من التشابه فى هذا النطاق مع ماكس فيبر Max weber الذى لاحظ بوضوح القوة الدائمة التعاظم للعقلانية الآدائية التى لها جوانبها الايجابية والسلبية .

غير أن فيبر لا يرى أملا فى إيقاف أو إبطال هذه العملية ، وهناك الكثيرون الذين يتحدثون عن المرحلة الأخيرة أو الثانية من تاريخ مدرسة فرانكفورت باعتبارها تقترب كثيرا من فلسفة الحياة Lebensphilosophe أو باعتبارها أسلوبا محافظا لنقد الثقافة ، ونقدا للأزمنة الحديثة وهم يعتبرونها نوعا من الرومانسية المحدثة New

Romanticism مقنعـــة باعتبارهـــا تنويـــرا محدثـــا New Enlightenment ويعتبر هذا التشخيص صحيحا بالقدر الذى يمكن أن توسع المدرسة فى إطاره نقدها للجوانـــب الاقتصاديـــة والاجتماعيـــة والسياسية ليشمل الثقافة باعتبارها العقيدة الأكثر شمولا . وفى العـــادة يعتقد الفكر المحافظ أن الماضى كان أفضل ومن ثم فهو يدين الحـــاضر الناقص . ونتيجة لذلك فهو يحلـــم بالأحيـــاء Revival ، بالنهضـــة أو البعث Renaissence . وفى هذا الإطار تقدم مدرسة فرانكفورت فـــى المرحة الأخيرة من تاريخها وجهة نظر أكثر تشاؤما تؤكد فى إطاره أن سوء حظ البشرية ليس نتيجة لبعض التطورات التاريخية المحددة ولكنـه يعتبر شيئا كامنا وفطريا فى وجود الانسان ذاته . واستنادا الى ذلك فهو قد لا يختفى بعد الإطاحة بالفاشية أو الرأسمالية . وقد يبـــدو الخـــلاف وكأنه نتيجة لتطور تاريخى يمكن تغييره ، بينما هو فى الحقيقة يكمـــن فى " الجوهر essence " ويبرز هذا التفسير الـــذى قدمتـــه مدرســـة فرانكفورت فى مرحلتها الأخيرة موقفا تشاؤميا له طبيعتـــه الانســـانية والميتافيزيقية أساسا.

وليس من قبيل الصدفة أن هوركهايمر يعود الآن الى جذوره الفلســـفية الأولى الى شوبنهاور . وذلك يعنى أن النفى الراديكالى لما هو قائم قـــد تزاوج مع اليـــأس . بإيجـــاز ، العدميـــة nihilism . وقـــد شـــخص والتربنيامين Walter Benjamin فى بداية العشرينات من هذا القـــرن هذا الموقف الغريب وغير العقلانى الذى وقفه بعض معاصريه باعتباره موقفا يقع على " يسار كل شئ ممكن " ومن ثم فقـــد صـــك العبـــارة " اليسار الحزيـــن أو الكئيـــب Melancholie Left " حيـــث وصـــل هوركهايمر وأدورنو الى موقف يسارى قاتم Linke Melancholie .

وقد قررت النظرية النقدية فى البداية أن تكون مثـــالا للممارســـة الثورية المتنورة . ومع ذلك فقد أدى ارتدادهـــا الآن الـــى نـــوع مـــن العزوف عن الممارسة السياسية . إذ برهنت النظرية التى تأسست إنـــها

ذات طبيعة راديكالية متطرفة بحيث يستحيل التوفيق بينها وبين الممارسة العملية ، فإذا كان الظلم موروثا فى علاقة الانسان بالطبيعة ، أعنى ، فى الحق الممنوح للانسان من أجل السيطرة على الطبيعة . فاين هو ذلك الفاعل الثورى الذى يكون باستطاعته أن يضع حدا للظلم الذى يفترض أنه نتاجا له ؟

لقد انتهت اللحظة التاريخية التى رأى ماركس إمكانية تحقق الفلسفة خلالها . وحسبما يقول أدورنو ، ليس هناك طريقة لاستعادة هذه الفرصة الضائعة . وبذلك يمكن أن يكون دور الفلسفة الآن دورا نظريا فقط ، حيث أن بإمكانها أن توضح للوعى حقيقة أن العالم لم يتغير . ومنذ الآن فصاعدا فإن واجب الفلسفة الوحيد سوف يتمثل فى إعلان الاحتجاج ، أن تكشف عن الجنون Unreason وأن توضح معاناة الانسان . وبرغم ضعفها ويأسها فما زال للفلسفة وظيفة باقية ، تتمثل فى أن عليها أن تنتقد ، وأن تسمى الأشياء بأسمائها . ومن خلال معارضتها التى لا تهدأ ، فإن الفلسفة يمكن أن تشكل جزيرة للمقاومة [1].

---

(١)- يبدو أن تأكيد مدرسة فرانكفورت على الدور الذى ينبغى أن تلعبه الفلسفة حيث توضيح المعاناة والاحتجاج عليها ، ومن ثم نقد الظروف المؤدية الى ذلك يختلف مع تأكيد الماركسية فى هذا الصدد . حيث نشأ إقتناع عميق بأن الفلسفة قد وصلت الى نهايتها – حدث ذلك فى أعقاب وفاة هيجل – إذ ساد اعتقاد بأن تاريخ الفلسفة قد بلغ مفترق طريق حاسم . وأن الوجود المادى للانسان هو الوسيط الوحيد للكشف عن الحقيقة وتطبيقها عمليا وإذا كانت الأبنية الفلسفية السابقة قد اعتبرت مأوى للحقيقة تعزلها عن مجال الصراع التاريخى للبشر ، فى شكل معقد من المبادئ الترنسند نتالية ، فإنه من الممكن أن يصبح تحرر الانسان هو نفسه عمل الانسان . وهو هدف سلوكه العملى الواعى بذاته ، إذ من الممكن رد الوجود الحقيقى أو العقل أو الذات الحرة الى وقائع تاريخية متحققة . ويعنى ذلك أن الحقيقة تعد بندا نظريا يصور الواقع دون أن يتدخل فيه وإنما هى طاقة كاشفة لملامحه بهدف إعمال ذاتها فى تغييره ويؤكد ذلك ما يذهب إليه ماركس أنه عن طريق الاتحاد بين النظرية والممارسة ، وبارتباط الفهم النظرى بالنشاط السياسى العملى فإنه يمكن إحداث التغير الاجتماعى (المترجم) .

وبالتحديد فإنه بسبب علاقة مدرسة فرانكفورت الواهية بالممارسة، فإننا نجد أن بعض النقاد يميزونها باعتبارها تمثل نهاية الانتلجنسيا الماركسية البرجوازية أو نهاية المشروع الفردى البحث [1] .

واستنادا الى ذلك يوجد انفصال تام بين حركة الطلبة المؤيدة للعنف وبين النظرية النقدية فى مرحلتها الأخيرة . فقد تبنى الطلبة اندفاعها الثورى ، غير أنه كان عليهم أن يتجاوزه ويذهبوا الى مدى أبعد منه ، وتعزى وفاة أدورنو فى ١٩٦٩ فى جانب منها الى شعوره العميق بالصدمة حينما هاجمه زعماء الطلبة بصفة شخصية ، وفى سنة ١٩٣٣ قال جورجى ديمتروف Georgi Dimitrov السكرتير العام للكومنترن العبارة التالية فى المؤتمر السابع للكومنترن " تعتبر الفاشية ديكتاتورية الرعب لأكثر عناصر تمويل النظام الرأسمالى إمبريالية وشوفينية ورجعية " ، وفى هذا الإطار تعتبر النظرية ذات التوجه الماركسى الجامد ، تلك النظرية التى تحاول تفسير كل شئ تفسيرا اقتصاديا ، والتى تنسب كل شرور العالم الى مكائد الطبقة الرأسمالية ، نظرية غير كافية . إذ تكمن جذور الاشتراكية القومية الألمانية (التى كانت تعنى الفاشية أساسا) فى التطور السياسى والاجتماعى لألمانيا ، وأيضا فى تاريخها الدينى والفكرى . ولقد وجدت نفس الظروف أو ظروف مماثلة لتلك التى سادت ألمانيا قبل هتلر فى فترات معينة من تاريخ بعض المجتمعات الأخرى أيضا غير أن هذه المجتمعات لم تتحول مع ذلك الى الفاشية . ويبدو أن الأسلوب والعقلية له علاقة أكبر بالفترة الانتقالية التى تحدث حينما تصل الانسانية الى عصر ثقافة الجملة mass culture التكنولوجية أكثر من علاقته بنظام اقتصادى

لمزيد من التفصيل أنظر على ليلة . النظرية الاجتماعية المعاصرة ، دراسة لعلاقة الانسان بالمجتمع ، مرجع سابق ، ص ٣١٧-٣٠٤ .

(1)- Gerhard , Zwerenz, Kopf and Bauch Frankfort am Main.s. Fissher, 1973.

محدد ويشير تزاوج الفاشية بالنظام الرأسمالى الى مصلحة معينة تنتج عن هذا الارتباط . وفى هذا النطاق فنحن نحتاج الآن الى تطبيق إطار تفسيرى ذو طبيعة عالمية شاملة بالنسبة لظاهرة الفاشية .

ولن يشرف المواهب النقدية للنظرية – وهى المواهب التى نفخر بها كثيرا – أن تتبنى ببساطة مذهبا حزبيا كذلك المذهب الذى اقترحه ديمترتوف . حيث يذكر هوركهايمر " أن على هؤلاء الذين لا يريدون الحديث عن الرأسمالية أن يصمتوا فى مواجهة الفاشية " ، حيث نظر كل من هوركهايمر وماركيوز الى الفاشية باعتبارها النتاج الطبيعى للرأسمالية ومرحلتها الأعلى . إذ يعجز الرأسماليون عن إمتلاك القوة بدون تحطيم الديمقراطية الليبرالية البرجوازية [١] .

ولا يدافع هذا التفسير فقط عن النظرية الزائفة فيما يتعلق بتخلق الفاشية ، ولكنه بالاضافة الى ذلك يلقى ضوءا مضللا على تطورها ابتداء من العصر الحديث ، وتحتوى ، مدرسة فرانكفورت عادة على ثقة مبالغ فيها فيما يتعلق بوظيفتها فى تفسير الحاضر ، وعلى سبيل المثال نجد أن أدورنو فى علم الجمال الخاص به ينظر الى المذهب التعبيرى باعتباره الشكل الفنى الحديث الذى يمكنه أن يساعد على تفسير الأشكال الفنية فى العصور السابقة أيضا .

---

(١) – من الواضح أن النظرية النقدية تهتم بالتأمل النقدى لنمط معين من الرأسمالية وهو النمط الذى تتداخل فيه النزعة الاحتكارية على المستوى الاقتصادى مع النزعة التسلطية أو الأبوية على المستوى السياسى ، ومن ثم يصبح هامش الديمقراطية محدودا . ومن هنا وجدنا أن ألمانيا النازية كانت دائما موضع اهتمام النظرية النقدية ، فى حين كانت الولايات المتحدة الأمريكية ، هى السياق الاجتماعى الذى احتمى بديمقراطيته منظروا مدرسة فرانكفورت ، نظرا لمساحة الديمقراطية التى يتيحها النظام الرأسمالى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويبدو أن وضع الأقلية اليهودية فى النظام الرأسمالى ، شكل المقولة الراسبة Residual ، التى بالنظر إليها قيم منظورا فرانكفورت طبيعة النظام الرأسمالى "المترجم" .

وبنفس الأسلوب يكشف أوشــفيتز Auschwitz المعنـــى الخفـــى لمسار كل من التاريخ والمجتمع . فبسبب عملية الإبـــادة Holocaust أصبح التاريخ يعنى " التقدم الى الجحيم " .

لقد توافق تأسيس مدرسة فرانكفورت مع ظهور الاشتراكية القومية باعتبارها تهديدا حقيقيا . وفى هذا الإطار وجه منظـــروا فرانكفـــورت اللوم الكامل للنظام الرأسمالى بسبب هذا التطور القاتل الذى حدث لــه ، حيث احتفظت مدرسة فرانكفورت بهذه القناعة الأساسية مـــن البدايـــة وحتى النهاية غير أننا نجدها فى مرحلتها الأخيرة قد احتقرت الشيوعية وظلت صامتة بشأنها [١] . وفى هذا الصدد نجدها قد ساوت بين النزعـة الشمولية ذات اللون البنى والنزعة الشمولية ذات اللون الأحمر [٢] . بـلى أننا نجد أن مدرسة فرانكفورت قد دخلت – كما فى حالة هوركـهايمر – فى النهاية فى هجوم صريح ضد الاتحاد السوفيتى .

وبإيجاز فبإمكان الباحث منا أن يؤكد أن مدرسة فرانكفـــورت قــد حافظت فى مرحلتها الأخيرة على استمرار التوجه السياسى الذى كـانت له معقوليته فى الثلاثينات من هذا القرن . ومن ثم نجدها قد فشلت فــى أن تأخذ فى الاعتبار التطورات التاريخية التى وقعــت علــى اتســاع خريطة العالم منذ نشأت هذه المدرسة ، وفى هذا الإطار نجد أن مدرسة

---

(١) – من الملاحظ أن رواد مدرسة فرانكفورت لم يكونوا ذوى توجـــهات أيديولوجيـــة لصالح الطبقة العاملة أو لصالح الغالبية الفقيرة . فقد كانوا عبارة عـــن مجموعـــة مـــن المثقفين الذين قدموا فكرا نظريا يدافع عن حرياتهم وطموحاتهم ، ومن ثم فلم تشغل بالـــهم أية قضية تتعلق بمصالح الأغلبية ، وعلى ذلك فمن الصعب الإدعاء بأنهم كانوا اســتمرارا للماركسية بل على النقيض من ذلك نجدهم على كراهية للشيوعية التـــى كـــانت الحلـــم الوردى لماركس " المترجم "

(٢) – تعنى النزعة الشمولية ذات اللون البنى الفاشية ، وتعنـــى الشـــمولية ذات اللـــون الأحمر الشيوعية " المترجم " .

فرانكفورت قد عجزت عن الانفصال عن تفسيراتها الأولى ، وذلك عن طريق القيام بإعادة تقييم راديكالية لآرائها . فقد ارتكب منظورا فرانكفورت خطأ لا يغتفر بالنسبة لفلاسفة ، وذلك بسبب إغفالهم للحقائق الجديدة ، ومن ثم فقد أشاعوا حالة من الفوضى أكثر من قدرتهم على التوضيح .

لقد استجبت بسرور بالغ لرغبة كل من المؤلف والناشر لكتابة مقدمة للتحليل النقدى لمدرسة فرانكفورت الذى قام بتأليفه صديقى الفاضل الأستاذ زولتان تار ، الذى ناقش بإعجاز وحلل بدقة فى هذا الكتاب كل القضايا التى قمت بلمسها فقط . وأنا على اقتناع عميق بأن هذا الكتاب سوف يساهم بدرجة كبيرة فى خلق وضع أفضل للنظرية النقدية فى الولايات المتحدة .

ميشيل لاندمان
الجامعة الحرة
برلين
وجامعة حيفا فبراير
١٩٧٦

شكــــــر

يسعدنى أن أقدم شكرى الشخصى لعدد من الدارســـين والزمـــلاء الذين كانوا غاية فى الكرم حينما منحونى نصائحهم والذين قدموا لـــي اقتراحاتهم القيمة خلال اعدادى لهذه الدراسة . لقد استفدت كثيرا مـــن تعليقاتهم العميقة فيما يتعلق بشكل هذه الدراسة أو مضمونها .

وأوجه امتنانى العميـــق للبروفيســـور الكســـندرفنش Alxander Vvucinich بجامعة تكساس بولاية هيوستن بسبب اهتمامـــه العقلـــى ومساعدته الكريمة منذ بداية التفكير فى هذه الدراسة . فقد كان تقييمـــه الدقيق والصبور للنسخة الخطية ، وحكمته كباحث وخبرته ككاتب هـــو الذى ساعدنى على انجاز هذا الكتاب بالنحو الذى هو عليه الآن .

وأدين للغاية لزملائى الذين أعطونى بكرم بالغ وقتهم لقراءة الكتابة النهائية لهذه الدراسة ومناقشتها ، وأذكر منهم البروفيســـور جوزيـــف بنزمن Joseph Bensmsnn ، روبرت للينفيلد Robert Lilienpeld وبيت يوربـــورج Bett Yorburg فـــى City college of cuny وأرثرفيدش Arthur vrdich فى المدرسة الجديدة للبحث الاجتمـــاعى وبيتر لودز Peter Cludz بجامعة ميونخ وميشيل لاندمـــان بالجامعـــة الحرة ببرلين ، وايرنخ فينشر بجامعة جوته فى فرانكفورت ، وريـــا- سيمون Ria j. simon ، وروبـــرت جونـــز Robert A. jones ، ونوربت فيلى Norbet wiley بجامعة ألينوى ، وكلاوس بيتر Klaus peter بجامعة مساشوسيت بولاية إمرست وإميـــل أوسترشـــر Emil oestereicher بكلية ريتســـموند ، والمســـتر ألمـــن G.L. Ulmen بنيويورك .

أشكر مستر جيئولا بوسكاس Gyule puskas وأيضا مستر مارين فيشر Mariane Fescher بزيورخ فى سويسرا . وذلك لجهودهما فى المساعدة على توفير المادة من المكتبات فى أوروبا . كذلك للمستر هوب ماك آلون Hpoe Mcaloon لمساعدتها الفنية .

وقد ساعدتنى نصائح التحرير التى قدمها لى المستر بيتر بيرس Peter w. peirce الى حد كبير على المتابعة الدؤوبة للكتاب حتى اكتماله وأدين بصفة خاصة لزوجتى الدكتورة جوديت ماركيوز Dr. Judith Marcus لتشجيعها وأحكامها النقدية فيما يتعلق بتنظيم هذا الكتاب أو مادته . وأيضا لصبرها الذى لم ينفذ ، وذلك بالاضافة الى أنها منحتنى عونا لا يقدر فى ترجمة الأصول الألمانية وأيضا فى تجهيز البيليوجرافيا .

وبيطبيعة الحال ، فإننى وحدى أتحمل مسئولية الأخطاء التى تتعلق بالحقائق أو التفسير .

زولتان تار
نيويورك – نيويورك
فبراير ١٩٧٧

مدخـــل

١- مقــدمـــة :

من الواضح شبح مدرسة فرانكفورت قد خيـــم علـــى المشـــروع السوسيولوجى . غير أنه منذ بداية هذه الدراسة ينبغـــى تبديـــد ســحب الخرافة والغموض والخلط الذى أحاط بفلسفة مدرسة فرانكفورت وعلـــم الاجتماع بها . فمثلا تستند الفكرة القائلة بأن المدرسة تعبر عن توجـــه ماركسى فى علم الاجتماع الى معرفة سطحية فقـــط بتفكـــير مـــاكس هوركهايمر – Max Horkheimer وتيـــودور أدورنـــو Adorno T.W ومفكرين آخرين ينتمون الى مدرسة فرانكفورت (١) .

وهناك سببان رئيسيان لهذه الحالة المؤسفة .

الأول : فقد أدى عدم تيسر الترجمات الانجليزية – حتى وقت متـأخر – **للكتابات الأساسية لمدرسة فرانكفورت الـــى اســـتمرار جـــهل علمـــاء الاجتماع الأمريكيين بها .**

الثانى : **ويتمثل السبب الثانى فى سعى شـــريحة كبـــيرة مـــن علمـــاء الاجتماع الشباب وطلبهم تأسيس علم ملائم للمجتمع ، علم قادر على أن يقدم البديل للتيار الأساسى السائد فى علم الاجتماع الأكـــاديمى . فقـــد شعروا أن هذا التيار السائد مهتم أساسا بالبحث الذى لا قيمة لـــه فـــى التفاصيل الدقيقة للنظام الاجتماعى القهرى ، بحيث أدى ذلك الى توسيع نطاق جهلهم . إذ إعتقد علماء الاجتماع هؤلاء أن على علم الاجتمـــاع البديل أن يكشف التناقضات الكامنة فى البناء الاجتماعى القائم ، وبـــدلا من وصف ما هو كائن فقط فإن عليه أن يوضح ما ينبغى أن يكـــون . ومن المأمول أن يساعد العدد المتزايد للترجمات تدريجيا على تحســـين هذا الموقف السئ ، وأن يؤدى الى تقدير أكثر واقعية لقيمـــة مدرســـة فرانكفورت فى نطاق العالم الناطق بالانجليزية .**

٢- مصادر سوء الفهم :

لقد كان تأثير مدرسة فرانكفـــورت علـــى المجتمـــع الأكـــاديمى الأمريكى ، والدوائر المثقفة ضئيلا خلال إقامة المدرسة المؤقتـــة فـــى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويرجع ذلك أساسا لسبب حاجز اللغة الذى ظل باقيا بين الجانبين . وفى هذا الاطار تواجدت ثلاثـــة أنـــواع مـــن الاستجابات تجاه مدرسة فرانكفورت من قبل الباحثين الأمريكيين وتتمثل الاستجابة الأولى فى نقد أفكارهم استنادا الـــى أســـس منهجيـــة . أمـــا الاستجابة الثانية فتتمثل فى رفض المدرسة لأسباب سياســـية – حيـــث يتدخل الجناح اليسارى ، والمثقفين ذوى الثقافة الرفيعـــة فـــى شـــئون الأهالى ، وفى هذا الاطار كتب أحد ممثلى هذه الجماعة قائلا : ليـــس هناك شئ يوضح بدرجة أكثر وضوحا التناقض الكامن فى موقف مثقفى الجناح اليسارى ، الذين يحاربون معركة خاسرة داخل نطاق حدود علـم اجتماع معاد أيديولوجيا ، من ذلك الأسلوب الذى أقحـــم بـــه مؤيـــدى ديمقراطية الجناح اليسارى ذوى النزعة الانسانية أنفسهم فـــى الخنـــدق الأخير لدفاعات صفوة تدافع عن الثقافة الرفيعة [٢] .

وتتصل الاستجابة الثالثة بالمديح غير النقدى لمدرسة فرانكفورت ، بدون التعرف الحقيقى على طبيعة جهدها . فقد دافع س . رايت ميلـــز فى أوائل سنة ١٩٥٤ ، أثناء نقده لعلم الاجتماع الأمريكى ، عن العودة الى " الجهد السوسيولوجى الكلاسيكى " من خلال الاشارة الى مدرســـة فرانكفورت كنموذج لذلك فقد كتب :

(أعرف أنه ليست هناك طريقة أفضل لكى نصبح علـــى معرفـــة بهذا الجهد فى أكثر أشكال التعبير حداثة عنه ، مـــن أن نقـــرأ دوريـــة دراسات فى الفلسفة والعلوم الاجتماعيـــة Studies in philosophy and social sciences التى ينشرها معهد البحث الاجتماعى ، ولســـوء

الحظ فهى متاحة فقط فى مجموعة مراجع المكتبات الجامعية ، وتعتبر عودة عدد من أعضاء المعهد البارزين من بينهم ماكس هوركهايمر وتيودور أدورنو الى ألمانيا خسارة هائلة بالنسبة للدرسات الاجتماعية الأمريكية) (٣) .

فإذا نحينا هذا الاعلان جانبا ، فإنه من الصعب حينئذ أن نتحقق من وجود أى تأثير لكل من هوركهايمر وأدورنو على الكتابات الأساسية لرايت ميلز .

ولتقدير تاثير أفكار مدرسة فرانكفورت ، التى أصبحت شائعة ومنشرة فى السنوات الأخيرة من خلال كتابات هربرت ماركيوز ، فإن ذلك يصبح أمرا صعبا بنفس القدر ، فمثلا نجد البروفيسور بول براينز Paul Breins – وهو تلميذ سابق لهربرت ماركيوز – يعلق على تأثير ماركيوز قائلا :

(لقد ظلت مؤلفات ماركيوز مثل الانسان ذو البعد الواحد ، ومقالة التسامح القهرى Reperssive tolerance ناهيك عن أعماله السابقة ، بمنأى عن قراءة نسبة كبيرة من اليسار لها . وهناك نسبة ضئيلة للغاية هى التى إهتمت بتحقيق فهم دقيق للإتجاه الفلسفى الذى يقف فى اطاره هربرت ماركيوز ، ومثلما كان عمله الجيد خارج إطار الفكر الاجتماعى الأنجلو- أمريكى ، فإننا نجد أن قرائه المتعاطفين وغير المتعاطفين معه هم الذين أساءوا فى الغالب فهمه) (٤) .

وقد كان طلاب علم الاجتماع من الراديكاليين الشباب – والذين تأثروا فى نهاية الستينات من هذا القرن بعلوم الاجتماع العديدة ذات الطابع النقدى (ابتداء من ماركس وحتى ماركيوز) – يعيشون فى إطار حالة انتقالية ومن ثم نجدهم قد التحقوا تدريجيا بالوظائف الصغيرة

للنظام الاجتماعى القائم The establishment وعلينا أن ننظر الى أى حد استطاعـوا الاحتفاظ بنزعتهم الراديكاليـة والحماسـية وتوجهـهم الشبابى ، وفى هذا الاطار يمكن تخمين التأثير المحتمل لـهم ، علـى أساس المماثلات التاريخية بالحركات السابقة للشباب الراديكـالي فـى الولايات المتحدة الأمريكية . فقد أصبح كثير من الطلاب التروتسـكيين والستالينيين الى حد كبير هم عمد المؤسسة الأكاديمية فى الخمسـينات والستينات من هذا القرن (٥) . واستنادا الى ذلك فإننا يمكن أن نفترض بدرجة صدق عالية أن يصبح راديكاليو نهاية الستينات من هذا القـرن ممثلوا المؤسسة فى نهاية السبعينات من هذا القرن .

وقد عبر اثنان ممن لاحظوا ذلك هم جوزيـف بنزمـان Joseph Bensman وآرثـر فيـدش Arthur Vidich عـن هـذه الأبعـاد السوسيولوجية الواضحة بقولهم :

(ومن المحتمل أن يصبح شاب الكلية الناجح تنظيما فى الحركـة السياسية داخل الحرم الجامعى رئيسا للكلية ، ثم عميدا ، أو على الأقـل صحفيا مشهورا له قراؤه ... وربما يصبح التدريب الثـورى أفضـل أنواع التدريب الذى يمكن أن يحصل عليه الشاب لكى يحتل مكانه فـى المؤسسة الاجتماعية) (٦) .

وقد أوضح كتاب مارتن جاى الذى نشر أخيرا تحت عنوان التفكير الجدلى The Dialectical imagination كثيرا من التفـاصيل التـى كانت مجهولة حتى الآن عن تاريخ مدرسة فرانكفورت غير أنه إقتصـو على تناول النصف الأول فقط من تاريخ المدرسة ، وهى الفترة التـى استمرت حوالى خمسين عاما (٧) . وفى العادة يساوى البـاحث غـير المطلع عن خطأ بين مدرسة فرانكفورت للفلسفة وعلم الاجتمـاع مـن ناحية وبين معهد البحث الاجتماعى من ناحية أخرى ، وهو الخطأ الذى

لم يرتكبه جاى Guy . ويحتوى كتاب مارتن جاى على عنوان فرعـى له دلالته : " تاريخ مدرسة فرانكفورت ومعهد البحث الاجتماعى ١٩٢٣ – ١٩٥٠ . وبرغم أن عنوان مارتن جاى يشير الـى أنـه : " تـاريخ لمدرسة فرانكفورت بين ١٩٢٣ – ١٩٥٠ " إلا أننا نجد أن لفظ مدرسـة فرانكفورت Frankfurt School لم يستخدمه أى أى شـخص خـلال الفترة موضع التحليل . وإنما ابتكر هذا المصطلح بواسطة أشخاص من الخارج ، وأيضا بواسطة النقاد فى الفترة التى تلت ١٩٥٠ . ثم تمـت الموافقة تدريجيا على استخدامه ، هذا برغم ندرة استخدام هوركـهايمر أو أدورنو له ، ويشير حرف العطف (و) (And) – التى ينبغـى أن ننتبه إليها – فى العنوان الى كيانين بينهما علاقة ، هما موضع الاهتمام هنا ، وإن لم يوجد بينمها تطابق ، وعلى هذا النحو ، يؤسس العنـوان الفرعى لمؤلف مارتن جاى شرعية إدخال أعمال كل الدارسين الذيـن ارتبطوا بالمعهد فى الأوقات المختلفة وبطرق متعددة أيضا ، وهم الذين يمثلون تنوعا له اعتباره من حيث الالتزام السياسى أو التوجه الدراسى. وبرغم ذلك ، فإننا نجد أن مارتن جاى لم يحدد صراحة هذا التميـيز . وإن كان عمله قد تضمنه فقط . وذلك حينما ميز بين " الدائرة الداخليـة للمعهد " من ناحية وبين بقية أعضائه من ناحية أخرى . وسلم بأن عمل المجموعة الأخيرة يتم إدماجه فى بناء النظرية النقدية بحسب طبيعتـها هذه (٨) . وهناك تبريرا ضعيفا لتضمين انجاز والتر بنيامين Walter Benjamin باعتباره واحد من أكثر المهتمين بعلم الجمال فى مدرسـة فرانكفورت وذلك لأن نيامين لم يكن عضوا بالمعهد أبدا ، هـذا الـى جانب أن كلا من هوركهايمر وأدورنو لم يتوقفا عن التأكيد بأن توجـه بنيامين السياسى والنظرى غريـب علـى التوجـه الأساسـى لفكـر فرانكفورت . فقد انتقدوا مدخله الماركسى " الفج " وراقبوا الكتابات التى كان يرسلها للنشر فى جرنال المعهد . بل أن هناك بعـض الدارسـين المحدثين الذين أكدوا أن هوركهايمر وادورنو قد فضحوا زيف كتابـات بنيامين فى الكتاب الذى حرر بمناسبة وفاته (٩) .

وقد استهدفت دراسة مارتن جاى أن تكون تقريرا تاريخيا عن مدرسة فرانكفورت . وفى نطاق هذه الحدود نجدها قد نجحت تماما . هذا الى جانب أن قيمتها وأهميتها قد ارتفعت باعتبار أنها حقيقة تمثل المحاولة الأولى الجادة لتسجيل أصول هذه الحركة الفكرية وتطورها بالنسبة للقارئ الأمريكى . وفى بعض الأحيان فهى تقرأ باعتبارها " محاكمة تاريخية " للمعهد . ويمكن تفسير ذلك بحقيقة أن هذه الدراسة قد كتبت فى اطار من التعاون الكامل مع الأعضاء القياديين للمعهد ، وبصفة خاصة ماكس هوركهايمر الذى بقى مديرا للمعهد لفترة طويلة ، وتيودور أدورنو الذى جعل المادة الخاصة به متيسرة . ومن المؤسف أن تتوقف الدراسة فى منتصف القصة ، فى سنة ١٩٥٠ .

وقد قدمت دراسة مارتن جاى جزءا من تاريخ المعهد والمدرسة ، تم فحصه بكل دقة وعناية . أما الشئ الذى تأخر كثيرا فيتمثل فى التحليل السوسيولوجى ، والتفحص الدقيق لأفكار هذه الجماعة المرموقة التى تنتمى الى جمهورية فيمار وكذلك التحول فى اهتماماتها . (ومن المهم للغاية فى هذا الصدد أن ندرك أن التفكير الجدلى – الذى ألفه مارتن جاى – لم يستعن بمرجع واحد فى علم الاجتماع من بين مراجعه) ، ومن ثم فمازلنا بحاجة الى تحليل الظروف الوجودية المحددة التى تشكل اطارا لأعمالهم . فمثلا نجد أن دراسة مارتن جاى قد تجاهلت الخلفية اليهودية لكل من هوركهايمر وأدورنو ، أو على الأقل اعتبرتها قضية هامشية ، لا دلالة لها (١٠) . وفى اطار ذلك فإن قناعتنا الأساسية تذهب الى التأكيد بأن التأثير اليهودى كانت له فاعليته فى فكر فرانكفورت خلال تاريخها . بل إنه أصبح مسيطرا فى مرحلتها الأخيرة كما تم التعبير عن ذلك من خلال شوق هوركهايمر الى " الله " وأيضا الديالكتيك السلبى لأدورنو .

ومع كل الامتيازات التى تستحقها فإن دراسة (التفكير الجدلــى) التى قدمها مارتن جاى ليست ولا يمكن أن تكون هى الدراسة النهائيــة الدقيقة لمدرسة فرانكفورت . إذ يمكن إنجاز هذه الدراسة النهائية الدقيقة حينما يتم النشر والتحرير النقدى لمجموعة أعمال كل من هوركـــهايمر وأدورنو . حيث من المتوقع أن يستغرق نشر مجموعة أعمال أدورنـــو وحدها نحو اثنين وعشرين مجلدا ، وهو الجهد الذى بدئ فى انجازه .

أما الدراسة الأخرى التى أنجزت عن هذا الموضوع والمتاحة حاليا باللغة الانجليزية (ترجمة عن الألمانية) فهى دراســة ألــبرت ولمــر Albrecht Wellumer بعنوان النظرية النقديــة للمجتمــع Critical theory of ysociety ، وتتكون هذه الدراســة مــن ثــلاث مقــالات لاإرتباط بينها حيث حاولت المقالة الأولى والثالثة تطوير بعض الأفكــار الأساسية لكل من هوركهايمر وهابرماس ، وتعتبر المقالة الثانية بعنوان " النزعة الوضعية الكامنة فى فلسفة التاريخ عن ماركس " هجوما علــى انحرافات ماركس وميوله الوضعية غير المشــروعة (١١) . ويصــل حجم الفصل الأول والثالث مجتمعين الى حوالى سبعين صحيفة ، وهــو الأمر الذى يجعل اعتبارها معالجة دقيقة أو تحديدا دقيقا للنظرية النقديــة برغم تضمن هذا الإدعاء فى العنوان مسألة صعبة .

٣- الإستجابات الأوروبية للنظرية النقدية :

إذا تحولنا الى المسرح الأوروبــى ســوف تواجــهنا ردود فعــل متناقضة للنظرية النقدية . وفى هذا الإطار يؤكد رينيه كوينيج Ren, e Konig وهو أحد الرواد الأساسيين فى علــم الاجتمــاع الإمبــيريقى الألمانى الحديث أن على أى منا أن يميز بين النظرية السوســيولوجية وبين نظرية المجتمع الخاصة بمدرسة فرانكفورت . وقد كتب مؤكــدا ذلك بقوله : لقد تطورت النظرية السوسيولوجية مستقلة عــن النظريــة

التى قدمت آراء فيما يتعلق بكلية المجتمع بنفس أسلوب كل من الفلسفة وفلسفة التاريخ التاريخ (١٢) . ويستخدم كونيج تشخيص " النظرية السوسيولوجية " لكى يشير به الى علم الاجتماع الموجه إمبيريقيا ، ويشير الى مدرسة فرانكفورت لعلم الاجتماع باعتبارها " نظرية المجتمع " رافضا النزعة التعددية فى التنظير السوسيولوجى ، حيث نجده قد استبعدها من نطاق علم الاجتماع .

ويصف كال بوبر Karl Popper وهو الفيلسوف المخلص لعلم الاجتماع الوضعى " تأثير مدرسة فرانكفورت بألفاظ جافة باعتبارها لا عقلانية ومحطمة للذكاء " (١٣) . ويسمى هانز ألبرت Hans Albert وهو من أبرز ممثلى نفس الاتجاه الوضعى ، علم اجتماع منظرى فرانكفورت باعتباره " ثيولوجيا جدلية ماركسية " (١٤) [1] .

وتبقى هناك وجهة نظر ثالثة فى علم الاجتماع الألمانى وهى التى ترى فى الأفكار التى قدمتها مدرسة فرانكفورت أساسا لانجاز متوقع فى المستقبل ويعتبر هيلموت شيلسكى Helmut schelsky أبرز ممثلى وجهة النظر هذه شهرة . حيث نجده يؤكد وهو يكتب عن نظرية " المجتمع الترنسندنتالية " أن هذه النظرية لم تثمر بعد . وبرغم أن السعى نحوها قد ظهر فى العقد السابق على يد كل من ماكس

---

(١) قد لا يوافق تماما كل من بوبر Popper وألبرت Alpert على اطلاق عنوان الوضعية على علم الاجتماع أو الفلسفة التى ينتميان إليها وهم يفضلون تعبير " النزعة العقلانية النقدية " ، ولكى نؤسس تمييزا واضحا فنحن نستخدم مصطلح النظرية النقدية Critical Theory للاشارة الى النظريات الاجتماعية الخاصة بهوركهايمر وأدورنو حتى سنة ١٩٥٠ . وهو المصطلح الذى قام بصياغته هوركهايمر وذاع استخدامه خلال هذه الفترة . بينما تسمى نظريات هوركهايمر وأدورنو بعد سنة ١٩٥٠ نظرية المجتمع ، وهو المصطلح الذى اعتاد كل من هوركهايمر وأدورنو استخدامه بعد سنة ١٩٥٠ .

هوركهايمر وتيودور أدورنو ، غير أنها ما زالت حتى الآن مجرد أمنيه (١٥) .

وفى ضوء التيار الكبير للدراسة التاريخية الألمانية ما زالت هنـــاك مسألة عقلية مميزة تتمثل فى عدم نشر دراسة شاملة عــــن المعـــهد أو مدرسة فرانكفورت ، وذلك برغم وجود مقالات عديدة بالاضافـــة الـــى عدد قليل من الدراسات التى تناولت بالتحليل جوانب محدودة من عمـــل كل من هوركهايمر وأدورنو (١٦) .

وتتمثل أكثر التحليلات طموحا فـــى دراســـة شـــاملة ودراســـتين صغيرتين نشرتا باللغة الايطالية ، ولسوء الحظ فهى غير متاحة بالنسبة لعدد كبير من القراء بسبب حاجز اللغة (١٧) .

ويتفق تحديد مدرسة فرانكفورت مع الدراستان المكتوبتان باللغـــة الايطالية ، ويتبنى الموقف الذى يعنى أن مصطلح "مدرسة فرانكفورت " أو مدرسة فرانكفورت للفلسفة وعلم الاجتماع يتطابق الى حد كبير مـــع أعمال كل من هوركهايمر وأدورنو ، أعنى أنها تتحدد بالكتابات التـــى تقع فى اطار علم الاجتماع والفلسفة الاجتماعية ، والفلسفة العامة بالنظر الى عدة أبعاد منها الاستمرارية ، الموقع التنظيمى ، والتقارير المنشورة وتشير الاستمرارية هنا الى الارتباط التنظيمى لكل من هوركهايمر لمدة أربعين سنة وأدورنو لمدة ثلاثين سنة . حيث ارتبـــط كـــل الأعضـــاء الآخرون بالمعهد لفترات أقصر الى حد ما . وقد كان هوركهايمر هـــو مدير المعهد ابتداء من سنة ١٩٣١ وحتى تقاعده فى ١٩٥٨ ، بينما كان أدورنو هو نائب مدير المعهد ابتداء من ١٩٥٥ حتى أصبح مديرا فـــى ١٩٥٨ . وليس هناك عضو آخر من أعضاء المعهد أكد على الموقـــف النظرى والألتزام المنهجى أو السياسى للمعهد . وقد تم الاقتراب هنا من اسهام ماركيوز بصورة سريعة . ولم تجر دراسة متعمقة لإنجازاتـــه ، وإن حاولنا التعرض لموضوع دراسات كثيرة له .

أما جيرجون هابرماس ، وهو من أبرز مفكـــرى الجيــل الثـــانى لمدرسة فرانكفورت ، فقد انحرف بصــــورة واضحـــة عــن الأفكــار الأسياسية التى تمثل التوجه الأصلى لمدرسة فرانكفورت ، وترك المعهد فى سنة ١٩٧٢ بعد أن وصل الى منتصف تدرجه الوظيفى . كل هـــذه العوامل جعلتنا نستبعد مناقشة إنجازه .

٤- مدخلنا لدراسة مدرسة فرانكفورت

على هذا النحو يعتبر هذا الكتاب دراسة لعلـــم إجتمـــاع وفلســفة مدرسة فرانكفورت كما طورها أولا ماكس هوركهايمر فى الثلاثينــــات من هذا القرن ، ثم استمر فى تأسيسها والتعديل فيها بالاشـــتراك مــع تيودور ادورنو منذ سنة ١٩٤٠ . (ويقــع فحــص الكتابــات الهائلــة لأدورنو فيما يتعلق بقضايا الفن ، الموسيقى ، والأدب خـــارج نطـــاق أهداف هذه الدراسة) .

وقد تم التأكيد على وحدة أفكار هوركهايمر وأدورنو المـــرة تلــو الأخرى فى كل منشوراتهما التى نشرت بعد سنة ١٩٤٠ . وقد اشــتركا فى تأليف عديد من المجلدات وأصرا علـــى تـــأكيد الهويـــة الواحـــدة لأفكارهما ونظرياتهما . واستنادا الى ذلك فنحــــن نقــرأ فـــى كتـــاب هوركهايمر (خسوف العقل) الذى نشره سنة ١٩٤٧ بقوله :

(صممت هذه المحاضرات لكى تلخص بعض جوانــــب النظريـــة والفلسفية الشاملة التى طورها الكاتب خلال السنوات القليلـــــة الســـابقة بالاشتراك مع تيودود أدورنو ، وقد يكون من الصعب أن نحدد الأفكار التى لها أصل فى عقله وتلك التى ترجع الى ، فلسفتنا واحدة) (١٨).

وقد كتب أدورنو فى مؤلفه الحدود الأخلاقيـــة الدنيـا Mimina Moralia الذى نشر سنة ١٩٥١ عن " الفلسفة المتبادلة من وجهة نظر الخبرة الذاتية " ثم نجده يؤكد " أنه ليست هناك فكرة رئيسية واحدة فـى المؤلف لا تنتمى الى هوركهايمر بنفس قدر إنتمائها الى الكاتب الـــذى وجد الوقت لصياغتها " (١٩) . وأخيرا فـــى مؤلـف Sociologica المنشور فى سنة ١٩٦٢ والذى شارك فى تأليفه كل مـــن هوركـــهايمر وأدورنو نجدهما يذهبان الى القول بأنه قد تأكد لنا " أن وحـــدة العمـل تتكون من الخبرة والهدف المشترك للمؤلفين " (٢٠) .

ويمكن الموافقة على هذا التأكيد المتكرر لكـــل مـــن هوركـــهايمر وأدورنو حول وحدة عملهما حتى الأربعينات من هذا القرن ، غـــير أن ذلك لا ينطبق على كل أعمال حياتهما . هذا الى جانب أن هناك خلافـــا رئيسيا بين فكر الرجلين ينبغى ذكره منذ البداية : وهو الاختلاف الـذى يتمثل فى تأثير شوبنهاور المسيطر على هوركهايمر ، وتـــأثير هيجــل على أدورنو ، ثم تأرجح هوركهايمر بين شوبنهاور وماركس ، وتأرجح أدرونو بين الموسيقى وعلم الاجتماع .

ويقع تاريخ مدرسة فرانكفورت فى إطار ثلاث فترات ، حيث تبـدأ الفترة الأولى بتحمل هوركهايمر الادارة فى سنة ١٩٣١ ، ثم تأسيســـه للنظرية النقدية بعد ذلك ، وفى الفترة الثانية والتى بـــدأت مـــن عـــام ١٩٤٠-١٩٥٠ حيث اشتراك هوركهايمر وأدورنو فى تاليف عديد مـــن الكتابات والمشروعات . ثم الفترة الثالثة والأخيرة التى بدأت فى عـــام ١٩٥٠ بعد عودتهما الى فرانكفورت ، حيث استمر التعاون بينهما مـــن أجل تطوير نظرية عن المجتمع وهى عبارة عن صيغة معدلة للنظريـــة النقدية السابقة .

وتحاول هذه الدراسة تتبع الفترات التاريخية المختلفة لمدرسة فرانكفورت . حيث تعرضت فى الفصل الأول للسنوات السابقة على تولى هوركهايمر الأمر ، وقد تم بحثها باعتبارها تمهيدا ، ثم بعد ذلك تقييم إسهام هوركهايمر النظرى ، وذلك بالنظر الى الادعاء الذى يذهب الى القول خلال الثلاثينيات من هذا القرن بأنها نظرية اجتماعية ماركسية .

ويعالج الفصل الثانى تنوع التفسيرات النظرية والتأملات المتعلقة بالفلسفة الاجتماعية تلك التى حاول كل من هوركهايمر وأدورنو تقديمها فيما يتعلق بالفاشية . حيث قدم تهديد الفاشية ، والخوف من احتمالية أن تحتوى المجتمعات الصناعية المتقدمة على أى من أشكال النسق الفاشى، أعظم التحديات بالنسبة لمدرسة فرانكفورت . وفى هذا الاطار اقترح هوركهايمر فكرة الفاشية باعتبارها " أعلى مراحل الرأسمالية " وقد طور هوركهايمر وأدورنو أثناء نفيهما فى مدينة نيويورك وكاليفورنيا تعاونا كاملا أدلا الى تأسيس نوع من الفلسفة الاجتماعية حول الحضارة الغربية وخطر الفاشية على العالم بكامله . وأخيرا وفى إطار دراسة امبيريقية تساهم فيها أنساقا معرفية متنوعة Interdisciplinary عن الشخصية الفاشية The Authoritarian personality . ثم بحث الجذور الانسانية للفاشية ، وقد عالجنا فى الفصل الثانى أيضا نقد هوركهايمر للعلم وفلسفة الطبيعة الجديدة التى اقترح أن تحل محله ، حيث شكل كل من العلم الحديث باعتباره مصدرا لشرعية السيطرة المجتمعية ، والفلسفة الوضعية للعلم ، باعتبارها تبرير هذه السيطرة نظريا ، موضع اهتمام نظرية هوركهايمر منذ البداية .

وبعد عودة كل من هوركهايمر وأدورنو الى فرانكفورت فى الخمسنات أعيد تأسيس المعهد وتم ادماجه فى الحياة الأكاديمية لألمانيا الغربية . وفى الفصل الثالث تمت مناقشة إعادة تأسيس النظرية النقدية

تحت عنوان جديد هو نظرية المجتمع ، ونقد علم الاجتماع الوضعي الامبيريقي ، وقد نوقشت المرحلة الأخيرة لتطور تفكير هوركهايمر وانتقاله الى موقف شبيه بالموقف الديني ، وتطور تفكير أدورنو وانتقاله الى نوع من العدمية في الفصل الثالث .

وقد تعمدنا أن يكون فحص أعمال كل من هوركهايمر وأدورنو فحصا تفسيريا ونقديا بالنظر الى ثلاثة أبعاد أساسية : (١) الهدف الرئيسي والانجاز الذي تحقق في هذا الاطار . (٢) فحص شهرتها باعتبارها استمرارية للنظرية الأساسية لماركس (٣) مدى صدق نظرياتهم في ضوء معايير العلوم الاجتماعية والطبيعية التي تلقى اتفاقا عاما . وعلى هذا النحو تهدف هذه الدراسة الى تجاوز الدراسات الموجودة عن مدرسة فرانكفورت عن طريق تغطية الفترة التاريخية التي شغلتها ، وعن طريق مقارنتها بكل من الماركسية وعلم الاجتماع العلمي .

ويعتبر انجاز النظرية النقدية تجليا لتفكير مجموعة من المثقفين البرجوازيين الألمان الذين انهار نظامهم الاجتماعي القديم في وسط أوروبا . ولعله يمكن تشخيص وجودهم المأساوي بصورة أفضل باستخدام مصطلح (اليسار الكئيب أو الحزين Left – Melancholy) وهو المصطلح الذي قام والتر بنيامين بصياغته في سنة ١٩٣٧ في مقالة له عن اثنين من أشهر الكتاب البرجوازيين الألمان ذوي النزعة اليسارية ، وهم كيرت توشولسكي Kurt Tucholsky ، إريك كاستنر Eric Kastner . وقد حدد بنيامين بدقة وبصورة مفصلة نزعتهم الراديكالية بإعتبارها موقفا :

(لايقع على يسار هذا الاتجاه أو ذاك ، ولكنه يقع ببساطة على يسار كل شئ ممكن) . Links nicht von d'eser oder jener

richtung sondern ganz etnfach Links Links von Mogli-
chen ubrtauprz. ويعبر بقسوة قائلا أن هذه النظرة الى العالم وهذه
النزعة الراديكالية الزائفة ذات هدف واحد منذ البداية : أن تستمتع
بصمتها السلبى Er hat jason vornhevein nichts and ores in
Auge, als in negativistischer Ruhe sich selbst u
geniesson. وبالتأكيد يعتبر وصف بنيامين لجماعة أخرى من مثقفى
الجناح اليسارى فى جمهورية فيمار – وقد كانت هناك جماعات كبيرة
– نقدا ذاتيا ، وتنبؤاً فى ذات الوقت بالنسبة للنظرية النقدية (٢٢) . إذ
تعتبر إرادتهم ورغبتهم " فى أن يحصلوا على أمانهم ، وإمتاع ذواتهم "
حتى ولو كان ذلك على حساب ضمير معتل – اتجاها استمر مصاحبا
للمنظرين النقديين : وكما تأمل أدورنو أخيرا فى سنة ١٩٤٤ فى منفاه
بكاليفورنيا قائلا :

Rien Fairs Comme une bete أن تنام على سطح الماء وأن
تحملق فى السماء " ألا تكون شيئا ، أن تكون بدون أى تصميم ، وألا
تسعى لأى إنجاز فذلك يمكن أن يحل محل العمل والفاعلية
والاشباع ..." (٢٣) [١] .

١– من الواضح أن هناك خلاف حاد بين النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت وبين النظرية الماركسية التى انطلقت لتأكيد أفكارها هذه المدرسة . فمن ناحية نجد أن أنه بدلا من نضال البروليتاريا الواعى للقضاء على النظام الرأسمالى لتحقيق المجتمع الشيوعى من خلال الثورة . نجد ركونا الى العزلة وعوة الى الاستمتاع السلبى من قبل منظرى هذه المدرسة . ومن ناحية ثانية بينما ترفع الماركسية ثمار التعبير الارادى ، والموقف الايجابى لهذا العالم ، انطلاقا من ثقة البروليتاريا وادراكها بانها تعمل وفقا لقوانين التاريخ نجد تكيفا مت قبل النظرية النقدية مع الواقع الرأسمالى . مع الخوف من تسرب الروح الفاشية اليه ، ومن ناحية ثالثة بينما تشكل النظرية الماركسية نظرية متفائلة بشأن المستقبل ، حيث تحرر البروليتاريا فى المجتمع الشيوعى واعمالها لملكاتها المتنوعة فى اطار هذا النظام ، نجد مسحة تشاؤمية واضحة لدى منظرى مدرسة فرانكفورت تدفعهم الى حالة من السلبية وتفضيل الحياة على هامش التفاعل الاجتماعى دون محاولة التأثير فيه . " المترجم "

المراجـــــع

المراجـــع : -

١- يمكن أن ننظر الى رثاء أدورنو الذى نشرته مجلة نيويورك تـــايمز New York Times ، وهى المجلـــة المحترمـــة والتـــى لديـــها معلومات كثيرة ، باعتباره رمزا للغموض الـــذى أحـــاط بإنجـــاز أدورنو فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد تحدث الرثاء مطـــولا عن أفكار أدورنو فيما يتعلق (برقصة الجيتبرج البهلوانية) . وهى التى تعرض لها فى أحدى مقالاته (نيويورك تايمز ، ٧ أغســطس ١٩٦٩- ، ص ٣٥٠) . ويمكن للأمثلة القليلة التالية أن توضـــح القضية التى نؤكد عليها والتى تتصـــل بـــالغموض والتصـــورات الخاطئة التى أحاطت بمدرسة فرانكفورت . وعلى سبيل المثال أكد ديفرا لى ديفيز Devra lee Davies أن " إيرنست بلـــوخ Ernst Bloch ، الذى كان عضوا لبعض الوقت فى مدرسة فرا نكفـــورت قد صاغ رائعته الموســيقية Das prinzip ... Woltschmerz Hoffnung بوعى ذاتى توفر لـــه بعـــد أشـــفيتز Auschwitz ، وبرغم أن إسهام بلوخ تسوده روح اليوتوبيا فإننا نجده يعكس صدى النزعة السلبية لمفكر ملحد أنظر فى ذلك :

1-Theodor W. adorano : Theoretician Through negations in Theory and society, Vol . 2, No. 3 (fall 1972) Pp. 389-400 .

وحتى بالنسبة لجورج لشتم الواسع الاطلاع ، نجده قد كتب قائلا : لقد ارتبط لوكاش لفترة قصيرة بالمعهد غير أنه أصبح منشقا مثل كـارل كورش karl Korsch وغيره . أنظر فى ذلك :

From Marx 5 Hegel. New York The seabury press 1974, p.129 .

2- J.P Nett " Ideas, Intellectuals and structres of Dissent, " in philip Rieff (Ed) , on Intellectuals, New York, Doubleday, 1969, p. 110 .

3- C.Wright Mills, power, politics and People, New York , 1963.p.572 .

4- Paul Berins, " Marcuse and the New left in America " in jurgen Habermass (Ed) Antworten auf Herbert Marcuse, Frankfurt am Main 1969, p . 137 .

٥- تعتبر الكتابات المتعلقة بتاريخ الحياة الفكرية للفلاسفة وعلماء الاجتماع الأمريكيين واضحة فى هذا الصدد . إذ نجد سدنى هوك Sidney Hook الذى يعتبر نفسه " شيوعيا بلا عقيدة " يتحول ليصبح فى الثلاثينيات من هذا القرن صليبيا متحمسا ضد الشيوعية ، وإدوارد شيلز Edwurd shils الذى ترجم كتاب كارل مانهايم " الماركسية البرجوازية " يؤكد على ريتشارد نيكسون للرئاسة فى سنة ١٩٧٢ . وسيمور ليبست Seymour Lipset الذى يتحدث عن ميوله الاشتراكية وهو طالب فى كلية نيويورك The city college of New York فى الأربعينات من هذا القرن فى مؤلف :

5- The Sociological self – imges, edited by lrving louis Horowitz, Beverly Hills, calif. Sage publicatians 1969.p.144.

ويرى بيتر بلاو Peter M. Blaw قصة أسلوب تعلقه صـــور أبطـــال الفكر من وجهة نظره مثل ماركس ، وفرويد على حائط حجرته وهـــو طالب شاب بكولومبيا ، وقد نشرت كتابات روبرت مـــيرتون Robert K. Merton الرائدة فى إطار علم اجتماع العلم فى جرنـــال نظـــرى ماركسى يسمى (العلم والمجتمع Science and Society) وكذلـــك كتابات لويس فويير Lewis Feuer فى الخمسينات من هـــذا القـــرن . وهكذا تستمر القائمة الى ما لا نهاية ، ومن ثم لـــم تبـــق الإلتزامـــات السياسية والنظرية فى النهاية شيئا من هذه الانحرافات التى حدثت فـــى فترة الشباب . ويصبح من المأمون أن نتنبأ بمسار تطور مماثل بالنسـبة للدارسين من الطلبة اليسار فى فترة الستينات من هذا القرن .

6-joseph Bensman and Arthur j. Vidich, The New American Society, Chicago,1971.p.250.

7-Martin Jay, The Dialectical imagination, A History of the Frankfurt School and The institute of social Resarch, 1932-1950 . Boston, 1973 , The book is based on Jay's Dissertation , The Frankfurt School : An Intellectu - al History of the " Institute Fur sozialforschung " 1923 – 1950 . Harvard University , 1971. And see : yay M.,

وللاطلاع على مناقشة تفصيلية لدراسة جاى أنظر العرض الذى قدمته

" The Career of Critical Theory " in the Nation, Nov. 5, 1973, Pp.473-475 .

8-Ibid., P. 152.

9- Hildegard, " Theodor W . Adorno als sach Walter des Benjaminschen Werkes " in Wilfried F . schoeller (Ed) Die neue Linke mach Adorno, Munchen, 1969 , Pp.158-175 .

10- Martin jay , The Dialectical imagination Pp, 32-33.

11- Albrecht Wellmer, Critical Theory of society, New York, 1971.

12- Rene Konig (Ed) , Soziolgie, Frankfurt am Main. 1967, p305 .

13- Karl Popper " Reason or Revolution " European Joumal of sociology, XI (1970) p. 253 .

١٤- هناك مجموعة كبيرة من الأسماء التى تذكر بها مدرسة فرانكفورت أو النظرية النقدية . فمثلا يحتوى مصطلح (نقدى Critical) على الإشارة الى كل من إيمانويل كانت Imman uel kant وماركس Mark أن أعماله الثلاثة الهامة فى (نقد العقل النظرى Critique of pure ثم نقد العقل العملى Critique of practical Reason ثم نقد الحكم Critique of Judgement وتكشف القراءة المتعمقة لأعمال ماركس استخداما مدهشا لإسم noin كلمة (نقد Critique) والصفة (نقدى Critical) أنظر مثلا :

14- Cantrbution to the Critique of Hegel's Philosophy of right (1944) , The Holy Family or Critique of Critical Critique (1844) , Grundrrisse, Foundations of The

Ctitiqe of political Economy (1859) , Capital, Acritical Analysis of Capitalist production (1867) , Critique of Gothe Programme (1875) .

15- Helmut Schslsky, Ortsbestimmung der deutschen Soziologie, Dusseldorf, 1959, p.96.

١٦- من بين الدرسات التى أنجزت باللغة الألمانية . نذكر الدراســات التالية التى تتناول بعض جوانب مدرسة فرانكفورت منها :

16- Gunter Rohrmoser, Das Elend der Kritischen Theorie, Frieburg, 1970; Wilhelm Raimund Beyer, Diesuden der Frankfurt Schule , Berlin (East) 1971 Michael Landman, Entfremdende Vernunft, stuttgart 1975 . On Horkheimer see : Werner Post, Kritische Theorie und Meta physischer Pessimismus, Munchen, 1971 ; Alfred Schmidt, Zur Idee der Kritischen Theorie als Geschichtsphi Losophie, Munchen, 1974 ; Anselm Škuhra, Max Horkheimer, Eime Einfuhrung in sein Denken , Stuttgart, 1975. On Adorno see :

Friedeman Grenz, Adorno philosophie in Grundbe frankfurt am Main, 1974 ; Otwin Mass-griffen, folgening, Adorno und die, Neuwied und Berlin, 1970.

17- G. E Rossconi, Teoria Critica della Societa 2 nd ed ., Bologna, 1970 Alfred Schmidt und C.E

Rusconi, la Scuola de Franfurt, Bari, 1972, und Goeran Therborn, Critica e Rivdilzione La Scuola die Frankfurt . Bari. 1972 .

وقد جاء إلينا دراسة فرنسية بعد اكتمال هذه الدراسة وهى :

Pierr V. Zima, L'ecole de Frankfort Dialectique de La Particularite, Paris, 1974 .

18- Max Horkheimer, Eclipse of Reason, New York, 1974. P.Vii .

19- Theodor W . Adorn Minima Moralia, Reflexionen ausdem beschadigten leben, Frankfurt am Main 1969 , p.12 .

20- Max Horkheimer und Theodor W . Adorno, Socialogica II, Frankfurt am Main, 1962, p . 1 .

21- Walter Benjamin, Angelus Novus, Ausgewahlte Schriften Vol, 2 . Frankfurt am Main, 1966, p. 459 .
ولقـــراءة مناقشـــة سوســيولوجية وفلســفية وســكولوجية (للكآبـــة Melancholy) أنظر :

Wolf Lepenies , Melancholie und Gesellschaft Frankfurt am Main, 1972 , Michael Landmann " Mdancholien der Erfullung " in Anklage gegen die Vernunft, Stuttgart, 1976, Pp. 208 – 230,

Sigmund Freud, " Mourhing und Melancholia " in The Standard Edition af The Complete Psychological Works of Sigmund Freud, Vol. 14 London, 1957 ,Pp. 243-258 .

٢١- للتعرف على التاريخ العام لجمهورية فيمار أنظر :

22-Arthur Rosenberg, Entstehung und Geschichte der Weimarer Republik Frankfurt am Main, 1955, Erich Eych, A History of the Weimar Republic, from collapse of The Empire To Hindenbury, Election, New York, 1970, on " Wrimer Culture " and intellectual history see, Lstvan Deak, Weimar Germang's left wing intellectuals : A Political History of The Weltbuhne and its Circle, Berkeley and Los Angeles, 1968., Peter Gay, Weimar Culture : The Outsider as Insider, New York, 1970, Walterloqueur, weimar, A Cultural History 1918-1933, London , 1974, Hans – Helmuth Knutter, Die Juden und die deutsche Link in der Weimareer Republik 1918/1933, Dusseldorf, 1971, Jeno Kurucz, struktur und Funktion der Intelligenz warend der weimarer Republik, Koln, 1967 , .

23- Theodor W . Adorno, minima Moralia, p . 208 .

الفصل الأول

النظرية النقدية لماكس هوركهايمر

١- النظرية النقدية لماكس هوركهايمر :

ترجع النظرية الفكرية لمدرسة فرانكفورت الى سنة ١٩٢٣ ، وذلك حينما تأسس معهد البحوث الاجتماعية Institut Fur sizialforschung الذى كان تابعا لجامعة فرانكفورت . إذ اقترح فليكس فيل Felix J . Weil حينئذ فكرة إنشاء معهد للبحوث الاجتماعية ، تجرى البحوث فيه حسب الإطار الماركسى . وقد كان فليكس فيل ابنا لهيرمان فيل Herman Weil الذى ترك ألمانيا فى فترة سابقة الى أمريكا الجنوبية حيث أصبح أرجنتينيا يتاجر فى الحبوب ، ويدعم ماليا فى ذات الوقت الطموحات الاشتراكية لإبنه . ذلك يعنى أن فليكس فيل قد ولد فى الأرجنتين ثم سافر الى فرانكفورت من أجل التعليم وقد حصل على درجة الدكتوراه فى سنة ١٩٢١ (١) .

وقد أصبح كارل جرونبرج Carl Grunberg أستاذ الاقتصاد السياسى بجامعة فيينا ومحرر جريدة تهتم أساسا بتاريخ الاشتراكية

١- يعتبر تيار النقد الاجتماعى الذى أسسته مدرسة فرانكفورت التيار الرئيسى للفكر النقدى على نحو ما أشرنا إليه فى المقدمة التحليلية لهذه الدراسة . وإن كان فكر هذه المدرسة قد بدأ من خلال محاولة تطوير مقولات النظرية الماركسية ، من خلال الالتزام بها فى دراسة مختلف الظواهر والوقائع الاجتماعية الواقعية . إلا أنها انتهت بالخروج على الاطار الماركسى ذاته ، ويمكننا أن ننسب هذا الخروج على الماركسية الكلاسيكية لثلاثة عوامل : الأول التطبيق الماركسى كما حدث فى الاتحاد السوفيتى ، والقهر الفائض الذى مارسه النظام على الأفراد خاصة فى الفترة الستالينية ، ويتمثل العامل الثانى فى النمو المخيف للنظام الرأسمالى خلال هذه الفترة بحيث لم يصبح تحرير البروليتاريا هو الهدف فقط ، بل أصبح تحرير الانسان من وطأة المجتمع التكنولوجى عموما هو الهدف . ويتمثل العامل الثالث فى إدراك أعضاء هذه المدرسة بعد فترة وجيزة من مرحلة البداية لعجز المقولات الماركسية عن متابعة بعض التفاعلات أو الظواهر الواقعية ، ولقد تمثل هذا العجز خاصة على المستوى المنهجى ، حيث اتجه أعضاء هذه المدرسة مبكرا الى الاستعانة بالمنهجية الغربية لفهم بعض الظواهر الاجتماعية " المترجم " .

والحركـــــة العماليــــة (Archiv Furdie Geschichte des sozialismus und der Arbeiterbewgung or Grunberg Archiv) المدير الأول للمعهد ، وقد ظل يتقلد هذا المنصب حتى سـنة ١٩٢٨ . وباعتباره اقصاديا ينتمى الى المدرسة التاريخية ، فقد تبنـــى الماركسية ، وأصبح الماركسى الأكاديمى الأول فى الجامعات الألمانيـــة . ومن ثم فقد أصبـــح مـــن المتـــاح للماركســـية ، كفكـــر اقتصـــادى وسوسيولوجى – وإن كان لها وجودها السابق حتى ذلـــك الحيـــن فـــى الجامعات الألمانية – أن تجد لها مكانا فى المعهد الجديد .

وقد تشكلت السنوات الأولى للمعهد بتأثير جرونبرج الذى اعتبر أن الماركسية يمكن أن تصبح نظرة الى العالم ومنحها فى البحث . هذا الى جانب أنه كان مقتنعا بأن المجتمع المعاصر يمر بمرحلة (انتقال مـــن الرأسمالية الى الاشتراكية) ومن ثم فقد كان فهمـــه للماركســـية غـــير فلسفى أساسا :

(حيث أدركت المعطيات الفلسفية والتاريخية باعتبارهـــا متباينـــة تصوريا . إذ لا تكمن مشكلة الصياغة التصورية المادية أو التاريخيـــة فى الوصول الى مقولات نهائية من خلال التأمل ، أو فى إدراك الشـــئ فى ذاته ، أو فى بحث العلاقة بين العقل والحقيقة الخارجية) (٢) .

وبالنسبة لجرونبرج لا تمتلك المادية التاريخية أى مصداقية مستقلة عن الزمان والمكان ، ولكنها تمتلك معنى متعين تاريخيا فقط . ومن ثـــم تكمن مهمتها الأساسية فى بحث " العالم الواقعى الملموس فى صيرورته وتغيره " وفى هذا الصدد أعلن جرونبرج الاستقرار باعتبـــاره المنـــهج العلمى الصحيح . وقد أكدت محاضرة جرونبرج الافتتاحية الحاجـــة " الى دكتاتورية المدير The Dictatorship of the Director " فيمـــا

يتعلق بأعمال المعهد [١] . ويعنى ذلك أن يصبح من غير المقنع تماماً أن يشارك فى إدارة المعهد باحثون ذوى مداخل منهجية متباينة . (٣)

ويمكن اعتبار المثقفين الشبان من أمثال ماكس هوركهايمر – Max Horkheimer وفريدريش بولوك Freeodrich Pollock ، وهينريك كروسمان Henryk Grossman وريتشادر سورج Richard Sorge وكارل فيتفوجل Karl Wittfogel (العالم المهتم بالثقافة الصينية) ضمن أعضاء المعهد .

وأخيرا خلال فترة الثلاثينيات التحق كل من فوفنتال Leo Lowenthal وهربرت ماركيوز Herbert Marcuse ، إريك فروم Erich Fromm ، وفرانز نيومان Franz Neumann وأوتو كرشهايمر Otto Kirch Heimer وتيودور أدورنو Theodor Wiesengrund Adorono بوظائف فى المعهد ، وقد كونت فرق البحث هذه فرقا أكاديمية تضم تخصصات متنوعة ، تبدأ من الفلسفة وعلم الاجتماع وحتى الآداب وعلم السياسة والاقتصاد . وقد كان معظم هؤلاء المثقفين من اليهود الذين ينتمون الى الشرائح المتوسطة والعليا للطبقة المتوسطة [٢] .

١- يقصد بمصطلح دكتاتورية المدير أن يلتزم أعضاء المعهد بإطار نظرى واحد فى بحوثهم الواقعية ، وقد اتفق أعضاء المعهد على أن الإطار الماركسى هو الموجه لبحوث المعهد خلال هذه الفترة ، بيد أنه بعد انتهاء فترة إدارة جرونبرج ، بدأ أعضاء المعهد يتحررون تدريجيا من الإطار الماركسى ، ولعل ذلك يرجع لعاملين ، الأول التكوين البرجوازى لأعضاء المعهد ، وهو التكوين الذى جعلهم أقرب إلى الليبرالبية منها الى نقد المجتمع البرجوازى دفاعا عن البروليتاريا ، اضافة الى بداية تخلف بعض المقولات الماركسية عن مسايرة حركة التفاعل الكائنة فى المجتمع البرجوازى " المترجم " .

٢- سوف نلاحظ أن هذا التكوين لمرسة فرانكفورت سوف يكون له تأثيره على اتجاه وأفكار المدرسة ، فمثلا نجد أن معظمهم تحت وطأة القهر النازى قد هاجر الى الولايات

والذين كانت لهم فاعليتهم الواضحة فى الممارسات السياسية لجناح اليسار (حيث كان أربعة منهم على الأقل أعضاء فى الحزب الشيوعى مثل سورج الذى أصبح جاسوسا بارعا للاتحاد السوفيتى والذى أعدم فى اليابان . وفيتفوجل الذى كان مرشحا للحزب الشيوعى فى الريستاج Reichstag هذا بالاضافة الى جروسمان Grossmann وبولوك ، وقد أجبر المرض جرونبرج فى ١٩٢٨ على التخلى عن إدارة المعهد ، ونتيجة لذلك أصبح هوركهايمر بعد فترة وجيزة من الادارة بقيادة بولوك المدير . وبدأت فترة جديدة بالنسبة لحوليات المعهد ودورياته .

المتحدة باعتبارها المجتمع الذى يبيح قدرا عاليا من الحرية للأقليات الدينية ، هذا الى جانب تميز أفكار المدرسة بطبيعة الطبقة الوسطى ومصالحها فهى لم تقف كثيرا باعتبار برجوازيتها الى جانب ثورة البروليتاريا . ثم هى لم تركز كثيرا على قهر المجتمع من خلال سلب فائض القيمة . وإنما ركزت كثيرا على حالة التشويه والتبعية الثقافية المفروضة على الانسان فى المجتمع ، وهو ما يفرض العمل على تحريره منها " المترجم " .

٢- الخلفية التاريخية والوجودية للنظرية النقدية :

يتطلب الفهم الحقيقى للنظرية النقدية فحصا دقيقا للبشر الذين رفعوا لوائها ، ولأعمالهم وخلفيتهم الاجتماعية والتاريخية ، وذلك لكى نوضح الضرورة الوجودية لمنظرى فرانكفورت . أعنى لكى نلقى الضوء على العلاقة بين المعطيات المتعلقة بحياتهم الشخصية من ناحية وبين انجازاتهم النظرية من ناحية أخرى . ومن ثم فإن أى دراسة دقيقة حسب هذا الإطار ينبغى أن تنتظر حتى تصبح كل المعلومات والكتابات الأساسية متيسرة . وفى ضوء المادة المتوفرة ، فإنه لا ينبغى حينئذ ، تجاهل العامل الهام المتعلق بسيرة حياة الأعضاء ، حيث يمكن أن يقود ذلك الى تأسيس بعض القضايا المبدئية فى هذا الصدد . ومن ثم يصبح من الضرورى أن نبحث فى المحددات الوجودية للتطور العقلى لمفكر مثل هوركهايمر لكى نوضح كيف دفعه والده ذو النزعة السلطوية Authoritarian والمستبدة Domineering الى الاستخفاف بهذه السلطة المباشرة التى كانت ترمز بالنسبة له الى النزعة الفاشية التى تسود المجتمع الألمانى المعاصر قبل انهياره فى عام ١٩١٨

ويعتبر الاحتجاج ضد المعاناة الإنسانية والظلم الاجتماعى المرتبط بالشوق الى عالم آخر " من القضايا الدائمة فى تفكير هوركهايمر طيله حياته ، حيث كانت خلفيته العائلية اليهودية ذات الطبيعة اليهودية المتغطرسة مصدرا لإحتجاجه وشوقه . وباعتباره قد عمل فى مشروعات الأسرة حسب رغبة والده ، ولأنه قد بدأ يتولى الأمر من بعد أبيه ، فإننا نجد أن هوركهايمر ذو العشرين سنة يتأمل هذا الموقف فى مذكراته قائلا :

(لقد كان لى مركزا مرموقا ومستقبلا مشرقا فى مشروعات والدى . إذ كان بإمكانى أن أحصل على كل ملذات الحياة التى أرغب فيها . كان بإمكانى أن أستغرق فى عملى أو أسلى نفسى عن طريق

السعى وراء كل المتع ... غير أن لهيب الشوق المحرق استهلكنى ... ومن ثم بدوت غير قادر على التحكم فى هذا الشوق . وبذلك فسوف أترك نفسى لقيادته طيلة حياتى ، بغض النظر عن المكان الذى سوف يقودنى إليه خلال هذه الرحلة المجنونة . (٤) .

إذا فقد صدمت هوركهايمر ظروف العمل فى مصنع والده ودفعته الى التمرد :

(من الذى عليه أن يشكو من المعاناة ، هل أنا وأنت ؟ نحن أكلى لحوم البشر ، الذين نشكو أن لحم المذبوحين سبب لنا مغصا ... فأنت تتمتع بالثروة والسلام ، الذين من أجل توفيرهما ، فإن على الآخرين أن يموتوا ، أو أن ينزفوا دما حتى الموت ، وأن يتحملوا أكثر الظروف اللانسانية) (٥) .

إذ لم تختفى نزعة الاحتجاج هذه أبدا عند هوركهايمر ، بل نجدها تطورت لديه فى شكل نوع من الشوق الدائم فى " أن لا ينتصر القاتل على ضحيته البريئة " ومنذ البداية فقد شكل كل من الرفض الحاسم للنظام الاجتماعى القائم بالاضافة الى الشوق الميتافيزيقى لعالم أكثر اكتمالا ، البواعث الأساسية لفلسفة هوركهايمر . واستنادا الى ذلك فقد أكد هوركهايمر الشاب فى سنة ١٩١٤ قائلا :

(يعتبر ما هو قائم ، ومتواضع عليه ، سئ تماما ، حيث يشكل تكوينه البداية المرجعية الوحيدة التى يمكن بالنظر إليها أن نعمل على التنبؤ بمضمونه الروحى الذى لم نستطع إدراكه ، والذى يمثل فى ذات الوقت جماله الرائع . وفى ذلك يكمن السبب فى أن الأشياء الجملية لا تشبعنا تماماً ، ومن ثم نظل فى شوق مؤلم الى الكمال الذى يمكن تحقيقه طالما أننا نمتلك جسدا ، وهو الكل الذى ندركه بواسطة الحواس ... وإذا

كنا نرغب فى الخلاص من الأرض ، فإننا فى ذات الوقت متربطين بها بكل مشاعرنا (٧) .

ولقد تفاقم صراع هوركهايمر مع السلطة الأبوية وثورته ضدهـــا بواسطة بعض المشاكل الإضافية . فعندما كان عمره ٢١ سنة وقع فـــى حب سكرتيرة والده روز ريكر Rose Riekehr التى كانت ابنـــة لأم إنجليزية وأب ألمانى مفلس يعمل فى أعمال الفنادق . بالاضافة الى ذلك فقد كانت غير يهودية gentile وتكبر هوركهايمر بثمـــانى ســنوات . وهى العوامل التى دفعت أبواه بصورة حاسمة لمعارضة زواجهما .

وتلى ذلك عشر سنوات من العلاقات المتوتـــرة والتـــى تمـــيزت بالمواجهة بين الأب والإبن ، وأيضا بالصراع من أجل التحرر والعتـــق (٨) .

وفى ١٩١٦ جند هوركهايمر بالجيش غير أنه لم يرسل الى الجبهة أبدا . وتحت وطأة حرب الإبادة التى لا رحمة فيها تحول هوركـــهايمر الى الايمان بالنزعة الى السلام pacifist . وقد ميز هذا التوجه بدايـــة وعيه السياسى وقد تذكر هذه الأيام بعد منتصف قرن قائلا :

(لقد كنت فى باريس ولندن ، ولم أستطع أن أصـــدق أن البشـــر هناك أكثر حبا للحرب من قيصرنا Our Kaiser المحب للسلام . ولـــم أستطع أن أرى أنهم بشرا أكثر شرا منى ، ومن ثم فعلى الآن أن أطلـــق عليهم الرصاص ... ولقد اهتز ايمانى بتاعليم الرايخ الألمـــانى التـــى استوعبتها أثناء تنشئة الطفولة . وتولد لدى شعور محـــددا بـــأن شـــيئا مرعبا قد حدث لأوروبا والبشرية لا يمكن الوقاية منه) (٩) .

ولقد تمثل رد فعله المباشر هذا فى الحقيقة ، فى رفضه الحرب الإجرامية التى استهدفت حماية ثروة القلة تحت إدعاء المصالح القومية ولتوضيح ذلك نجده قد كتب فى سنة ١٩١٤ قائلا :

(لا يمكننى الاعتقاد بأن فعلا يدان باعتباره إجراميا مثل فعل فود يرى ضرورة أن يكون نبيلا على حساب أمة ... اننى أكره الجيوش التى تسير الى الحرب لكى تحمى الثروة ... فالدوافع البوهيمية هى التى تقود جيوشها ، وهى الدوافع التى ينبغى أن نقضى عليها إذا رغبنا فى أن نكون بشراً) (١٠) .

ذلك يعنى أن رفض النزعة القومية التى إرتبطت بحب الانسانية كانت الفكرة المتسلطة على هوركهايمر الشاب ، هذا بالاضافة الى أنه كان لديه تشاؤما عميقا كامنا فيما يتعلق باحتمالات مستقبل البشرية ، كما عبر عن ذلك فى كتاباته الأولى بقوله : (لماذا لا أستطيع أن أكون إنسانا فقط ... بدون الانتماء الى أى أمة ... إن ما تحارب أنت من أجله لا يدخل فى دائرة إهتمامى . إن نظامك داخل كل أمة من الأمم ، والقوانين التى ترى أنت أنها ضرورية بالنسبة لكم ، فإنها تكون ضرورية لأنكم من الحيوانات المتوحشة التى سادت مرحلة ما قبل التاريخ ... وطالما أن غالبية البشر تتكون من الحمقى Block heads والعاشقين للخصومة ، فإن اتحادهم ، أعنى مجتمعهم ، لا يمكن أن يكون شيئا آخر سوى كونه مجتمعا متدنيا ، سواء سمى نفسه مجتمعا أوتوقراطيا Autocratic أو اشتراكيا Socialistic أو فوضويا Anarchistic ، وأعتقد أن ذلك الى حد كبير يشكل قناعتى الأبدية) (١١) [1]

---

(١) يعتبر رفض الوطن والانتماء القومى والشوق الى نزعة انسانية شاملة من القضايا الأساسية فى تفكير مدرسة فرانكفورت ، وهى القضية التى تعتبر أنعكاسا لأوضاع الأقلية

وبنهاية الحرب كان هوركهايمر في ميونخ Munich ، حيث شارك حينئذ في ثورة نوفمبر ١٩١٨ ، وقد عظم هوركهايمر من شأن الثورة بنوع من الحماس ورحب بها باعتبارها تحررا من سلطة الأب ووطن الأب وقد دفعت مشاركة هوركهايمر الشاب في الثورة الى الاهتمام بمشاكل المجتمع وأيضا الاهتمام بالماركسية . وفي قصة حياة قصيرة بعنوان جوشيا Johia كتب عن بطله في القصة قائلا :

(لم يفرض الجندي جوشيا على نفسه أن يطلق الرصاص واختار الفرار ... لقد فرض عليه غيظه العميق وهو اليهودي ألا يقتل . ولكن أن ينفس عن يأسه ويأس كل العبيد من خلال صرخة حادة يمكن أن تصل الى آذان السادة ، لتحطم عدم اهتمامهم الواضح ، وتساعد على الغاء ذلك الوعي المظهري الزائف بعالمهم ، إنه بهذا الأسلوب قد اختار الانتصار العقلي) (١٢) .

وبعد سنوات دراسته في جامعة فرانكفورت مع هانز كورنيليوس Hans Cornelius الفيلسوف الكانتي المحدث ، والذي كان بالاضافة الى ذلك رساما Painter وموسيقيا musician ، قام بدراسة أخرى مع كل من هوسرل Husserl وهايدجر Heidegger في جامعة فرايبرج Freiburg وقد سلم هوركهايمر صراحة بتأثير هايدجر عليه ، حيث أكد :

اليهودية في مختلف المجتمعات ، حيث يعتبر مفهوم اليهودية سابقا على مفهوم القومية أو الوطنية ، هذا الى جانب كون ذلك انعكاسا لمعاناة اليهود من فكرة القومية التي تدعمها الأغلبية في مختلف المجتمعات . وعلى هذا النحو يعتبر تجسيد إسرائيل كوطن قومي لليهود ، واقعا ماديا يتعارض الى حد كبير مع أفكار النظرية النقدية التي طورتها مدرسة فرانكفورت والأمر الذي يعني خيانة لأفكار اليهودية التي طرحتها خلال هذه الفترة " المترجم " .

(أننى أعرف اليوم أن هايدجر يعتبر واحدا من أكثر الشخصيات أهمية من بين الذين تعرفت عليهم خلال حياتى) (١٣) . وإجمالا فإن تعرفه على الفلسفة انتهى بحالة من عدم الرضا ، وقد أوجز خبرته فى جامعة فرايبرج على النحو التالى :

(كلما زاد اهتمامى بالفلسفة ، كلما ابتعدت كثيرا عن الفهم الأكاديمى للفلسفة كما نجده فى هذه الجامعة . وما أعنيه أننا نبحث عن تأكيدات تتصل بجوهر الحقيقة ، أو فيما يتعلق بحياتنا ، ومعناها ، وليس البحث عن القوانين الصورية لنظرية فى المعرفة ليس لها دلالة أساسا) (١٤) .

وبسبب معارضة أبويه المستمرة لزواجه ، فقد قرر هوركهايمر ، حينئذ أن يلتحق بوظيفة أكاديمية . فقد كتب فى أحد خطاباته ذات المضمون الخيالى أنه قد كره " الجامعة وأساليبها المتحذلقة " ولكنه نظر الى الوظيفة الجامعية باعتبارها " الوظيفة أو المهنة الوحيدة التى يمكن أن يوافق على القيام بها " والتى يمكن للانسان من خلالها أن يساهم فى حل مشكلات المجتمع . (١٥)

وقد حصل هوركهايمر على درجة الدكتوراة فى ١٩٢٢ . بعد ثلاث سنوات (Handed in his habilitationsschrift) ومن ثم بدأ وظيفته الأكاديمية كأستاذ جامعى وتزوج روز ريكر .

٣- تيارت العشرينات :

فى اللحظة التى التحق فيها هوركهايمر الشاب بالمجال الأكاديمى فى العشرينات ، نشطت عملية إحياء للنظرية الماركسية فى وسط وغرب أوروبا ، وقد اتخذت عملية الإحياء حينئذ أشكالا متعددة . مثل

ماركسية جورج لوكاش George Lukacs فى فيينا وماركسية كـــارل كورش Karl Korsch فى ليبزج . ثم ماركسية كارل مانـــهايم Karl Mannheim البرجوازية فى فرانكفورت .

وتعتبر ماركسية لوكاش وكورش استجابة مباشرة للموقف الثـورى الذى ساد أوروبا فيما بعد الحرب العالمية الأولـــى ، وتفكـيرا نظريـــا بشأنها ، فقد ألهمت موجات الحركات الثوريـــة فـــى روســـيا Russia وألمانيا Germany وهنغاريا Hungary كلا من لوكاش وكورش . إذ تخللت روح Zeit Geist أوروبا فى الفترة التالية للحرب نزعة مسيحية متفائلة وثورية . حيث انتشر توقع بوقوع ثورة عالمية . فقد كتب لينيـن Lenin خطابا وداعيا للعمال فى سويسرا ، أكد فيه أن الثورة الروسية " تعتبر مقدمة للثورة الاشتراكية العالمية وخطوة نحوها " ثم استمر قائلا " إن الظروف الموضوعية للحرب الاستعمارية تجعـــل مـــن المؤكـد الاعتقاد بأن الثورة سوف لا تكون قاصرة على المرحلة الأولى المتعلقة بالثورة الروسية ، والثورة البروليتارية الهنغارية فـــى ١٩١٩ . حيــث كان لوكاش مستمرا فى النظر الى الطبقة العاملة الأوروبية فـــى ١٩٢٣ باعتبارها وسيلة للتغيير التاريخى العالمى ، وأيضا باعتبارها مؤسســـة للعملية التاريخية موضوعا لها فى ذات الوقت . بالإضافة الى ذلك فقـد أعاد كلا من لوكاش وكورش إكتشاف الأبعاد الفلســـفية (الهيجيليـــة) والانسانية للنظرية الماركسية . وفى هذا الصدد فإنه ينبغى أن نلاحــظ بداية تجدد الاهتمام بهيجل فى مطلع القرن العشرين وذلك مـــن خـــلال نشر مؤلف دلتاى Dilthey فى ١٩٠٦ بعنوان تـــاريخ الشـــباب Die Juhendgeschichte وكتاب سيروس Croce وكذلك ما انتهى ومـــا بقى حيا فى فلسفة هيجل what is alive and what is dead in Hegel s philosophy فى سنة ١٩٠٦ . ومن الملاحـــظ أن قـــراءة لوكاش وكورش الدقيقة لرأس المال Das Kapital كشف عن اهتمـــام ماركس بإغتراب الإنسان فى المجتمع الرأسمالى ، وبخاصة فى الفصل

الخاص بتشيؤ Fetishism السلع ، وذلك قبل عشر سنوات من نشـــر مؤلف ماركس ، المخطوطـــات الاقتصاديـــة والفلســـفية لســـنة ١٨٤٤ Ecnomic and philosophic Manuscr ipts ١٨٤٤ . وكتـــاب كورش الماركسية والفلسفة Marxismus and philosophie الـــذى ظهرت طبعته الاولى فى سنة ١٩٢٣ ، ثم أعيد نشـــره فـــى أرشـــيف جرونبرج Grunberg Archiv فى سنة ١٩٢٥ .

وكتاب لوكاش " التاريخ والوعى الطبقـــى History and class consciousness وهو عبارة عن مجموعة من المقالات التـــى كتـــب بعضها خلال الفترة القصيرة من حياة الحمهورية السوفيتية الهنغاريـــة ، حيث كان لوكاش يشغل منصب المسئول عن الشئون الثقافية ، وقد نشر هذا الكتاب أيضا فى سنة ١٩٢٣ . ونظرا لتنوع هذه المقالات . فقد تـــم الاحتفال بلوكاش باعتباره مؤسس النزعة الماركسية الوجودية الحديثـــة ذات الطبيعة الانسانية من ناحية ، وذلك برغم إدانته بسبب تفخيم الدور البطولى للحزب الشيوعى متفوقا فى ذلك على لينين من ناحية أخرى .

ومن ثم تعتبر النزعة الماركسية الخلاقة عند لوكاش هى الفكـــرة التى أكدت على وحدة كتاب لوكاش ، وهو الكتاب الذى يمكـــن إيجـــاز قضاياه الرئيسية فى خمسة قضايا الأولى ، أن الماكسية الأرثوذكســـية Oryhodox Marxism تعنى العودة الى منهج ماركس الـــذى يؤكـــد على أولوية مقولة الكلية ، والثانية ، وأن دياليكتيك ماركس يعتبر منهجا ينبغى الاستفادة منه فى الدراسات التاريخية للمجتمع وذلك فـــى مقـــابل دياليكتيك الطبيعة عند هيجل ، والثالثة ، أن ظاهرة التشيؤ تعتبر ظاهرة جوهرية فى المجتمع الرأسمالى ، وفى هذا الصدد كتب لوكاش قائلا :

(ليس هناك فى هذه المرحلة من التاريخ الانسانى قضية لا ترجـــع بنا فى النهية الى تفسير بناء السلع ... التى يكمـــن أساســـها فـــى أن

العلاقات بين البشر تتخذ طبيعة الشئ ، ومـــن ثـم تكتسـب " شـبح الموضوعية " وهي الاستقلالية التي تبـدو عقلانيـة وشـاملة بدرجـة واضحة ، الى حد أنها تقضى على أى أثر لطبيعتها الجوهرية ، والتـى تتمثل فى العلاقة بين البشر) .

ويعتبر التشيؤ Peification المشكلة البنائية المحورية فى المجتمع الرأسمالى من كل جوانبه . وتتمثل القضية الرابعة فى أن فلسفة التاريخ عند لوكاش تدعى أن البروليتاريا تعتبر وسيلة (الذات والموضـــوع) العملية التاريخية ذات الطبيعة الحتمية بالنسبة للعالم . والخامسة ، تتعلق باعتبار الحزب تموضعا للإدارة الخاصة بالبرولتاريـا (برغـم عـدم وضوح ذلك بالنسبة لها) (١٩) .

واستنادا الى ذلك ، لا يمكن إنكار تأثير " الماركسـية الأوروبيـة Occidental Marxism – حسـب تعبـير مـيرلوبونتى Merlleauponty الخاصة بكل من لوكاش وكورش – على منظـرى مدرسة فرانكفورت برغم تعقد هذه العلاقة الى الدرجة التى أصبح مـن الصعب تحديد طبيعتها الأساسية . إذ لم تؤكد النظرية النقدية فى البدايـة على الأولوية المطلقة لمقولة الكلية . كما تم التعبير عن ذلك من خـلال العرض النقدى الذى أسسه هوركهايمر لكارل مانهايم فى سنة ١٩٣٠ :

" فلم يقصد علم ماركس استيعاب مقولة الكلية أو الحقيقـة الكليـة والمطلقة ، بل كان قصده أن يدرك تغير بعض الظروف المجتمعيـة " (٢٠) .

وفى ذات الوقت كانت النظرية النقدية تطمح حينئذ فى أن تكـون الفلسفة الاجتماعية هى التى بامكانها أن تـدرك المجتمـع الرأسـمالى المعاصر . إذ يوجد اتفاق واضح بين منظـرى مدرسـة فرانكفـورت ولوكاش فيما يتعلق بنزعتهم المضادة لإنجلز Anti Engels والعواطف

المضادة للعلم . وهو الموقف الذى له جذوره فى المثالية الألمانية ، والفكر الاجتماعى الرومانسى المضاد للرأسمالية .

حيث تعتبر الثنائيات على غرار الذكاء Intellect فى مقابل العقل Reason " الثقافة " فى مقابل " الحضارة " . " والمجتمع المحلى " فى مقابل " المجتمع العام " . " والعلوم الانسانية " فى مقابل " العلوم الطبيعية " . مجرد تجليات لذات الجوهر . وبالنسبة للنظرية النقدية خاصة فى مرحلتها الأولى عند هوركهايمر يعتبر " التبادل Exchange أو المقايضة " مقولة أساسية ، حيث تبدأ النظرية النقدية للمجتمع من فكرة التبادل أو المقايضة البسيطة للسلع ... " (٢١) .

وقد استند أدورنو Adorno أيضا الى نظرية لوكاش فى التشيؤ وذلك فى مؤلفه " عن الطبيعة الفتشية فى الموسيقى " الذى نشر فى سنة ١٩٣٨ . وفى النهاية أصبحت فكرة المجتمع المستند الى " سيادة قيمة التبادل " هى المقولة المحورية بالنسبة لنظريته عن المجتمع :

" حيث يفرض انتشار مبدأ (التبادل) فى العالم بكامله إلتزاما بأن يصبح هذا العالم متحدا ، أى كلا " Tota " (٢٢) .

ويمكن القول بأن نظريات كل من لوكاش ومدرسة فرانكفورت قد اتخذتا موقفا أخلاقيا شائعا وإن كان غير محددا . ويعزى الاختلاف الرئيسى بينهما وهو الاختلاف الذى يتعلق " بالرسالة التاريخية " المدعاة للبروليتاريا والدور الطبيعى للأحزاب الشيوعية واستخدام العنف ، الى الظروف التاريخية المتغيرة ، وأيضا الى الاختلاف بين الأشخاص ، حسبما ناقشنا ذلك فى هذا الفصل .

وفى سنة ١٩٣٠ تأسس كرسى الفلسفة الاجتماعيـــة لهوركـــهايمر بجامعة فرانكفورت . وفى سنة ١٩٣١ أصبح هو المدير الجديد للمعـــهد وفى الثلاثينيات واجه منظوراً فرانكفورت واقعا اجتماعيا مختلفا عـــن ذلك الذى واجهه كل من لوكاش وكورش منذ عقد سابق . حيث ســادت المجتمعات الأوروبية عدة أزمات اقتصادية وساسية عميقة ، وأصبـــح ضعف الديمقراطيات البرجوازية الليبراليـــة واضحـــا . وبـــدا وكـــأن الشيوعيون والفاشيون هم وحدهم القادرون على تقديم الحلول البديلة .

وقد اتهم هوركهايمر الشيوعيين بنزعتهم التسلطية ولكونهم يدمنـــون استخدام القوة ، حيـــث أدى ظـــهور الفاشـــية ، وإنبثـــاق الســـتالينية بخصائصها البيروقراطية والسلطوية ، وعمليات التطهير المرتبطة بـــها الى جانب التكامل التدريجى للعمال الأمريكيين مع ما يسميه س . رايت مليز C . Wright Mills " المســـتويات المتوســـطة للســـلطة " – باعتبار أن ذلك يعتبر نتاجا لكل هذه الوقائع التاريخية – الى عدم وجود أى حركة للطبقة العاملة يمكن التحالف معها . فقد انقسمت حركة الطبقة العاملة الألمانية على نفسها ، ومن وجهة نظر هوركهايمر ، أدى انقسام الطبقة العاملة بالنظر الى العملية الاقتصادية الى تخلق شـــريحة مـــن العاطلين الذين يرغبون حاليا فى الثورة ولكنهم يفتقدون التوجيه النظرى والوعى الطبقى . الى جانب شريحة أخرى لديها وعيا نظريا واضحـــا غير أنها بدون رغبة ملحة فى الثورة ، وهو الواقع الذى دفع الى وجود حزبين للطبقة العاملة . وإلى تـــأرجح الجمـــاهير العريضـــة لحمـــوع العاطلين بين الأحزاب الشيوعية من ناحية والأحزاب النازية من ناحيـــة أخرى (٢٣)

وفى هذا الاطار ، حاول هوركهايمر – الـــذى لـــم يلتحـــق بـــأى تنظيـــم – أن يتخذ طريقا وسطا بين الماركســـيين الرســـميين فـــى الحـــزب ، وبين المثقفين البرجوازيين الليبراليين ذوى النزعة اليســـارية

وغير المرتبطين بأحزاب ، وفى هذا الصدد كان هوركهايمر يأمل فـــى إحياء التراث النظرى والفلسفى للماركسية فـــى نزعتـــها الانســـانية ، محاولا أن يربط ذلك بعناصر أخرى من الفكر البرجوازى ، على أمـــل أن يكون قادرا على تطوير بعض الخطوط النظرية الموجهة نحو مسار مستقبلى ممكن للفعل من المقدر أن يقود فى النهاية الى تأسيس مجتمـــع عادل .

٤- هوركهايمر باعتباره مديرا للمعهد :

مارس هوركهايمر مهام منصبه الجديد كمدير للمعهد فى يناير سنة ١٩٣١ . وقد حددت محاضرته الافتتاحية – التـــى كـــان عنوانـــها – الموقف الحـــالى للفلســـفة الاجتماعيـــة ، ووظـــائف معـــهد البحـــوث الاجتماعيـــة – الانتقال فى التأكيـــد بالنسبة لمســـتقبل عمـــل المعـــهد (٢٤) .

وقد وصل إدوارد شيلز Edward shills – من خـــلال محاولـــة المقابلة بين وظيفة ماكس هوركهايمر وكارل مانهايم الذى كان اســـتاذا للاجتماع فى جامعة فرانكفورت أيضا ، قبل ذهابه الى المنفى فى لنـــدن سنة ١٩٣٣ – الى نتيجة أن مركز هوركهايمر بالمعهد كـــان العـــامل الرئيسى فى النجاح التالى لأفكاره ، وذلك بالرغم من حقيقة أن " مانهايم كان أكثر تفوقا من حيث الأصالة أو من حيث تعدد جوانب الاهتمـــام " من هوركهايمر . وذلك لأن مانهايم لم يكن مرتبطا بأى نظام أكاديمى ، ومن ثم فقد أصبح حقيقة " مثقفا حرا بلا قيود فى المنفـــى " وحســـبما يذهب شيلز :

(حيث من المحتمل أن تساعد الحياة فى مؤسسة ، علـــى تماســـك مجموعة الأفكار وأيضا على تنقيحها وانتشارها ، فهى تساعد على جعل

الأفكار فى متناول المهتمين الرئيسيين بها بدرجة أكثر .ومن ثم تجعل من الممكن توجيه الجهد إليها.وتؤدى إلى تنمية التفاعل بشأنها وبذلك تساعد على جعلها مضمونا أو مادة للاتصال (٢٥) .

ويبدو من صياغة شيلز ، فى رأيى ، قد جانبت الصواب حيث أصبح مانهايم فى الحقيقة جزءا ، ولو هامشيا ، من علم الاجتماع الأمريكى ، وذلك من خلال مؤلفه الأيديولوجيا واليوتوبيا Ideology and utopia بينما لم يدخل هوركهايمر أو أى من نظرياته فى المجرى الرئيسى لعلم الاجتماع الأمريكى . على خلاف أدورنو الذى يذكر اسمه أساسا باعتباره أول اسم فى قائمة المجموعة التى ألفت كتاب الشخصية الفاشية Authoritarian Personality . هذا الى جانب أن النجاح العالمى الواسع لهربرت ماركيوز Marcuse فى نهاية الستينات لم يكن نتيجة للفترة المحدودة التى ارتبط فيها بمعهد فرانكفورت للبحوث الاجتماعية منذ عشرين عاما قبل ذلك .

٥- برنامج هوركهايمر الأول :

حدد هوركهايمر فى محاضرته الافتتاحية جوهر النظرية الماركسية فيما يتعلق بالتفسير الشامل للحركات المجتمعية على أساس العلاقات الطبقية كما تتحدد بواسطة التطورات الاقتصادية . حيث " يتمثل الهدف النهائى للفلسفة الاجتماعية من وجهة نظره فى تقديم التفسير الفلسفى لمصير الانسان كعضو فى المجتمع المدنى " (٣٦) .

وقد حدد هوركهايمر المهمة الأساسية للفلسفة الاجتماعية فى فهم العلاقات المتبادلة بين المجالات الثلاث : البناء الاقتصادى الفرعى للمجتمع ، والنمو النفسى للفرد والظواهر الثقافية (١) .

١ – يلاحظ هنا بداية خروج هوركهايمر على البعاد الأساسية للماركسية التقليدية . حيث حدد المهمة الأساسية لفهم الفلسفة باعتبارها تتمثل فى دراسة العلاقات المتبادلة بين البناء الاقتصادى والبناء النفسى والظواهر الثقافية وهى العلاقات التى يمكن من خلالها دراسة

وحسبما يذكر هوركهايمر يتمثل التنظيم الحقيقى لزماننا فى خلـــق تعاون وثيق ومثمر بين الفلسفة من ناحية والعلوم المتخصصة من جهـة أخرى . أذ نظر هوركهايمر الى الفلسفة الاجتماعية باعتبارها النظريـــة المادية للتاريخ حينما ترتبط بالبحث الإمبـــيريقى . إذ تـــهدف الفلســفة بـــالمعنى الـــهيجيلى الـــى ادراك الجوهـــر الموضوعـــى للمظــــاهر appearances .

ومن ثم فينبغى أن تتقبل التغيير وأيضا تأثير الدراسات الإمبريقية ، وعلى هذا النحو تتمثل مهمتها الحالية فى تنتظيم البحوث التى تستند الى الصياغات الفلسفية للقضايا وهى البحوث التـــى يتحـــد فـــى اطارهـــا الفلاسفـــة ، وعلماء الاجتماع ، ورجال الاقتصاد والمؤرخون وعلمـــاء النفس فى جماعات دائمة للبحث . واستنادا الى ذلك ، فإنــــه ينبغـــى أن تتناول مشروعات البحث الأولى مشكلات العمال المهرة ، ومســـتخدمى الياقات البيضاء فى ألمانيا . وفى هذا الاطار وجه هوركهايمر الانتبـــاه الى طرق البحث الى ضرورة محاكاتها وهو المعهد الذى تأسس له فرع بجينيف [1] .

المجتمع وفهمه ... وذلك على خلاف الصيغة الماركسية التقليدية التى تمنح البناء التحتـــى للمجتمع الأولوية فى صياغة التفاعل الاجتماعى ، بل وتعتبرها المدخل لدراسة المجتمـــع وفهمه ، وما الظواهر الثقافية الى متغـــيرات تابعـــة أو هـــى انعكـــاس للبنـــاء التحتـــى (الاقتصادى) للمجتمع . وإن كان هناك بعض الماركسيين على سبيل المثـــال التوســـير الذى رأى امكانية أن تمنح الثقافة دورا مستقلا ، يعنى ذلك أن تتبع الخطـــوط الأمريكـــى الممتازة التى ينبغى أن يستوعبها العمل فى إطار المعهد بالإضافة العامة لمنظرى مدرسة فرانكفورت يكشف بداية الانحراف عن خط الماركسية التقليديـــة " المترجم " .

١- يلاحظ هنا أن الخروج عن الخط الماركسى أصبـــح واضحـــا حيـــث نجـــد تركـــيز موضوعات البحوث خارج نطاق اهتمام الماركسية . والى حد كبير داخـــل نطـــاق علـــم الاجتماع الأمريكى ، فتأكيد هوركهايمر كان بالأساس على دراسة العمـــال المـــهرة . و أصحاب الياقات البيضاء ، وذلك باستخدام مناهج البحث الأمريكية والممتازة علـــى حـــد تعبير هوركهايمر . بينما تهتم الماركسية وماركس بتوضيح القوى والاتجاهات الأساســـية التى تحول دون تحقيق اقامة المجتمع العادل أو تلك التى تساعد على ذلك . وقد حـــــدد=

وقد توقف جرنال المعهد الرسمى المسمى " أرشيف جرونبرج Grunberg Archiv " عن النشر ، وهو الجرنال الذى ظل يصدر حتى ١٩٣٠ ، وبدلا منه بدأ جرنال جديد للمعهد فى الظهور تحت عنوان (مجلة البحوث الاجتماعية Zeitschrft Fur Sozial for schun) حيث عرف هوركهايمر فى مقدمة المجلد الأول للمجلة البحث الاجتماعى Sozial Forschung بأنه البحث الذى يتم فى إطار مجالات محددة وعلى مستويات مختلفة من التجريد ، والذى يهدف الى " تطوير نظرية عن المجتمع المعاصر فى كليته "

فهدف هذه النظرية أذ يتمثل فى استيعاب العملية المجتمعية فى كليتها . والشروع فى امكانية فهم القوى الفعالة والكامنة وراء سطح الفوضى الظاهرية للأحداث التاريخية . إذ قد يبدو التاريخ اراديا ، غير أن القوانين التى تسيطر على ديناميته ، يمكن أن تصبح معرفتها علما . وفى هذا الصدد فإنه ينبغى أن تستند بحوث المجلة الى هذا الافتراض .

ذلك يعنى أن التاريخ سوف يهتم بكل العوامل ذات الطبيعة الاقتصادية والنفسية والمجتمعية ، تلك التى تحدد الحياة الاجتماعية ، وينبغى أن تتم معالجة القضايا المتصلة بمجالات Weltanschauung والفلسفة ضمن هذا الاطار إذا كان لها علاقة " بنظرية المجتمع " .

=ماركس هذه الظواهر (كاغتراب العمل) وفيتشية عالم السلع ، وفائض القيمة والاستغلال باعتبارها ظواهر ليست متشابهة لوقائع علم الاجتماع كالطلاق والجريمة وحراك السكان والدورات الاقتصادية . واستناد الى ذلك ، فبغض النظر عن اتجاه منظرى مدرسة فرانكفورت الى الاستعانة بمناهج علم الاجتماع وعلم النفس الأمريكي ، فإنها تقع فى نطاق اهتمام علم الاجتماع الأمريكى أو أنها تقع على الحد الفاصل بين الماركسية من ناحية وبين علم الاجتماع الأمريكى من ناحية أخرى . " المترجم " لمزيد من التفصيل أنظر هربرت ماركيوز العقل والثورة ، مرجع سابق ، ص ٩ .

ويبدو ان البحث الاجتماعى ، وعلم الاجتماع الأكاديمى التقليــــدى ليست لهما هوية واحدة . برغم أن كليهما يتناول الظواهر المجتمعيـــة . إذ نجد أن الأول يوسع نطاق بحثه الى مجالات ليست سوســـيولوجية . حيث تتعلق مشكلات البحث الاجتماعى فى العادة بالعلاقات المتبادلة بين المجالات المحددة للثقافة والقوانين التى تتحكم فى تغيرها .

وقد تتحدد المهمة الأساسية لحل هذه القضية فى " إبتكار علم نفس إجتماعى ذو توجيه تاريخى " ومن ثم فإنه ينبغى على المجلة أن تتناول بالمعالجة كلا من القضايا النظرية العامة من ناحية ، والبحوث الخاصة ببعض قضايا الاقتصاد والمجتمع المعاصر من ناحية اخرى .

وبقدر كبير من الاهتمام تم طرح البحث الاجتماعى " المتحرر من القيمة Value Free " باعتباره الهدف " الذى ينبغى أن تســـعى إليـــه نظرية المجتمع حيث يؤدى الالتزام بالمعايير العلمية الى فصل البحـــث الاجتماعى من الناحية المنهجية أيضا عن السياسية . ومن ثـــم ينبغـــى المحافظة على استقلال طلب للمعرفـــة فـــى مواجهـــة كـــل المواقـــف Weltanschauungen والسياسية "[1] (٢٧) .

١- يتضح هنا الاقتراب الواضح للفكر النقدى لمدرسة فرانكفورت من أفكار علم الاجتماع الأمريكى ، حيث نلاحظ الحديث عن شعارات الحياد العلمى والانفصـــال عـــن الواقعـــة موضع الدراسة والتحرر من القيم ، وهى الأفكار التى طرح دوركيم كثيرا منها فى مؤلفه الشهير " قواعد المنهج فى علم الاجتماع " ، ومن الطبيعى أن يبرز ذلك قدر الانحـــراف عن الخط الماركسى التقليدى ، حيث ترفض الماركسية الطب النظرى المجرد للمعرفـــة ، فماركس هو الذى يؤكد " أنه إذا كانت الأبنية الفلسفية السابقة قد اعتبرت مأوى للحقيقـــة تعزلها عن مجال الصراع التاريخى للبشر فى شكل معقد من المبادئ الترنسندنتالية ، فإنه من الممكن الآن أن يصبح تحرر الانسان هو نفسه عمل الانسان ، وهو هـــدف ســـلوكه العملى الواعى بذاته . ومن الممكن تحويل الوجود الحقيقى أو العقل أو الذات الحرة الـــى وقائع تاريخية متحققة . ويعنى ذلك أن الحقيقة لم تعد بندا نظريا يصور الواقـــع دون أن يتدخل فيه وإنما هى طاقة كاشفة لملامحه بهدف إعمال ذاتها فى تغييره ، يؤكد ذلك قول=

وقد ظهر حينئذ الجزء الأول من المجلد الأول للمجلة فى ألمانيا سنة (١٩٣٣) . بينما نجد أن الليبرالى فليكس ألكان Felix Alcan هـــو الذى حرر الجزء الثانى من المجلد الثانى فى بـــاريس . وقـد شـكر هوركهايمر الناشر فى المقدمة لأنه أتاح " هذه النشرة العلميـــة باللغـة الألمانية " وتعهد باستمرار جهود المعهد من أجل تطوير نظريـــة عــن المجتمع ، بالاضافة الى علومها المساعدة .

وقد كان دائم التأكيد على الإستمرار فى إطـــار الـــتراث الثقـــافى الألمانى . وقد أعـــاد التأكيد على ذلك فـــى مقدمـــة المجلـد الســادس (١٩٣٧) بقوله : تعتبر المجلة والمنشورات الأخرى التى يصدرهـــا المعهد اليوم من بين المنشورات العديدة التى تحملت أعبـــاء إســتمرار The German Geisteswissenschaft liche tradition باللغـة الألمانية فى الخارج (٢٨) .

وقد نشر كلا من القسم الثالث فقط من مجلد المجلة الصـــادر فـــى (١٩٣٩) والمجلد الأخير الصادر فى (١٩٤٠-١٩٤١) بنيويـــورك تحت عنوان " دراسات فى الفلسفة والعلوم الاجتماعية " الذى كانت كـل الاسهامات فيه بالانجليزية .

وبصورة ما يمكن مقارنة المجلة من حيث طموحاتـــها بالحوليـة الاجتماعية Anne'e Sociologigue التى أشرف على اصدارها إميل دوركيم . حيث نكشف القواعد الجديدة لمجلداتها عن منظـــرو شـــامل تشارك فيه عديد من العلوم لمحاولة تأسيس برنامج شامل . ذلك يعنـــى أن النقدية لم يكن لديها مؤلف كونت " دروس فى الفلســـفة الوضعيـة Cours de philosophie positive " ، ولا مؤلف مـــاركس " رأس

=ماركس أنه عن طريق الاتحاد بين النظرية والممارسة ، وبارتباط الفهم النظرى بالنشاط السياسى العلمى فإنه يمكن إحداث التغير الاجتماعى .

المال Das Kapital " ، ولا مؤلف ماكس فيبر " المجتمع المحلى والمجتمع العام " هذا الى جانب أنها لم تمتلك أية صياغة نظرية فلسفية لمبادئها ومفاهيمها ومنهجيتها ونتائجها .

ويمكن القول بأن أشكال التعبير الأساسية لديها قد تمثلت أساسا فى المقالات والتعليقات والدراسات والأقوال المأثورة المتعلقة بمواقف ومجالات محددة . وبرغم هذه الطبيعة المفككة والمتنوعة لأشكال التعبير فإن مجلدات المجلة – وهى التى تشكل جزءا غير مكتمل من برنامج هوركهايمر – كانت بلا شك وثيقة ذات أهمية بالنسبة للتاريخ الثقافى الأوروبى

٦- مولد النظرية النقدية :

تأسست نظرية هوركهايمر النقدية فى حوالى إثنى عشر مقال ، كتب معظمها بالألمانية أثناء حياته فى المنفى بمدينة نيويورك ، وتم نشرها فى المجلة فى الفترة من ١٩٣٣-١٩٤٠ . حيث كانت النظرية تعنى بالنسبة له نقد النظرية (التقليدية) البرجوازية . وهى النظرية التى تشكلت من خليط من المؤثرات المتنوعة ، التى كان لها تأثيرها على فكر هوركهايمر ، كالفلسفة المثالية الألمانية .

ومن بين أكثرهم أهمية كانت Kant وشوبنهاور Schopenhauer والأخلاق اليهودية Judai (أعنى الأخلاق المتعلقة بالعدالة الاجتماعية) وعلم نفس الجشطالت ، وبعض العناصر المنتقاه من الفكر الماركسى . حيث لعبت كل هذه التيارات الفكرية دورا فى بلورة النظرية النقدية .

٧- النظرية النقدية فى مقابل النظرية التقليدية :

صاغ هوركهايمر مصطلح " النظرية النقديـة " Critical theory فى مقال برنامجى شامل لكى يقابلها بالنظرية " التقليدية Traditional " ويوحد هوركهايمر " النظرية التقليدية " مع تأثير ديكـارت Descartes وهوسرل Hussrel . حيث يحدد ديكارت أحدى بديهيات المنهج العلمى بقوله :

(لكى أقدم أفكارى بصورة منظمة ، فإننى أبـدأ بالموضوعـات البسيطة التى أستطيع معرفتها بسهولة ، ثم أتصاعد تدريجيا ، ودرجـة بدرجة ، حتى أصل بعيدا إلى أكثر المعارف تعقيـدا ، وأثنـاء ذلـك أفترض وجود نظام معين بين هذه الموضوعات التى لا يمكن أن تسبق أى منها الأخرى بصورة طبيعية) (٢٩) . ويؤكد ديكارت أيضا أن :

(كل شئ تستطيع معرفة الانسان فإنه لكى تلم به فـإن عليـك أن تدرك أن له بطريقة ما علاقة بشئ آخر ... وأن الانسان يحافظ عـادة على النظام السليم لشئ ما لكى يستطيع أن يستنبط من هذا الشئ ، الشئ الذى سبقه . فليس هناك شيئا منعزلا لا يمكن أن يصل إليه الانسان فـى نهاية الأمر ، أو متخفيا بحيث لا يمكن أن يكتشفه الانسان) (٣٠) .

ذلك يعنـى أن النظريـة التقليديـة أو الاسـتنباطية الافتراضيـة Hypothetical deductive تتكون من مجموعة من القضايا المتصلة بمجال معين . حيث تتداخل القضايا فى اطاره ، بحيث يمكن اسـتنباط بعض هذه القضايا من أخرى . هذا فى حين يؤكد هوسرل أن النظرية " هى عبارة عن مجموعة من القضايا المرتبطة ببعضها بصورة نسـقية systematically فى اطار شكل من الاستنباط النسـقى الموحـد " (٣١) .

فى إطار ذلك يستند الصدق الى إلتقاء القضايا بالدليل الإمبيريقى " فالنظرية عبارة عن معرفة متراكمة . ذلك يعنى أن التفسير النظرى عبارة عن تأسيس رابطة بين الإدراك الخالص للحقائق من ناحية ، والبناء التصورى للمعرفة من ناحية أخرى . وتهدف النظرية التقليدية الى تأسيس نسق من الرموز الرياضية . حيث يصبح للعمليات المنطقية معنى الى الحد الذى يصبح فيه بناء النظرية متحدا مع الصياغات الرياضية ، كما هو حادث فى عدد كبير من العلوم الطبيعية .

وتنطبق نفس الصياغة التصورية على علوم الطبيعة الحية وغير الحية ، إذ تعتبر وحدة المنهج العلمى من الأهداف الأساسية . ومن ثم فينبغى أن تتبع علوم المجتمع والانسان مثال العلوم الطبيعية الأكثر تقدما ونجاحا . ويحدد مفكرى النظرية التقليدية وفلاسفى العلم ، والوضعية ، والبرجماتية ، الوظيفة الساسية للعلم باعتبارها القدرة على التشخيص والحصول على نتائج نافعة .

(لا يمكن استنتاج مدى فاعلية الارتباطات الواقعية التى اكتشفت حديثا بالنسبة لتجديد معرفتنا القائمة ، ومن ثم مدى ملائمة هذه المعرفة للحقائق ، من المصادر المنطقية أو المنهجية الخالصة ، ولكن يمكن ادراك ذلك من خلال العمليات الاجتماعية الواقعية فقط) (٣٢) .

فإذا تمت صياغة النظرية بصورة مستقلة عن ارتباطاتها الواقعية ، أعنى إذا تم تأسيس النظرية بصورة لا تاريخية ، كما لو أنها قد انبثقت من جوهر داخلى معين للمعرفة ، فإنها تتحول حينئذ الى مقولة أيديولوجية متشيئة .

غير أن التغيرات التى تحدث فى اطار الأبنية العملية – سواء تلك الأبنية المتصلة بالنظريات الكبيرة والشاملة ، أو المتصلة بعمليات

البحوث اليومية الدقيقة – تعتمد على مواقف اجتماعية محددة ، فتأثير موضوع البحث على النظرية ، وبالمثل ملائمة النظرية للموضوع ، لا يعتبر مجرد تفاعلات عملية داخلية ، ولكنها تعتبر عمليات مجتمعية أيضا ، وحسبما يؤكد هوركهايمر :

" يعتبر تقديم الفروض لكى تتصل بالحقائق جهدا ، غير أن هذا الجهد يستمر الى النهاية حيث الصناعة وليس عقل العالم فقط ، وبغض النظر عن اعتقاد العالم أو عدم اعتقاده فى المعرفة المستقلة التى تسمو على ماهو اجتماعى ، فإن الباحث العالم وعلمه يتكاملان فى العادة مع الجهاز المجتمعى القائم . فهما مجرد لحظات فى حياة الأنساق الاجتماعية – الاقتصادية المستمرة فى التطور والتى تحافظ أبدا على بقائها .

ومن ثم يصبح العلم جزءا من قوى الانتاج التى تجعل من الممكن قيام الأنساق الصناعية الحديثة . إذ لا يمكن اعتبار فروع الانتاج المتنوعة فى تقسيم العمل السائد فى أسلوب الانتاج الرأسمالى عناصر مستقلة ، بقدر ضرورة اعتبارها محددات تاريخية لأسلوب مواجهة المجتمع للطبيعة . ومن الطبيعى أن يتضمن ذلك العلم ، الذى يبدو وكأنه وحدة مستقلة . وذلك بالضبط مثلما تتبدى حرية الانسان الاقتصادى فى المجتمع البرجوازى . حيث يبدو الأفراد وكأنهم يصدرون القرارات ، بينما هم فى الحقيقة وسائل لميكانزمات أو آليات مجتمعية خافية . وتعتبر النظرية النقدية نقداً " للنظرية التقليدية من موقف أخلاقى . وفى هذا الاطار يؤكد هوركهايمر على الاستمرارية . وهى الفكرة التى تعنى أنه ليس هناك انفصالا كاملا عن الانجازات النظرية التى تمت فى الماضى ، وذلك لأن " النظرية النقدية " تحتوى بداخلها عموما على عناصر من النظريات التقليدية ، وأيضا على عناصر من ثقافتها المنهارة " .

وتختلف النظرية النقدية عن النظرية التقليدية فيما يتعلق أساسا بالذات . أعنى اتجاه العالم الأكاديمى نحو مجتمعه . وبصورة عامة تنبثق معرضة النظرية النقدية للمفهوم التقليدى للنظرية ، ليس من الاختلاف حول الموضوعات ، ولكن من الخلاف حول الذوات " حيث الحقائق – كما تنبثق من خلال تفاعلات المجتمع – ليست عارضة بالنسبة للبشر ذوى العقل النقدى بنفس الدرجة التى تكون عليها بالنسبة للعالم أو بالنسبة لأعضاء المهن الأخرى الذين يفكرون جميعهم باعتبارهم علماء صغار " (٣٥) .

وتميل " النظرية النقدية " نحو الحفاظ على المجتمع واصلاحه التدريجى وذلك لكى تحقق أداءاً وظيفيا أفضل بالنسبة للبناء الاجتماعى ككل ، أو لأى من عناصره المكونة . ومن ثم يتمثل هدفها الرئيسى فى إلغاء العناصر المعوقة وظيفيا ، أو المثيرة للفوضى ، أو المستخدمة استخداما سيئا . ويستند اتجاهها على هذا النحو الى التسليم بأنه (كقاعدة أساسية ، ينبغى على الفرد أن يوافق ببساطة على الظروف الأساسية كمعطاه ، وأن يناضل للحفاظ عليها . فهو يحصل على اشباعه وتقديره إذا تمكن من إنجاز المهام المناطة بمكانته فى المجتمع بقدر المستطاع ، وأيضا الانجاز الشجاع لواجباته برغم النقد الحاد الذى يناله فيما يتعلق ببعض الأمور) (٣٦) .

وتعتبر النظرية النقدية أن جوانب المجتمع الرأسمالى المعوقة وظيفيا أو المستخدمة استخدما سيئا " مرتبطة بالضرورة بالأسلوب الذى ينتظم به البناء الاجتماعى " . فهى لا تهدف الى تحقيق مجتمع طبقى يعمل بصورة سليمة عن طريق دعم واستكمال الترتيبات الاجتماعية القائمة . بل أننا نجدها تشتبه فى مصطلحات " حسن ، مفيد ، ملائم ، منتج وقيم " بل تعتبر كل مجموعة التفاعلات غير الواضحة التى تقع بين مختلف النشاطات الفردية فى المجتمع الرأسمالى ، تستند الى تقسيم

العمل والبناء الطبقي التى تكمن جذورها فى الفعل الانسانى فى النهاية – الموضوع الممكن للقرار الهادف أو التحديد الرشيد للأهداف .

وحسبما يؤكد هوركهايمر فإننا نفترض أن تعرض النظرية النقدية، التى تهتم بالتحول الراديكالى للتنظيمات الاجتماعية القائمة " النظرية التقليدية " التى تحافظ على بقاء النسق :

(لايعتبر العلم الطبيعى الذى يتم التعبير عنه رياضيا – باعتبار أن الرياضة هى المنطق النهائى من وجهة نظر هذا العلم – هو المعرفة الملائمة للانسان المعاصر . بل أننا نرى أن النظرية النقدية للمجتمع المعاصر هى التى تلائمه ، فهى النظرية التى تتغلغل فى كل الجوانب التى تهتم بشروط معقولة للحياة) (٣٧) . وينبغى فهم مصطلح نقدى " بدرجة محدودة أى بمعنى نقد العقل النظرى ، وليس بمعنى النقد الجدلى للاقتصاد السياسى " (٣٨) .

ونتيجة لذلك يذهب هوركهايمر الى التأكيد على بعض الأفكار الأساسية للاطار التصورى للماركسية فى أصولها ، مثل التأكيد على نظرية الأفقار أو حتمية انهيار الرأسمالية حيث تعتبر : (مقولات الطبقة ، والاستغلال ، فائض القيمة والربح ، والإفقار والانهيار عناصر فى كل تصورى . ومن ثم فينبغى البحث عن عناصر هذا الكل ليس من خلال الحفاظ على بقاء المجتمع المعاصر ، ولكن من خلال تحوله الى نوع من المجتمع الصحيح) (٣٩) .

واستنادا الى ذلك تتغلغل فكرة مجتمع المستقبل ، كمجتمع يتكون من البشر الأحرار فى صميم النظرية النقدية . وهو المجتمع الذى لا يمكن تحقيقه من خلال الوسائل الفنية التى بين أيدينا فعلا . أما اليوم فنحن نجد ازدواجية فى الكلية الاجتماعية : حيث يعتبر اقتصاد وثقافة المرحلة

الحالية نتائج للنشاط الانسانى الواعى الذى ينبغى أن يتمسك به ممثلوا النظرية النقدية . غير أنهم يؤكدوا فى ذات الوقت على أن هناك بعض الظواهر فى المجتمع (كالحرب والقهر) والتى تبدو وهى تعمل وكأنها " عمليات طبيعية لا إنسانية " ويؤكد هوركهايمر " أن هذا العالم ليس عالمهم ولكنه عالم رأس المال " (٤٠) .

وتتجلى هذه الازدواجية عن طريق موافقتهم على بعض المقولات المجتمعية كالعمل والقيمة والانتاجية الى جانب ادانتهم لها فى نفس الوقت . فالبشر يتصرفون اليوم " وكأنهم أعضاء فى كل عضوى بلا عقل " ويذهب هوركهايمر الى أن الكائن العضوى كوحدة ينمو ويموت طبيعيا ، ومن ثم فلا يمكن أن يشكل نموذجا للمجتمع ، ولكنه يعتبر أحد اشكال الوجود الميت الذى ينبغى أن يحرر المجتمع ذاته منه (٤١) .

وينبغى أن يساعد استخدام النظرية النقدية على تحقيق هدف التحرير ، وأن تستوعب النظرية هذا الهدف كذلك . ومن ثم فإن عليها أن ترفض مقولات النظرية التقليدية المتعلقة " بالفصل بين القيمة والبحث ، وبين المعرفة والفعل " وحسبما يذهب علم اجتماع المعرفة فإن على النظرية النقدية أن تكرس جانبا أساسيا من البحث للمحددات الاجتماعية للأفكار والنظريات . غير أنه فى حين يخص علم إجتماع المعرفة نفسه بتأسيس العلاقات المتبادلة بين الفكر وظروفه المجتمعية ، فإن على النظرية النقدية أن تذهب الى أبعد من هذا الموقف ، لكى " تبحث عن نوع جديد من تنظيم العمل " فهدفها " أن تتجاوز التوتر وتقضى على التعارض بين غرضية الفرد وتلقائيته وعقلانيته من ناحية وبين علاقات عملية العمل التى يستند اليها المجتمع من ناحية أخرى وتعتبر قضية الفرد الرشيد فى مواجهة المجتمع غير الرشيد من القضايا التى اهتم بها هوركهايمر ، حيث نجده قد أكد بشدة على الشق الأول مرة تلو الأخرى ، إذ نجده يؤكد " أن السعى من أجل مجتمع رشيد ...

يعتبر عنصرا كامنا داخل كل إنسان (٤٣) . وفى هذا الاطار نجـــده كثيرا ما يناقش بدرجة أكثر تفصيلا مصطلح الرشد والعقلانية .

بالاضافة الى التعديلات التى طرأت على المصطلح فى مختلـــف مراحل تطور المجتمع البرجوازى حينما بدأت فترة " خســـوف العقـــل Eclipse of reason " إذا فالنظرية النقدية تستهدف تاسيس تآزر بيـــن الفكر والعمل ، فبالنسبة للمنظر النقدى :

(نجد أن الفاعل الانسان ليس وحدة رياضية كالأنا فـــى الفلســـفة البرجوازية ، إذ يتمثل جهده فة بناء الحاضر الاجتماعى ... أما اليـــوم فإن تفكيرنا بشأن الانسان يكشف انفصال الذات عن الموضوع كل عـــن الآخر ، وأن اتحادهما مازال يكمن فى قلب المستقبل) (٤٤) .

ولا يقع الطريق الى هذا الاتحاد المتوقـــع مـــن خـــلال عمليـــات التوضيح المنطقى الذى تقوم به النظرية النقدية ، ولكن أيضا من خـــلال العملية التاريخية الواقعية ، التى يمكن أن يتغير أثنائها البناء الاجتماعى بكامله . كما يمكن أن تتغير أيضا العلاقة المتبادلة بين المنظر والمجتمع ويعتبر دور التجربة التاريخية فى إعادة تنظيم المجتمع على أساس مـــن العقل بعدا محوريا بالنسبة للنظرية النقدية . إذ لا يشبع الانتـــاج اليـــوم مصالح أو احتياجات الأغلبية ولكنه بدلا من ذلك يشبع مصالح الأقليـــة فى الربح ، وهى الحالة التى نجد جذورها فى النهاية كامنة فى علاقـــات الثروة الحالية .

٨- البحث عن وسائل لإحداث التغيير :

أدى بحث هوركهايمر عن قـــوة مجتمعيـــة للتحـــول التـــاريخى الضرورى للنظام الاجتماعى الاقتصادى الرأسمالى غير العـــادل الـــى

مجتمع عادل ، الى تحليله الامكانية الثورية للبناء الاجتماعى الرأسمالى، وهو البحث الذى انتهى بدوره الى نزعة متشائمة ، وذلك برغم تأرجح هوركهايمر فى بعض الأوقات بين النزعة المتشائمة والنزعة المتفائلة .

فقد نظر ماركس و إنجلز الى البروليتاريا باعتبارها الطبقة التى " تقوم بعملية الربط بين العمل الذى يضع أدوات أكثر فى يد البشر أثناء صراعهم مع الطبيعة من ناحية وبين التجديد المستمر للتنظيم الاجتماعى القديم من ناحية أخرى " (٤٥) .

غير أنه بسبب انهيار الحركة الثورية البروليتارية الأوروبية فى نهاية عقد الثلاثنيات ارتابت النظرية النقدية فى وجهة النظر هذه ، وبالتالى فى دور البروليتاريا . ويعبر هوركهايمز عن ذلك بقوله :

" وحتى موقف البروليتاريا فى هذا المجتمع لا يكفل المعرفة الصحيحة " (٤٦) . حيث يسيطر الوعى الزائف على بصيرة البروليتاريا Wltanschauung . ولا يمكن أن تنتمى النظرية النقدية فى كليتهما الى البروليتاريا ، أو لأى طبقة اجتماعية فيما يتعلق بقوى التحول . وكما يعبر هوركهايمر عن ذلك بقوله : " وليس هناك طبقة اجتماعية تساعد موافقتها على النظرية النقدية على توجيهنا " بل أننا نجده قد كرر بوضوح رفض الدور التاريخى للبروليتاريا ، باعتبارها قوة التغيير الثورى [١]

١- نظرا لأن النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت تعبر عن وجهة نظر مجموعة من المفكرين البرجوازيين فيما يتعلق بالنظام الاجتماعى الذى يعيشون فبه والذى فرض عليهم قهرا مجددا . ومن ثم فغاية آمالهم ليس الإطاحة بالنظام القائم من حيث طبيعته ، ولكن فقط القضاء على مصادر القهر فيه ، لتحويله الى نظام ملائم ، لأنهم الذين شاركوا فيه منذ البداية وأسسوه . ومن ثم نجد أن قوى التغيير الاجتماعى لديهم ليست قوى التغيير الماركسية المتمثلة فى البروليتاريا ، التى تسعى للاطاحة بالنظام كلية ، لخلق واقع ملائم للبروليتاريا كطبقة وليس لهذه الشريحة البرجوازية اليهودية ومن ثم كان الإستبعاد =

وهو الدور الذى نجد جذوره فى موقفها الاجتماعى الاقتصادى الموضوعى : " ذلك أنه من الممكن أن تحدد الأيديولوجيا وعى كل شريحة اجتماعية وتزيفه ، برغم أنها الى حد كبير قد تميل الى الحقيقة، برغم الظروف التى تعيشها " (٤٧) .

ومن الواضح أن برقطة Bureaucratization أحزاب الطبقة العاملة الألمانية قد ساعد على ذلك ، باعتباره مصدرا أساسيا لخوف هوركهايمر من أى حركات منظمة ، وحسب تعبير هوركهايمر : " حيثما تختفى وحدة المعرفة والحرية ، فإن الحركة تصبح مسألة تتعلق بمصلحة الجهاز البيروقراطى فقط ، وهو الدور الذى ينتمى فعلا الى مسرح التاريخ الحديث " (٤٨) .

وفضلا عن ذلك فقد أكد هوركهايمر على أنه إذا تكونت النظرية من صياغة الأفكار والعواطف المحددة أو الخاصة بطبقة معينة ، فإنها بذلك قد لا تختلف عن أى من المعارف الأخرى . فقد لا تؤدى الصياغة النظرية لوعى البروليتاريا الى انتاج الصورة الحقيقية لوجودها ومصالحها ومن ثم فقد تصبح نظرية تقليدية أخرى لها نطاق اهتمامها ، ولكنها لا تشكل فى هذه الحالة الجانب العقلى للعملية التاريخية التى تستهدف تحرير البروليتاريا . ويصبح الأمر على هذا النحو إذا ألزم الانسان ذاته بعدم الترويج لأفكار البروليتاريا بصورة عامة . ولكن للاعلان عن الأفكار التى تنتمى للشريحة الأكثر تقدما ، أو التى تنتمى لجزء من قيادتها . ومن ثم قد تظل عملية التفكير أو بناء النظرية شئ، بينما تصبح البروليتاريا موضوعها شيئا آخر .

=الكامل للبروليتاريا كقوة للتغيير ، والبحث عن قوى اجتماعية بديلة تحدث اصلاحات جزئية وليست جذرية ، اصلاحات تواجه مصادر القهر فقط لكن لا تغير من طبيعة النظام كلية " المترجم " .

٥- دور المثقفين :

أما بالنسبة للمثقفين ، فإننا نجدهم يتأرجحون بين مواقع التفاؤل المفرط ، وهو التفاؤل الذى ينبثق من الشعور بالقوة نتيجة لتحالفهم مع قوى النصر الهائلة . وبصورة مؤكدة يميز هذا التشخيص الخاص باتجاهات وعواطف المثقفين موقف المنظرين النقديين . وقد كتب هوركهايمر معبرا فى ذلك عن نزعة واثقة ومغرقة فى التفاؤل قائلا :

" نتيجة للانتقال الذى يحدث اليوم ... من الشكل الحالى للمجتمع الى مجتمع المستقبل ، فإن الإنسان سوف يصبح لأول مرة ذاتا واعية ، تعمل بفاعلية ، بهدف تحديد أسلوب حياتها " (٤٩) .

ومن ناحية أخر فقد كتب هوركهايمر متشائما تحت وطأة تأثير انقضاض النازية على الحركة العمالية الألمانية والأوروبية قائلا : (فى ظل ظروف الرأسمالية الحديثة وعجز العمال عن مواجهة قهر جهاز الدولة المتسلط ، فإن الحقيقة تبحث لنفسها عن ملجأ بين الجماعات الصغيرة التى تتكون من البشر الممتازين . غير أن هذه الجماعات الصغيرة أيضا قد هلكها الرعب ، ولديها وقت محدود لا يمكنها من تطوير النظرية) (٥٠) .

وبالتالى فإننا نجد أن هوركهايمر يشجع على الانسحاب باعتباره السلوك الوحيد الممكن ، لأن التفكير الذى يتعلق بموضوع معين – ويمتلك استيعابا للوقف التاريخى ، ويحمل بداخله جنين المستقبل – ينبغى فى أوقات معينة أن يعزل فاعله ، وأن يرده لذاته ثانية [١] (٥١)

١- يبدو أن دعوة هوركهايمر للانسحاب وتأكيده عليه يعبر عن موقف الرفض الذى اتخذه منظروا مدرسة فرانكفورت . فهم يرفضون النظام النازى باعتباره نظاما قهريا ، وامتدادا لذلك فهم يرفضون النظام الرأسمالى باعتباره نظاما قهريا هو الآخر ، ولو= =بأسلوب مختلف ، ولقد رفعوا لواء الانسحاب من العملية الاجتماعية أو التفاعل

ويعتبر موقف هوركهايمر من دور المنظر النقدى محيرا بقدر ما فهو يعتقد من ناحية أنه ينبغى إدراك الدور الملائم للنظرية بالمعنى الدينامى الذى يقصده ماركس ، الذى أكد أن " النظرية تصبح ذاتها قوة مادية حينما تمتلك ناصية الجماهير " . وعلى ذلك " فإذا إتضح أن المنظر النقدى ، إضافة الى موضوعه المحدد يشكلان وحدة دينامية مع الطبقة المقهورة ، فإن ذلك يعنى ان إبرازه التناقضات المجتمعية لا يكون مجرد تعبير عن موقف تاريخى ، ولكن بإعتباره قوة تستثير التغيير من داخل الموقف ، وهنا تبرز وظيفته الحقيقية " .

ويمكن فهم إطار المواجهة بين طلائع الطبقة ، والأفراد الذين يروجون للحقائق بشأنها ، وكذلك المواجهة بين هذه الجماعة الأكثر تقدماً ، منظورها مع بقية أعضاء الطبقة بإعتبار أن ذلك عملية اجتماعية وتاريخية ، أو باعتبار أن ذلك نوعا من التفاعل المتبادل الذى يمكن أن يكشف فى إطاره وعى التحرير عن ذاته ، مرتبطا بالقوة المحركة ذات الطبيعة العاقلة . فى هذا الاطار تتبدى صورة المستقبل من خلال الفهم العميق للحاضر . ومن ثم فهى تستحوذ على الخيال أيضاً . فالمنظر بين الجماعات الأكثر تقدما هو الشخص الأكثر إمتلاكاً للخيال العريض " .

ومن ناحية أخرى يكرس هوركهايمر الفصل بين الماركسية الأرثوذكسية التى تهتم أساسا بتنظيمات الطبقة العاملة من ناحية وبين

مختلف ، ولقد رفعوا لواء الانسحاب من العملية الاجتماعية أو التفاعل الاجتماعى السائد باعتباره يعادل الثورة والتمرد التى تعنى الانسحاب ثم القضاء على التفاعل ذاته أو على الأقل التمرد عليه ، أما لماذا اختاروا هم الانسحاب فإن ذلك يرجع لكونهم أقلية يهودية غير قادرة على دفع غالبية الجماهير الى الثورة على نظام لم يمارس قهره على هذه الجماهير بنفس القدر الذى مارسه على اليهود . هذا الى جانب أن الطبيعة البرجوازية المثقفة المميزة لرواد فرانكفورت فرضت عليهم هذا المسلك الثورى ذو الطبيعة الخاصة ، وهم فى سلوكهم هذا يختلفون عن المسلك الثورى للبروليتاريا " المترجم " .

المثقفين الأحرار غير الملـــتزمين Freischwebende Intelligenz التى أبرزها مانهايم من ناحية أخرى .

ويذهب هوركهايمر الى القول بأن " النظرية النقدية " ليست عميقـه الجذور كالدعايات ذات الطبيعة الدكتاتورية ، أو منعزلة كالإنتلجنســيا الليبرالية . وذلك لأن نقد المنظر يتجه الى كل المدافعين عن الظــروف الحالية ، وأيضا الى ذوى الاتجاهات المنحرفة أو التى تتوافق مع ما هو (قائم) وأيضا الى ذوى الاتجاهات الخيالية داخل المعسكر النقدى ذاته، وينبغى أن يحافظ المنظر النقدى على بقاء مكانته محددة ومســتقلة " لأن المنظر الذى تتحدد مهمته فى التعجيل بالتطورات التى سوف تقود الـــى تاسيس مجتمع بلا ظلم ، يمكن أن يجد نفسه متناقضا مع وجهة النظـــر التى تسود داخل البروليتاريا ذاتها " (٥٤) .

وفى هذا الاطار عبر هوركهايمر عن موقـــف مقصـــود مضـــاد للتنظيـــم ، إذ أكد " أن رسالة النظرية النقدية لا تحل محل الممارســات المعترف بها أو الأساليب الثابتة للسلوك ، ولكنها قد تحل محل الاهتمـام بالتحول الاجتماعى " (٥٥) . وفى هذا الصدد يشير الاهتمام بنا هنـــا الى رؤية مجموعة صغيرة من المثقفين المرتبطين مع بعضهم البعـض، من خلال المعرفة النظرية المشتركة والشوق الى مجتمع ينتفـــى فيـــه الاستغلال والقهر . "

" حيث تتكون دوائر لنقل هذا التفكير ويحافظ على بقائها بواســطة المعرفة التى تأتى بالتزاماتها معها وليس من خلال الوحى أو الوراثـــة البيولوجية " (٥٦) . وكما عبر هوركهايمر عـــن ذلـــك المـــرة تلـــو الأخرى بقوله : (فى إطار الغليان التاريخى الشامل ، نجد أن الحقيقـــة قد تكون فى جانب مجموعة صغيرة العدد من البشر . إذ يعلمنا التـــاريخ أن هذه الجماعـــات – التى قد يصعب على المعارضين للحـــالة الراهنة

ملاحظتها – قد تجرم برغم أنها تظل رابضة الجأش ، فهى التى قد تصبح فى اللحظة الحاسمة المسئولة عن القيادة بسبب بصيرتها العميقة " (٥٧) .

١٠- نظرية المعرفة والتغير الاجتماعى :

فيما يتعلق بقضايا فلسفة المعرفة ، يؤكد هوركهايمر أن المادية تشترك مع الوضعية من حيث كونها تسلم بأن ما تدركه الحواس يعتبر حقيقيا . إذ تنظر النظرية المادية فى المعرفة الى خبرة الحواس باعتبارها نقطة بدء كل تفكير ، غير أنها لا تؤمن بإمكانية أن تكون المعرفة التى تأتى عن طريق الاحساس ذات طبيعة مطلقة .

على خلاف ذلك نجد أن النظرية النقدية تعارض إرجاع كل المعرفة الى الحواس . وذلك لأن النظرية تكون عادة أكثر مما هو محسوس فقط ، ومن ثم فلا يمكن إرجاعها كلية الى المحسوسات . ويؤكد هوركهايمر – مستندا بقوة على انجازات كيرت كوفكا Kurt Koffka وماكس فيرتهايمر Max Wertheimer الذى ينتمى الى علم نفس الجشتالط – أن الحواس التى تعتبر أبعد ما تكون عن أن تشكل اللبنات الأساسية فى بناء العالم أو فى الحياة النفسية – تعتبر مشتقات أو نواتج تظهر من خلال عملية التجريد المعقدة التى تتضمن تحطيم البناءات التى قد تؤسسها الذات .

ثم نجده يقتبس كوفكا متفقا معه فى قوله " لا تعتبر الحواس التى اعتبرت أساسا لعلم النفس منذ فترة طويلة ، بداية للتطور بل هى نهاية له " . الى جانب ذلك تعتبر الحواس ذات طبيعة تاريخية ، كما هى الحال فى علاقة الذات بالمعطيات ، هذا الى جانب أنها محكومة بالظروف المحيطة وقابلة للتغير ، حيث يتم التأكيد على الجوانب الفعالة

والمتغيرة تاريخيا لكل من الذات والموضوع ، وأيضا على الدور الفعال للانسان ذاته . وتعتبر نظرية المعرفة هذه ذات طبيعة جدلية وهو الأمر الذى يعنى التأكيد على التفاعل بين الذات والموضوع ، وفى ذلك يكتب هوركهايمر :

(يعتبر العالم المعطى للانسان والذى عليه أن يوافق عليه ويأخذه فى اعتباره – بشكله الحالى والمستمر – نتاجا لجهود المجتمع ككل . إذ تحمل كل الموضوعات التى ندركها فى محيطنا – المدن ، القرى ، الحقول ، والغابات – أثر أنها صنعت بواسطة الانسان) (٥٩) [١] .

ويستطرد هوركهايمر حتى يفسر الطبيعة التاريخية والجدلية لإدراك الحواس ، حيث يكتب (حتى الأسلوب الذى يرى به البشر أو يسمعون ليس منفصلا عن العمليات الاجتماعية كما تطورت عبر آلاف السنين . وحتى الحقائق التى أظهرتها الحواس لنا تم تحقيقها إجتماعيا من خلال أسلوبين : أولاً من خلال الطبيعة التاريخية للموضوع موضع الإدراك . وأيضا من خلال الطبيعة التاريخية للكائن العضوى الذى أدرك . وكلاهما ليس طبيعيا بالمعنى البسيط لذلك ، ولكنهما قد تشكلا بواسطة النشاط الانسانى) (٦٠) .

١- يلاحظ أن النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت تؤكد على فاعلية الارادة الانسانية – إذا تحررت من القهر – فى خلق المجتمع العادل ، وإعادة صياغة واقعها الاجتماعى بصورة مستمرة . فهى تختلف عن النظرية الماركسية التى ترى تشكل النظام الرأسمالى وطبيعة وتتابع التفاعل الذى يقع فى اطاره ، ثم العمليات المختلفة والمتعاقبة سواء تلك التى تتصل ببناء النظام الرأسمالى ودعمه أو تلك تعمل على ضعف هذا النظام وانهياره ، باعتبارها كلها عناصر تخضع لسيطرة قوانين تاريخية حديدية لا ترحم تعجل بإتجاه هذا النظام إلى نهايته المحتومة ، فماركس هو القائل " أن النظام الرأسمالى يتجه حتما إلى إنهياره حسب قوانين حديدية لا ترحم ، وما صراع البرجوازية والبروليتاريا إلا نوعا من الملاكمة الوهمية " . وهو القائل أن القوى الاجتماعية المنتصرة فى الصراع الطبقى هى القوى التى يتآزر فعلها مع القوانين الحاكمة لحركة التاريخ " المترجم "

ولا تعنى النزعة المادية بالنسبة للنظرية النقدية الأولوية الوجودية Ontological للمادة على الوعى " حيث لا ترتبط المادية بتصور ملتصق بالمادة " أو كما يؤكد هوركهايمر بقوله " ليس هناك سلطة يمكن أن يكون لها رأى فى طبيعة المادة باستثناء العلم الطبيعى الذى لديه إمكانية ذلك " (٦١) .

ويذهب هوركهايمر الى أن أى معالجة للنزعة المادية ، تصبح مضللة ، لأن النزعة المادية تهتم أساسا بالقضايا الميتافيزيقية . فقد كانت المادية بالنسبة لعصر صعود البرجوازية سلاحا للسيطرة على الطبيعة والانسان . حيث سيطرت قضايا فلسفة المعرفة والعلم الطبيعى على النزعة المادية فى ذلك الوقت . وحيث أثرت المتطلبات العملية لمواجهة المشكلات الواقعية على شكل ومضمون النظرية المادية ، وفى هذا الاطار تعتبر النظرية أداة ، يتحدد جوهرها من خلال المهام التى ينبغى أدائها – فى أى مرحلة تاريخية بعينها – بمساعدة النظرية . ولقد اتضح لنا ، فى هذا العصر ، أن المعرفة بالاتجاهات والحركات المؤثرة فى المجتمع ذات أهمية قصوى بالنسبة للنظرية المادية . وعلى هذا النحو نجد أنه بينما تحاول النزعة المثالية الاجابة على نفس التساؤلات المتواترة ، ونفس مواضع الغموض المستمرة ، فإن قضايا الفلسفة المادية تتحدد أساسا من خلال المهام التى ينبغى القيام بها فى اللحظة الراهنة .

ويبدو أن الاختلاف بين المادية والمثالية يرجع من وجهة نظر النظرية النقدية الى مسألة التعارض بين الطبيعة التاريخية واللاتاريخية للقضايا والمقولات . وفضلا عن ذلك ، تعنى النزعة المادية فى النظرية النقدية المزاوجة بين القضايا المجتمعية الوشيكة الوقوع فى هذا العصر مع النزعة الذرائعية للنظرية . " إذ لا تهتم النزعة المادية بالنظرة العالمية ولا بأرواح البشر ، وإنما تهتم أساسا بالظروف الواقعية

المتغيرة التى يعانى فى اطارها البشر والتى تعوق نمـــو أرواحـــهم ." (٦٢) .

وفى مواجهة ذلـك يكـرر هوركــهايمر التــأكيد علــى أولويــة الموضوعــات الأخلاقيــة علــى الموضوعــات الأبســـتمولوجية أو الأنطولوجية . إذ نجده يعبر عن ذلك بقوله :

(لا يصلح المبدأ الذى يراه المذهب المادى حقيقيا أساســا لبنــاء معيار ... فالمادة لا تعنى شيئا فى حد ذاتها ، حيث لا تمثل خصائصـها المسلمات الملائمة لتشكيل الحياة سواء بالنظر الى متطلبــات ذلـك أو بالنظر الى المثال ... فالمعرفة لا تقدم أية نماذج أو مسلمات أو وسـائل لخلــق حيــاة حقيقيــة) (٦٣) . إذ يتحــدد إرجــاع الموضوعــات الأبستمولوجية والأنطولوجية الى المرتبة الثانيــة بواســطة الموقــف الاجتماعى – التاريخى . ويوفر الفكر اليهودى الواقعية اللازمة لذلـك . إذ تتكون الفلسفة اليهودية من الأخلاق وليست بها أية أنطولوجيا .

١١- النظرية النقدية فى مقابل النظرية التقليدية :

ختاما لهذه المناقشة المتعلقة بالنظرية النقدية ، لابد للانسان أن يهتم بإلتقاء هوركهايمر بالماركسية أو إفتراقــه عنــها . طالمــا أن ســمعة النظرية النقدية بإعتبارها تمتلك توجها ماركسياً تســتند أساســا الــى صياغته للنظرية النقدية فى الثلاثينيات . وقبل أن نحدد مدى إمكانية أن تكشف نظرية هوركهايمر النقدية عن توجه ماركسى محدث ، فإننا نرى من الضرورى إجراء منافشة موجزة للماركسية . إذ تمثل الماركسـية – باعتبارها نوعاً من الإلتقاء بين الفلسفة الألمانية والأقتصــاد السياســى البريطانى ، والإشتراكية الفرنسية – وحدة النظرية والممارسة ، وفــى هذا الإطار تعتبر النظرية الاجتماعية الماركسية علما اجتماعيا إمبيريقيا

ووضعيا ، وقابلا للاثبات . وبعبارة أخرى ، تعتبر الماركسية توجـــــها سوسيولوجيا ، يسمى عادة بالمادية التاريخية ، وهو الأمر الذى يعنـــى إستخدام الإطار التصورى لإبستمولوجيا وأنطولوجيا النزعـــة الماديـــة والالتزام بموقفها ، ويعنى ذلك أيضا أن الماركسية تعنى بالمعنى الشامل إستيعاب العلاقة بين الاقتصاد والسياسة والممارسة العملية المشتقة عـن هذا الفهم .

وتوجد مشكلة إضافية فى مناقشة النظرية الإجتماعية الماركســـية حيث يقابل الذين يقومون بتفسير الماركســـية عـــادة بيـــن " مـــاركس الفـــيلسوف الانسانى الشاب ، وماركس العالم الاقتصادى النـــاضج " (٦٤) . وفى اعتقادى أنه من الملائم بدرجة أفضل أن نتحدث عن وحدة الإنتاج الفكرى لماركس ، ثم عن التوسع التدريجى للمدخل أو لإطـــار التحليل الماركسى ، حيث يشكل الإطار النظرى الذى أنجز أثناء حيـــاة ماركس نوعا من الرفع المستمر Continuous Aufhebuny ، أعنـــى الإبقاء على المرحلة السابقة و الحفاظ عليها ولكن على مستوى أعلى .

ويمكن القول بأن النظرية الماركسية تمثل ما نسميه اليوم بمدخـــل الأنساق المعرفية المتفاعلة Inter dischiplinary approach وهـــو المدخل الذى يضم الفلسفة والتاريخ والاقتصاد السياسى ، بالاضافة الـــى إلتزام قيمى كامن . ويمكن بسهولة تتبع إســـتيعاب مـــاركس المتتـــابع لمختلف العلوم . غير أننا نجد أن الفلسفة قد ســـيطرت علـــى مدخـــل ماركس حتى حوالى عام ١٨٤٤ ، ثم إنتقل التأكيد الى التاريخ حوالـــى عام ١٨٤٥ .

وفى إحدى فقـــرات مؤلفـــه الأيديولوجيـــا الألمانيـــة German ideology وهى الفقرة التى لا تترجم عادة فى الطبعات الانجليزيـــة . نجد أن ماركس وإنجليز يذهبان الى القول : " نحن نعرف علما واحـــدا

فقط هو علم التاريخ " (٦٦) . وقـد أدى وعـى مـاركس المـتزايد بأمراض المجتمع الرأسمالى ، وبحثه عن أسبابها الرئيسية الى انتقـال انتباه ماركس التدريجي الى دراسة الاقتصاد السياسـى فـى منتصـف الأربعينات من القرن التاسع عشر .

وفى هذا الاطار تعتبر مخطوطات باريس Paris Manuscripts لسنة ١٨٤٤ المخطوطات الفلسفية والاقتصادية . وقد أعطى مـاركس نفسه أخيرا تقريرا عن تطوره العقلى ، إذ قال :

(لقد وصلت من خلال دراساتى الى نتيجة أنـه لا يمكـن فـهم العلاقات المشروعة وبالمثل أشكال الدولة ، من خلال فهمها فى ذاتـها ولا من خلال ما يمكن أن يسمى بالتقدم العام للعقل البشرى . حيـث أن لها جذورها فى الظروف المادية للحياة ... ومن ثم ينبغى البحث عـن إستقلال المجتمع المدنى فى الاقتصاد السياسى) (٦٧) . ولا يعنـى إنتقال إهتمام أو تأكيد ماركس تحولا من علم الى آخر ولكنـه بصـورة أوضح يعنى التأليف بين منظورات عديدة . (٦٨) .

١٢- الماركسية وعلم الاجتماع الأكاديمى :

ظهر توجهان سوسيولوجيان مستقلان كل عن الآخر فى مجتمعـات أوروبا الغربية فى القرن التاسع عشـر ، وذلـك كاسـتجابة نظريـة للتطورات الإجتماعية والإقتصادية التى وقعـت فـى أعقـاب الثـورة الفرنسية . هذان الاتجاهان هما :

علم الاجتماع الوضعى لكونت والنظريـة الاجتماعيـة لمـاركس وإنجلز . ويمكن تتبع خطوات تطـور الاتجـاه الأول حتـى تـالكوت بارسونز وعلم الاجتماع الأكاديمى الغربى المعاصر ، أما الاتجاه الآخر

فقد بدأ مع ماركس وإنجلز واستمر حتى العلوم الاجتماعية الماركسية الحديثة سواء فى الشرق أو الغرب (٦٩) . ولقد وقعت تباينات داخلية كثيرة فى كلا الإتجاهين ، ومن أهمها وضوحا المدرسة التاريخية السوسيولوجية الألمانية لكل من دلتاى ، ركرت ، فيبر ، وزيمبل (٧٠) .

ولقد احتوت خطوط تطور كلا الإتجاهين عناصر أيديولوجية وعلمية متنوعة . بعضها إستمر بينما توقف البعض الآخر ، وبدأ كلا من الإتجاهين بنوع من التجاهل والإدانة كل للآخر (٧١) . وقد ظلت مشاعر التجاهل وعدم الثقة المتبادلة تحكم العلاقات بين علم الاجتماع الأكاديمى والعلوم الاجتماعية الماركسية معظم الوقت منذ أيام كونت وماركس .

وبرغم ذلك فقد حدث تخصيب مثمر ومتبادل فى أعمال الشارحين الأساسيين لكل من هذين الإتجاهين . فمثلا نجد أن لماكس فيبر حوارا دام طيلة حياته مع شبح كارل ماركس ، حيث يعتبر انجازه عملا أكاديميا رفيع المستوى (٧٢) . وذلك مثلما فعل كل من فرديناند توينس Ferdinand Tonnies وجورج زمبل George Simmel ، ثورثتون فبلن Thorstien Veblin، فلفريدو باريتو Vifrrdo peter، وكارل مانهايم Karl Mannhiem ، جوزيف شومبيتر Joseph Schumpeter ، س . رايت ميلز C . Wriht Mills وقد شارك من المعسكر الماركسى كل من ماكس أدلر Max Adler ، وجورج لوكاش George Lukacs ، كارل كورش Karl Korsch وآخرين فى الحوار الأكاديمى مع علم الاجتماع البرجوازى (٧٣) [1] .

١- يمكن النظر الى الفكر النقدى لمدرسة فرانكفورت على أنه يمثل إلتقاء بين الاتجاهات النظرية المتعارضة (الماركسية والنظرية التقليدية) . فهو وأن وافق على أدانه النظام=

وبعد فترة من التشهير وفضح الزيف المتبادل خلال فترة الحرب الباردة فى الخمسينات ، أعاد كلا من المعسكرين النظر فى موضوع اعادة فتح ملف العلاقة المتبادلة بينهما . ومع إعادة إحياء علم الاجتماع الماركسى كعلم أكاديمى فى نطاق الاطار الأشمل للماركسية فى كل من الاتحاد السوفيتى والأقطار الأوروبية الشرقية فى الستينات ، بدأ الحوار من جديد بين الماركسية وعلم الاجتماع البرجوازى (٧٤) .

ويمكن القول بأن علم الاجتماع الماركسى يتميز بخمسة خصائص أساسية : وتتمثل الخاصية الأولى فى أنه تاريخى ، وذلك على نقيض علوم الاجتماع الصورية واللاتاريخية . والثانية ، أنه علم مادى وهو فى ذلك نقيض النظريات الاجتماعية المثالية . والثالثة أنه علم إمبيريقى ، وهو يناقض فى ذلك التنظير التأملى . والرابعة تتمثل فى موضوع بحثه الذى يركز بالأساس فى البحث عن العلاقات المجتمعية التى تنتج علاقات الانتاج ، التى تحدد البناء الموضوعى للمجتمعات الواقعية تاريخيا . والتى تحدد القانون الذى يحكم شروط تطورها .

=الرأسمالى القائم كما تجلى فى ألمانيا ، وذلك بحثا عن مجتمع أفضل تشبع فى نطاقه الحاجات الانسانية وتتحقق الامكانات البشرية ، إلا أن النظرية النقدية تختلف مع الماركسيةمن حيث رفضها أن تكون البرولتياريا هى قوة التغيير التاريخى ، وإنما من الممكن أن تلعب هذا الدور قوى أخرى غيرها حسبما أشارماركيوز الى الشباب والطلبة . اضافة الى ذلك فهى ترفض أن يكون التغيير جذريا وشاملا ، ولكن ينبغى أن يتجه بالأساس الى القضاء على مصادر الظلم أو القهر فقط . اضافة الى ذلك تختلف طبيعة القضايا أو الموضوعات التى تهتم بدراستها النظرية النقدية عن الموضوعات التى تهتم بها النظرية الماركسية بصورة تقليدية . أما بالنسبة للعلاقة بين النظرية النقدية والنظرية التقليدية وخاصة تلك التى تطورت وعبرت عن نفسها فى اطار علم الاجتماع الأمريكى . فإننا نجد أن النظرية النقدية تختلف معها بسبب مباركة النظرية التقليدية للنظام الرأسمالى القائم وسعيها الى دعمه والحفاظ عليه والدفاع عنه ، وإن كانت النظرية النقدية قد استعارت من النظرية التقليدية كثبرا من مناهجها فى البحث ، بل وأجرت كثيرا من دراساتها حول قضايا تدخل فى صميم إهتمام النظرية التقليدية ، بذلك تعتبر النظرية النقدية تظرية مفكرين لهم ارتباطاتهم الماركسية السابقة ، وإن كانوا يعيشوا فى مجتمع ديموقراطى ينشر تفاعلا وقيما تسقط عنه معاناة مشاعر الأقلية " المترجم " .

والخامسة أن علم الاجتماع الماركسى يستفيد من مقولة الكلية ، بحيث يتضمن ذلك تحليل كلا من الأساس الإجتماعى – الاقتصادى ، وأيضا تحليل البناء الفوقى الأيديولوجى والسياسى ، وأيضا يلتزم بالفكرة المتفائلة التى تذهب الى أنه يمكن أن يصبح المجتمع كاملا وعادلا .

١٣ – النظرية النقدية والنظرية الاجتماعية الماركسية :

بإيجاز نجد أن النظرية النقدية تلتزم ببعض المعتقدات الأساسية فى النظرية الاجتماعية الماركسية ، كالمدخل التاريخى ، والأفكار المتعلقة بالتطورات المجتمعية المستندة الى القوانين المجتمعية ، هذا الى جانب أنها تسلم بأهمية البحث الإمبيريقى . وبرغم ذلك تنحرف النظرية النقدية عن المعتقدات الأبستمولوجية والأنطولوجية للماركسية الكلاسيكية ، هذه المعتقدات يمكن إيجازها على النحو التالى :

١– أن الحقيقة الموضوعية الخارجية توجد مستقلة عن إدراكنا أو وعينا .

٢– ليس هناك حدود لما يمكن أن يفسره العلم فيما يتعلق بقوانين الطبيعة والمجتمع . وبالتالى فالإختلاف بين الظواهر Unknowable Dingasich إختلاف مرفوض . (ينبغى أن نلاحظ هنا الاتفاق مع الوضعية فيما يتعلق بهذه القضية)

٣– أن صورة الحقيقة الموضوعية تعطى لنا بواسطة الحواس (نظرية الانعكاس أو نظرية المحاكاة Copy Theory) .

٤– تساعد الممارسة على إثبات صحة أو زيف صور الحقيقة الخارجية

٥- يعتبر الافتراض الأنطولوجى المتعلق بأولوية المادة هو الأساس لفكرة وحدة العلوم (٧٩) .

وبرغم أن النظرية النقدية لم تتخذ أبدا موقفا نظريا محددا فيما يتعلق بقضايا الأنطولوجيا والأبستمولوجيا الماركسية . وبرغم أنها لم تقدم موقفها بأسلوب منظم أو متماسك ، فإنه بإمكان أى منا أن يكشف عن قضايا عدم الاتفاق بين الاثنين . فمثلا لا تهتم النظرية النقدية بقضية الحقيقة الموضوعية باعتبارها من وجهة نظرها قضية ذات أهمية ثانوية . ولا تؤيد النظرية النقدية نظرية الانعكاس reflection (نظرية المحاكاة) معتبرة اياها من رفات القرن التاسع عشر .

وبرغم أن النظرية النقدية فجعت لفصل الوضعية النظرية عن الممارسة ، فإننا نجدها لأسباب عديدة قد عزفت عن الممارسة خلال حياتها ، كما سوف نناقش ذلك فيما بعد . ومن الواضح أن النظرية النقدية قد رفضت صراحة فكرة وحدة العلوم . حيث يعتبر مذهب دلتاى فى ثنائية العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية – الثقافية من أكثر المؤثرات أهمية فى هذا الصدد .

الى جانب اهتزاز إعتقاد الماركسية المتفائل فى التقدم بسبب الأحداث السياسية فى أوروبا ، وأيضا تحت تأثير فلسفة شوبنهاور . وعلى ذلك لا يمكن تصنيف النظرية النقدية بإعتبارها ماركسية لأنها تنحرف عن المعتقدات الأساسية للنظرية الإجتماعية الماركسية من ناحية ، ولأنها من ناحية أخرى لم تقدم أبدا تآلفا للنظرية والممارسة . ونحتاج أن نناقش الأسباب الكثيرة والمعقدة المسئولة عن افتقاد هذا التأليف .

١٤- النظرية والممارسة ، والحوار حول العنف :

فى بعض الفترات التاريخية الحاسمة ، يختزل موضوع العلاقة بين النظرية والممارسة فى الغالب الى قضية تبرير استخدام القوة ، حيث ناضل كثير من المفكرين السياسيين العظام فى عصرنا مثل فيبر Weber وسورل Sorel ولوكاش من بين آخرين فيما يتعلق بهذه القضية ، ووصلوا الى نتائج متباينة بشأنها . ويمكت تحديد ثلاثة " نماذج مثالية " للإجابات التى قدمها مفكروا مابعد الحرب العالمية الأولى فيما يتعلق بهذه القضية . ويتمثل النموذج الأول فى الواقعية السياسية – Real Politik أو حل (منتصف الطريق) الذى قدمه ماكس فيبر . أما النموذج الثانى فيتمثل فى الموافقة غير المشروطة على إستخدام العنف كضرورة تاريخية كما قدمه لوكاش . بينما يشير النموذج الثالث إلى الاتجاه الإنسان المحب للسلام كما يذهب الى ذلك ماكس هوركهايمر (٧٩) .

ولقد كان فيبر راعيا كسياسي واقعى As real politker بالحقيقة السوسيولوجية التى تؤكد أن العنف المشروع يعتبر جزءا من العملية السياسية فى بعض مراحل التطور التاريخى لكل مجتمع ، حيث أوجز ذلك بقوله :

(من الواضح أن الفعل الإجتماعى الذى يتميز بالعنف يعتبر أساسيا بصورة مطلقة فى كل التكوينات الإجتماعية ، إبتداء من الدار المعيشية Household وحتى الحزب السياسي . حيث يتم اللجوء عادة الى العنف الفيزيقى حينما تظهر الحاجة الى حماية أعضائه ، أو حينما يمتلك القدرة على ذلك . غير أن إحتكار (الدولة) بإعتبارها الرابطة الأقليمية – والسياسية لإستخدام العنف المشروع ، وتوحيد – إستخدامه

– العقلانى كنظام فى بنية المجتمع ليس مسألـــة أساسية ، ولكنه نتـــاج للتطور) (٨٠) .

ويقتبس فيبر قول تروتسكى Trotsky المأثور موافقا عليه كذلـك " أن كل دولة تتأسس على العنف " . وبرغم أن الخــــلاص Salvation والممارسة فى الحياة اليومية تعتبر مجالات مختلفة بالنسبة لفيبر ، فإننـا نجده يؤكد بصورة مشددة أنه " ينبغى على من يبحث عـــن الخــلاص لروحه وروح الآخرين أن يبحث عنها من خلال دهاليز السياسة ، حيث يمكن حل المهام السياسية المختلفة من خلال العنف " (٨١) . "

إن كل شئ نناضل لتحقيقه من خلال الفعل السياسى بستخدم وسائل العنف ... يضر خلاص الروح " (٨٢) . وهنا نجـد صراعــا بيــن نمطين من الأخلاق : أخلاق المسئولية ، وأخلاق الغايات النهائية . وفى أحد المواضع يعلن فيبر أن " الانسان لا يستطيع أن ينصح أى شــخص آخر بضرورة إتباع أخلاق الغايات النهائية أو أخــلاق المســئولية ، أو متى يتبع ذلك أو ذاك " (٨٣) .

وفضلا عن ذلك فقد إشتاق فيبر فى الخاتمة لنـــوع مـــن الاتفــاق الوسط ، ومن ثم فقد أعلن " أن أخلاق الغايات النهائية ليست بالضرورة متناقضة مع أخلاق المسئولية ، ولكننا نجد أن كل منها تدعم الأخــرى . بل أننا نجد أنهما حينما يتحدان يكونان الإنسان العظيم ، الانسان الــذى يمتلك القدرة على مزاولة السياسة " (٨٤) .

ويستند فيبر فى معارضة العنف الثورى الى معرفته بثورات وسط أوروبا ، حيث إعتقد أن هذه المحاولات غير الناضجة شـــوهت مبــدأ الاشتراكية . فيما يتعلق بذلك نجده قد كتب الى لوكاش فى عــام ١٩٢٠ قائلا : " صديقى العزيز ، نحن طبيعيا مختلفيــن فــى وجهــة النظــر السياسية ، غير أنى مقتنع تماما بأن هذه التجارب الثوريـــة – ســوف

يكون لها تأثير واحد يتمثل فى أنها سوف تشوه معنى الاشتراكية خلال المائة سنة القادمة (٨٥) .

بالاضافة الى ذلك فقد كان لدى فيبر شكوكه فيما يتعلق بالوجود اليهودى البارز فى الثورات التى حدثت فى وسط أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى (خاصة الثورة الهنغارية والثورة الألمانية) . وبرغم فهمه لتعقيدات المأزق اليهودى فى أوروبا وتعاطفه معهم ، فقد خاف أن يؤدى الوجود اليهودى البارز الى دعم النزعة المضادة للسامية ، وهو الخوف الذى أكدته الأحداث التاريخية التالية والمحزنة . وفى هذا الصدد كتبت ماريانا فيبر Mariana Weber :

(كره فيبر النزعة المضادة للسامية ، غير أنه حزن لحقيقة وجود كثير من اليهود خلال هذه الفترة من بين القادة الثوريين ... [١] . وقد قال أنه استنادا الى الموقف التاريخى اليهودى فإنه لا يمكن الاقتناع بانهم بصفة خاصة يمكن أن ينتجوا هذه الطبيعة الثورية) .

ولكن بغض النظر عن أساليب التفكير السائدة ، فإنه من الحماقة أن يسمح لليهود بأن يكونوا فى القيادة ، وأيضا من الخطأ بالنسبة لليهود أن يظهروا كقادة) (٨٦) . وتلخص مقالة فيبر السياسية كرسالة politics as a vocation الحوار الطويل مع ما يمكن أن نسميهم تلاميذ فيبر Weber Kreis وهو الحوار الذى وقع فى جامعة هيدلبرج خلال سنوات الحرب . والذى اشترك فيه أشخاص مثل جورج لوكاش ،

١- يرجع وجود عديد من اليهود بين القادة الثوريون فى هذه الفترة من تاريخ أوروبا الى أن الظروف الاجتماعية والسياسية التى تدفع الى الثورة كانت أشد وطأة على اليهود من غيرهم خلال هذه الفترة . ومن ثم فقد كانوا هم الأول من حيث الاستجابة للمشاعر الثورية . اضافة الى أن نجاح هذه الثورات فى عملية التغيير لخلق المجتمع الذى تنتفى فيه المعاناة والظلم ، وتنتشر فيه درجة عالية من الديموقراطية سوف يكون المجتمع الملائم لحياة الجماعة اليهودية فى اطاره " المترجم " .

إيرنست بلوخ Ernst Bloch ، كارل يسبرز Karl Jaspers وعشرات من المثقفين الثوريين الشبان لروسيا القيصرية (٨٧) .

وقد القيت محاضرات فيبر فى ميونخ سنة ١٩١٩ حيث انفجرت الثورة الألمانية خلال هذه الفترة . وقد حضر هوركهايمر الشاب إحدى محاضرات فيبر وسجل عدم رضائه عنها بعد ٤٠ سنة قائلا :

(حاضر فيبر عن النظام السوفييتى ، حيث كانت قاعة الاجتماعات مزدحمة حتى الأبواب . وقد سادت فى أعقاب المحاضرة حالة من عدم الرضا . فبدلا من التفكير والتحليل النظرى ، الذى يقود الى تأسيس تصور منطقى عن المستقبل – ليس فقط فيما يتعلق بطرح القضية موضع الاهتمام ، ولكن فيما يتعلق بكل خطوة من خطوات التفكير أيضا – فإننا قد وجدنا أنفسنا قد استمعنا لساعتين أو ثلاث لحديث فيبر عن مجموعة من التعريفات المتوازنة فى النهاية عن النظام الروسى .

وأيضا الى مجموعة من النماذج المثالية التى تمت صياغتها بذكاء حاد ، والتى بواسطتها يمكن تعريف النظام السوفييتى . لقد كانت هذه التعريفات والنماذج محددة بدرجة كاملة ، ودقيقة تماما من الناحية العلمية ، ومتحررة تماما من الإلتزام القيمى ، حتى أننا ذهبنا الى منازلنا وكلنا حزن) (٨٨) [1] .

وفى نفس السنة التى ألقى فيها فيبر محاضرته فى فيينا ، واجه صديقه الوحيد فى هذه الفترة جورج لوكاش – الذى كان فى بودابست فى قلب الغليان الثورى – نفس المعضلة فيما يتعلق باستخدام القوة . فقد

١- من الواضح هنا خيبة أمل هوركهايمر الذى كان يتوقع أن يسمع من فيبر تحليلات عينية تنصب على الواقع الانسانى الاجتماعى وموقف الانسان فى اطاره . إذ وجد نفسه لثلاث ساعات كاملة يستمتع عن أفكار ومناقشات منهجية لم تكن تهم كثيرا رواد مدرسة فرانكفورت " المترجم " .

وقعت الثورة البرجوازية – الديمقراطية فى هنغاريا فى أكتوبر ١٩١٨. حيث عادت مجموعات أسرى الحرب السابقين ، الذين شارك الكثير منهم فى الثورة البلشفية فى روسيا ، ودفعوا الأحداث فى هنغاريا تجاه السير فى نفس المسار التاريخى الروسى ، أعنى بإتجاه الانتقال من المرحلة البرجوازية الى المرحلة البلشفية للثورة المزدوجة .

وفى هذا الاطار وقع لوكاش والمثقفين البرجوازيين التقدميين المحيطين به فى معضلة أخلاقية وسياسية واضحة .

وحسبما أشرنا سابقا نلاحظ اشتراك هوركهايمر ولوكاش فى غلبة العنصر الأخلاقى على تفكيرهما . ومع ذلك ففى حين نجد أن موقف هوركهايمر الأخلاقى يتميز بالنزعة السلامية Pacifist المسيحية ذات الطبيعة السلبية والمتشائمة ، فإننا نجد أن موقف لوكاش يتميز بالروح المسيحية التقدمية النشطة والنضالية . ويشير معظم أدب لوكاش ، الى تحول – قد يعتبر فى بعض الأحيان جذريا – فى الحياة العقلية عند لوكاش الذى يبدو أنه قد أصيب بالضيق بسبب تحول البررجوازيين الموالين سابقا الى الماركسية .

ومع ذلك تؤكد الدراسات الأكاديمية الدقيقة على نوع من الوحدة والاستمرارية الواضحة فى حياة لوكاش وعمله بصورة عامة ، وتميزها بالطابع الأخلاقى الواضح بصفة خاصة) (٨٩) . حيث اتضح أن إعتناقه الماركسية والتحاقه بالحزب الشيوعى قد شكلا قمة تطوره ، بمعنى أن ذلك مثل خطوة منطقية فى اتجاه تطور شخصيته ، وهو الأمر الذى تحقق بسبب تحرره التدريجى من وهم انهيار الحضارة الرأسمالية – البرجوازية الأوروبية – ، حيث تحقق ذلك فى جانب من منه بسبب الثقة فى الأحداث التاريخية ، وكذلك فى المد الثورى الذى ساد فى أوروبا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

ويوضح تتبع تفكير لوكاش – برغم مبدئيته وعدم اكتماله بدرجة لا يمكن التغاضى عنها – أن لوكاش الشاب ، الناقد كان هو " الذى يميل عادة الى القيمة والشكل ، الى الإعتدال والنظام " (٩٠) . وقد كتب لوكاش – وهو المشهور بكتابة المقال – فى سنة ١٩١٠ أنه فى سعيه من أجل التناغم لم ير أى حل آخر سوى " تشكيل روح الفرد وخلاصها " ، بالإضافة الى ذلك نجده قد إدعى " أن نموذجا جديدا من الحب esthet يولد الآن " (٩١) . وقد تم التعبير الواضح عن النزعة المسيحية عند لوكاش الشاب بلغة تذكرنا بأنبياء العهد القديم ، إذ كتب " لقد بعث النقد الى العالم ... من أجل التوضيح والحكم " (٩٢) . وتعتبر المقال هى الوسيلة العقلية فى النقد (كما يرى لوكاش) حيث " تعتبر المقالة حكما " (٩٣) . وفى هذا الصدد نجد أن لوكاش قد إعتقد فى القوة التحريرية Redeeming للشكل ، مدعيا " أن الثقافة الجمالية تتكون من تشكيل الروح " حيث يتم جمع الأخلاق وعلم الجمال مع بعضهما . (لأن الشكل هو الحكم الأعلى فى الحياة . " إذ يعتبر الشكل المحدد هو قوة حاكمة أو أخلاقاً : إذ يوجد حكما قيمياً فى كل شئ مُنح شكلاً . وحينئذ يعتبر كل نوع من أنواع الشكل المعطى ، وكل شكل من أشكال التعبير الأدبى خطوة فى تدرج إمكانيات الحياة ... ") (٩٥) . ومن الطبيعى أن تشكل وجهة النظر هذه رؤية راديكالية للشكل ، وهى الرؤية التى وجد مفهوم العنف مكانة له فى إطارها .

(يكمن جوهر الفن فى إبداع الشكل ، فى هزيمة القوى المعادية التى تقاوم إبداع الوحدة من الفوضى ... بذلك يعتبر الشكل هو الحكم النهائى على الأشياء . فهو الحكم النهائى الذى يعنى الخلاص لكل شئ ممكن ، الحكم الذى يفرض الخلاص بواسطة الرعب المقدس على كل شئ) (٩٦) .

وينبغى أن نتذكر أن ماركس الشاب أيضاً ، قد أيد الخلاص والتحرير الشامل ، حيث نجد ماركس يقتبس عن توماس منذر Thomas Munzer الثيولوجى الألمانى الثورى – متفقاً معه – الذى أعلن أنه من غير المحتمل " ضرورة أن يتحول كل مخلوق الى ثروة " – إذ ينبغى أن تصبح الأسماك فى الماء ، والطيور فى الهواء ، والنباتات على الأرض والحيوانات أيضاً حرة " (٩٧) .

وقد دفعت الشكوك فى النظام البرجوازى الذى يواجه الانهيار لوكاش نحو " البحث عن الحقيقة ، عن المعايير والمبادئ " ويبدو أن مذهب ماركس قد قدم الحل لهذه الشكوك ، حيث نجد لوكاش قد تحرك بعد الثورة الروسية فى عام ١٩١٧ والثورة (البرجوازية) الهنغارية الأولى فى أكتوبر عام ١٩١٨ ، من موقفه المضاد للرأسمالية إلى موقف يشبه الموقف الإشتراكى الديموقراطى إذ نجده قد أوجز نظريته فى مقالة له نشرت فى ديسمبر ١٩١٨ بعنوان " البلشفية باعتبارها قضية أخلاقية " (٩٨) . حيث يناقش لوكاش فى هذا المقال عدة بدائل تدور حول أنه لكى نأمل فى القضاء النهائى على كل الصراعات الطبقية ، فإما أن يتم ذلك عن طريق الخلق التلقائى لنظام عالمى جديد من خلال الوسائل الديموقراطية التى تنزع الى السلام ، وإما أن نتبنى موقف ديكتاتورية البروليتاريا التى تشير باستخدام العنف، أو حتى التسلط الطبقى الذى قد يصبح أكثر قسوة مما هو قائم .

وبعد أسابيع قليلة من مقابلة لوكاش لبيلاكون Belakun ، القائد الملهم لثورة ١٩١٩ البروليتارية الهنغارية ، نجده قد إلتحق بالحزب الشيوعى ، وحارب بالقلم الرصاص من أجل هدف العقيد البروليتارية الدولية . وقد أوجز لوكاش الأساس النظرى لتحوله فى المقالة السياسية الثانية التى إتخذت عنوان " التكتيك والأخلاق Tactics & Ethics حيث نقرأ فى آخر المقال العبارة التالية :

(إن باستطاعة من يسلم بلا تردد أو تحفظ بأن القاتل – الذى لـــم يعاقب تحت أى ظروف – يمكنه أنه يرتكب فعل القتل الذى يعتبر فـــى الواقع – وبصورة مفجعة – فعلا أخلاقياً . ولكى نعبر عن معنى هـــذه المأساة الانسانية-الأكثر شمولاً بعبارة لا تقارن من حيث جمالها ، فإننـا نستعين بعبارة Hebbel's Judith التى تؤكد " حتـــى لـو أحـل الله الخطيئة بينى وبين العمل الملقى على عاتقى ، فمن الذى يكـــون فـــى مقدورى الهرب منه ؟ " (١٠٠) .

وفى الحقيقة إعتقد لوكاش – بشدة – فى الضرورة التاريخية للعنف " لقد وضع العنف الآن فى خدمة الإنسان ، لأنه يساعد علـــى تكشـفه كإنسان " (١٠١) .

وقد عرف إيرنست بلوخ Ernst Bloch – وهو مفكـــر ألمـــانى معاصر آخر وصديق للمفكر لوكاش – هذا الإتجاه باعتباره يؤكد علـــى الأمر المطلق الذى يمسك بمسدس فى اليد ويصر على " الآن وحينئـذ " . وقد كتب بلوخ فى عام ١٩١٨ أن الشر يمكن هزيمته من أجل القضاء على السوء ، ويحذر بلوخ "وإلا فإن الروح سوف ترتكب جريمة فـــى حق ذاتها ، إذا هى قد تراجعت الى حالة من الرومانسية العقلية ، أو إذا هى قد وافقت على نوع من التسامح الصريح الذى لا يضـــر الظلـم " (١٠٢) . وبصورة عرضية يمكن ملاحظة إتفاق كلا مـــن لوكـاش وبلوخ مع ماركس الذى عين للعنف دورا محددا . إذ كتب مـــاركس أن الثورة ضرورية ، ليس لأن الطبقة الحاكمة لا يمكـــن الإطاحـة بـــها بطريقة أخرى ، ولكن لأن الطبقة التى تتطيح بها يمكن أن تنجح ، مـــن خلال الثورة فقط ، فى تخليص نفسها من كل روث العصور الســابقة ، ومن ثم تصبح قادرة على خلق المجتمع من جديد " (١٠٣) .

وقد تداخلت مؤثرات كثيرة بالنسبة للوكاش لكى تشكل شـــخصيته وإتجاهاته الأخلاقية . وقد جاءته هذه المؤثرات أساسا من ديستويفســكى Dostoyevski ، سورل والفوضوى الروسى سافنكوف Savinkov . (١٠٤) . وقد صور توماس مان Thomas Man شخصية لوكـاش ، المفكر الثورى بدرجة دقيقة فى هيئة ليونافتا Leo Naphta فى مؤلفــه الهام جبل السحر Magic Mountion . وقد قابل لوكاش مان Mann فى فيينا سنة ١٩١٩ ، حيث كان لوكاش يعيش فى المنفى بعد هزيمـــة الثورة البروليتارية الهنغارية ، وكان له تأثيره الهائل على توماس مـــان (١٠٥) .

وهناك عوامل كثيرة ، أهمها الاختلافات فى المزاج الســيكولوجى والعقلى ، وفى الظروف الاجتماعية – والتاريخية ، وهى الاختلافـــات التى تعتبر مسئولة عن الابتعـــاد بـــن لوكـــاش والمنظريـــن النقدييـــن (وهوركهايمر أساسا) وذلك بسبب آرائه عن استخدام العنف وتبريره . ويمكن إرجاع (رفض هوركهايمر الموافقة على العنـــف ، أو غفـــران إستخدامه تحت أى ظروف – بصورة أكثر تحديدا – الى تعلقه بأسلوب الحياة البرجوازية ، وفهمه لطبيعة الأخلاق اليهوديـــة Judiac Ethic والتأثير المبكـــر (للنظـــرة المتشـــائمة الـــى العـــالم) Pssimistic Weltanschauung للمفكر الألمانى شوبنهاور Schopenhauer .

وتعتبر بعض كتابات هوركهايمر التى تتخذ طابع السيرة الذاتيـــة ، أو الشبيهة بالسيرة الذاتية أكثر دلالة فى هـــذا الصـــدد . فبـــالرغم أن هوركهايمر لم يكن راضيا عن تحليل فيبر السياسى لأحداث عام ١٩١٩ المتحرر من أى إلتزام قيمى ، فإننا نجده لم يلزم نفسه بقرار واضح فيما يتعلق بالمعضلة الأخلاقية المتعلقة بالعنف . ومن ثم يعتبر البحث عـــن حل " الشوق لشئ ما مختلف نهائيا " أساس مشروع حياته كلها .

وقد كتب هوركهايمر فى نهاية العشرينات حول استخدام العنــف ، وعن التناغم والنزعة الى السلام قائلا :

(بصورة أكثر تحديدا يعتبر رفض العنف فى كل أشـــكاله عمـــلا محموداً ، بدلا من أن نحاول القضاء على العنف عن طريق اســـتخدام العنف ، إن الذى يؤمن بالسلام يكون عادة واثقا من نفسه ، وحتـــى إذا أصبح هدفا للعنف فإننا سوف نجده لا يختار رفع الســـلاح مـــن أجـــل التحدى . فحياته على هذا النحو أكثر إنسجاما من حياة الثورى ، وعليه أن يبرز للثورى فى مواقف البؤس الكامل مثل ملاك فى مملكة الجحيم. ولك أن تتخيل صورة : أن يرقد إنسان العنف بلا وعى علـى الأرض ، مهزوما بواسطة أعدائه ، ضحت به القوى المعادية ، مثلما ضحى هـــو بالجماهير التى قادها أمامه . وحينئذ فقط يساعده الملاك ، الذى يكـــون فى مقدوره أن يساعده ، لأنه الانسان الذى لم يوافق أبدا على ممارســـة العنف ومن ثم فقد كان يتجنبه ، غير أنه قد يعود الى التفكير ثانية فـــى القضية القائلة بأن : ألم يكن ممكنا أن تغرق الانسانية الى قاع البربريـــة بدون هؤلاء الذين ظهروا فى مجرى التاريخ والذين إضطلعوا بمهمـــة تحريريها باستخدام القوة ؟ هل من الممكن أن تحتاج الانسانية الى مثـــل هذا العنف ؟ هل من المعقول أن نتخلى عن كل مساعدة عملية فى مقابل الحفاظ على تناغمنا Harmony . ومن الطبيعى أن تكون هذه الأســـئلة كافية لتحطيم السلام العقلى للانسان) (١٠٦) .

وحسبما أوضحنا فى الاقتباس السابق نجد أن هوركهايمر قد عـــاش مخلصاً لعقيدته ، فقد ظل طيلة حياته ذو نزعة سلامية مرتبطة بنوع من الضمير الحى .

وقد وازن هوركهايمر بصورة دقيقة القضية المتعلقة بأساليب الحياة البديلة ، أعنى الموازنة فى الاختيار بين الطريق السوى الذى يتـــهدده

البؤس والإبادة والمنفصلة من ناحية وبين الحياة الأكاديمية المريحة ، حيث يعجب به الطلاب وتحترمه السلطات ، ومن ثم فقد كتب :

(لم تظهر الصفوة البروليتارية فى النطاق الأكاديمى ، ولكنها ظهرت بالأحرى من خلال المعارك فى المصانع والنقابات ، وبواسطة العقوبات الصارمة التى فرضت عليها بعض الصراعات القذرة للغاية ، تلك الصراعات التى وقعت داخل الأحزاب وخارجها . وأيضاً بواسطة أحكام الإعدام والخروج على القانون . حيث لا يذهب الطلبة الى هناك فى أعداد كبيرة كما يذهبون الى قاعات المحاضرات والمعامل التى أسستها البرجوازية . ذلك لأن مهمة الثورى لا تتكون من الاستمتاع بالطعام والشراب وألقاب الشرف ، ولا أيضا من مشروعات البحث الهامة والمرتبات المهنية ، بل على العكس ، فإن مهمته قد تجعله على معرفة بالبؤس والإدانة والإعدام شنقا ، اضافة الى أنها قد تجعله فى النهاية إلى قدر من الريبة والشك . حيث لا يمكن تحمل مثل هذه الظروف إلا بواسطة إيمان انسانى متعال فقد . ومن الواضح أن هذا الأسلوب فى الحياة لن يكون موضع اختيار هؤلاء الذين ليسوا أكثر من مهرة) (١٠٧) .

ولم يسع هوركهايمر من أجل هذا " الايمان الانسانى المتعالى " الذى تتطلبه مهمة الثورى فى ظل هذه الظروف . بل أننا نجده فى مرحلة أخيرة يوضح تفسيره لليهودية باعتبارها تتكون من فكرتين : المعاناة Suffering ورفض الموافقة على العنف [1] . وفى سنة ١٩٦٠ نجده قد أعلن صراحة :

١- من الواضح أن كتابات هوركهايمر وزملائه من مدرسة فرانكفورت وإن كانت ذات طابع ثورى ، إلا أنها لا تستهدف كالنظرية النقدية الكلاسيكية (الماركسية) الإطاحة بالبرجوازية لصالح البروليتاريا ، واكنها تستهدف اصلاح أحوال المجتمع البرجوازى=

(ليس هناك شعب عانى أكثر من اليهود ... ومع ذلك يعتبر رفض الموافقة على استخدام العنف كأساس للحصول على الحق سمة دائمة فى التاريخ اليهودى ، ونتيجة لذلك فقد حولت اليهودية المعاناة التى لاقتها الى إطار من الوحدة والدوام بالنسبة لها ... حيث لا يمكن انفصال الأمل عن المعاناة اليهودية) (١٠٨) .

من هذه العبارة الموجزة لهوركهايمر ، فإنه يصبح من السهل علينا أن نتتبع الفكر اليهودى خلال المراحل الأولى للنظرية النقدية . حيث نجده قد كتب فى سنة ١٩٣٣ : " إن ظلم الماضى لن ينتهى أبدا ، حيث لم تلق معاناة أجيال الماضى أى تعويض " (١٠٩) . ومنذ أربعة سنوات مضت تكررت هذه الفكرة من خلال إعادة صياغتها ، حيث ذهب الى القول بأنه " حتى بعد أن يظهر المجتمع الجديد الى الوجود ، فإن سعادة أعضائه لن تتحقق بسبب بؤس هؤلاء الذين تحطموا فى مجتمعنا المعاصر " (١١٠) . [(١)]

=بما يجعله اطارا ملائما لحياة الانسان ، وبخاصة الانسان البرجوازى ، وبصورة أكثر خصوصية الجماعة اليهودية البرجوازية " المترجم "

(١) من المدهش أن لا يدرك مفكرا نقديا مثل ماكس هوركهايمر الجماعة اليهودية الصهيونية باعتيارها جماعة لا تميل دائما الى سلوكيات العنف . ومن أبرز الأمثلة على ذات الممارسات اليومية التى تتم بحق الشعب الفلسطينى . بل أننا إذا تأملنا التاريخ الصهيونى الحديث لوجدناه المسئول دائما عن إثارة العنف والحرب " ، البرهنة على ذلك الحروب العربية الاسرائيلية المتعاقبة ، والممارسات الوحشية المدانة عالميا لإسرائيل فى الأرض= = المحتلة ، والمذابح اليهودية الشهيرة ، فى " دير ياسين " " وتل الزعتر " ويبدو أن الأمر على خلاف ما تصوره هوركهايمر ، حيث نعتقد أن المعاناة اليهودية فى ظل النازية شكلت راسبا فى الشخصية اليهودية تجلى فى غالب الأحيان فى شكل نمطين من المشتقات ، الأول يتمثل فى الظهور بمظهر الضعيف الذى يهدده الآخرون ، والذى يحتاج الحماية ويعشق السلام ، ويتجلى المشتق الثانى فى استخدام درجة بالغة القسوة والعنف حيثما تكون الظروف ملائمة لذلك . تأكيد ذلك سلوكيات الجماعة الصهيونية فى إسرائيل تجاه أبناء الشعب الفلسطينى ، ذلك برغم إدعاءات السلام . " المترجم " .

وفى أعقاب أوشفيتز Auschwitz يمكن فهم الشعار التالى : " إن الأفراد الحقيقيين فى عصرنا هم الشهداء الذين ذهبوا داخل أفران الجحيم حيث الإهانة والمعاناة . إذ يعتبر الشهداء المجهولون فى معسكرات الاعتقال هم الرموز الحقيقية للانسانية التى تناضل من أجل الولادة . وتصبح مهمة الفلسفة أن تترجم ما فعلوه الى لغة سوف يسمعها الجميع " (١١١) . وبنفس الأسلوب كتب أدورنو Adorno وهو الذى شارك فى تأسيس مدرسة فرانكفورت : " أن الحاجة الى منح المعاناة صوتا يعتبر شرطا لكل حق . حيث تعتبر المعاناة واقعة موضوعية تثقل ذات الانسان ، فخبرتها الذاتية الخالصة وحتى التعبير عن هذه الخبرة أو إخفاؤها يصبح موضوعيا (١١٢) [١]

١٥- تأثير شوبنهاور :

يستند التشاؤم الذى تتميز به النظرية النقدية الى عجز هوركهايمر عن اكتشاف وسيلة للتحول الاجتماعى – التاريخى ، وإهتمامه الدائم بشوبنهاور . إذ يعتبر شوبنهاور هو " البرجوازى " الحقيقى فى الفلسفة الألمانية . حيث اختلف تفكيره عن تفكير كل الفلاسفة الألمان السابقين عليه ، وخلال حياته كان شوبنهاور حرا تماما من تأثير أية مشكلات مادية . بالاضافة الى ذلك نجده قد سافر الى كل أنحاء أوروبا ، ومن ثم لم يشعر بأى ضغط مُلح للالتحاق بالكادر الأكاديمى . فقد كان ثريا

١- من الواضح أن المعاناة اليهودية خلال عصر ألمانيا النازية يعتبر أحد الأبعاد الأساسية لفهم توجهات مدرسة فرانكفورت . فلاعتبار أن حياة اليهود فى مختلف المجتمعات من خلال كونهم الأقلية فإننا نجدهم قد كانوا عاجزين أحيانا عن مواجهة القهر المفروض عليهم من قبل الأنظمة السياسية المختلفة ، ومن ثم كانت الدعوة دائما الى نبذ استخدام العنف لعدم قدرتهم عليه ، وأيضا لإحساسهم بوطأة نظام الأغلبية ، غير أن افكار فرانكفورت كان يمكن أن تتغير لو رأت كيف يمكن أن تناصر الأغلبية اليهودية استخدام العنف ضد الأقلية الفلسطينية فى فلسطين العربية " المترجم " .

مستقلا بذاته – ورأسماليا صاحب دخل (وهنا ينبغى ملاحظة الاتفــاق الدقيق بين سيرة حياة كل من هوركهايمر وشوبنهاور : فكلاهما كـــان ينتمى الى ذات الخلفية الاجتماعية التى منحتهم اســتقلالا ماليــا طيلــة الحيــاة ، هذا الى جانب أن كلاهما قد اتجه الى الفلســـفة بعــد فــترة قصيرة من التدريب أمضاها فى عالم رجال الأعمال) .

وفيما يتعلق بالفلسفة يعتبر شوبنهاور فى العادة أحد ممثلى النزعــة الفلسفية غير العقلانية – Philosphical irrationalism – وبرغم أن كتابه الأساسى " العالم كفكرة وإدارة " The world as will & idea قد نشر فى ١٨١٨ إلا أن تأثيره الحقيقى قد بدأ ينتشر بعد هزيمة الثورة الديموقراطية البرجوازية الألمانية فى ١٨٤٨ فقــط ، ويعتــبر تجنــب البرجوازية لإثارة أية مطالب تتعلق بالقوة السياسية فى مواجهة التطــور الرأسمالى الحر ، هو الحقيقة السوسيولوجية الأساسية التى شهدها تطور ألمانيا فيما بعد ١٩٤٨ " (١١٣) .

وتعتبر فلسفة شوبنهــــاور " بصورة غير مباشرة علمــا للدفــاع عن الرأسمالية " وإذا كان (لوكاش) قد فسر كــل الجوانــب الســلبية للمجتمع الرأسمالى باعتبارها خصائص دائمـــة الارتبــاط بــالظروف الانسانية العامة . فإنه نتيجة لذلك أعلن أن النضال ضد شرور النظــام الرأسمالى يعتبر جهدا لا معنى له ولا أمل فيه ، وتقود هذه العقيدة الــى فلسفة شوبنهاور ، ونزعته المتشائمة ، التى تعتبر تبريرا لعبثية النضال السياسى . الأمر الذى دفعه الى اقتراح التأمل الروحى بدلا من النضــال السياسى والعنف . وقد كانت هذه هى الوظيفة الاجتماعيـــة الأساســية لفلسفته " فى الدفاع غير المباشر " عن الرأسمالية (١١٤) .

ويسلم هوركهايمر بتأثره بشوبنهاور ويعلق على أولوية تأثير فلسفة شوبنهاور وسيطرتها عليه بقوله " لقد تمثلت معرفتى الأولى بالفلسفة من

خلال فلسفة شوبنهاور ، ولم تلغ علاقتى بتعاليم وأفكار ماركس وهيجل ... مواجهتى لفلسفته " (١١٥) . وتتضح علاقة هوركهايمر بشوبنهاور أوضح ما يكون من خلال تشاؤمه فيما يتعلق بمستقبل المجتمع . إذ يدعى هوركهايمر أن العدالة الكاملة لا يمكن أن تتحقق فى التاريخ . وذلك لأنه حتى لو استبدلنا الفوضى الحالية بمجتمع أفضل ، فإن بؤس الماضى لا يمكن إصلاحه ، ونتيجة لذلك فقد احتوت النظرية النقدية دائما على عنصر الحزن . وحتى بعد تأسيس المجتمع الجديد ، فإن سعادة أعضائه لا يمكن أن تعوض بؤس الذين حطموا حاليا فى المجتمع المعاصر . وقد سمى أدورنو أخيرا علمه بأنه (العلم الحزين Sad scince فى مقابل " العلم السعيد Gay scince) لنيتشة Niezsche (١١٦) . وقد كان هوركهايمر يكن تقديرا عاليا فى العادة لشوبنهاور الذى توقع " دياليكتيك التنوير " وهى العملية التاريخية التى أصبحت تشكل الفكرة الرئيسية فى فلسفة التاريخ لكل من هوركهايمر وأدورنو فى المرحلة الوسطى (الأربعينيات) من تاريخ النظرية النقدية ، إذ يؤكد هوركهايمر أن شوبنهاور هو الذى :

(رأى الأشياء واضحة للغاية ، بحيث استبعد امكانية التحسن التاريخى . فقد تنبأ بنهاية العمل اليدوى ، وبخاصة العمل الفيزيقى الصعب ، بصورة أكثر تحديدا مما فعله أعظم الاقتصاديين فى عصره ، غير أنه ارتاب أيضا فى نتيجة هذا النوع من التغير ، فبرغم أنه قد أخذ التحسينات الفنية والاقتصادية والاجتماعية فى الاعتبار ، غير أنه أدرك منذ البداية بعض النتائج الأخرى لهذا التطور ، كالتكريس الأعمى والمطلق للنجاح ، وانتكاسة التوجه أو المسار ذو النزعة السلامية للأحداث ، باختصار يمكن القول بأنه قد كشف عن دياليكتيك التنوير) (١١٧) .

وقد قيم شوبنهاور العالم بالنظر الى مثله المعترف بـــها ووجـده ناقصا . وقد أكد هوركهايمر أخيرا أن بإمكان المنظر المحافظ أن يكون ناقدا مثل الماركسى الثورى ، مشيرا الى أن ماركس قد إحتـج حينمـا تحققت أهداف الثورة البرجوازيـة – الحريـة ، الإخـاء ، المسـاواة – بالنسبة لأقلية فقط فى المجتمع الرأسمالى ، وبرغم أن هوركـهايمر كان ما يزال فى الثلاثينات ينظر الى الثورة البروليتارية فـى ألمانيـا كبديل للاشتراكية القومية ، غير أن هناك بعض الشكوك الخطيرة التـى بدأت تتزاوج مع رؤيته للثورة الناجحة . تأكيد ذلك أن هوركهايمر قـد ذكر أخيرا : " لقد كنت أشك فعلا فى ذلك الوقت فى امكانية أن يكـون بإمكان التضامن البروليتارى الماركسى أن يقود فى النهاية الى تاسـيس المجتمع الصحيح " (١١٨) .

وقد اثرت النزعة الشكية عند شوبنهاور على التشاؤم الكامن فـى النظرية النقدية ، حيث التأكيد على أن التغير الراديكالى فى العالم يواجه فى الغالب صعوبات لا يمكن التغلـب عليـها . وفـى ذلـك يكتـب هوركهايمر : (قد يبدو مثيرا للإعجاب أن أجيال المستقبل سوف تعيش على الأرض حياة أكثر ذكاء وسعادة من أجيال اليوم التى تعيش فى ظل الظروف الحالية ذات الطبيعة الدموية الصاعقة . وحتى مع أن أجيـال المستقبل سوف تختفى فى النهاية ، فإن العالم سوف يستمر فـى فلكـه وكأن شيئا لم يكن) (١١٩) .

وينبغى التأكيد الى أن هذه القضية ليست هامشية بالنسبة للنظريـة النقدية . حيث كان هوركهايمر مقتنعا بأن " أجيـال المسـتقبل سـوف تموت فى النهاية ، وسوف ينتصر العدم فى النهايـة علـى السـعادة " (١٢٠) .

وبسبب فكرة شوبنهاور التى تؤكد على أن كل اشباع له طبيعته السلبية فإنه نتيجة لذلك يكون الألم والمعاناة هما اللذان لهما طبيعة إيجابية ، ونتيجة لذلك تتميز فكرة الحب من أجل الانسانية بنوع من التشاؤم الشامل .

وعلى هذا النحو فليس هناك نشاط يمكن أن يشيع البهجة بين البشر ، إذ يتجلى الحب من أجل الانسانية كنوع من الشفقة أو التضامن الشامل . وبذلك تعتبر الشفقة والتضامن الشامل هما الدافع الأخلاقى الوحيد ، ومن ثم تتضمن الأخلاق عند شوبنهاور وهوركهايمر ميلا سلبيا آسفا أو حزينا . وفى الحقيقة نجد أن فكرة الشفقة والتضامن الشامل تنتسب اساسا الى العالم الحيوانى . وفى الغالب يعتبرها شوبنهاور واجبا ميتافيزيقيا ، ونتيجة لذلك نجده يؤكد أن القسوة على الحيوان ليست من شيم الانسان الخير . وبالتالى فهو يعتبر أن التعاليم الأخلاقية للمسيحية ناقصة لأنها أغفلت العالم الحيوانى .

ويشارك هوركهايمر شوبنهاور فكرة الشفقة أو التضامن الشامل مع كل المخلوقات التى تعانى ، الانسانية وغير الانسانية . فقد كتب فى عام ١٩٣٣ وهى السنة التى انتصرت فيها الفاشية فى ألمانيا : " أن على البشر أن يتجاوزا المرض والألم ... أما فى الطبيعة فإن حكم المعاناة والموت سوف يستمر " (١٢١) [1] . ويمكن أن تكون هذه الفكرة قد جاءت الى هوركهايمر من شوبنهاور ومن اليهودية ، غير أن طبيعتها المتشائمة توحى بأن مصدرها يرجع الى حد كبير الى شوبنهاور ، وذلك طالما أن النبى إسحاق قد تنبأ فى العهد القديم بعالم من المصالحة الكاملة حيث " يسكن فيه الذئب مع الحمل ، ويرقد النمر مع صغار

١- من الواضح أن تأكيد النظرية النقدية على أفكار الشفقة والمعاناة الانسانية كان يعبر فى أساسه عن واقع الأقليات اليهودية وأمانيها خلال هذه المرحلة . وهو مايسمح امكانية القول بالتزام النظرية النقدية (لمدرسة فرانكفورت) بأبعاد الموقف اليهودى " المترجم "

الحيوانات ... ويأكل الأسد القش مع الثـــور " (١٢٢) . وأيـــا كـــان مصدر الشفقة والتضامن الشامل فيما يتعلق بمعاناة الحيوانات والطبيعـــة عند هوركهايمر ، فإن هذه الفكرة ظلـــت فكـــرة دائمـــة فـــى فلســـفة هوركهايمر وأدورنو .

١٦- التأثير اليهودى على هوركهايمر :

حتى الفترة الأخيرة من الحياة العلميـــة لهوركـــهايمر ، وبـــالمثل أدورنو لم تحدث إشارة صريحة الى اليهودية Judaism ولـــم يحـــدث أيضا أى تحديد لتأثره بالفكر اليهودى بطريقة ما ، وفضلا عن ذلـــك ، فنحن إذا وافقنا على قول ماركس المأثور " إن لفكر أجيـــال المـــاضى وتراثهم ثقل كالجبل على عقول الأحياء " فإنه لا يمكـــن تجـــاهل هـــذا العامل ذو التأثير الحتمى على وجود النظرية النقدية ، حتى ولو كـــان هذا التأثير كامنا فى النظرية النقدية خلال مرحلة الثلاثينيات فقط .

ويصف سلما شترن Swlma stern بإيجاز ودقة الموقف التـــالى لمرحلة التنوير ، حينما حقق اليهود نوعا من التـــأليف بيـــن اليهوديـــة والثقافة الأوروبية " وأصبح من الممكن فى نهاية القرن الثـــامن عشـــر تحقيق هذا التأليف لأن : (حاجة اليهودى الى المســـاواة الاقتصاديـــة والاجتماعية والمدنية كانت على إتساق والمفاهيم الفلســـفية والتربويـــة والأدبية لعصره . حيث أفكار العقل والتنويـــر والألوهيـــة ، والنزعـــة الانسانية ، ومذاهب التسامح الانسانى ، لم تكـــن غريبـــة علـــى روح اليهودية . ومن ثم لم يكن من الصعب التوفيق بين المعتقدات الأخلاقيـــة لكانت Kant من ناحية وبين المعتقدات الأخلاقية للتلمود Talmud من ناحية أخرى ، لخلق اتساق بينهما أو بيـــن حماســـة شـــيلر Schiller وحماس الأنبياء ...) (١٢٣) . وكنتيجة لهذا التأليف بين اليهوديـــة وروح العصر Zeitgeist فقد أصبح من الممكن أن نحاول فهم وجـــود

الانسان " أو أن نتغلغل فى العالم المحيط من أجل تحقيـق فـهم لقـواه الروحية " (١٢٤) .

وقد حاول هابرمس Habeemas أن يوضـح العلاقـة المثمـرة والفعالة بين المثالية الألمانية من ناحية والفلاسفة اليـهود مـن ناحيـة أخرى . وفى مقالته التى حدد فيها نوعـا مـن " الرابطـة الروحيـة والاختيارية " بين الاثنين نجده قد لاحظ أن بعضا من الدوافع الأساسـية للفلسفة الألمانية البروتستنتية قد أصبحت ميسرة أساسا من خلال خـبرة الفكر اليهوى . وقد حدث ذلك لأن الفلسفة المثالية الألمانية قد استوعبت فى ذاتها تراث المعتقدات الصوفية ، ومن ثم أصبحت الفلسفة المثاليـة بدورها اكثر نورانية ، حينما تنعكس فى عقل يحتوى على قـدر مـن الصوفية اليهودية ، حتى لو كان هذا العقل على غـير وعـى كـامل بالحقيقة . (١٢٥) .

وقد قدم فرانز روزنزويـج Franz Rosenzweig فـى مؤلفـه كوكب الخلاص Der stern Erlosng فى سنة ١٩٢١ تفسيرا جديـدا للمثالية الألمانية من وجهة نظر الصوفية اليهودية (١٢٦) . إذ يذكرنا روزنزويج ، حينما يكتب أن الفلسفة الحقيقية هى الفلسفة التى لا يمكـن أن " تتجاهل صرخة الانسان اليائسة " ، بجوشيا Jocjai البطل الخيـالى لهوركهايمر الشاب حينما قال : " قد يحقق الإنتصار العقلـى لجوشـيا المنعزل Private Jochai الخلاص لرفيقه الانسان ، أو لكـل العبيـد اليائسين " (١٢٧) . إذ يعتبر التحرير من المقولات الجوهرية للفكـر اليهودى . وقد استمر هوركهايمر فى رفضه للحرب ، كخطوة تتجـاوز نزعته السلامية ، حينما قال أنه لا يريد أن ينتمى الى أية أمة ، حيـث يصبح كافيا بالنسبة له أن يكون كائنا إنسانيا . فهو لم يحـدد بصـورة كافية سبب مشاعره ومصدرها ، وبرغم أن فرانزرويج كتب رسالة من جبهة القتال فى نفس الوقت الذى كتب فيها هوركهايمر رواية جوشـيا

التى حدد فيها أسباب مشاعره : (إن اليهود لا يريـــدون مزيـــدا مـــن الحرب لأن موقفهم يقع بعيدا ولا يشـــكل نقيضـــا للتـــاريخ العـــالمى ، وبصورة خاصة ما يتعلق بالوطن والعقيدة ، وبالسماء والأرض ، وهى التناقضات التى تحكم أفعال وتصرفات الأمم) (١٢٨) .

لقد أدى انجاز هوركهايمر لما توقعـــه بشـــأن الفلســـفة والدرجـــة الجامعية التى تمكن من الحصول عليها ، الى توجهـــه نحـــو الاهتـــام بقضايا المجتمع والانسانية [1] . ويوضح هابرماس بصورة مقنعة ســـبب هذا الاهتمام عند هوركهايمر بقوله :

(لقد خبر اليهود – بدرجة أكثر عمقا – المجتمع باعتبـــاره قـــوة مقيدة ومهددة ، اكثر من أى شعب آخر . وقد نتج عن ذلك أنهم مارسوا حياتهم باعتبارها تدريبا سوسيولوجيا ... وبذلك يمكن القول بأن اليـــهود قد سيطروا على علم الاجتماع الألمانى منذ أيام لودفيـــج جمبلوفيتـــش Luswig Gumplowwicz) (١٢٩) .

وإذا كان هوركهايمر لم تتوفر له أية إمكانية للممارسة ، فإنه ظـــل باقيا متعلقا بالشوق الى الحق والعدل . وهنا تكمن الصلة المباشرة بيـــن هوركهايمر وهيرمان كوهن Hermann Cohen الذى يعتبر واحدا من

١- من الواضح أن ماكس هوركهايمر قد عبر بدقة عن موقف الجماعة اليهودية فى ظـــل هده الظروف التاريخية ، حيث نجد تحيزا مضادا للجماعـــات اليهوديـــة فـــى مختلـــف المجتمعات الأوروبية ، ومن ثم فقد عانت الجماعات اليهودية مـــن مســـألتين ، الأولـــى افتقادهم للوطن القومى وهو الافتقاد الذى فرض عليهم كثيرا من المعاناة . وتتمثل الثانيـــة فى تحيز الجماعات القومية ضدهم ، وهو التحيز الذى فرض علـــي الجماعـــة اليهوديـــة العزلة فى كل مكان ، فالجيتو اليهودى كان له وجوده فى كل المجتمعـــات ، أيـــا كـــانت المسميات التى إتخذها ، ومن ثم فقد كانت المناداه برفع شعارات الانسانية وتخطى الحدود والتحيزات القومية دعوة رفعوها مفكروا الجماعة اليهودية فى كل مكان ، وذلك بـــهدف الوقوف على قدم المساواة مع الآخرين فى ظل هذا الشعار " المترجم " .

أعظم الفلاسفة اليهود الألمان الذين عاصروا بداية هذا القرن . وينبغـي أن نضيف الى ذلك أن كلا من هوركهايمر وأدورنو بصفة خاصة كانوا تلاميذ لمفكر كانتى محدث آخر هو هـانز كورنيليـوس Hermann Cohen ، حيث كتبوا أطروحاتهم الفكرية تحت إشرافه .

وقد كانت الكانتية المحدثة ، حينئذ ، هى المدرسة الفلسفية السـائدة فى ألمانيا عند بداية هذا القرن . وهى المدرسة التـى نـادى شـعارها الأساسى " بالعودة الى كانت " Kant ، أما هدفها فقـد تمثـل فـى أن تصبح الفلسفة ذات طبيعة علمية . فقد أعاد هلمولتز Helmholtz عالم الطبيعيات و الفسيولوجى الشهير صياغة القضية الأبستمولوجية المتعلقة بالمكان والمدركات المكانية ، ويمكن القول بأن الكانتية المحدثة قد بلغت أوجها فى مؤلف هيرمان كوهن . وفى هذا الاطـار تعتـبر مدرسـة ماربورج Marburg School ومدرسة بادن Baden Cchool مـن أهم الاتجاهات الكانتية المحدثة . واستنادا الى انجازات دلتاى ، أعـاد فندلباند Windel band وريكـيرت Rickert فـى اطـار المدرسـة الأخيـرة ، صياغة الفكرة المتعلقة بالفصل الحاد بين العلوم الطبيعيـة من ناحية والعلوم الاجتماعية الثقافية من ناحية أخرى ، ثم عملا معـا على تأسيس أساس إبستمولوجى متسق للأخيرة .

ويعتبر هيرمان كوهن (١٨٤٢-١٩١٤) مؤسس مدرسة ماربوج، أو فرع العلم الطبيعى فى الكانتية المحدثة ، التى أصبح كلا من بـول ناتورب Paul Natorp وإيرنست سيسـرو Ernest Cassirer مـن ممثليها الشهيرين فى هذا الاطار لم يكتفى كوهن بإنجاز تحليل عميـق للفلسفة الكانتية فقط ، لتطور فاعليتها ولكنه قدم أيضا نسقه الفلسفى عند نهاية حياته المهنية فى مؤلف عن منطق المعرفة الخالصة Logic der reinen Erkenntnis المنشور فى ١٩١٢ . غير أن اهتمام كوهن فيما يتعلق بأهمية اليهودية بالنسبة للتقدم الدينى للانسانية كان غير معـروف

نسبيا ، وهو الموضوع الذى ناقشه فى مقالات كثيرة خـــلال حياتـــه ، ووصل الى ذروة مناقشته فى مؤلفه الذى نشر بعد وفاته بعنوان (ديانة العقل من المصادر اليهودية) . وقد استندت مؤلفات كوهن العديدة عـن كانت ، وعروضه للفسلفة الكانتية الى وجهة نظره فى الفلســـفة كعلـم يستند الى قوانين المنطق ، وقد كان كوهن أكثر إتساقا ومن ثـــم أكـثر نجاحا من كانت فى تطبيق المنهج النقدى الترنســـندنتالى فـــى مجـال الأخلاق . حيث إعتبرت منهجية كوهن النقدية ، العلم المنطقى للعدالـــة وأساسا للأخلاق . وقد ثبت أن اليهودية كانت تشكل التـــأثير الفلســفى القوى على كوهن . مثلما كانت الفلسفة الكانتية . ومن ثم نجده قد ناضل من أجل إثبات وجود علاقة وثيقة بين الإثنين ، وخاصة فيمـــا يتعلـق بالتعاليم الأخلاقية ، حيث تكمن أولى أوجه التشابه بينهما فى الإيمـــان بأولوية العقل .

وفضلا عن ذلك نجد أن الأخلاق عنـــد كـــلا مـــن كـــانت Kant واليهودية تستند الى النزعة الإرادية Voluntarism (برغم استبدالها ، " بالوصايا " أعنى التشريع الأخلاقى) ، هذا بـــالرغم مـــن إختـــلاف التشريع الأخلاقى عند كليهما . فبينما يعتبر كانت Kant العقل المبـــدع مصدرا للأخلاق نجد أن اليهودية تشتق القانون من الله .

وقد كتب كوهن مقالات عديدة تتعلق بكل من كـــانت واليهوديـــة ، حيث تعتبر مقالته بعنوان (العلاقة الوثيقـــة بيـــن الفلســـة الكانتيـــة واليهودية) من أكثر هذه المقالات أهمية . وقد جمعت هذه المقالات فى مؤلفه (الكتابات اليهودية Judaic Writtings) (١٣٠) . وهنـــا نجده يؤكد من بين آخريـــن علـــى أن (الضـــرورة المطلقـــة لكـــانت Categorical imperative " توجد فى دم اليهود " لأنها تؤكد أيضـــا على كبرياء البشر بدون استغلال ، وهى القضية التى تم النص عليـــها صراحة فى التشريع الاجتماعى لليهودية :

(لا يكون الأنبياء فى الحقيقة هم الذين أسسوا الأخلاق السياسية الحقيقية ، إذا لم يكونوا قد تعلموا الهدف الذاتى للانسان بطريقة عدوانية للغاية ، وإذا هم لم يضحوا بدمائهم من أجل ذلك ، حيث يعتبر إنجازهم فى هذا الصدد أساس التشريع الاجتماعى فى العهد القديم ، الذى يشكل الابداع العظيم للمثالية الأخلاقية والاجتماعية ، التى لم تبق مجرد يوتوبيا) (١٣١) .

ويشير كوهن الى أن اليهودية جمعت السلام مع العدالة الاجتماعية لكى تشكل المقدمات الساسية للعصر المسيحى Messianic rea . وكما سوف نرى ، نجد أن السلام والعدالة الاجتماعية قد شكلت الاهتمامات الرئيسية لكتابات هوركهايمر الأولى التى أكد فيها : (أن الشوق الى الله يعنى الشوق من أجل الخلاص ، حيث التحرر من مشاعر الذنب القاسية ، هذا الشوق ينتج عن القلق الذى قد يجبر الانسان على تجنب ذاته ، وعلى أن يفقد طريقه وعلى ذلك يتساوى الشوق الى الله مع الدافع الطبيعى الذى يدفع الانسان الى عدم السقوط فى اليأس ، وبديلا لذلك عليه أن يتعلق بملاذ الثقة بذاته ، حتى يمكنه أن ينقذ ذاته من اليأس ، والإدانة الذاتية . ذلك يعنى القول بأن الشوق ليس شيئا أقل من الأمل من أجل الفوز فى صراع يهدد الانسان بالموت) .

وبرغم شوق هوركهايمر الى العدالة الاجتماعية أصبح يتميز بالتشاؤم بصورة مطردة ، حيث نجده قد كتب فى ١٩٣٣ " أن ظلم الماضى سوف لا ينتهى أبدا ، حيث لم يوجد ما يعوض معاناة أجيال الماضى " [١] .

١- تشير هذه المقولة الى حالة المعاناة الراسبة فى بناء الشخصية اليهودية وهى الخبرة التى كانت من القسوة بحيث لم توجه خيالهم الى بناء مجتمع المستقبل حيث لم تتجنب الحياة كل شرور الماضى فقط ، بل ظلت قسوتها الماضية تلون الحاضر أيضا ، وتعوق التحليق فى آفاق المستقبل . بل أننا نجد أن السلوك الإسرائيلى اليوم فى اطار العلاقات=

وحسبما رأينا نجد أن لغة النظرية النقدية قد تشبعت حتى الثلاثينات بالمصطلحات الإنجيلية كالحق ، والزيف ، والخـــلاص ، والمعانـــاة ، والشفقة والصلح . حيث تقودنا هذه الملاحظات الى جانب آخـــر فـــى نزعة هوركهايمر -اليهودية ، وهو الجانب الذى له أهميتـــه فـــى هـــذه الدراسة أعنى قضية اللغـــة . إذ يلاحـــظ جـــورج شـــتاينر George Steiner أن اليهود الأوروبيين قد أتوا متأخرين الى الأدب العلمـــانى . ولما كانت اللغات عبارة عن تسجيلات للأفكار الممعنـــة فـــى التقـــدم والتجارب ذات الطبيعة المشاعية ، فإننا نجد أن اليهودى ، هذا إذا انتقل من خلال العبرية الى أى من اللغات الأوروبية كلغة البيديش Yiddish مثلاً " فإنه كان عليهم أن ينزلقوا الى خطاف Garb وقفاز من يقهرونهم (١٣٣) . وفى هذا الصدد نجد أن الكتاب اليهود قد حاولوا أن يصفـوا تراثهم اليهودى ، أعنى ظرفـــهم الاجتمـــاعى والتـــاريخى المتفـــرد ، وخبرتهم الجماعية بلغة مستعارة . ويعتبر فرانز كافكا Franz Kafka المثال الأكثر وضوحا فى هذا الصدد – وهو اليهودى الذى عاش فـــى براغ Prague ، وهى المدينة التشيكية Czech التابعة للامبراطوريـــة الهنغارية النمساوية – حيث نجده يكتب بالألمانية ، ومع ذلك فقد كـــان على وعى بهذا الشكل الواضح من الاغتراب الذى كان يمزقـــه ، وقـــد كتب فى مذكرات حياته فى ١٩١١ معبرا عن ذلك بقوله :

(لقد اتضح لى أمس أنه لم أحب أمى كما تستحق وكما أستطيع أن أحبها لأن اللغة الألمانية وحدها وقفت عائقا أمام ذلك فمثلا لا تعتبر الأم اليهودية أما بمعنى Mutter ، ومن ثم فإذا ناديناها بكلمة أم Mutter ،

=العربية الاسرائيلية ، والصراع العربى الإسرائيلى يختلف عن ذلك وأن كانت ما زالـــت تحكمه هذه المشاعر والعقد . بل إننا نجد ، أن الشخصية الإسرائيلية تميـــل الـــى تـــأمين الحاضر الملموس كأساس مادى للانطلاق إلى المستقبل ، بدلا من التحليق فى المســـتقبل . حيث ظهر مجموعة من المتغيرات غير المتوقعة ، والتى قد تهدد بعودة خـــبرة معانـــاة الماضى الى ذهن الشخصية اليهودية " المترجم "

فإننا نكون وكأننا نهزأ بها . حيث تعتــبر كلمــة أم Mutter بالنسـبة لليهودى كلمة ألمانية أساسا وهى كلمة تشير بصورة لا شــعورية الــى العظمة الألمانية مختلطة بالبرود المسيحى . وحينئــذ تصبــح المــرأة اليهودية التى تسمى Mutter غريبة وليست هزلية فقط ... وأنا أعتقــد أن ذكريات الجيتو Ghetto هى وحدها التى حــافظت علــى العائلــة اليهودية ، وفى هذا الاطار لا تقترب كلمة الأب Vater أيضا من كلمــة الأب اليهودى) (١٣٤) .

وقد اهتم هوركهايمر وأدورنو – اللــذان كانا على وعى بقضيــة اللغة -- أيضا خلال حياتهمــا بنفس القضية . وقــد عبر هوركــهايمر – مستقلا عن كافكا – عن نفس هده الأفكار ، وربما بــذات الألفــاظ ، وفى نفس الفترة ، حيث قال فى مؤلفــه (إعترافــاتى السياســية My political confession) ، إذا كنت قد وصلت لتوى من وطنــى الأم فلسطين ، وإذا كنت قد سيطرت خــلال فــترة قصــيرة ومثيــرة للدهشة – على مبادئ الكتابة بالألمانية ، ومن ثم لم يكن من الصعــب على كتابة هذا المقال ، ومع ذلك لا يتميز أسلوبى هنا بخاصية الذكــاء البارع ، وذلك لأنى كنت قد حاولت أن أتواصل من خلال ما أقرأ ومــا أسمع ، غير أنى كنت لا شعوريا أجمع شتات اللغة التى انبثقــت عــن عقلية غريبة عنى . وإلا فما هو الشئ الآخر الذى كان يمكن أن يفعلــه غريب مثلى ؟ . غير أن إرادتى القوية هى التى انتصرت لأن رســالتى Messqge تستحق التعبير عنها بغض النظر عن نقائص الأســلوب) (١٣٥) [1] .

١– فى هذا الصدد لنا ملاحظتين على طبيعة الموقف اليهودى كما يعبر عنه رواد مدرسة فرانكفورت . فنظرا لأقليتهم ومعاناتهم من المشاعر العدائية ضدهم نجدهــم قــد رفعــوا شعارات النزعة الانسانية والخلاص الانسانى ، وذلك سوف يقدم الحل للأمة اليهودية التى كانت تعانى من مشاعر الأقلية فى مختلف المجتمعات الأوروبية ، ومن ثم فرفــع شــعار الانسانية لم يكن يعبر عن نزعة انسانية حقيقية ، بقدر ما كان يخدم المصالح اليهوديــة=

وقد كان الرعب من إحتمالية إفتقاد القدرة على التعبير الكامل والدقيق عن ما يرغب الإنسان فى قوله هو الشئ الأكثر وضوحا فى أفكار هوركهايمر السابقة ومن ثم نجد أن الطبيعة الوجودية واضحة فى تعبير هذه الفقرة . ويشترك هوركهايمر مع كل من والتر بنيامين Walter Benjamin وكيرت توشولسكى Kurt Tucholsky ، كارل كراوس Karl Kraus – بخلاف كافكا – فى الاهتمام الواضح باللغة (١٣٦) . والاشتراك أيضا فى مشاعر الغربة estrangement وإفتقاد الوطن Homelessness . ومرة أخرى يعتبر كافكا هو الذى لخص القضية بصورة دقيقة فى إحدى رسائله الى كارل برود Karl Brod التى كتبها فى عام ١٩٢١ . حيث تحدث كافكا خلال هذه الفترة عن علاقة الشباب اليهودى بيهوديته ، وأيضا عن الموقف " الداخلى المخيف لهذا الجيل " فهم قد أرادوا أن يكونوا كتابا أو (مثقفين) ألمان، ورغبوا فى الهروب من يهوديتهم " غير أن أقدامهم الخلفية ظلت ملتصقة بيهودية آبائهم ، بينما بقيت أقدامهم الأمامية عاجزة عن استكشاف أرض جديدة ، ومن ثم كان اليأس المتعلق بذلك مصدر إلهامهم ... (١٣٧) . (وسوف نناقش بالتحديد مشكلات اللغة فيما يتعلق بأدورنو فى الفصل الثالث) [١]

=ضد الأغلبية فى مختلف المجتمعات . وتتمثل الملاحظة الثانية فى الموقف من قضية اللغة ، إذ نجد أن هذه القضية قد شغلت حيزا كبيرا من تفكير رواد فرانكفورت ، وذلك يرجع أولا أنه قد كان مقدرا عليم أن يهملوا لغتهم الأصلية وإلا شكلت عائقا أمام تكيفهم = = والمجتمعات الجديدة ، غير أنهم لم يتعاطفوا مع لغة هذه المجتمعات ، وإنما استخدموها استخداما آدائيا فقط ، وهو الأمر الذى يؤكد إخلاص الجماعة اليهودية لرموزها هى بغض النظر عن رموز المجتمعات التى تعيش فى اطارها ، وهو الأمر الذى يصدق على رواد مدرسة فرانكفورت أيضا " المترجم " .

١- يلاحظ أن الجماعة اليهودية قد حافظت خلال مرحلة الدياسبورا " الشتات " على هويتها الذاتية . فهى من ناحية قد سعت الى خلق منطقة اجتماعية عازلة بينها وبين الجماعات القومية الأخرى التى تشكل غالبية المجتمع الذى تعيش فيه ، وهى العزلة التى استندت الى تحيز الجماعة القومية ضد الجماعة اليهودية – أيا كانت مقتضيات=

المراجــــع

استخدمت الإختصارات التالية خلال الكتاب :

ZFS : Zeitsrthrft fur soziarschung
SPSS : studies in philosophy and sociol sciences .
KZESS : kolner Zeitcchrift fur soziologie und sozial – Psychologie

١- كتب المؤلف المسرحي برتولد بريخـت Bertolt Bercht الـذى تعرف، على أعضاء مدرسة فرانكفورت وإشترك معهم فـي مناقشـات عديدة في منفاه بكاليفورنيا في مذكرات حياته فـي ١٢ مايـة ١٩٤٢ : أثناء غذائي مع إيسلر Eisler عند هوركهايمر ، اقترح علـى إيسـلر كتابة قصة معهد فرانكفورت لعلم الاجتمـاع كموضـوع The Tui Novel حيث شارك بريخت في كتابة وصف هجـائي للمثقفيـن فـي جمهورية فيمار Weimer republic . وقد عــرف Tui بإعتبـارهم مثقفي عصر السلع والأسواق الذى نعيش فيه وقد إستمر قائلا : " لقـد مات فيل Weil الرجل الثرى العجوز الذى كان يعمل بتجارة الحبـوب وهو تؤرقه صنوف البؤس التي تسود الأرض " وقد ترك في وصيتـه مبلغا كبيرا لتأسيس معهد لبحث مصادر هذا البؤس الذى كان هو ذاتـه أحد مظاهره ولم تكتمل رواية بريخت أبداً .

=التحيز – في مقابل عدم سعى الجماعة اليهودية الى الإندماج محافظة علـى هويتـها . يضاف الى ذلك نجد أن الجماعة اليهودية في عالم يموج بالتيارات العلمانية قد حـافظت على تراثها اليهودى ، وظلت الديانة اليهودية هي المواجهة دائما لسلوكياتها وممارساتها ، أى أن الأيديولوجيا الدينية ظلت قوية لديها تحفظ عليها تماسكها . ويرتبط ذلـك بالحفـاظ على اللغة اليهودية ، لأن اللغة مرتبطة بأيديولوجيتها الأمر الذى جعل الشخصية اليهوديـة أكثر إحساساً بذاتها حينما تتمسك بقوة بأيديولوجيتها . " المترجم "

Bertolt Brecht, Arbeitsjournal 1938-1942, Werner Hecht (Ed) vol : I Frankfurt am main, 1973,p.443.

2- Carl Grunberg "Festrede,gehalten zur Ein weihung des instituts four sozialforschung an her universit at Frankfurt a. m. am 22. Juni . 1924 " Frankfurt universtatsreden 1924,p. 10.

3- Ibid ., p. 7 .

4- Un published, Hokheimer Archives, quoted in Helmut Gumnior and Rodelf Ringguth, Max Horkheimer in selbstzeugnissen und Biddokumenten, Reinbek bei Hamburg, 1973 p. 17 .

5- Ibid ., p.7.

6- Max horkheimer, die sehnsucht nach dem ganz Anderen, Hamburg, 1970 , p. 62 .

7- Max horkheimer, aus der pudertat, novellen und tagebuchchblatter, munchen, 1974 , p . 22 .

8-Gumnior – ringgutn, Pp.18-27.

9-Max horkheimer, "nachwart, in potrats – judischer geistesgeschichte, thilo koch (Ed) koln, 1961, Pp.256-7.

10-Horkheimer, aus der pubertat, p.14.

11-Ibid ., Pp. 19-20.

4- 12-Ibid ., p.257.

١٣- اقتبست مـن Gumnior – Ringgutn ص ٢٤ حيـث يذكـر كورنيليوس فى تاريخ الفلسفة باعتباره الفيلسوف الذى شهر بـه لينيـن Lenin باعتبار " رقيب البوليس الذى يحتل كرسى الأستاذية "

V . I. Lenin Matreialism and Empirio – Criticism, Moscow , 1952.Pp.223-224.

14- Ibid ., p.23.

15- Horkheimer, aus der pubertat, p.20.

16- V. I lenin, selected works, vol . vi, New York. 1929,p.17.

17- Karl korsch, Marxismus und philosphie, leipzig,1923 and George lukacs. Geschicte und klassen bewusstsein, Berlin, 1923. See also, iItvan meszaras, lukacs concept of Dialectic, London 1972, and G . H . R . parkinsan (Ed) and Paul Beines, lukacs and korsch 1910-1932 . A Study in the Genesis and impact of Geschichte und klass – enbewusstsein and marxismus und philosophie, unpub. Diss. The universty of

wisconcin,1972, and Mihaly vajda, " Karl korsch's Marxism and ,philosophy " in Dick Howard and karl E. klare (eds) , the unknown Dimensiam, European marxism since levin, New York, 1972, Pp.131-146.

18- George lukacs, Geschichte ....p94.

19- Ibid ., p.54.

ومن أجل تقييم حديث لهذا المؤلف أنظر :

Istvan Meszaros (Ed) . Aspects of History and class consciousness, London.1971.

20- Max Horkheimer, " Ein never ideologiebegriff ? Grunberg Archiv, vol, 15 , 1930 ,p.33.

22- Max Horkheimer, " Tradi tianelle und kritische The orie, " ZFS, vi.2 (1937), p. 278.

22- Theodor W. Adorno, Negative Dialektik. Frankfurt am Main, Suhrkamp verlag, 1966, p. 147.

23- Heinrich Regius (Horkheimer's pseudonym), Dammerung. Notizen in Deutschland, Zurich,1934.Pp.122-130.

24- Max Horkhemier, "Die gagen wartige Lage der sizialphilosophie und die Aufgabeneines Instituts fur sozialforschung" Frankfurt universitatsreden, 1931, Pp. 3-16.

25- EdwardShils, "Tradition, Ecology, and institution in the history of sociology " Daodalus,99 (fall. 1970) p .777 .

26- Horkheimer, "Die gegenwartige lage," p.3.

من أجل الاطلاع على تلخيص موجز لحالة علم الاجتماع الألمانى خلال فترة جمهورية فيمار أنظر :

-Karl Mannheim, " German sociology (1918-1933).

وأيضا مقالة عن علم النفس والاجتماع كتبها :

-Paul Kecskemeti (Ed) London, Pp.209-228.

27- Max Horkheimer, " Vorwort, " zfs, I (1932) . p.III.

28- ZFS, VI 1 (1937)., P.1

29- Rene Descartes, Discourse on Method and other writing, Baltimore, 1968, p. 41.

30- Ibid ., p.41.

31- Max Horkheimer, Traditionelle ..., " ZFS, VI, 2 (1937) , P. 247.

32- Ibid ., p.251.

33- Ibid ., p.252.

34- Ibid ., p.292.

35- Ibid ., p.264.

36- Ibid ., p.262.

37- Ibid ., p.254.

38- Ibid ., p.261/m.1.

39- Ibid ., p.271.

40- Ibid ., p.262.

٤١- سيطر النموذج العضوى للمجتمع على علم الاجتماع خلال تاريخه ابتداء من سان سيمون saint simon مرورا بسبنسر H. spencer وحتى تالكوت بارسونز T. parsans إذ تعتبر دراسة المجتمع بالنسبة لسان سيمون نوعا من الفسيولوجيا العامة " التى توقف نتفسها على إعتبارات من مستوى أعلى . فهي تحلق فوق الأفراد تنظر إليهم بإعتبارهم مجرد أعضاء في الجسم الاجتماعي ، عليها أن تفحص وظائفهم العضوية ، كما تدرس الفسيولوجيا المتخصصة الوظائف الخاصة بالأفراد .

Emile durkheim, socialism, New York 1962, p 126

ويؤكد تالكوت بارسونز أن " التطورات في كل من النظرية البيلوجية وأيضا في العلوم الاجتماعية قد خلقت أسسا ثابته للاتفاق على

الإستمرارية الأساسية للمجتمع والثقافة بإعتبارها من جزءا من النظريــة العامة لتطور الأنساق الحية "

Talcott Parsons, the system of modern societies, Engle wood cliffs, N . J 1971. P.2 .

42- Horkheimer, : Traditionelle ...," p.264.

43- Max Horkheimer, Philosophie und kritische theorie, ZFS, .VI,3 .p.630.

44- Horkheimer, " Traditionelle ...., "p,265.

45-Ibid ., p.267.
46- Ibid ., p.267
47- Ibid ., p.291.
48- Ibid ., p.271.
49- Ibid ., p.284.
50- Ibid ., p.282.
51- Ibid ., p.268.
52- Ibid ., p.269.
53- Ibid ., p.276.
54- Ibid ., p.274.
55- Ibid ., p.276.
56- Ibid ., p.291.
57- Ibid ., p.291.

58- Max Horkheimer, Materialismus und Metaphysik, ZFS 11,I (1993). P.31In

59- Horkheimer, " Traditionelle …., " P.255.

60- Ibid ., p.255.

61- Horkeimer, " Materialismus …., "p.24.

٦٢- لا يعتبر ماركس معبرا عن هذا الموضوع ، حيث نجده يؤكـد أن التغير ينبغي أن يتحقق بواسطة التحول البنائي للمجتمع ، كما عبر عـن ذلك في مجلة Zeitschrift في ١٩٣٦ . إذ كتب أن التغيير ينبغـي أن يتحقق ليس من خلال الأسلوب التربوي أو الأسلوب المتعلـق بإعـادة تجديد الإنسان أخلاقيا ، ولكن من خلال العملية الإقتصادية والسياسـية التي يمكن أن تتضمن سيطرة المجتمع على وسائل الإنتـاج ، وإعـادة توجيه العملية الإنتاجية نحو إشباع حاجـات ومتطلبـات المجتمـع ... وأيضا المشاركة الفعالة للأفراد في إدارة كل المجتمع . وحينما لا تكون إلا مكانيات الذاتية والموضوعية الحالية واللازمة للتطور غير مقيـدة ، فإن الحاجات المطالب ذاتها سوف تتغير . أنظر :

CF. Herbert Marcuse, " Zur kritik des Hedonismus, ZFS, VI, 1937, Pp.55-89

وأخيرا ، وفي منعطف المد العالي لحركة ثورة الشباب في نهاية عقـد الستينات من هذا القرن عكس ماركيوز أسلوب التغـير ، وأكـد علـى إمكانية ، بل وضرورة الوعي المتغير أولا . انظر :

CF.Herbbert Marcuse, An Essay on liberation, Boston, 1963.

63- Horkheiner, "Materialismus …. ," p.9.

٦٤- يوجد سببين أساسيين لبدعة المقارنة بين ماركس الشاب وماركس الناضج . أولهما أن السنوات التالية للحرب العالميـة الثانيـة شـجعت

النزعة الماركسية الأكثر إنسانية في الغـــرب أو ذلـــك فـــي مواجهـــة الماركسية الستالينية الجادة وغير المبدعة . وأصبح من السهل أيضا أن يتم ربط الماركسية الستالينية بالفلسفات الأخرى . كما حـــاول ســـارتر sartre أن يفعل بالنسبة للوجودية .

أما الثاني فيتمثل في أن جوهر البنـــاء النظـــري للماركســـية ، أو عنصر الاستمرارية فيها ، وهـــي (المبـــادئ أو المقدمـــات) Grundrisse لم تكن متيسرة بالنسبة لجماهير كبيرة حتى سـنة ١٩٥٣ حيث ظهرت طبعة ألمانيا الشرقية . وفي هذا الإطـــار يقـــوم مـــترجم الطبعة التي نشرة باللغة الإنجليزية في سنة ١٩٧٣ أن ثلاث نسخ فقـــط من أصل طبعة موسكو في سنة ١٩٣٩ هي التي وصلت إلي الغـــرب . وقد إستمر المبـــادئ والمقدمـــات the Grundrisse ينـــاقش مشـــكلة الإغتراب . ومن ثم إرتد إلي المخطوطات الإقتصادية والفلسفية لعـــام ١٨٨٤ .

The economic and philosophic Manuscripts of 1884.

وهي الذي كتبها ماركس الشاب . ويمكن القول بأنها قد شـــكلت أيضـــا التحليل النظري الأول للمجتمع الرأســـمالي بـــالنظر إلـــي الاقتصـــاد السياســـي ، ومن ثم يمثل هذا المؤلف حلقة الصلة بمؤلـــف مـــاركس الناضج رأس المال Das Kapital, وكما برهن جورج لشتم Georg Lichtheim أخيرا وبصـــورة صادقـــة ، حيـــث أكـــد أن اكتشـــاف Grundrisse جعل من المستحيل أن نثني Dichotomize مـــاركس إلي ماركس الفيلسوف الوجودي الهيجلي الشاب من ناحيـــة ومـــاركس الاقتصادي الريكادي الناضج من ناحية أخـــرى ، وذلـــك لأن (فـــراغ غربي) Grundrisse تحدد النقطة التـــي تتداخـــل عندهـــا الهيجليـــة والريكاردية عند ماركس .

65- see: Karlmarx, contribution to the critique af Hegel's philosophy of right, karl Marx and Frederick

Engels, The Holy Family or critique of criticad, Moscow, 1956 and karl Marx, the Economic and philophie Manuscripts of 1844 , new york , 1964.

66- Karl Marx and Freidrich Engels. Werke, vol, 3, Berlin (East) 1962 .p .18.

67- Karl Marx, A Contribution to the critique of poliitical Economy , New York, 1970, p. 20.

٦٨- لا يستطيع أحد ان ينكر الإهتمام الفلسفى لماركس الناضج حينما يقرأ الفصل الذى كتبه عن " فتشية السلع " The Fetishism of Commdities " in Das Kapital

ولايستطيع أحد أن يغفل إدانة ماركس الأخلاقية فى رأس المال أيضا وذلك حينما ناقش حركة التطويق Enclosure ودورة تجاة العبيد فى الفصل الذى اتخذ عنوان " التراكم البدائى " حيث تؤكد عبارته الدقيقة " أنه إذا كان المال قد جاء ، حسبما يذهب أوجير Augier الى العالم ملطخا بالدم على صدر الانسان ، فإن رأس المال قد تساقط من الرأس الى القدم ، من كل عقل ، ملطخا بالدم والقذارة .

Karl Marx, capital, vol . 1 New York , p . 760 .
وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسى المتعلق بالمجتمع الرأسمالى .

69- see : Alvin Goulelner, the coming crisis of the western sociology, New York, 1970 , Pp. 11 ff .

٧٠ - مثلما رفض فيبر النزعة العلمية للوضعيين ، وأصر على تفرد العلوم التايخية والثقافية واختلافها عن العلوم الطبيعية ، فإنه قد رفض

أيضا الأفكار الماركسية المتعلقة بالهدف الذى يتحرك نحوه التـــاريخ . وفى نفس الوقت استجاب فيبر بصورة ايجابية للتأثير الذى جــاءه مــن هذين التيارين ، بينما قد حاول يؤسس اتجاها ثالثا .

٧١- كتب ماكس فى سنة ١٨٦٦ رسالة الى إنجلز : " أننى أقرأ كونت لأن الفرنسيين والبريطانيين امتدحوا كثيرا هذا الرجل المثير للسخرية .

حيث أثار إهتمامهم هذا التأليف الموسوعى الشـــامل . غــير أنـــه شخص بائس للغاية إذا قورن بهيجل ، ذلك برغم أن كونت أكثر ســموا من هيجل وذلك لكونه عالما محترفا فى الطبيعة والرياضة ، أعنى أنـــه أكثر تقدما منه فى التفاصيل ، وإن كان هيجل أكثر عظمـــــة بصـــورة عامـــة ، وقد نشرت هذه الوضعية المعدلة فى ١٨٣٢ "

Marx- Engles : Gesamtauagabe (MEGA), part 3, Berlin, vol. 3. 1931-1932, p.345 .

72- Max Weber, Gesammelte Aufsatze Zur soziolge pollitik, Tubingen, verlay von J. C. B. mohr (paul Siebeck) 1924, Pp. 504-505 .

73- For recent statements see Peter Berger (Ed), Marxism and sociology. Views from eastern Europe, Newyork, 1969, peter Bolhagen, sozialgie und Geschichte Geschte, Berlin, 1966, gabor kiss, Marxismus als sozialogie, Rrinbek bei Hamburg, 1971, Paris, 1959, and Henri Lefebvre, the sociology of Marx New York, 1969. Alxander Vucinich, " Maix and

Panson in Soviet sociobaqy, The Russison Review, 33,1 (jan , 1974) . Pp. 1 – 19 .

٧٤- استخدام كل من لينين وبوخارين Bukharin المادية التاريخيـــة وعلم الاجتماع الماركسى كمصطلحات واحدة ، أنظر :
ne – kolai Bukharin, Historical materialism . A system of so ciology. Ann arbor, Mich, 1969.

٧٥- أصر كل من ماركس وإنجلز على هذه الخاصية لعلمــهما حيــث أكدا " أن المقدمات التى تبدأ بها ليست مقدمات متعمدة ، ولا جــامدة ، ولكنها مقدمات واقعية يتم التجريد عنها فى الخيال فقط . وتتمثل هــذه المقدمات فى الأفراد الواقعيين ، بنشاطهم وظروفهم المادية التى يعيشون فى إطارها ، وكل من هذه الظروف يجدونــها فعــلا ، أو يختلقونــها بجهودهم . هذه المقدمات يمكن إثباتها والتحقق منها بطريقة إمبيريقيــة خالصة . ومرة أخرى يؤكد كل من ماركس وإنجلز " أنه حيث ينتــهى التأمل ... يبدأ العلم الوضعى أو الحقيقى . أنظر :

Karl Marx and Frederick Engles, the german I\deology, New York, 1970, Pp . 42 and 24.

٧٦- أدى تفسير تأكيد ماركس على الموضوعية الثانوية فى مواجهــة الفعل الانسانى الى اتجاهين منفصلين فيمــا بعــد الماركســية . الأول الإتجاه الميكانيكى Mechanistic والثانى العنف activistic حيث بالغ كاوتسكى Kautsky بليخانوف Plekhaniv وبوخــارين Bukharin وهم الذين ينتمون الى المدرسة الأولى فى التأكيد على الحتمية القانونيــة والموضوعية للحركات الاجتماعية والتاريخية . أما المعسكر الآخــر ، الذى يضم مناصرى العنــف The activists وهــم لينيــن ، وروزا

لوكسمبرج Rosa Luxeemburg ، وأنتونـــى جرامشـــى Antonio Gramsci فقد أكدوا على دور النشاط الواعى فـــى تحتيـم الأحـــداث التاريخية .

٧٧- أوجز ذلك كل من ماركس وإنجلز بقولهم " يعتمد هـــذا التصـــور للتاريخ على قدرتنا على تفسير العملية الحقيقة للانتاج ، بادئين من انتاج الحياة المادية ذاتها ، وذلك لفهم أسلوب التفاعل المرتبط بذلـــك والـــذى يتخلق عن هذا الأسلوب للانتاج (أعنى المجتمع المدنى فـــى مراحلـــه المتعددة) كأساس للتاريخ ، ولكى نوضحه فى فاعلية كالدولة ، ولكـــى نوضح كل المنتجات النظرية المتباينة وأشكال الوعى والدين والفلســـفة والأخلاق ، إلخ .

فإن علينا حينئذ أن نحاول تتبع أصولها ونموها من هذا الأســـاس الذى بواسطته يمكن بالطبع تصوير كل المجتمع فى كلية (ومـــن ثـم تصوير التأثير التمبادل بين هذه الجوانب العديدة كل على الآخر أيضاً)

- Karl Marx and frederick Engels, the german ideology, New York, 1970, p.58.

78- see : particulany Frederick Engels, Antiduhring, Moscow, 1962, Fredreick Engels, luduing Feurbach and The aut comeof dessicd Ferman Philosophl, New York 1967. And v. I leninda Materialsm and Empiriolriticism, Moscow, 1952, Formoderm assess ments See Epistemed ogie et Marxisme Paris, 1972 and Mar xixtische Erkemmtnis Theorie. Texte Zu Ihrem Fors chungsstand in den sozialististischen, landern, Hams Jing Sand kuhler (Ed) Stuttgart , 1973.

٧٩- للحصول على تعريف للنموذج المثالى ، أنظر :

- Max Weber, The Methodoligy of the social sciences- E. A Shils and H. A. Finch (trsns, and Ed) New York 1949, Pp.90,93,103.

80- Max Weber, economy and society, Guenther, Roth 1968, Pp.904-905.

81- H. H. Girth and C. Wright Mills (Trans and Eds) from Max Weber, essays in sociology, New York 1958, p.126.

82- Ibid ., p.126.
83- Ibid ., p.127
84- Ibid ., p. 128

85- See : Foot n. qq in Wolfgang J. Mommsem. Max Weber und die deutsche politik 1890-1920 Znd ed, Tubingen, 1974, p.332.

86- see : Marianne Wbeber, Max Weber, A Biography, Harry Zohn (Trans and Ed) New York , 1975,p.642.

87- Ibid., Pp. See also : Paul Honigsheim, on Max Weber, New York, 1968 Pp.24-28, karl Jaspers, " Heidelberger Erinnerunger,.in Heidelberger Jahrbucher, V,1961. Pp.1-10.

88- Inotto stammer (Ed) Max Weber und die sozialogie heute, Tubingen, 1965, Pp.65-66.

89- See : Judith Marcus Tar, Thomos man und George Lukacs, unpubished dissertation for German Dept. of the university Kansas,1976.

90- George Lukacs, soul and from, Anna Bostock (Transl) Cambridge, Mass, 1974, p.17.

91- Gyorge lukacs, Esztetikai kultura, Budapest, 1913, p.26.

92- lukacs, soul and from, p.16.
93- Ibid ., p.27.
94- Idem, Esztetikai kultura. P.28.
95- Ibid ., p.27.
96- Ibid ., p.27.

97- Karl Marx, early writtings, T. B. Bottomore (Transl and Ed), New York, 1964,p.37.

98- Gyorgy lukacs, " Abolsevizmus mint erkolcsi problema, " in Szabdgondolat, (December 1918,) Pp.228-232.

99- I am indebted to Mr. Tibor Gergely, painter and illustrator New Yorl, for sharing with me his collectios of times with the "Lukacs circle ".

100- Georg Lukacs, " Toctics and Ethics, " in political writtings 1919-1929, Translated from the German version by Michael McColgan, London, 1972, p.II.

101- Idem, Geschichte und klassenbewusstsin studin uber marxistische Dialektik Neuwied – Berlin, 1968, p.397.

102- Ernst Bloch, geist der utopie, Munchen, 1918. Pp.405-406.

103- Karl marx and frederick Engels, The german ideology. C. J. Arthur (Ed), New York, 1970, Pp.94-95.

104- See : Judith marcuse Tar, Thomas mann und Georg lukacs, CF., footn., 89,. Further see Paul Ernst Georg lukacs. Dokuments einerfreundschaft, karl Augest kutzbach (Ed), Emsdetten, westf., 1974.

105- see chapters " Zauberg als Zeitrman, " in Judith Matcuse, tar, Thomas mann and Georg Lukacs, CF., notos 89 and 104.

106- Heinrich Regius (Horkheimer's pseudonym), Dammerung. Notizen in Deutschland, p,22.

107- Ibid ., Pp. 74-5.

108- Max Horkheimer, criyique of instrumental reason, lectures and essays sinse the end of worlkd war II, Matthew J. O. Cannell et al, (transl.) New York, 1974. P.122.

109- Idem., critical theory, Mettew J. O. Cannell et al., (transl.) New York, 1972, p.26.

110- Ibid ., p. 251.

111- Idem, Edipse af reasen, New York, 1947, p.161.

112- Theodore. W. Adorono Negative Dialeltit, p.27.

ومن أجل مناقشات سوسيولوجية وفلسفية للعنف أنظر :

Cristian Von Ferber, Die Gewalt in der politik, stuttgart, 1970, Walter Benjamin, zur kritik der Gewalt und Andere AufsAtze, Frankfurt am Main, 1965, and Hannah Ardent, " on violence, " in crises af the Republic, New York,1972.

113- See : Frederick Engels, the peasant war in Germany, New York, 1973, Pp. 23-25. For a recent

sociological treatment, see Barringtam Moore, social origins of Dictatorship and Democracy, Bostan,1965.

114- See : George lukacs, Die zerstorung der vernunft, Berlin (East), 1954. Pp. 156-197. And Franz Mehring, Geder philosophie, Berlin, 1929-33 - sammeld te schriften und Aufsatze, vol. 6, zur feschichte der.

115- Max Horkeimer, krirische theorte, vol. I. Frankfurt am main 1968. P. x11.

116- Theodor W. Adorono, Minima, Moralia, Frankfurt am main, 1969, p.7.

117- Max Horkheimer and Theodor W. Adorono, sociologoa II, Frankfurt am main, 1962, p. 126.

118- Max Horkheimer, Die sehnsucht ..., p55.

119- Idem., " Bomerkungen zur philosphischen Anthropologie, ZFS, IV. 1 (1935), p.8.

120- Ibid ., p.8..

121- Idem., " Materiaialimus und Moral, " ZFS 11,2 (1933), p.184.

122- The Holy Bible. King yames version, New York. N. d, p.559.

ويعتبر نيتشة Friedrich Nietzsche من المفكرين الذين كـــان لـــهم تأثيرهم الكبير على تفكير كل من هوركهايمر وأدورنو ، وهـــو الـــذى تناول موضوع ال Mitleid فى مؤلفه أصل الأخلاق

- The Geneology of morals, New York, 1956, Pp.154 Ff.

123- Selma stern, The Court Jew, A Contribution to the history of the period of absolutism in central Europe, Ralph Weiman (Teansl) Philadelphia 1950, p.241.

124- Ibid ., p.242.

125- Jurgen Habermas, " Der Deutsche idealismus der Judischen philosohen, " in philosophisch – politische piofile, Frankfurt am main, 1971, Pp. 37- 66.

126- Franz Rosenzweig, the star of Redemptan, Boston, 1972.

127- Max Horkheimer, Aus der Pubertat…, p.257.

128- Quoted in J. Habermas, " Der deutsche Idealismus…," Pp.41- 42.

129- Ibid ., p.58 . see also Georg Simmel, " The stranger, " in the sociology af George Simmel. Kurt H. Wolf (Ed). New York,1950, Pp. 402- 408, and Thorstein Veblen " the Intellectual preeminence af Jews in modern Europe, " in thorestein veblen. Selections from his work, Bernard rosenberg (Ed). New York, 1963, Pp. 91- 100.

130- Herman Cohen, judische Schrifen, 3 vol s., Berlin, 1924.

131- Ibid ., vol. I. Pp. 300- 301.

132- MaxHorkheimer, Aus der Pubertat..., p.22. Idem., "Materialismus und Metaphysik, " ZFS ii, 1 (1933), p.16 and " philosophie und kritische theorie, " ZFS, VI. 3 (1937), P. 630.

وأنا مدين بالشكر للبروفيسور ميشيل لاندمان Michael Landmann الذى وجه انتباهى الى ارتبـــاط أفكـــار هوركـــهايمر بفكـــر التلمـــود Talmudic Thonght

133- George Steiner, language and silence, New York, 1972, p. 125.

134- Franz kafka, Tagebucher 1910 – 1923, New York, 1949, Pp. 112 – 116.

135- Max Horkheimer, Aus der Pubertat…,

وقد كتب روزنزويج Rossenzweig عن هذه المشكلة قائلا :
" بينما نجد أن لكل من الشعوب الأخرى لغتها الخاصة ، هذه اللغة التى تتطاير على فمه إذا توقف أيا من هذه الشعوب عن أن يصبح شعباً .

إستنادا الى ذلك نجد أن الشعب اليهودى لم ينمو أبدا كشعبا له لغة يتكلمها ، وحتى حينما يتحدث اليهود لغة الشعب الضيف ، فإنهم يمدونها بمفردات خاصة ، أو على الأقل إنتقاءاً خاصا من المفردات العامة للغة ، أو بتنظيم خاص للكلمات ، حيث تكون له مشاعره الخاصة بماهو جميل أو قبيح فى اللغة ، قائلا على سبيل التضليل أن هذه ليست لغته الخاصة (٣٣) .

Franz Rosenzweig, the star of redemption, p. 301.

من الملاحظ هنا أن قضية اللغة كانت تشكل مشكلة ذات طبيعة خاصة بالنسبة لمفكرى مدرسة فرانكفورت ، وذلك لأن إنتمائهم ضعيف للغة المجتمع الذى يستضيف الجماعة اليهودية من ناحية ، ومن ناحية أخرى لعجزهم عن التعبير بلغتهم الخاصة ، حيث نجد أن هذا التعبير سوف يثير تميزهم ، ومن ثم احتمالية التميز عندهم ، وهو الأمر الذى كانت ترفضه الجماعة اليهودية " المترجم " .

١٣٦- كتب والتر بنيامين Walter Benjamin الى صديقه جريشوم شوليم Gersham Scholem فى يناير ١٩٣٠ قائلا أنه قد تخلى عن كل أمل فى أن يكون قادرا على تعلم اللغة العبرية بينما كان يعيش فى ألمانيا " ومن الآن فصاعدا ، فإن طموحه سوف يوجه نحو أن يصبح أكثر نقاد الأدب الألمانى شهرة " إقتبست عن :

Gersham Scholem, Walter Benjamin, die Geschichte einer Freundshaft, from Frankfurt am main, 1975, p.

200. CF. Klaus Peter schulz, kurt Tucholsky in selbstzeugnissan und Bilddokumenten, reinbek bei Hamburg, 1959.

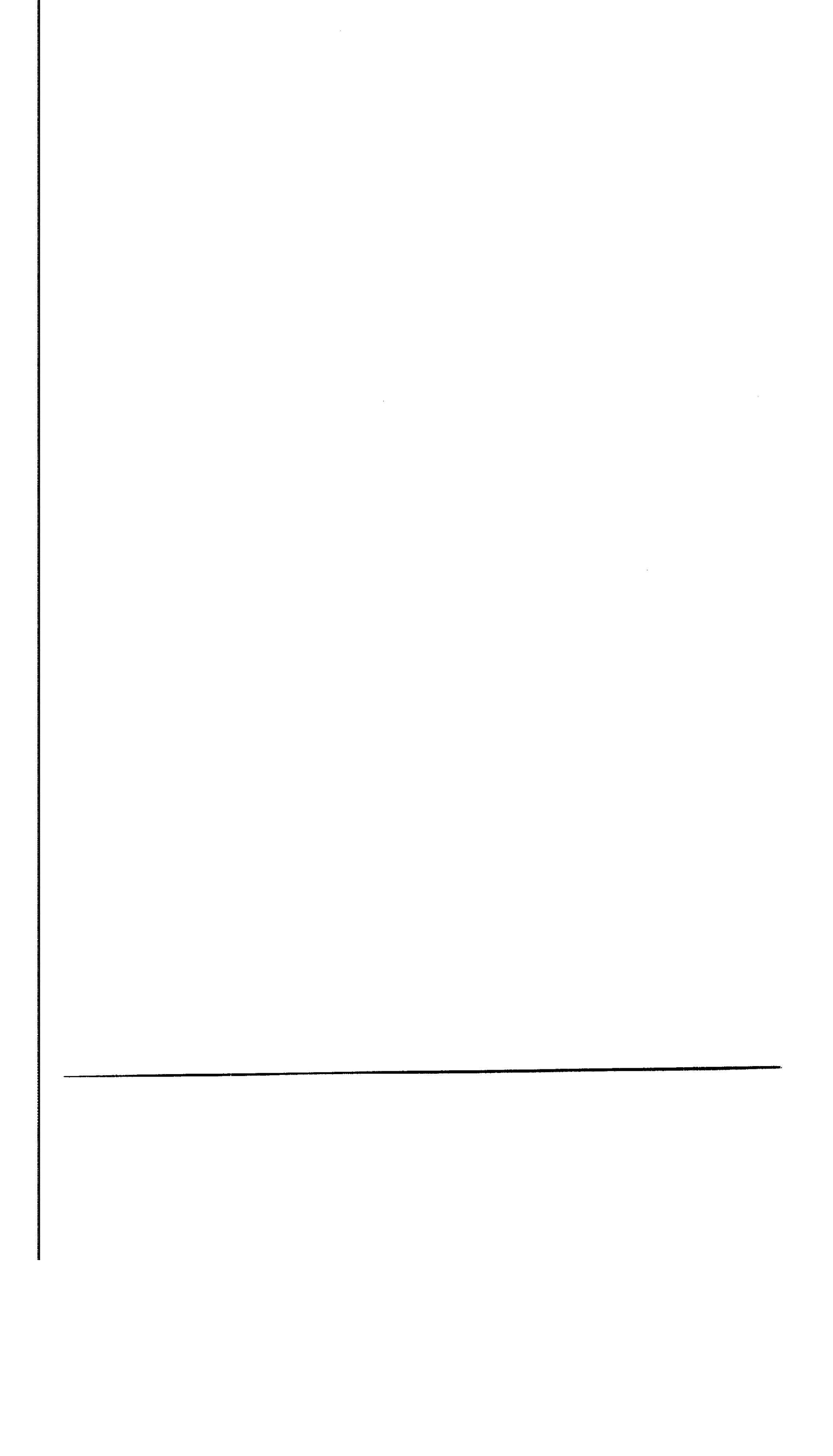
وقد كتب توشولسكى شمبل قبل إنتحاره بفترة قصـيرة فـى أحـد وسائله : " سوف أكون عاجزا تماما عن الكتابة بلغة أخرى ، حيـث أن ذلك مستحيل تماما ... هذه الاستحالة يمكن نسبتها الى ماهو أكثر مـن التطورات السياسية فقط . فقد مات العالم الذى نعرفه ونكدح من أجله ، وأن على الانسان أن يستنتج النتيجة الملائمة من ذلك.. (p. 165) .

137- See : Franz kafka, Briefe 1902 – 1904 . New York. 1958. P.337.

حيث تحدث كافكا أخيراً فى أحد خطاباته ناعيا "'هؤلاء اليهود الشـباب الذين دخلوا لغة الفكر الألمانى بصورة مؤلمة ومحزنة وربما ماسوشتية Masochistically ، حيث كانوا بذلك يقومون بالملائمـة بيـن رأس مال غريب لم يكتسبوه بعد ، إلا أنهم أمسكوا بـه ، سـرقوه بسـرعة خاطفـة .

الفصل الثانى

المرحلة المتوسطة فى تاريخ النظرية النقدية
فترة المواجهة مع الفاشية ونقد الهيمنة



يصف هذا الفصل المرحلة المتوسطة فى تاريخ النظرية النقدية (١٩٤٠ – ١٩٥٠) . حيث المواجهة النظرية مع الفاشية ، ومحاولات النظرية النقدية العديدة لكى تفسر طبيعة الفاشية وظروف نشأتها . وتبدأ هذه المناقشة بفحص وجهة نظر هوركهايمر بالنظر الى بعض الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية ، فيما يتعلق بنشأة النازية Nazism فى ألمانيا ، ثم التحول بعد ذلك الى فكرة " ديكتاتورية التنوير " ونقد هوركهايمر للعلم الحديث وفلسفته ، وسوف يقدم الفصل الثالث ملخصا موجزا لمؤلف الشخصية الفاشية Thoritarian Personality .

١- المواجهة النظرية مع الفاشية :

أصبحت المواجهة النظرية والعملية مع الفاشية – وهى الظاهرة الأكثر بروزا خلال هذه الفترة ، والتى شكلت مصدر التهديد الرئيسى لوجود المعهد وأعضائه وبقائهم ، بل وللحضارة الغربية بكاملها – تدريجيا هى الموضوع الرئيسى بالنسبة للنظرية النقدية [١] . وقد كان وضاحا بما فيه الكفاية أن النظرية النقدية لم تعط اهتماما كافيا للشكل الأول المتمثل فى الفاشية الايطالية ، وهى الظاهرة التى اعتبرتها هامشية بالنسبة للتيار الرئيسى لتطور المجتمعات الأوروبية . وقد كان للمواجهة النظرية مع الفاشية مراحلها ومداخلها العديدة . فقد حاولت النظرية النقدية فى بداية الثلاثينات من القرن العشرين أن تؤكد على وجود النازية متمثلة فى الملامح الفاشية المميزة للمجتمع الألمانى عامة وبنائه الأسرى خاصة ... وقد كان من نتاج هذا الجهد تأليف كتاب دراسات عن السلطة والأسرة studien uber Autoritatund Familie فى سنة (١٩٣٦) . حيث ضمنت كثير من أفكاره فى مؤلفه

١- فى الفصل التالى سوف تستخدم مصطلحات النازية والفاشية ليحل كل منهما محل الأخر . وبرغم الأصل الايطالى المحدد للفاشية فإنها أصبحت المصطلح العام .

الأخير الشخصية الفاشية Authoritarian personality التى صورت المرحلة الثالثة لوجهة نظر النظرية النقدية فى الفاشية . ففى المرحلـــة الأولى التى استمرت حتى عام ١٩٤٠ ، إقترب الموقف النظرى للمعهد إلى حد كبير من موقف الماركسية الأرثوذكسية ، كمـــا وافـــق عليـــها المؤتمر السابع للكومنترن ، وهو الموقف الذى اســـتند الـــى صياغـــة سكرتيره العام جورجى ديموتروف ، حيث يذهـــب ديموتـــروف فـــى محاولة تحديد الفاشية الى قوله " يعبر إمتلاك الفاشـــية للسـلطة عــن دكتاتورية الرعب الصريح لأكثر العناصر المالكة لرأس المال شـوفينية وأكثرها رجعية وأكثرها إمبريالية " (٢) .

وقد عبر كل من ماركيوز وهوركهايمر عن نفس الفكرة بقولهما أن الفاشية تعتبر النمو الطبيعى للديموقراطية الليبرالية البرجوازية . وقـــد أصبحت ظاهرة الفاشية فى المرحلة الثانية جزءا من اليأس العام أو من فلســـفة التـــاريخ الشـــاملة ذات الصلـــة الوثيقـــة بالفلســـفة الطبيعيـــة Naturphilosphie لهوركهايمر . وفى المرحلة الثالثة إنتقل التـــأكيد إلى الفرد ، وقبوله السريع للفاشية أعنى إلى " الشـــخصية الفاشـــية " . وفى هذا الاطار سوف نجد أن الارتباط بيـــن النظريـــة الســـيكولوجية لفرويد من ناحية وتكنيكات البحث الاجتماعى الإمبيريقى مـــن ناحيـــة ثانيـــة ، هى التى قدمت الإجابة لذلك .

٢- الفاشية " بإعتبارها أعلى مراحل الرأسمالية "

بحلول عام ١٩٣٩ أصبح واضحا بالنسبة لهوركهايمر أن إمكانيـــة تغيير المجتمع الرأسمالى الى مجتمع اشتراكى يعتبر نوعا مـــن الوهـــم الواضح . حيث استطاع ورثة نظام المشروع الحُر أن يحافظوا علـــى سيطرتهم عن طريق القضـــاء علـــى حريـــة الديمقراطيـــة الليبراليـــة البرجوازية . ومن ثم أصبحت الفاشية هى النتاج الطبيعـــى والمنطقـــى

للمجتمع الرأسمالى فى مرحلة أزمته الدائمة : " إن من لا يرغب فـــى الحديث عن الرأسمالية ينبغى أن يتحلى بالصمت بالنسبة للفاشية أيضاً " حيث يختلف النظام الشمولى الجديد عن سابقه فى حقيقة أنـــه أصبـــح محرراً من القيود والمعوقات فقط ، فقد كان ينظر سابقا الـــى العمليـــة الاقتصادية فى المجتمع الرأسمالى باعتبارها نتاجا لعلاقـــات السـيطرة التى تتأسس من خلال " التعاقدات الحرة " وهى العلاقة التى تفرضـــها حالة عدم المساواة المتصلة بعلاقات الملكية ، والآن تم القضاء على هذا الوسيط ... ومن ثم أصبحت الفاشية تعبر عن حقيقة المجتمع الحديـث ، وهى الحقيقة التى تأخذها النظرية النقدية فى اعتبارها منذ البداية .

ويؤكد هوركهايمر أننـــا لا نحتـــاج الـــى أى مراجعـــة للنظريـــة الماركسية من أجل تحديد هوية الفاشية ، حيث أن أشكال السيطرة هـــى التى خضعت وحدها لتعديلات محـــددة . فبـــدلا مـــن مراكـــز الأمـــر والسيطرة المتناثرة فى المشروعات الفردية ، ظهرت السيطرة الشمولية التى تمارسها بعض المصالح الخاصة على كـــل المجتمـــع ، وأصبـــح الموقف يشبه ذلك الوضع الذى ساد النظام الرأسمالى فى بداية نشـــأته ، حيث تيسر وجود جماهير من البشر الأحرار . وهى الجمـــاهير التـــى أجبرت فى بداية النظام الرأسمالى على الإلتحاق بنظام الصناعة الناشئ واليوم " ينظم المهيج الثورى agitator الفاشى هذه الجماهير ضد النظم الديمقراطية " ، فإذا نجح فى ذلك ، فإن ذلك فسوف يتكرر على نطـــاق عالمى ، وفى هذا الصدد يكتب هوركهايمر قائلا :

(تكمن مهمة الرأسمالية الأخيرة فى إعادة تشكيل البشر على هيئـــة تجمع مستعد لإنجاز أى هدف مدنى أو عسكرى ، ومن ثم تؤدى هـــذه الجماهير دورها كأدوات فى يد الطبقة الحاكمة التى أعيد بناؤها) (٥)

وقد استخدم مصطلح الرأسمالية الأخيرة Late ، الـــذى صاغـــه وارنرسومبارت Warner Sombart قبل أربعين ســـنة قبــل ذلـــك ، وأشاع هربرت ماركيوز Marcuse استخدامه لأول مرة فـــى اطـــار النظرية النقدية . وقد تغير كذلك تركيب الطبقة الحاكمة ، حيث تعتـــبر البيروقراطية المتضخمة من أكثر جوانب هذا التغير أهمية ، وذلك لأنها اكتسبت قدرا معينا من الاستقلال ، وعلى هذا النحو يشير هوركـــهايمر الى ظاهرة هامة أوضحها جيمس بيرنـــهام James Burnham فـــى السنتين الأخيرتين بصورة أكثر إتساقا . وهى الظاهرة التـــى ســـماها " الثورة الإدارية Managerial Revolution . والتى كـــرر مفكريـــن آخرين منذ ذلك الوقت ذكرها ومناقشتها . (٦)

فقد أدى نمو حجم المشروع الصناعى التباينات التى وقعـــت فـــى اطاره الى نشأة البيروقراطية الصناعية الجديدة ، التى يستطيع قادتـــها الرئيسيون العمل من أجل تحقيق أغراضهم من خـــلال اســـتخدام رأس المال الذى يملكه حاملى الأسهم ، ولو كان هـــذا الاســـتخدام لا يخـــدم أغراض هذه الفئة الأخيرة ، ويوجـــز هوركـــهايمر ذلـــك بقولـــه : إن الليبرالية لا يمكن إرجاعها ، بل إنها خلقت بروليتاريا فاسدة تخلت عنها قيادتها . حيث خلقت موقفا يشكل في اطاره العاطلون طبقة غير متبلورة تحتاج الى تنظيمها من أعلى ، وتركت لنا أيضا فلاحين متخلفين مـــن حيث الوعى ، أو من حيث وسائل الانتاج ، بالقياس الـــى التطـــورات التكنولوجية التى تحققت . ثم هى التى أسست التفاهم المتبادل بين قـــادة الصناعة وقيادات الجيش ورجال الإدارة لكى يتمكنوا من الإمساك بزمام الأمور فى أيديهم .

وحسبما يذهب هوركهايمر ، فقد هزم العمال الألمان الذين إمتلكـــوا كل المؤهلات التى تيسر لهم تأسيس نظام اجتماعى جديد ، إذ نجدهـــم بعد إعدام قادتهم قد خدعوا بواسطة الجهاز البـــيروقراطى لحزبـــهم ،

وبتعبير اقتصادى خالص أصبحت الفرصة سانحة للحفاظ على بقاء نسق شمولى جديد . حيث يعتبر إعتماد البشر على السلطة شـرطا أساسـيا للإستقرار ، وهو المبدأ الذى سلم به قبل ذلك مفكرين من أمثال ماندفيل ودى ساد De Sad ودى بونال De Bonald وحتى العجـوز كـانت Kamt ، الذى اقترب كثيرا من هؤلاء المفكرين الذين اعتـبروا فـى العادة مضادين للنزعة الإنسانية ، وفى هذا الاطار كتب كـانت : مـن وجهة النظر العملية يعتبر أصل السلطة العليا بالنسبة لى مسألة لا سبيل الى فهمها ، أعنى أن الانسان لا ينبغى أن يعمل عقله بشـأنها (٧) . وحيث يستمر التركيز على وسائل الانتاج ، وحيث تكمن الفوضى وراء المظهر الكاذب للوحدة والانسجام " فإن إستقرار الفاشـية يسـتند الـى التحالفات ضد الثورة " (٨) . وفى هذا الإطار تمثل النزعة القوميـة وفكرة مجتمع الشـعب Volksgemeinschaft – إسـتمرار للمـزاج التاريخى الذى ساد فى عام ١٩١٤ ، والذى أتيح له أن يزدهر كبديـل للثورة . وقد تجاوزت الفاشية الظروف الاجتماعية والاقتصادية السـابقة على نشأتها بمعنى سلبى وإيجابى بنفس القدر ، حيث تحققت مركزيـة الإدارة والإلغاء الرسمى للمقاطعات باعتبار أن ذلك تحقيـق للمطـالب البرجوازية التى تحققت منذ وقت بعيد فى مكان آخر .

وتعتبر الفاشية ظاهرة ذات طبيعة عالميـة شـاملة " إذ لـم تتـم المواجهة بين النزعة الليبرالية والدولة الشمولية عبر الحدود القوميـة . حيث إنتصرت الفاشية من الداخل والخارج كذلك " ومن ثم فقد وجدنـا أن العالم يتجه بكامله سياسيا لأول مرة فى التاريخ فى نفس الاتجـاه . وحتى فى ذلك الجزء من أوروبا الذى لم تنتشر فيه الفاشية توجد القوى المجتمعية التى تميل الى دفع الجهاز الإدارى والقانونى والسياسى فـى هذا الاتجاه الفاشى . " حيث أنقذت الفاشية حق السيطرة علـى وسـائل الانتاج لصالح الأقلية التى ظهرت مـن خـلال الصـراع والمنافسـة باعتبارها القوة الأكثر فعالية " (٩) . وذلك هو تعبير هوركهايمر عن

تعريف ديموتروف Dimitrov للفاشية باعتبارها " ديكتاتورية الإرهاب الصريح التى تمارسها العناصر المالكة لرأس المـــال الأكـــثر رجعيـــة وشوفينية وأمبريالية " ونظرا لتوقع هوركهايمر وقوع دياليكتيك التنوير، فإننا نجده قد رأى فى الثورة الفرنسية نسقا يتضمن نفيه منذ البداية .

(لقد كانت الثورة الفرنسية التى ترمز الى الانتصـــــار السياســـى للنظام الاقتصادى البرجوازى – والتى منحت التحرر لليـــهود – أكـــثر حيرة وتأرجحا عما يعتقد أى منا اليوم ... فقد قدمت خطط روبســــبير Robospierre وسانت جوست Saint Just عناصر إشتراكية الدولة ، الى جانب أنهما قد عملا أيضا على دعم وتقوية الجهاز البـــيروقراطى بحيث إقترب إلى حد كبير من الأنساق الفاشية الســـائدة فـــى مرحلتنـــا المعاصرة ، ومن ثم فقد تضمن النظام الذى بـــدأ فـــى عـــام ١٧٨٩ – باعتباره نظاما تقدميا – الاتجاه منذ البداية الى الاشـــتركية القوميـــة) (١٠) .

وقد كان لتحرر اليهود جانبه النفعى البحت . وذلـــك بســـبب دور اليهود باعتبارهم أدواتا لصياغة تراكـــم رأس المـــال . إذا فالمصـــالح العملية وليست الأفكار هى التى شكلت موقف البرجوازية . غـــير أنـــه بسبب التغيرات البنائية التى مر بها النظام الرأسمالى ، فأننا نجد أن هذا الميل النفعى لم يدم طويلا . حيث حل التخطيط محل اقتصاد الســـوق . وقامت الدولة بإحتكار مهمة السيطرة النقدية . وهو الموقف الذى أحـــال وظيفة اليهود فى النظام الرأسمالى الى وظيفـــة ســـطحية . ويبـــدو أن هوركهايمر هنا يوافق على وجهة نظر ماركس فيما يتعلـــق بالمســـألة اليهودية (١١) [١] .

١– تتمثل المسألة اليهودية من وجهة نظر ماركس فى أن تحيز السياق الاجتماعى ضـــد اليهود ، هو الذى عزلهم وفرض عليهم تعميق الشـــعور بهويتـــهم . مـــع أن العكـــس=

وبالتالى فقد تحولت سيطرة الدولة على رأس المال الى سيطرة وحشية على الذين يمتلكونه . وأصبح ينظر الى اليهود – الذين كان عليهم أن يفروا الآن فى المنفى – بنوع من الشك ، هذ الى جانب أن الأوطان المضيفة لهم نظرت إليهم بنوع من الاستياء كما لو كانو يهود شرقيون Ostjuden وذلك مثلما نظر الى (اليهود الشرقيين) فى ألمانيا بعاداتهم ولهجتهم الغريبة . فلم ترحب الأقطار المضيفة بالقادمين الجدد بل أننا نجد أنه برغم الإرادة الخيرة لذوى العقول المتنورة فقد واجه اليهود منافسة باردة وكراهية عميقة لا هدف لها من قبل الجماهير ، بحيث أصبح المستقبل بلا أمل " فى هذا الإطار لم تكن آمال اليهود التى إرتبطت بنتائج الحرب العالمية الثانية ذات قيمة . وبغض النظر عن الأسلوب الذى إنتهت به الحرب فقد أدت النزعة العسكرية المحمومة والمستمرة لهذا العالم الى ظهور اشكال حياة ذات طبيعة جماعية collectivistic وفاشية " (١٢) . ولم يكن لدى هوركهايمر أية أوهام تتعلق بالديموقراطية الغربية المعادية للفاشية ، غير أنه كان متشائما للغاية فيما يتعلق بالمستقبل " حيث قدرا كبيرا من الجماهير – التى دفعت لمعادة الدول الشمولية – معرضة بصورة واضحة للفاشية " (١٣) . فإذا كانت الظروف الاقتصادية القديمة ، بعد هذه الحرب الطويلة ، قد رجعت ثانية ، فإن التطور سوف يميل الى تكرار ذاته . وذلك لأن الفاشية لم تظهر نتيجة صدفة عارضة .

وقد انتهت نظرية هوركهايمر فى الفاشية فى المرحلة الثانية الى حالة من اليأس المطلق ، حيث نجده يعقب قائلا :

=هو الصحيح ، إذ نجد ممارسات اليهود وإحساسهم كأقلية بالنسبة للغالبية ومحاولتهم السيطرة على مفاتيح التفاعل الاجتماعى ، ثم شعورهم الزائف بالسمو على غيرهم باعتبارهم شعب الله المختار ، بحيث ساعد كل ذلك على إثارة مشاعر العداوة نحوهم . ومن ثم شعورهم بهويتهم كجماعة فى مواجهة هذه المشاعر العدائية . بذلك نجد أن سلوكيات الجماعة اليهودية هى التى شكلت العامل الأساسى فى إثارة مشاعر التحيز ضدها . " المترجم "

(ليس هناك شيئا يمكن أن نأمله نتيجة لتحالف القوى العظمـــى . إذ لا يستطيع المرء أن يأمل فى انهيار الاقتصاد الشمولى ... بل من الذاجــو الكاملة أن نحث العمال الألمان من الخارج لدفعهم نحو الإطاحة بالنظـام ... لقد أصبحت الفوضى شاملة الى الدرجة التى أصبحت الحقيقة عندما تمتلك كبرياء عمليا هائلا طالما أنها لا تعنى بالممارسة المدعـــاة ...) (١٤) .

وقد حذفت مقالة هوكهايمر عـــن (الفاشـــية باعتبارهـــا نتيجـــة للديموقراطية الليبرالية البرجوازية) حينما جمع الفرد شميدث Alfred Schmidt مجلدين من المقالات المأخوذة عن المجلة Zeitschrift فـــى سنة ١٩٦٨ . ولم يشر هوركهايمر إليها فى أى من كتاباته اللاحقـــة . ويبدو أن الخطأ الرئيسى فى نظرية هوركهايمر عن الفاشية يتمثل فـــى مبالغته فى تقدير قيمة الحالة التاريخية الألمانية . حيث دفعه الى ذلـــك الخوف من امكانية أن تتحول كل المجتمعات الرأسمالية الى نظم فاشية. هذا الى جانب أن هذه النظرية لم تهتم بالنظم الفاشـــية المتعـــددة فـــى أوروبـــا ، والتى تتدرج إبتداء من ألمانيا وهى المجتمع الـــذى يتمتـــع بدرجة عالية من التصنيع وحتى أسبانيا " المتخلفة " أو نصف الناميـــة Half developed مثل إيطاليا وهنغاريا .

٣-جدل التنويـــــــــر :

تمثل المرحلة الثانية فى تاريخ النظرية الفاشية بالنسـبة لمنظـــرى مدرسة فرانكفورت تحولا حاسما من نظرية نقدية نضالية تعـــانى مـــن التناقض الى فلسفة إجتماعية لليأس . إذ حدث تحول مزدوج فى بنـــاء النظرية النقدية مع بداية أربعينات هذا القرن : حيث إستبدلت النظـــرة النضالية الى العالم Weltanschauung بفلسفة يائسة للتاريخ . حيـــث تخلت النظرية النقدية عن برنامج شامخ للتحليل الشامل لبناء المجتمـــع

الرأسمالى الاجتماعى الاقتصادى ، وذلك فى مقابل التركيز على تحليل الفرد العضو فى هذا المجتمع ، بالنظر الى قدر الفاشية التى يتعرض لها .

وفى كتاباتهم خلال الأربعينات من هذا القرن نجد أن كلا من هوركهايمر وأدورنو قد استبدلا بإطراد تصور الماركسية للصراع الطبقى بمفهوم صراع الإنسان ضد الطبيعة ، بإعتبار أن ذلك جزءاً من نظرية السيطرة الشاملة (١٥) . هذا الى جانب إختفاء مصطلح الطبقة من قاموس مصطلحات النظرية النقدية ، والواقع أن هناك مجموعة من العوامل السيكولوجية والسوسيولوجية التى تعتبر مسئولة عن هذا التحول ، من هذه العوامل القضاء على كل حركات الطبقة العاملة الثورية ، هذا الى وصول الغزو الفاشى إلى ذروته ، وضياع الأمل فى إمكانية أن تقوم اشتركية حقيقية فى الاتحاد السوفييتى ، إضافة الى عزلة مفكرى النظرية النقدية فى أمريكا .

ويعتبر مؤلف أدورنو " أفكار فى نظرية الطبقات Reflexionon Zur Klassentheoroie " الذى نشر بعد وفاته فى عام ١٩٤٢ المؤلف الوحيد – خلال هذه المرحلة المتوسطة – الذى إستخدم مفاهيم الطبقة والصراع الطبقى . (١٧) [١] .

وتدعم كتابات كل من هوركهايمر وأدورنو بعضهما البعض خلال هذه الفترة . بل إننا نجد أن كلا منها تكمل الأخرى بأسلوب مختلف ،

١- من القضايا الهامة المثيرة للريبة والتى تستحق الدراسة تحول النظرية النقدية عن مفاهيم الصراع الطبقى الى مفاهيم صراع الانسان مع الطبيعة أو النظام ، وهنا نلمح تحولا عن محورية نضال البروليتاريا دور الطبقة البروليتارية ، الى نوع من النقد المخفف للنظام الرأسمالى الذى فتح صدره للبرجوازية اليهودية الهاربة من الفاشية والنازية ومن ثم يمكن أن نقول بأن النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت تمثل نظرية البرجوازية فى النقد ، وذلك فى مقابل الماركسية باعتبارها سلاح البروليتاريا النقدى " المترجم "

وفى هذا الصدد نجد أن هوركهايمر يؤكد صراحة فى مقدمته لمؤلف خسوف العقل على وحدة أفكارهما :

(كتبت هذه المحاضرات لكى تقدم خلاصة لبعض جوانب النظرية الفلسفية الشاملة ، التى طورها المؤلف خلال السنوات القليلة الماضية بالاشتراك مع أدورنو ، ومن الصعب تحديد أى من هذه الأفكار يرجع أصلها الى عقلى ، وأى منها الذى ينتمى الى عقل أدورنو ، ففلسفتنا واحدة) (١٨) . ويعتبر مؤلف دياليكتيك التنوير الذى كتب خلال الفترة بين عامى ١٩٤٢ - ١٩٤٤ نتاجا للأفكار المترابطة لكل من هوركهايمر وأدورنو حيث كانت الوظيفة الأساسية للنقد هو التغيير الاجتماعى نحو المجتمع العادل غير أنهم بعد أن أصبحوا على معرفة أعمق برأسمالية المجتمع الأمريكى الأخيرة ، وبداية الحل النهائى " للمسألة اليهودية " فى ألمانيا الهتلرية ، فإن الأمل السابق والضعيف الذى طرحه المنظرون فيما يتعلق بالتغيير " نحو مجتمع عاقل " قد أفسح الطريق الى نوع من اليأس التام . حيث نظر كلا من هوركهايمر وأدورنو الى الحضارة الغربية كما لو كانت تمر بعملية إنحطاط وإنهيار . ومن ثم فقد أصبحت الكلمة التى تعبر عن ذلك " إنحطاط وجود الإنسان ذاته " ومن ثم فقد بدأوا الإجابة عن سؤال عن " ما هو سبب أن البشر يغرقون فى نوع جديد من البربرية بدلا من المشاركة فى حياة إنسانية حقيقة " (١٩) . حيث يذكرنا ذلك بمؤلف شبنجلر Spengler إنحطاط الغرب The Dechine of The Wst . إذ فكر هوركهايمر وأدورنو أيضا فى " ضعف الحضارة البرجوازية " حيث يعتبر كل التشاؤم الذى تغلغل فى فى مؤلف دياليكتيك التنوير رد فعل لهذه المواجهة مع أمريكا وأيضا مع ذروة الغزو النازى لأوروبا .

ومن ثم فقد كان القصد من كتابه (الديالكيتيك) أن يصبح تنظيرا يتجاوز ما هو قائم فى علم الاجتماع وعلم النفس وفلسفة المعرفة ، فمن

ناحية سماه مؤلفوه (الإنثروبولوجيا الجدلية) . ويعنى جدل التنوير تحطيم التنوير لذاته ، أى تحول فلسفة التنوير التى كانت نقدية الى فلسفة تؤكد على الحالة الراهنة . وذلك بالإستناد الى الفلسفات الوضعية والبرجماتية ، فالعملية الجدلية هنا ليست خاصة بهيجل أو ماركس ، ولكنها خاصة بحركة التنوير ، وهى الحركة التى تضم بصورة مبدئية كل التطور التاريخى للحضارة الغربية ، حيث نجد أن هذه العملية تحكمها قضيتان أساسيتان : أن الخرافة تعتبر فعلاً تنويرياً ، وأن التنوير إرتد ليصبح خرافة . وبتعبير المؤلفان " يسير التقدم الذى لا عائق له إلى تراجع لا عائق له " . (٢٠) (١) . وبرغم أن الحرية فى المجتمع قد إرتبطت بصورة لا تنفصل بفكر التنوير . فإن المفهوم وبالمثل متضامنة النظرية قد تضمن نقيضه ، أعنى التراجع Regression الذى يسود اليوم فى كل مكان ، ومن ثم ينبغى أن يتركز البحث على تراجع التنوير الى نوع من الميثولوجيا فى إطار التنوير ذاته . حيثما توازى مع الخوف من الحقيقة " (٢١) . وسنحاول هنا إنتقاء بعض الأمثلة للتوضيح :

حيث يطوق أوديسوس Odysseus " وهو نموذج الانسان البرجوازى " ببراعة قوة الوحوش الأسطورية التى تمثل الإدعاءات المشروعة للعهود الحجرية فيما قبل التاريخ " (٢٢) .

وقد حدد بيكون Bacon برنامج التنوير ، الذى يعنى تحرير العالم بواسطة المعرفة ، التى تسبق التغير أو الحركة . حيث نجده قد أكد أن "

١- يرى مفكروا مدرسة فرانكفورت أنه إذا كان التنوير قد آمن بالتقدم ، وبالعقل الآداتى الذى يطور واقع الانسان ، فإن هذه المبادئ أفرزت التقدم التكنولوجى والمجتمع التكنولوجى ، الذى يعمل على إثراء الحياة المادية للأنسان ، وأن كان يقضى تدريجيا على الجوانب الروحية فيه . بذلك يكون التنوير قد أنتج الحضارة المادية على حساب القضاء التدريجى على الجوانب الروحية التى تمنح الانسان خاصيته الأكثر جوهرية . ومن ثم اعتبر منظروا التنوير أن التقدم الذى لا عائق له والناتج عن التنوير يؤدى الى تراجع لا عائق له على حساب الجوانب الروحية للانسان . " المترجم "

حاكمية Sovereignty البشر تعتبر مبدأ Lieth يكمن فى المعرفة " وبالنسبة لبيكون " يتكون نطاق المعرفة وغايتها وبالمثل وظيفتها فى العمل والفاعلية . وفى إكتشاف الموضوعات التى لم تكشف من قبل وذلك من أجل المساعدة فى تحسين حياة الإنسان إلى الأفضل " (٢٣) حيث يستهدف التكنيك الذى يشكل جوهر هذه المعرفة الى تحقيق المنهج وليس الأفكار أو الحقائق التى تعبر عن بصيرة نافذة . ومن ثم فهى تستبدل المفهوم بالصيغة ، وتحل القاعدة والإحتمالية محل السبب . وتعلن مفاهيم الجوهر والخاصية والوجود بإعتبارها مفاهيم ميتافيزيقية ومن ثم يتم استبعادها من نطاق العلم ، فبالنسبة للتنوير ، يشبه فيما لا يتوافق مع قاعدة الحصر والمنفعة ، بحيث أصبحت وحدة العلوم ممكنة من خلال المنطق الصورى . حيث يشير مؤلف بيكون الى علم عالمى واحد Una Scientia Universalis ، وفى هذا الإطار يسلم التنوير بأن ما يمكن إستيعابه أو التعبير عنه بالوحدة ، هو فقط الذى يعتبر كائنا أو موجودا ، ويعتبر النسق هو التعبير المثالى لذلك . وأصبح العدد هو قانون التنوير فكل ما لا يمكن إرجاعه الى العدد يعتبر خيالا .

وقد أعلن كل من هوركهايمر وأدورنو أن الحرية فى المجتمع – باعتبارها مبدأ أساسيا – لا يمكن أن تنفصل عن فكر التنوير ، وتعجبوا لإستعداد الجماهير المُحير – فى العصر التكنولوجى – للخضوع لسيطرة أى قهر " وهى الفكرة التى تذكرنا بإدانته أورتيجا Ortega للجماهير ، وفى إطار هذه الظروف فإن معنى العلم ، وليس العمل العلمى فقط ، ينبغى أن يكون موضع تساؤل ، حيث أصبح الفكر سلعة وأصبحت اللغة وسيلة للإعلان عنها . وفى هذا الاطار تمنع الميكانزمات الداخلية والخارجية ، التى تستخدمها الرقابة على الفكر ، أى محاولة لمقاومة هذا المسار للأحداث ، وحتى إذا إلتزم المصلح الأمين بقواعد اللعبة ، فإننا نجده بذلك يعمل على دعم قوة النظام القائم فقط ، وهو النظام الذى يعمل على تحطيمه ، وقد كرر هربرت

ماركيوز التأكيد على ذات الموضوع بعد حوالى عشرين عامـــا وذلـــك حينما أكد أنه :

(حتى الحركات التقدمية داخل مجتمع الكتب ، مهددة هى الأخرى بأن تتحول الى نقيضها ، الى الدرجة التى تجد نفسها توافق على قواعد اللعبة التى كان ينبغى أن ترفضـــها ... إذ تســـاعد محاربـــة الحقـــوق السياسية (كحق التصويت ، وكتابة الخطابات الى الصحافـــة ، والـــى النواب فى مجلس الشيوخ ، إلخ ...) فى مجتمع الإدارة الشاملة علـــى تقوية هذه الإدارة عن طريق الشهادة التى تؤكد على وجـــود الحريـــات الديموقراطية ، التى تغير مضمونها فى الحقيقة وفقدت فاعليتها (٢٤)

وقد وفرت الانتاجية الاقتصادية – التى تشكل الشـــروط الملائمـــة لمجتمع أفضل – وسائل القهر بالنسبة لهؤلاء الذين يجدونـــــها متوفـــرة تحت سيطرتهم . حيث يتحول الفرد الى نوع من العدم Nothingness فى مواجهة القوى الاقتصادية الهائلة . علـــى هـــذا النحـــو أصبحـــت التكنولوجيا هى وسيلة التشيؤ الكلى فى المجتمع الرأسمالى . فبالاضافـــة الى إستخدام النازية الوحشى لها ، وهو الاستخدام الذى جعل منظـــرى فرانكفورت يصلوا الى نتيجة أن " الرعب والحضارة لا ينفصلان " ... إذ أنه من المستحيل أن نقضى على الرعب ونستبقى الحضارة " (٢٥) فنظام اليوم لا يتمثل فى الحفاظ على الماضى أو صيانته ، ولكنه يمثـــل استعادة آمال الماضى .

ويكمن الجزء الثانى فى النطاق الذى يعتبر فيه الوعـــى العقلانـــى الحديث بالإضافة الى الضرورة الجدلية باعتبارهـــا النتيجـــة النهائيـــة للحضارة نوعاً من " العودة الى رعب الطبيعة " . وفى هـــذا الاطـــار يشار الى كل من المـــاركيز دى ســـاد Marquis de sade ونيتشـــه Nietzsche باعتبارهما أمثلة لهذا الوعى ، حيث يتجه الدافع الى القـــوة عند الأول الى الطغيان . بينما يعتبر جوستين وجولييت Justine and

Juliette بالنسبة لدى ساد – الأسلاف الأول لثقافة الجملة فـى القـرن العشرين – " القمة الهومرية بغطائها الميثولوجى الذى كشف أخـيرا " (٢٦) . وعلى توازى مع ثقافة الجملة ووسائل الاتصال الجمـاهيرى قدم أدورنو وهوركهايمر " صناعة الثقافة " بإعتبارها المرحلة التى دخل فيها دياليكيتيك التنوير مرحلة الخداع الجماهيرى . واستنادا الى المسلمة الماركسية الرئيسية التى تؤكد " أن الطبقة التى تمتلك وسـائل الانتـاج المادى تحت سيطرتها ، فإنها التى تسيطر فى ذات الوقت على وسـائل الانتاج العقلى " فى هذا الصدد فإننا نلاحظ أن كلا مـن هوركـهايمر وأدورنو يناقشان الدور المنحدر أو المـهدئ لوسـائل الاعـلام علـى المستوى التأملى بدرجة أكثر منه على المستوى التحليلى . فإذا أخذنـا فى الاعتبار أن مناقشتهما هذه قد سبقت عصر انتشار التليفزيون ، فإنـه على أى منا أن يسلم بالبصيرة النافذة والقدرة التنبوئيـة العاليـة التـى توفرت لهذين المفكرين إذ تحقق اندماج الثقافة والتسلية ، بحيث كان هذا الاندماج على حساب الأولى ، وذلك من خلال الإنتاج وإعادة الانتـاج بصورة ميكانيكية ، فى نطاق وسائل الاعلام التجارية والحكومية .

ويوحى الجزء الأخير المتعلق " بعناصر النزعة المضادة للسامية " بأن جنون عظمة التنوير قد وصل إلى ذروته فـى النزعـة المضـادة للسامية – antisemitism ، حيث أضيفت الأقوال المأثورة والمتفـق عليها الى فلسفة التاريخ المتطرفة فى تشاؤمها . إذ كان علـى فلسـفة التاريخ أن توضح لنا كيف تمكنت السيطرة الرشيدة على الطبيعة اليـوم من النجاح بصورة مطردة . ومن هذا الموقف أيضا ظـهرت أشـكال الاقتصاد وقواعد الثقافة " (٢٧) . ومن ثم تعتبر هذه النتيجة إنذارا من ناحية وتسليما من ناحية أخرى فقد :

(نجحت الفاشية اليوم فى ألمانيا بسبب الكراهية الشديدة للغربـاء ، وأيضا بسبب الأيديولوجا الجماعية المضـادة للثقافـة . والآن نجدهـا

تفرض الضياع على العالم بكامله ، ومن ثم فعلى الأمم أن تناضل ضدها ، وليس هناك طريقا آخر غير ذلك (١) . غير أنه عندما ينتهى كل شئ ، فليس هناك ما يمكن الاستناد إليه للتأكيد على أن روح الحرية سوف تنتشر عبر أوروبا ، فقد تصبح الأمم الأوروبية على كراهية للأجانب ، تسودها جماعية زائفة ، ومعادية للثقافة مثلما كانت الفاشية حينما كان عليهم أن يحاربوها ، فقد لايؤدى السقوط المفاجئ للفاشية بالضرورة الى حركة من الانهيار السريع) (٢٨) .

٤- خسوف العقل ، العقل الذاتى والموضوعى

يعبر مؤلف " خسوف العقل " الذى صدر فى عام ١٩٤٦ عن روح العصر Zeitgeist بالنسبة لكل من هوركهايمر وأدورنو ، وهو يعنى شعورا شاملا بالخوف والتحرر من الوهم ، وذلك بسبب تبدد الأمل فى أن يكون الفرد قادرا على مقاومة جهاز مطلق القوة ، يمتلك قدرا متزايدا من التحكم الشامل . إذ خشى هوركهايمر من إمكانية أن تقود هذه التطورات " الى عودة الظهور المنتصر للبربرية الجديدة ، التى هزمت أخيرا فى ميادين القتال " (٢٩) . إذ يعتبر هذا العصر عصر خسوف العقل " الموضوعى " . إذ تمت المفارقة بين العقل الذاتى subjective والعقل الموضوعى Objective وذلك لأن الأول يؤكد على الوسائل ، أو بالأحرى على التآزر الممكن بين الوسائل والغايات موضع الاهتمام . وقد إعتبر هوركهايمر كلا من الوضعين المحدثين

---

(١) من الواضح أن طلب رواد مدرسة فرانكفورت من العالم النضال ضد الفاشية فى المانيا لم يكن خوفا على العالم ، بل شكل محاولة للدفاع عن الجماعة اليهودية باستخدام العالم وهى عادة فكرة يهودية ، تتمثل فى محاولة تحويل القضية اليهودية الى قضية انسانية عامة ، يصبح العالم – وليس اليهود فقد – فى اطارها ملتزما بالدفاع عنها أو النضال من أجلها ، وهى إستراتيجية يهودية مطلقة ودائمة ومتكررة عبر مختلف مراحل التاريخ " المترجم " .

والبرجمانيين كممثلين للعقل الذاتى . " حيث يعتبر العقل – بالنسبة لهم ملكة عقلية لتأسيس التآزر . وفى هذا الاطار يمكن زيادة كفاءة العقل عن طريق الاستخدام المنهجى ، وأيضا عن طريق القضاء على أية عوامل غير عقلية ، مثل الأحاسيس الشعورية واللاشعورية " (٣٠) . ويعتبر العقل الذاتى عقلا آدائيا ، وذلك لأن قيمته تتحدد بالفائدة العملية التى يمكن أن يقدمها من أجل السيطرة على البشر والطبيعة ، وفقا لمقاييس العقل الذاتى الذى يتميز بالطبيعة الصورية ، حيث يصبح النشاط معقولا إذا تمكن من تحقيق غاية أخرى فى مجال العمل ، الصحة ، او حتى الاسترخاء ، وغير ذلك من المجالات . أما فيما يتعلق بالأعمال الفنية فإن ذاتية العقل وصوريته تتضح باعتبارها تشيؤا ، ينتج عن طريق تحويل كل نتاج النشاط البشرى الى سلع ويعتبر الجهاز الاقتصادى غير المحدد المعالم هو الميكانيزم الذى يحقق هذا التحول .

ويقاس الصدق Truth فى الفلسفة البراجماتية – وهى النموذج المثالى للعقل الذاتى – بالنجاح . " إذ تعتبر الفكرة ، أو المفهوم أو النظرية ، بالنسبة لهذه الفلسفة ، ليست إلا اطاراً أو خطة للفعل . ومن ثم يصبح الصدق أو الحقيقة ليس شيئا سوى نجاح الفكرة " .(٣١) وفى هذا الصدد تعتبر الاحتمالية لهذه وإمكانية الحصر من الأفكار الأساسية ، ويخضع منطق الاحتمال لهذه الحقيقة ، ويعتبر الإثبات والتنبؤ من العناصر الأساسية الأخرى فى الفكر البرجماتى ، فالبرجماتية تعتبر فلسفة المجتمع الذى ليس لديه وقت لكى يتذكر أو يحقق أهدافه بصورة غير مباشرة . واستنادا الى ما هو يؤكده فلهلم أوستوالد Wilhelm Ostwald فإن البرجماتى يذهب الى القول بأن " كل الوقائع تؤثر على ممارساتنا ، حيث يشكل هذا التأثير معنى هذه الوقائع بالنسبة لنا " . وتعتبر النزعة الآدائية imstrumentalism فى مقابل التأمل contemplation المعضلة الأساسية ، أو القضية الفاصلة بالنسبة لهوركهايمر . فهو يسعى من أجل " تأمل ثابت " ظل يمثل دائما

أعلى طموح الانسان (٣٢) . ومن الطبيعى أن يتجه هـــذا الموقــف اتجاها مضادا للماركسية التقليدية . فعلى خلاف ماركس الـــذى انتقــد فيورباخ Feuerbach لكونه يدرك الحقيقة " من خلال التـــأمل فقــط ، وليست باعتبارها نشاطا أو ممارسة إنسانية محسوسة " نجد هوركهايمر يتبنى موقفاً استطلاعيا وتأمليا متطرفا بشأن الحقيقة .

وعلى نقيض العقل الذاتى يؤكد العقل الموضوعى على الغايـــات ، وأيضا على التناغم باعتباره المبدأ الجوهرى للحقيقة " إذ يمكن تحقيـــق درجة معقولية حياة الانسان بحسب مدى إنسجامها أو إتساقها والكليـــة " حيث يشير المصطلح الأخير الى " نسق أو تدرج شامل يحتوى على كل الكائنات بما فيها الانسان وأهدافه " (٣٣) . وقد إستندت كل الانســـاق الفلسفية العظيمة للحضارة الغربية إبتداء من أفلاطون Plato وأرســطو Aristotle وحتى الفلسفة الألمانية الى النظرية الموضوعيـــة للعقــل . بالاضافة الى ذلك فلم يكن النموذجين المتميزين للعقل منفصلان دائمـــا كل عن الآخر ، حيث تحققت سيادة أحدهما على الآخـــر علـــى مـــدى العملية التاريخية ، إذ أصبح العقل صوريا وذاتيا وحيث تستخدم فـــى الغالب ذاتية العقل وصوريته بصورة متبادلة . (فالعقل " الموضوعى " لهوركهايمر بتأكيده على الغايات يحتوى بالضرورة على الأحكام الذاتية للقيمة ومن ثم فإصطلاحيته مضللة وغير ملائمة) .

ويكمن بناء العقل الموضوعى نظريا فى الحقيقة وهو فى متنـــاول الفرد " الذى يأخذ على عاتقه عبئ القيام بجهد التفكير الديــالكتيكى ، أو الذى يمتلك بصورة مماثلة نفس قـــدرات أيـــروس Eros إلـــه الحـــب الإغريقى " (٣٤) . ويعتـــبر بـــارمنديس Parmenides – مؤســس الأنطولوجيا – هو أول من ميز بين عالمين ، عالم الجوهر أو الحقيقة ، وعالم الظواهر أو المظاهر ، مثلما ميز أيضا بين أسلوبين لـــلإدراك . أحدهما يعتمد على ما تدركه الحواس فقــط وهــو يــؤدى الـــى ادراك

المظاهر ، بينما المنهج الأخر الأكثر سموا ، لكونه مخصصا للعقل أو الروح ، وهو المنهج الذى يدرك الكائنات أو الذوات . فالأشياء تمتلك خواصا كاللون والشكل والحجم ، غير أن المحمول المشترك بينها يتمثل فى أنها موجودة . وفى هذا الاطار يبدو أن هوركهايمر يميل الى أن يصل الأفكار الأنطولوجية الأساسية لبارمنديس بالجدل باعتباره منهجا لإدراك الذوات . وبالفعل يؤكد الجدل عند أفلاطون أن : (قمة وضوح هذا العالم تتحقق من خلال الحوار الفلسفى الذى يجريه الانسان الذى يطمح فى ذلك ، وهو الحوار الذى يجريه من خلال العقل ... الذى يحدد منهجه ... تجاه الحقيقة الأساسية ، ويواظب عليه ، حتى يمكنه بواسطة الذكاء الحاد أن يستوعب الطبيعة الأساسية للخير ذاته) (٣٥)

وبصورة مبدئية يتوازى فصل هوركهايمر بين العقل الذاتى والموضوعى مع فصل فيبر بين العقلانية الأساسية والصورية . إذ تعنى العقلانية الصورية عند فيبر القدرة الحسابية ، والكفاءة ، والحيادية ، أعنى إرجاع العقلانية الى جانبها الآدائى الصورى . ويعرفها فيبر بالنظر الى الفعل الاقتصادى بقوله : " سوف يسمى نسق النشاط الاقتصادى عقلانيا من الناحية الصورية الى الدرجة التى يتمكن فى إطارها من التعبير عن إشباع الحاجات الأساسية من خلال المصطلحات العددية والحسابية ، ويتم التعبير عنها فعلا " (٣٦) . ومن ناحية أخرى تعتبر العقلانية العينية أو الأساسية Substantive لفيبر " وهو المفهوم الذى له معانى كثيرة " معدلا للعقل الموضوعى عند هوركهايمر حيث يشبه كل التحليلات العينية فى اعتبار واحد : يتمثل فى أنه لا يقنع بالحقيقة الصورية البحتة ، والتى تعنى أن تقدير الفعل أو قياسه يستند الى الحساب العقلانى بواسطة " الوسائل الأكثر ملائمة من الناحية الفنية " . ولكنه يحتوى على مجوعة من المعايير الأخرى التى تتعلق بالغايات النهائية كالمعايير الأخلاقية والسياسية وما أشبه ذلك .

وحسبما يذهب هوركهايمر ، تعتبر الفاشية أقصى ذروة العقلانية الفنية Techncal للمجتمع الرأسمالى البرجوازى ، الذى تراجع فيه التنوير باستدارة جدلية الى البربرية . إذ تشجع الفاشية على تمرد الطبيعة الفردية ، ولكنها تقهر هذا التمرد فى ذات الوقت . حيث تحقق اكتمال كيفى جديد لآدائية العقل instrumentation وصوريته Formalizationn فى اطار الفاشية . ويقدم هوركهايمر قضية إعتبار أن الفاشية تعبر عن التأليف الشيطانى Sanatic بين الطبيعة والعقل الآدائى ، حيث نجده يؤكد : (لقد وصلت العقلانية فى الفاشية الحديثة الى المستوى الذى لم تعد ترضى فى إطاره بالكبح البسيط للطبيعة ، حيث تقوم العقلانية الآن بإستغلال الطبيعة من خلال إندماج امكانيات الطبيعة على التمرد داخل نسقها الخاص . بذلك استطاعت النازية السيطرة على الرغبات المكبوتة للشعب الألمانى) (٣٨) .

وفى هذا الاطار لم يشر هوركهايمر الى أستاذه هيدجر Heidegger بالإسم ، ولكنه كان حاضرا بالتأكيد فى عقله ، ولو كان ذلك بمعنى سلبى . حيث ذكر هيدجر فى محاضراته التى ألقاها فى جامعة فرايبرج Freburg سنة ١٩٣٥ تحت عنوان " مقدمة فى الميتافيزيقا " الحركة الاشتراكية القومية ، بإعتبارها المواجهة بين التكنولوجيا الشاملة والانسان الحديث " وقد رحب هيدجر بهذه المواجهة باعتبارها شهادة على " عظمة هذه الحركة وجوهرها الداخلى " (٣٩)

تميزت الحضارة الرأسمالية البرجوازية بالسيطرة من خلال ثلاثـة معانى الأول ، السيطرة على الطبيعة الفيزيقية ، والثانى سيطرة الانسان على الانسان ، والثالث ، إخضاع الطبيعة البشرية . بحيث نجد أن هـذه العمليات الثلاث تترابط جوهريا وتاريخيا . إذ تتضمن السيطرة علـــى الطبيعة السيطرة على الانسان . " إذ يعتبر تـــاريخ النشـــاط الانســانى لإخضاع الطبيعة هو أيضا تاريخ إخضاع الانسان للانسان . " (٤٠) وفى الحقيقة ترتبط فكرة فرويد Freud عـــن الحضـــارو والتوتـــرات المرتبطة بها – وهى الفكرة التى تعنى أن الحضارة تستند الـــى كبـــت وتقييد متطلبات الغرائز الانسانية – هنا بالعملية الاجتماعية والتاريخيـة للمجتمع البرجوازى الذى يسعى من أجل الســيطرة علـــى الطبيعـــة ، وحسبما يذهب هوركهايمر مؤكدا : إن كل فرد لا يشارك فى أخضـــاع الطبيعة الخارجية فقط – انسانية كانت أم غير انسانية – ولكنه من أجل أن يفعل ذلك فإن عليه أن يخضع الطبيعة فى ذاته أيضا " (٤١) .

وقد أصبحت كل من فكرة التقدم ، " وتحرير العالم من الوهـــم " – وهما من أفكار التنوير – موضع شك : " طالما أن إخضـــاع الطبيعـــة داخل وخارج الانسان مستمرا بدون أى دافع له معنى ، حيث نجـــد أن الطبيعة فى الحقيقة لا يتم الارتقاء بها أو المصالحة معها ولكنها تكبـــت فقط " (٤٢) . ولم تكن هذه العملية سهلة ، إذ لم يتم ذلـــك بـــدون رد فعل عنيف من قبل الطبيعة الفيزيقية والبشرية ، وقـــد أدت المقاومـــة والتغير الذى نتج عن هذا الكبت للطبيعة الى إقـــلاق الحضـــارة منـــذ تأسيسها . بحيث اتخذ ذلك شكل التمردات الاجتماعية كما اتخذت أحياناً شكل الجرائم الفردية والجنون العقلي " (٤٣) . واليـــوم اســـتخدمت الثورة بحركة جدلية أو بالأحرى أسئ استخدامها بواسطة نفس القـــوى التى اتجهت الثورة مباشرة ضدها أصلا . وهى القوى التى تميل الـــى

السيطرة على الانسان والطبيعة . " مثالا على ذلـك مـا يحـدث فـي عصرنا الحالى حيث تتحكم القوى التى تسيطر على حضارتنا فى هـذه الثورة ، أى تستخدم الثورة كوسيلة لضمان استمرار نفس الظروف التى أدت الى اشتعالها ، والتى اتجهت الثورة مباشرة ضدها " (٤٤) . وفى هذا الصدد تمت الاشارة الى الفاشية باعتبارها الحالة النموذجية فى هـذا الصدد .

حيث تم تحويل ثورة الطبيعة الى ميكانيزم لاسـتمرار الحضـارة " وفى هذا الصدد أشارت الداروينية الى المنطق الذى لا يمكن الفـرار منه لخلق الموقف الثقافى لعصرنا الحاضر (٤٥) . " فبقاء الفـرد أو بالأحرى نجاحه فى مواجهة ضغوط المجتمع يعنى أولا وقبل كل شـئ القدرة التى امتلكها على التكيف . وهى الحالة التى شكلت تاريخيا قـدر الانسانية ، أما اليوم فقد أصبحت هذه القدرة متعمدة وشاملة . فقد أصبح كل جانب من جوانب عمليات الحياة المجتمعيـة معرضـا للتخطيـط والصياغة النظامية ، بما فى ذلك اكثر مجالات حياة الانسان خصوصية حيث استبدلت قوى السوق الحرة والمجهولة فى المجتمـع بـالقرارات الواعية التى تصدرها كيانات كبيرة وصغيرة من بناءات السلطة ، التـى تمتلك امكانيات التخطيط ، وذلك مثل القرارات الفردية المتعمدة لتـأكيد التوافق . وبتعبير جون ديوى John Dewey الـذى يؤكـد أن علـى الانسان أن يضحى بكل طاقاته من أجل أن يكون " داخل حركة الأشياء وناتجا عنها " (٤٦) .

ويفرض الحفاظ على بقاء الذات الفردية ضرورة أن تتكيـف مـع متطلبات الحفاظ على بقاء النسق . وقد عبر علـم الاجتمـاع القـدرى Fatalistic Sociology عند دوركيم عن قضية هوركهايمر هذه منـذ حوالى خمسين عاما . حيث أكد على أن " الفرد يجد نفسه فى مواجهـة قوى تسمو عليه ، وهى القوى التى عليه أن ينحنى أمامـها " (٤٧) .

وقد رحب دوركيم بهذا الموقف ووافق عليه طالما أم سمو المجتمع على الفرد بالنسبة له " ليس فيزيقيا فقط ولكنه ثقافيا وأخلاقيا " (٤٨) .

فضرورة التوافق وجدت دائما ، أما ما هو جديد كيفيا اليوم ، فيتمثل فى درجة هذا التوافق ونطاق انتشاره . ونعنى بالدرجة Tempo سرعة الافعال المنعكسة ، حيث أصبح الحفاظ على بقاء الذات بالنسبة للفرد فى المجتمع الحديث يعتمد على سرعة ردود أفعاله . وحيث يتم التعبير عن الكلية فى نوع من الأنساق " حيث تكتب المؤلفات الصغيرة المتعلقة بأسوب تحسين لغة الحديث ، أو الخاصة بكيف تحافظ على نفسك بنفس أسلوب كتابة المؤلفات التى تمتدح مميزات ملينات الأمعاء " (٤٩) .

لقد أصبح مبدأ السيطرة هو المحبوب الذى ينبغى أن نضحى بكل شئ من أجله ، ويمكن القول بأن التغير التاريخى الذى حدث ، هو التغير الذى يعبر عن الانتقال من السيطرة المستندة الى القوة الوحشية الى سيطرة أكثر خداعا ، وذلك لأنها سيطرة تتم من خلال إستيعاب أوامر السادة كعملية إجتماعية وسيكولوجية . وفى هذا الإطار نجد أن دوركيم قد إفترض أن الترتيب المتدرج للتصورات البدائية العامة يعكس طبيعة التنظيم القبلى السائد ، وهو يعتبر مرآة للعلاقات الاجتماعية (٥٠) . وتعتبر الطبيعة الانسانية النهمة بالنسبة لدوركيم ذات أصل بيولوجى فى النهاية . وهى فى ذلك تشبه الدوافع الداخلية عند فرويد . ومن ثم فعلى المجتمع – وهو الشبيه بالإله ، وهو الذات الأسطورية ، وهو المتجانس من حيث القوة الاقتصادية والسياسية – أن يضع حدا لهذه الحالة غير المستقرة ، وبرغم أن نزعة " الإنسان التى لا حدود لها الى السلطة لا يمكن أن تشبع أبدا بالنسبة لهوركهايمر ، فإن ذلك نظرا لأن لها بعدا إجتماعيا ، وأيضا لأنها ترتبط بتشكيلات إجتماعية وإقتصادية محددة خاصة بالعملية التاريخية ، " وفى الحقيقة فإن نشاط

الانسان لتوسيع نطاق قوته فى إطار مجالين مطلقين – عالمـــه الصغير ، والكون بكامله – لم ينبثق مباشرة من طبيعته الخاصة ولكن من بنـــاء المجتمع بالأساس " (٥١) .

وحسب الفلسفة الطبيعية لكل من هوركهايمر وأدورنو ، فإنه ينبغى على الانسان أن يدفع مقابل سيطرته على الطبيعة عن طريـــق زيـــادة إغترابه عنها (٥٢) . وهذه عملية اجتماعية تاريخية – عجل المجتمع الرأسمالى من فعاليتها خلال فترة حكم البرجوازية . ويعتبر ظهور العلم الحديث ، والتعبير الفلسفى عنه – وهى الحركة التى تسمى بـــالتنوير – فى مجال البناء الفوقى هو الظاهرة المقابلة ، التى تنتمى الى هذه العملية الاجتماعية التاريخية . وقد فسر هوركهايمر وأدورنو ذروة العداء بيـــن الانسان والطبيعة ، وهو العداء الذى بدأ بظهور الفاشية – بإعتبـــارات جدلية – كنوع من انتقام الطبيعة . وإذا كان التنوير قد وجه منذ البدايـــة نحو تحطيم الخرافة " وتحرير العالم من الوهم " فإننا نجد أنه منـــذ أن أصبحت سيطرة الانسان على الطبيعة لها جانبها المجتمعـــى ، والتـــى تتمثل فى سيطرة الانسان على الانسان ، فإن التنوير ذاته قـــد تحـــول بحركة جدلية الى خرافة أخرى ، لأنه يركز على تقديس ما هو قـــائم . وحسبما برهنوا فإنه " كلما أخضعت آليات التفكير الوجـــود لفاعليتـــه ، كلما تم التسليم الواضح بإمكانية إعادة خلق الوجـــود ، وهنـــا يتحـــول التنوير الى علم للخرافة " (٥٣) .

ويتناقض مبدأ السيطرة على الطبيعة مع مبدأ المصالحـــة معـــها . وفى اشارة مقنعة لأحد أقوال ماركس المأثورة ، التى اقتبسناها ســـابقا ، حدد هوركهايمر العلاقة بين ماركس وفلسفة التنوير ، فقد كتب معـــبرا " عن جوهر الحقيقة " أن كل فلسفة تنتهى بالتأكيد الى الوحدة المزعومة بين الطبيعة والروح باعتبارها حقيقة نهائية ، بمعنى القول بـــأن كـــل

فلسفة أحادية تساعد على إثراء فكرة سيطرة الانسان على الطبيعة . (٥٤)

وبهدوء يعلن هوركهايمر أنه لا ينبغى دعم أية ثنائية ديكارتية أو غير ديكارتية " فلن نوافق على إفتراض الثنائية النهائية " . ثم يستمر قائلا أن القطبان المتعارضان لا يمكن إرجاعهما الى مبدأ واحد ، ومن ثم فإنه ينبغى فهم ثنائيتها بإعتبارها نتاجا (تاريخيا) الى حد كبير . وأصبح البحث عن حل يمثل الطريق الثالث بين الأحادية والثنائية يشكل المفتاح الرئيسى لفهم فلسفة هوركهايمر الذى أكد : " تكمن الصعوبة الحقيقة فيما يتعلق بقضية العلاقة بين الروح والطبيعة ، فى رفض التضاد بين هاتين الذاتيتين ، وأيضا فى رفض إرجاع أيهما الى الآخر " (٥٦) . وقد كرر هوركهايمر التأكيد على الازدواجية المنهجية بين العلوم الاجتماعية (الفلسفة الاجتماعية) ، والعلوم الطبيعية . حيث يعمل العلم الطبيعى استنادا الى المعدلات بينما تعيد الفلسفة الاجتماعية إدراك المعانى (١) . فالفيلسوف على ما يذهب هوركهايمر :

لا يستطيع الحديث عن الانسان والحيوان ، والمجتمع والعالم والعقل والفكر مثلما يستطيع العالم الطبيعى أن يتحدث عن المادة الكيمائية ، لأن الفيلسوف لا يمتلك المعادلات . فليست هناك معدلات .

١- يعتبر تأكيد هوركهايمر على فصل العلوم الطبيعية عن العلوم الاجتماعية ثم تأكيده على ضرورة أن تهتم الأخيرة بإدراك معانى الأفعال البشرية ادراكا ذاتيا ، اسمرارا للفلسفة الوجودية من ناحية ، وهى الفلسفة التى تؤكد على ادراك الانسان لعالمه ادراكا ذاتيا ، حتى يؤسس اخياراته فى اطاره . اضافة الى كونها امتدادا للفكر المثالى عند هيجل ، الذى أكد على ادراك معانى الأفعال ، وكيف تعكس هذه المعانى الروح العام أو المطلق . وكذلك مثالية ماكس فيبر الذى أكد على ضرورة أن تهتم العلوم الانسانية أو الاجتماعية بادراك معانى الأفعال كما يدركها البشر المشاركون فى التفاعل الاجتماعى . وهى النزعة المضادة لدعوى علم الاجتماع الكونتى أو الوضعى ، التى أكدت على الادراك الموضوعى للظواهر الاجتماعية من خلال مؤشراتها الخارجية ، تشبها فى ذلك بمنهج إدراك العلوم الطبيعية " المترجم " .

ولكن يكمن الجهد الرئيسى فى الوصف الدقيق لأى من هذه المفـــاهيم ، والكشف عن معناه بكل ظلاله وشبكة علاقاته المتبادلة مـــع المفـــاهيم الأخرى) (٥٧) .

وتعتبر كلمة بكل التداعيات وطبقات المعانى الكامنة فيها – حسـبما يكرر هوركهايمر مرة تلو الأخرى – هى المبدأ الموجه . حيث ينبغـــى اعادة إدراك هذه المتضمنات والحفاظ عليها . وفى هذا الاطـــار يؤكــد هوركهايمر الحاجة " الى منطق هيجل بدلا من المنطـــق الصـــورى ، باعتبار أن المنطق الهيجلى هو منطق – الموضوع مثلما هـــو منطــق الذات – حيث يشكل هذا المنطق نظريـــة شـــاملة تتعلـــق بالمكونـــات والعلاقات الأساسية لكل من المجتمع والطبيعة والتاريخ " (٥٨) .

ومع ذلك فبرغم تأكيد هوركهايمر على " المكونـــــات والعلاقـــات الأساسية لكل من المجتمع والطبيعة والتاريخ " فإننا نجده يحول إنتباهـــه إلى اللغة بإعتبارها الأساس لفهم الظواهر المجتمعية ، حيث تصبح اللغة هى الحقيقة الأساسية للتحليل الإجتماعى ، وليست مجرد أحد جوانـــــب المجتمع ، كما هى الحالة فى مؤلف ماركس الأيديولوجـــــا الألمانيـــة (٥٩) .

ومن المهم للغاية أن ندرك الإتفاق بين إهتمام مدرسة فرانكفـــورت الواضح باللغة ، وبين إهتمام الوضعية المحدثة New – positivism بها ، برغم إختلاف القضايا التى تلقى التأكيد عند كل منهما . ويكتـــب هوركهايمر فى ذلك قائلا " تعتبر الفلسفة هى الجـــهد الواعـــى لربـــط معرفتنا وأفكارنا فى إطار بناء لغوى تسمى فى إطاره الأشياء بأســـمائها الصحيحة " (٦٠) . وبالنسبة لفنجنشـــتين Wittgenstein " تعتـــبر الفلسفة بكاملها نقدا للغة " (٦١) . وعلى نقيض فنجنشتين الذى إهتـــم أساساً ببحث الإتصال واللغة – وإن لم يقتصر على ذلك – مـــن أجـــل

الوصول الى عالم يسوده الحوار الذى يتكون من القضايا الواضحة والمحددة ، نجد أن هوركهايمر فيما يتعلق باللغة يركز على جوانبها العاطفية ، حيث نجده يعلن " أن اللغة تعكس أشواق المقهورين وأزمة الطبيعة " (٦٢) .

ويرفض هوركهايمر الفصل بين الفن والعلم لأن الفلسفة تقف من ناحية مع العلم لكونها تعكس العواطف من خلال نفس اللغة ، ثم تحولها إلى مجال الخبرة والذكاء " (٦٣) . وتشترك اللغة مع الفن فى خاصية التقليد . ومن ثم يدعم هوركهايمر ، على خلاف فنجنشتين ، تحليل اللغة والاستفادة العلمية المحددة منها . حيث كتب هوركهايمر :

(فى الحقيقة ، قد يكون ما يلى هو المنهج الصحيح فى الفلسفة : ألا تقول شيئا بإستثناء ما ينبغى أن يقال ، أعنى قضايا العلم الطبيعى – وكلمة أعنى هذه تعتبر شيئا لا يتصل بالفلسفة – وحينئذ فحينما يرغب أى شخص آخر أن يقول شيئا ميتافيزيقيا ، فإننا نوضح له أنه قد فشل فى اعطاء معنى لبعض الاشارات Signs الكائنة فى قضاياه) (٦٤)

ويمثل هذين الموقفين إتجاهين متميزين فى تطور فلسفة اللغة . وفى هذا الاطار تكمن جزور وجهة نظر هوركهايمر فى اللغة التى تنطلق من النزعة الرومانسية الألمانية ، حيث نجد أن هوركهايمر قد كتب أفكاره فى هذا الصدد متأثرا بالأفكار الإجتماعية والتاريخية الماركسية ، وأيضا بفلسفة اللغة لكارل كراوس Karl Kraus :

(لايمكن أن ننكر على الكلمة المنطوقة ضفتها الجمعية ، وذلك لأن اللغة تعتبر إنعكاسا حقيقيا للبناء الاجتماعى . فتأثير كارل كراوس يتجاوز كونه مجرد هجاءا أو مجادلا عنيفا ، حيث نجد أن الكراهية له هى التى تنكر عليه مكانته كشاعر ، إذ نجد أن كارل كراوس هو الذى

أعطى دفعة لمفهوم علم إجتماع اللغة ، إذ تمثل اللغة وليست العلوم الاجتماعية نقطة البدء بالنسبة له . وقد ساعدت الكتابات التحليلية لكارل كراوس فيما يتعلق باللغة علم الفراسة Physiognomy . إذ يستطيع كارل كراوس بسماعدة اللغة أن يكشف عن الوضعية فى علم إجتماع اللغة ، الذى يؤكد أن المعنى الحقيقى لوجود اللغة يكمن فى كونها وسيلة للاتصال ... ويدرك (كراوس) أن لا إنسانية الانسان تتحقق من خلال الحط من شأن الجُمل والكلمات : وهو يرى أن إنهيار الروح يحدث من خلال التتجير أو النزعة المفرطة فى البحث عن الربح Commercialization وقد أكد ظهور الفاشية تنبوءات كراوس المستندة الى دراساته للكلمة المنطوقة . ويبدو أن الأدوات المتبعة فى علم الاجتماع ليست فعالة أو ماضية بالنسبة لتحليل كراوس للغة . حيث توجد قائمة لا تنفد من الأشياء التى يمكن أن يتعلمها علم اجتماع اللغة من أفكار كارل كراوس . هذا الى جانب أن علم النفس والتحليل النفسى لا يستطيعان تجاهل أفكاره (٦٥) .

٦ - تصورات العلم

من الواضح أن هناك تصورات مختلفة للعلم وللعلاقات بالدين تنتمى الى نموذجى العقل . إذ يعتبر العلم بالنسبة للعقل الذاتى Subjective Rrason عبارة عن مجرد حصر وتنظيم وتصنيف للمعطيات بحيث تصبح هذه العمليات العلمية فى ضوء الانساق الكلاسيكية للعقل الموضوعى Objective Rrason خاضعة للتأمل ، ويتجاهل العقل الذاتى الصراع مع الدين ويسلم بمدخلين مختلفين للإدراك (الإدراك العلمى والإدراك الدينى) . وقد عبر وليام جيمس William James عن ذلك بقوله :

(أنه يمكن تناول العالم بالنظر الى أنساق كثيرة من الأفكار . فالعلم يمنحنا التشخيص السريع والموجز . فهو مثلا يمنع قدرا معينا من الأمراض والوقاية منها ، بينما الدين ، الذى قد يتخذ شكل الصفاء العقلى ، هو الذى يمنحنا قدرا من الهدوء والاتزان الأخلاقى ، والسعادة ، هذا الى جانب أنه يقينا من أمراض معينة كما يفعل العلم) (٦٦) .

وذلك يعنى تراجعا عن الموقف الحاد الذى تبناه فكر التنوير الذى دعم " التنازل الأكثر من جانب الدين لصالح العلم باعتباره السلطة العقلية العليا " (٦٧) (١) . وفى هذا الاطار أكد وليم جيمس على تكامل

١- تعتبر قضية الدين من القضايا الهامة التى إختلفت فيها النظرية النقدية لمدرسة فرنكفورت عن النظرية الماركسية . حيث رأت الأخيرة فى الدين أحد ظواهر البناء الفوقى ، حيث يعبرالدين عن أحد حالات الاغتراب . فالانسان على ما يذهب ماركس هو الذى يخلق الدين وليست القوى الدينية هى التى تخلق الانسان . فالدين فى الحقيقة ليس إلا وعى الانسان بذاته ما دام لم يكتشف ذاته بعد ، أو أنه إكتسفها وإفتقدها ثانية . ذلك لأن الانسان ليس كائنا مجردا يسكن خارج العالم . وانما الانسان هو العالم الانسانى وهو الدولة والمجتمع ومن ثم يصبح الدين هو التحقق المثالى لكينونة الانسان ما دامت هذه الكينونة البشرية لا تمتلك وجودا واقعيا أو احتجاجا على هذه المعاناة . بذلك يصبح الدين هو رمز المخلوق المقهور ، أو عاطفة العالم الذى لا قلب له أو روح الظروف التى لا روح لها ، (أنه أفيون البشر) . على خلاف ذلك نجد أن البعد الدينى واضحا لدى منظرى مدرسة فرانكفورت حيث نجد تعبيرات دينية تتكرر دائما لديهم كتأمل صوفى فى هذا العالم ، والشوق الى الله ، والانتقال الى عالم تنتفى فيه المعاناة ، ويرجع عمق البعد الدينى لديهم الى ثلاثة اعتبارات :

الأول : أن الدين جزءا من البنيه الثقافية ، وقد اهتمت النظرية النقدية لفرانكفورت بالتأكيد على المتغيرات الثقافية كمتغيرات حاكمة لتفاعل المجتمع ، وكان ذلك فى حد ذاته خروجا على الماركسية .

الثانى : أنهم كانوا أكثر تأثرا بأفكار ماكس فيبر الذى منح الدين والقيم الدينية دورا فى قيادة المجتمع وتأسيس النظام الرأسمالى .

الثالث : أنهم كانوا من اليهود ، حيث يلعب الدين دورا محوريا فى حياة الجماعة اليهودية ، سواء فيما يتعلق بالعلاقات بالجماعات الأخرى وهو أساس التحيز ضدهم ، أو فى الحفاظ على استمرار نقاء هذه الجماعة واستمرارها باقية عبر مختلف مراحل التاريخ

أسلوبى التفكير والبحث وذلك حينما أكد على أن " كلا من العلم والدين يعتبران مفاتيح لفتح مغاليق ثروات العالم بالنسبة للإنسان حيث بإمكانه عمليا أن يستخدم أيا منهما " (٦٨) .

ويتضمن العقل الموضوعى الإعتقاد فى أنه يمكن إكتشاف البناء الأساسى والشامل للوجود الى جانب أنه يمكن إستنتاج تصورا لقدر الانسان فيه . وذلك يعنى أن التنوير ما زال يقدم وجهة نظر عالمية وشاملة ، وهى وجهة النظر التى تعتبر مذهبا فى الطبيعة والانسان ، وموجها للسلوك الأخلاقى – " نمط الحياة الصحيح " – وهو بذلك ينجز الوظيفة التى كان يؤديها الدين . وقد إنفصلت أخيرا فروعا عديدة عن الفلسفة ، وبخاصة فرعى المعرفة والأخلاق . وتعتبر فلسفة سبينوزا Spinza مثالا لهذا الموقف الأول الذى يتحالف فى إطاره السلوك الأخلاقى مع البصيرة النافذة فى نطاق الطبيعة . إذ كان على فلسفة القرن السابع عشر أن تحل محل الثيولوجيا ونسقها الشامل ، وذلك عن طريق سعيها لكى تكون " وسيلة إستنتاج وتفسير وكشف لمضمون العقل باعتباره يعكس الطبيعة الجوهرية للأشياء ، ونمط الحياة الصحيح " (٦٩) . فى ذلك الوقت لم تستطيع الكنيسة ولا الأنساق الفلسفية الناشئة أن تفصل الحكمة عن الأخلاق ، عن الدين أو السياسة . وظهر إرتباط بين الأخلاق ونظرية المعرفة ، وهى الحالة التى أشير إليها " بحق العقل وواجبه فى أن يكشف طبيعة الأشياء ، وأن يستنتج الأساليب الصحيحة للنشاط من خلال هذه النظرة الثاقبة " (٧٠) . ونتيجة لذلك وصل الصراع بين الدين والفلسفة الى مأزق ، حيث أصبح كلا من الدين والفلسفة فرعان منفصلان من ذات الثقافة .

ويعتبر تراجع العقل الموضوعى أو التأملى – الذى تصادم فى البداية مع الدين – تطورا موازيا لتكشف فكرة النسبية والتسامح

" المترجم " أنظر فة ذلك ، على ليلة النظرية الاجتماعية المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ٩٣ .

البرجوازى . " فقد نشأ الموقف الذى تحافظ فى إطاره كل منطقة ثقافية على سيادتها بالنظر الى نوع من الصدق الشامل " وقد تلائم هذا التطور لتقسيم العمل فى نطاق الثقافة مع تطور آخر موازى له فى نطاق تقسيم العمل الاجتماعى .

وقد توازت عملية اضعاف المفاهيم الأساسية – كمفهوم العقل – وسلبها حيويتها مع ما حدث فى التاريخ السياسى ، وأيضا ما حدث داخل المشروع العلمى ذاته . ويشير هوركهايمر الى تيار عميق ومستقر من الشك فى العقل (التأملى Speculative) . وفيما يتعلق بالأولى (اضعاف المفاهيم الأساسية) كما عبر عن ذلك جون دنكسون John Dickinson من بنسلفانيا فى ميثاق الدستور الأمريكى لعام ١٧٨٧ بقوله : " ينبغى أن تكون التجربة هى الموجه الوحيد لنا ، فقد يضللنا العقل " (٧١) . وللتأكيد ، فإننا نجد أن هذه الفكرة تتناقض مع أكثر الافتراضات التأملية لكل من لوك Locke وروسو Rousseau . هذا الى جانب أنها تتناقض مع فكرتهما التى تذهب الى القول " بوجود نفس الجوهر الروحى أو الوعى الأخلاقى فى بناء كل إنسان " . وقد قادت البصيرة العقلانية النافذة – وليس الدليل الإمبيريقى الممكن اثباته جون لوك الى الاعتقاد بأن البشر " بالطبيعة أحرار ومستقلين ومتساويين " .

وعى النقيض استمر دور التجربة باعتبارها الخبرة الوحيدة المشروعة فى اطار الفكر البرجماتى ، ابتداء من بيرس Pierce وحتى جون ديوى Dewey . ولقد دفع بيرس ، مؤسس المدرسة البرجماتية هذا الموضوع شوطا بعيدا حينما أكد على أن " المنهج التجريبى الذى وصلت بواسطته العلوم الناجحة الى درجة عالية من التأكيد " يعتبر هو المنهج الملائم للفلاسفة . وبالنسبة لجون ديوى نجد نفس الوقف حيث " يعتبر التجريب الفعال أساسى من أجل التحقق والإثبات " (٧٣) .

وقد أدى افتقاد استقلال المشروع العقلى الى وضع تتشكل فى اطاره كل فروع الثقافة بعد انتاجها على خط التجميع . " وأصبح من الضرورى أن يقيم الفكر بواسطة شئ ليس فكرى ، أى أن يقيم بمدى تأثيره على الانتاج أو على السلوك الاجتماعى . كما أصبح الفن يقاس فى النهاية – فى أيامنا فى كل دقائقه – بوسيلة ليست فنية ، أعنى بواسطة شباك التذاكر أو القيمة الدعائية " (٧٤) . وأصبح الطابع العملى هو الذى يصبغ العقل ، ويحدد دوره بإعتباره وسيلة للسيطرة على الانسان والطبيعة فقط . أصبحت العملية الإجتماعية تقيد العقل بصورة كاملة .

٧ – نحو " فلسفة طبيعية " جديدة :

يمكن أن توصف الفلسفة العامة للعلم عند هوركهايمر بدرجة أكثر ملائمة بإعتبارها فلسفة طبيعية جديدة New Natur philosophie ، وقد ظهرت فلسفة الطبيعة الألمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كرد فعل لفلسفات العلم المادية ، والنزعة الميكانيكية الفرنسية المعاصرة . هذا الى جانب أنها تشكل بالأساس رد فعل لفلسفات كل من ديكارت Descartes ونيوتن Newton حيث كانت المادة فى حالة الحركة إلى جانب المماثلة بالآلة هما المبدأين الأساسيين ، والذى بالنظر إليهما يجب تفسير طريقة عمل الكون Universe والعقل الانسانى . وفى هذا الاطار تم إعتبار الثنائية الديكارتية المتعلقة بالعقل والجسم أو الثنائية المتعلقة بعالم الروح وعالم المادة ، مبادئ تفسيرية غير كافية بالنسبة للمفكرين الألمان ، وحسبما عبر جوته عن ذلك قائلا :

(لقد تم اعلان نسق الطبيعة ، ومن ثم فنحن نأمل أن نتعلم فى الحقيقة أى شئ يتعلق بالطبيعة ، التى تشكل فى الحقيقة معبودنا Our

idol ، وبرغم ذلك يتزايد كم الفراغ والخواء الذى نشعر به فى منتصف ليل كئيب ملحد ، تختفى فيه الأرض بكل خيالاتها والسماء بكل نجومها) (٧٥) .

وقد حاول هوركهايمر أن يؤسس نوعا من التكامل بين فلسفته الطبيعية من ناحية وبين نظرية التحليل النفسى الفرويدية من ناحية أخرى ، وأن يضيف اليهما بعدا تأمليا سوسيولوجيا وتاريخيا . وذلك على أمل أن يصل الانسان الى فلسفة شاملة للتاريخ ، أو الى امكانية الوصول الى نظرية شاملة لكل جوانب المجتمع ، نظرية قادرة على تفسير كل جوانب المجتمع الصناعىالحديث بما فى ذلك الفاشية Fascism كحالة أكثر تطرفا وناتجة عنه . وتعتبر كتابات كل من هوركهايمر وأدورنو اللذان كتباها بالاشتراك فى منتصف الأربعينيات من هذا القرن نتاجا لهذا الجهد .

ويؤكد هوركهايمر أن على " الفلسفة " أن تتولى صياغة مفهوم العلم بالطريقة التى يمكن بها التعبير عن المقاومة الانسانية للتهديد بالانتكاسة الى الميثولوجيا والجنون " (٧٦) . غير أن مسألة من الذى عليه أن يتولى صياغة القواعد الجديدة ، والمناهج الجديدة لهذا العلم وكيف ينجز هذا العلم مهمته ، كلها قضايا تركت غير واضحة ، باستثناء القول بأن العلم عند نقطة معينة قد يستمر بصورة مقنعة الى ما هو أبعد من منهج التجريب . وفى الحقيقة كان المنهج التجريبى هو الموضوع الأساسى فى مواجهة التأمل ، وهو الموضوع الذى اقتصر على العلم منذ وقت طويل . وقد أنب هوركهايمر الوضعيين المحدثين لأنهم :

(لم يهتموا بإسناد معرفتهم بالمناهج العلمية كالتجريب الى الحدس، أو الى أى مبدأ آخر يمكن أن يتناقض مع العلم طالما أن العلم أصبح يمارس بنجاح ويلقى قبولا اجتماعيا) (٧٧) .

ولا يوافق العلم على اسناد المنهج العلمى كلية الى الحدس ، لأن الحدس – باعتباره المرحلة الأولى فى المنهج العلمى – لابد أن نتبعه بقدر من التحقق والاثبات ، وهى قاعدة علمية تلقى قبولاً واتفاقا ، ومن ثم فإنه يتم رفض الحدس الفلسفى بدون اختبار صدقه .

ويبدو ان " التفكير النقدى " يحتل حجر الزاوية فى العلم كما يتصور ذلك هوركهايمر ويعنى ذلك " أن نرى من خلال فكرة الحقيقة ذاتها " ويؤكد هوركهايمر بأن الحقائق التى يتم التحقق منها بواسطة المناهج الكمية ليست إلا ظواهر سطحية ، تزيد الحقيقة الكامنة غموضا أكثر من توضيحها . وينحدر هذا الموقف ثانية الى الفكرة الهيجيلية التى تفرق بين الجوهر والمظهر . وبالمثل يرفض هوركهايمر اتحاد المعرفة بالعلم ، باعتبار أن المعرفة تعتبر نوعا من النزعة الاسنادية المبسطة ، هذا الى جانب أن هذا الاتحاد يجعل العلم خادما لجهاز الانتاج القائم ، حيث تعتبر مضامين العلم ومناهجه ومقولاته نواتج مجتمعية فى النهاية ، ومن ثم فهى لا يمكن أن تصبح مقولات مطلقة .

ويعتبر العلم الحديث بنزوعه الى التخصص المطرد ، وظهور المجتمع الرأسمالى المصاحب له ، هذا الى جانب نزعته الى تقسيم العمل نتيجة لافتقاد الكلية Totality ، وهى الكلية التى صاغها فى الأصل الإغريق القدماء ، ثم إستمرت من خلال كلية العصور الوسطى، وهى التى ما زالت حاضرة فى عصر التنوير ، ويعتبر هوركهايمر هو الأخير فى طابور المفكرين الألمان الذين لديهم حنينا الى الكلية المفقودة ، والذين نعوا تفتت Fargmentation الانسان لدراسته

بواسطة مناهج العلم الحديث . وبصورة عامة استمر الاعجاب بالثقافة الإغريقية ، والكلية والتناغم الذى قال بهما الأغريق بصفة خاصة خلال الفكر الانسانى الكلاسيكى للثقافة الألمانية ، كما تمثل ذلك فى أعمال فنكلمان Winckelman وجوته Goethe ، وشيلر Schiller وفريدرش شليجل Friedrich Schlegel ، وماركس Marx ولوكاش Lukacs الهنغارى ، الذى تدرب على الفكر الألمانى ، وقد كتب والتر ريم عن " عنصر التراث الأغريقى فى الثقافة الألمانية " Driechentum der Deutschen أنه من المحتمل الإعتقاد بدرجة كبيرة فى صحة أن الثقافة الاغريقية شكلت ديانة الألمان لفترة طويلة من الزمن أو على الأقل كانت بديلا للدين " بالنسبة لهم (٧٩) . وقد نظر الشاعر شيلر ، وكأنه يتوقع أفكار علم الاجتماع المعرفة الحديث ، الى المهنة بإعتبارها المقولة الوحيدة الأكثر اهمية فى تشكيل تفكير الانسان، ولو كان بطريقة سلبية وبتعبير شيلر " أنه نظرا لكون الانسان مشدودا أبدا لجزء صغير واحد فقط من الكل ، فإنه بدوره ينمو لكى يصبح هو الآخر جزءا ... وبدلا من أن يطبع الانسان طبيعته الانسانية على الطبيعة المحيطة نجد أن مهنته هى التى انطبعت عليه " . (٨٠) وقد وضع ماركس – مستندا فى ذلك الى من سبقوه – القضية فى اطار عملية الانتاج فى المجتمع الرأسمالى ، كما إتضح ذلك من نظريته عن الاغتراب فى مؤلفه مخطوطات باريس Paris Manuscripts المنشور فى عام ١٨٤٤ [١] .

١- تقترب هذه الحالة كثيرا من أحدى حالات الاغتراب التى صورها كارل ماركس . حيث يغترب العامل فى اطار وظيفه العمل ذاتها فإذا كان ناتج العمل هو الاغتراب فإن الانتاج نفسه ينبغى أن يكون اغترابا نشطا أو نشاطا مغتربا . حيث لا تقدم وظيفة العمل أية إشباعات جوهرية تجعل من الممكن للعامل أن يطور أو ينمى قدراته العقلية والفيزيقية بحرية ، ما دام العمل مفروضا بواسطة الظروف الخارجية القاهرة وحدها ، حيث يصبح العمل وسيلة لغاية فى ذاته . فالعمل فى شكله الصحيح يعتبر وسيطا يستخدمه الانسان فى تحقيق ذاته على النحو الصحيح وفى سبيل تنمية ملكاته كاملة . ومن الواجب أن يكون الهدف من الاستخدام الواعى لقوى الطبيعة هو إرضاؤه وامتاعه . أما فى صورته الراهنة

وبإندلاع كارثة الحرب العالمية الأولى ، وبعد أكثر من نصف قرن من النسيان برزت المشكلة من جديد بالنسبة للمفكرين . وفى هذا الاطار كتب لزكاش عن الاغريق قبل اعتناقه الماركسية قائلا :

(بالنسبة لنا ، لقد تحطمت الدائرة التى يشكل الجوهر الترتسندنتالى لحياتهم طلبيعتها الأساسية " (٨١) .

٨- الهجوم على " النزعة العمليـــــة

من الصعب أن نفصل فى بعض الأحيان ، فلسفات العلم عند كـــل من الوضعية المحدثة والبرجماتية ، عن " النزعة العلمية " الصريحة فقد جمع هوركهايمر فى هجومه على إتجاهـــات فلســفة العلــم المتماثلــة والمتنوعة ، كلا من سيدنى هوك Sidney Hook وإيرنســت نــاجل Ernest Nagel وجون ديوى John Dewey مع بعضهم وســـماهم " بالوضعيين " (٨٢) . وفى مثل هذا التمييز الواضح يصبح ماكس فيبر وهو الذى أسس علم اجتمـــاع التفـــهم Sociology of Verstehen وضعيا قحا . بل إننا نجد أن النزعة العملية البســيط لــهوك ، وهـــى النزعة التى تفسر أزمات العصر " بالقيود المفروضة على العلم " تميـل الى أن تصبح موضع نقد . وإلى حد كبير فإنه من المشــكوك فيــه أن يكون هوركهايمر مستنداً إلى أرض صلبة حينما هاجم هـــوك بســبب إعادة تأكيده على الفصل الشائع بين القضايـــا العلميـــة مـــن ناحيـــة ، والقضايا غير العملية من ناحية أخرى . حيث تستند الأولى الى منـــهج إمكانية التحقق العام من صدقها ، بينما تفتقر الأخيرة الى ذلك . وفـــى هذا الإطار فإننا ينبغى أن نتسائل عن مدى صدق إتهامه لمناوئيه فيمـــا

فإنه يشكل كل الملكات الانسانية ويحول دون اشـــباعها . فالعـــامل لا يؤكـــد ماهيتـــه= بل يناقضها ، وبدلا من أن ينمى طاقاته الجسمية والذهنية الحرة ، يكبت جســـمه ويدمـــر ذهنه . " المترجم "

يتعلق بتأكيدهم أنه " بدلا من الاعتراض على انجاز البحـــث بصـــورة أوتوماتيكية كما تفعل الآلة ، فإنه فيما يتعلق بأسلوب الكشف عن الحقيقة أو للتحقق من صدقها ، وتصنيعها ، إلــخ ... والتفكـــير فـــى معناهـــا وعلاقتها بما هو حقيقى ، فإننا نجد أن الوضعيون يكــررون أن العلــم يتحقق عن طريق الملاحظة والوصف الدقيق من أسلوب آدائه لوظيفته " (٨٣) .

وفى هذا الصدد ينبغى نقد علم اجتماع وفلسفة علم النظرية النقديـة بالنظر الى اعتبارين مترابطين . وفيما يتعلق بالاعتبار الأول ، نحـــن نجد أن النظرية النقدية تسئ فهم المنطق الداخلى للتطورات العلمية التى حدثت فى مختلف المراحل التاريخية . ففى عبارة إنجلز الشهيرة " أنــه إذا كان لدى المجتمع حاجة فنية ، فإن هذه الحاجة سوف تساعد علـــى تقدم العلم الى الأمام أكثر مما يمكن أن تفعله عشر جامعات " فى هـــذا الاطار نجد أن إنجلز قد بالغ فى تقدير فاعلية الحاجة المجتمعية . وقـــد شرع هوركهايمر فى تبنى هذا الموقف الخـــارجى Exlernal ، وهـــو الموقف الذى ينسب كل خصائص العلم الحديث (الاستعانة بالرياضـــة والمنطق الرمزى ، والمنهج التجريبى ، والاتفاق الديموقراطـــى بيـــن العلماء) الى عوامل خارجية ، وهي العوامل التى تتمثل فـــى ظـــهور المجتمع البرجوازى ، والدافع البرجوازى من أجـــل السـيطرة علـــى الانسان والطبيعة وقهرهما ، ويسلم علم الاجتماع الحديث وتاريخ العلــم بالتفاعل المتبادل بين العوامل الخارجية (المجتمعية) والعوامل الداخلية (المنطق الداخلى) فى نمو العلم . (٨٤) .

وثانيا ، تنحرف النظرية النقدية عن كلاسيكيات الماركسية لــترتد الى نزعة بسيطة مضادة للعلم . وحسبما هو معروف فقد تتلمذ مــاركس وإنجلز مدى حياتهما على العلوم الطبيعية . وفيما يتعلق بتقسيم العمـــل بين هذين الباحثين ، كان إنجلز هو الذى كرس سنوات طويلة من حياته

فى دارسة متعمقة للطبيعة والكيمياء والبيولوجيا حينما كتب مؤلف بعنوان (أنتى دهرنج Anti Duhring) ، فى حين كان ماركس يؤلف كتابه رأس المال Das kapital ، وقد ساعد هذا التقسيم للعمل كثير من الباحثين فى العلم الماركسى على المقابلة بين إنجاز الاثنين ، وفى هذا الاطار لفتت الدراسات الحديثة الانتباه الى حقيقية أن المخطوطات الكبيرة التى إكتشفت حديثا لماركس تؤكد أن ماركس قد درس بجدية أيضا العلوم الطبيعية التى كانت شائعة فى عصره ، كالطبيعة والجيلوجيا وذلك فى خمسينات القرن التاسع عشر ، واستمر فى إنجاز ذلك خلال عقدى السبعينات والثمانينات من هذا القرن . وقد نشر معهد اللينينية – الماركسية فى موسكو حوالى ألف صفحة من مخطوطات ماركس عن الرياضة . (٨٥) وعلى هذا النحو لاتشترك النظرية النقدية فيما يتعلق بميلها المعادى للرياضة مع الماركسية ، حيث تكمن جذور هذا الميل أساسا فى الإتجاه الفكرى الذى جمع بين التيارات العقلية الألمانية المضادة للعلم .

وحسبما ناقشنا فى هذا الفصل ، اهتم هوركهايمر بالتوفيق بين الانسان والطبيعة . وينبغى ملاحظة أن كلا من الإتجاهين الفلسفيين المختلفين قد وُجدا مع بعضهما البعض فى اطار الحضارات الغربية والشرقية على السواء . وبينما إستهدف الأول المصالحة بين الانسان والطبيعة ، استهدف الثانى سيطرة الانسان على الطبيعة . هذا وقد إستمرت فكرة السيطرة على الطبيعة فى الفكر الصينى ابتداء من هسن تسو Hsun Tzu (فى القرن الثالث قبل الميلاد) وحتى ماوتسى تونج Mao Tse Tung . وفى هذا الاطار نجد أن المفكر الكونفشيوسى هسن تسو قد طالب بإلحاح بالعمل من أجل السيطرة على الطبيعة ، وذلك من خلال قوله

أنت تمجد الطبيعة وتتأمل فيها

فلماذا لا نستأنسها وتنظمها ؟
أنت تطيع الطبيعة وتنشدها المديح
فلماذا لا تسيطر عليها وتستفيد منها ؟
أنت تتابع الفصول وتنتظرها بنوع من الاهتمام
فلماذا لا تستجيب لها بنشاطات موسمية ؟
أنت تعتمد على الأشياء وتدهش لها
فلماذا لا تكشف عن قدراتك وتحول طبيعتها ؟
أنت تفكر فيما يجعل الشئ شيئا
فلماذا لا تنظم الأشياء التى لم تستنفدها ؟
أنت تبحث سدي عن أسباب الأشياء
فلماذا لا تستولى على ماتنتجه وتستمتع به ؟
إننى أقول أننا إذا أهملنا الانسان وتأملنا فى الطبيعة ، فإن ذلك يعنى أننا نسئ فهم حقائق الكون .

وبعبارة نيدهام Needham " لقد وجه هسن تسو ضربة الى العلم بتأكيده كثيرا وبإلحاح على السياق الاجتماعى " (٨٦) . وقد عبر ماوتسى تونج الشاعر الضليع عن نفس الفكرة بلغة نثرية مسجوعة :

(يعتبر العلم الطبيعى أحد اسلحة الانسان فى نضاله من أجل الحرية ، فمن أجل هدف الحصول على الحرية فى المجتمع ، فإن على الانسان أن يستفيد من العلم الاجتماعى من أجل أن يفهم المجتمع ومن ثم يغيره ، وأيضا لكى يشعل الثورة الاجتماعية ، ومن أجل الحصول على الحرية فى عالم الطبيعة ، فإن على الانسان أن يستفيد من العلم الطبيعى ، لكى يفهم الطبيعة ويغزوها ويغيرها ، ومن ثم يحصل على حريته من الطبيعة) .

وبإيجاز يبدو أن نقد النظرية النقدية الشامل للتكنولوجيا والعلم الحديث ، بإعتباره صورة حديثة لعواطف الفلسفة المثالية الألماني

المضادة للعلم ، يلبس قناعا بإعتبار أن هذه النظرية تعتبر فى الحقيقة نقدا للمجتمع الرأسمالى البرجوازى . وهى بذلك تقدم موقفا يغترب تماما عن المنطق الماركسى . إذ يعتبر ماركس التطور الرأسمالى ، ونمو الصناعات الكبيرة المستندة الى التكنولوجيا خطوة ضرورية فى اتجاه الاشتراكية بسبب آثارها السلبية المصاحبة . كالاستغلال والعمل المأجور ، والاغتراب المتزايد وإفقار Verelendung البروليتاريا . ومن خلال هذا التطور وبخاصة ما يرتبط بالزيادة الملحوظة لقوى الانتاج ، وزيادة انتاجية العامل ، تتخلق الشروط المادية الضرورية لتحرير النوع الانسانى . ويمثل اختفاء الحدود القومية والمحلية ، وتخلق السوق العالمى بعض الجوانب الأخرى للمجتمع الرأسمالى البرجوازى المنتصر [1] . الذى تعتبر التكنولوجيا بالنسبة له – وبالتالى العلم التطبيقى – أحدى القوى الأساسية الدافعة . وحسبما عبر كارل ماركس وإنجلز عن ذلك فى البيان الشيوعى قائلا : " أن البرجوازية لا يمكن أن توجد بدون التثوير الدائم لأدوات الانتاج وبالتالى علاقات الانتاج ، وكل علاقات المجتمع " (٨٨) . فهم قد إمتدحوا كثيرا السعى المنتصر للتقدم التكنولوجى : (تدفع البرجوازية عن طريق التحسين السريع لكل وسائل الانتاج ، وأيضا بواسطة تيسير وسائل الاتصال الهائلة ، كل الأمم – وحتى أكثرها بربرية – الى نطاق الحضارة . فهى

١- يلاحظ تأثير السياق الاجتماعى والانتماء الطبقى لمنظرى مدرسة فرانكفورت على مقولات نظريتهم الاجتماعية . فإنتماؤهم الى البرجوازية وعشقهم للمجتمع الرأسمالى الديموقراطى ، جعلهم يؤكدون دائما على الفعالية الهائلة للمجتمع الرأسمالى المنتصر ، الذى سوف يؤسس وحدة العالم على أساس من التكنولوجيا ، وهو الأمر الذى دفعهم أيضا الى التأكيد على الدور التاريخى للبرجوازية مستشهدين ببعض أقوال ماركس الذى قال بصدق هذا الدور بالنظر الى سياق تاريخى معين . فى حين ترى النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت توسيع هذا الدور ليصبح دورا تاريخيا فاعليته مستمرة فى كل المراحل التاريخية ، ومن ثم اسبعدت النظرية النقدية كافة التطورات المتعلقة بالمجتمع الشيوعى لإعتبار أن المجتمع الرأسمالى الديموقراطى هو الأكثر كفاءة فى تحقيق= امكانيات الانسان " المترجم "

قد خلقت المدن الكبيرة ، وهى التى ساعدت على زيادة سكان الحضر إذا قورنوا بسكان الريف . فهى على هذا النحو قد أنقذت قدرا وضاحا من السكان من بلاهة الحياة الريفية) (٨٩) [١] .

وقد تحددت التناقضات الأساسية بالنسبة لماركس فى تناقضين أساسيين . ألأول التناقض بين قوى وعلاقات الانتاج والثانى التناقض بين الانتاج الاجتماعى والتملك الخاص . وبالتالى فإن على قوى التحرير أن تظهر ، وينبغى أن يفسر ظهورها من خلال التحليل العلمى للمجتمع الرأسمالى .

وفى هذا الاطار سوف تقفز الى أذهاننا رؤية كارل ماركس للانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية باعتباره يعبر عن السلوك الثورى الواعى للبروليتاريا ، التى تتولى القضاء على الجهاز السياسى لآلية الدولة الرأسمالية ، ومن خلال ذلك فهى تستولى على الجهاز التكنولوجى ، ووسائل الانتاج وتصبغها بالطابع الاجتماعى . ويمثل هذا السلوك الأخير عنصر الاستمرارية التاريخية . استمرارية العقلانية التكنولوجية ، وتحررها من الروابط اللاعقلانية ، وترشيد تطويرها غير المحدود ، وتكشفها فى المجتمع الجديد . ولا توافق مدرسة فرانكفورت على وجهة النظر هذه ، وترى أن جذور الشر تكمن فى الجهاز التكنولوجى . إذ تمثل التكنولوجيا بالنسبة لمدرسة فرانكفورت وسيلة

١- تعبر بعض الأفكار النظرية لمدرسة فرانكفورت فى كثير من أفكارها عن خصوصية الموقف اليهودى ، فإذا كان اليهود يعانون من مشاعر تحيز الآخرين ضد الجماعة اليهودية المحددة المعالم ، استطعنا أن نفهم لماذا يرفع منظروا مدرسة فرانكفورت شعار خلق النظام العالمى على أساس من اختفاء الحدود القومية والمحلية بين الجماعات ، ومن خلال ذلك تحدث عملية التحرير العالمى لليهود . بالاضافة الى ذلك أضمرت أفكار فرانكفورت كراهية للحياة الريفية وشجعت الانتقال الى حياة الحضر والمدنية ، وذلك باعتبار أن الحضر والمدنية هى السياق الاجتماعى المفضل لليهود ، أولا بسبب امتهانهم مهنا حضرية أساسا كالتجارة والصناعة ، أو بسبب الحياة الفردية التى تسودها ، والتى = = تساعد على اسقاط الحدود بين الجماعات لإلغاءها الجماعية ، وهو التفاعل الملائم لظروف الجماعات اليهودية ومشاعر التحيز ضدها " المترجم "

(أداة) التشييئ Medium Verdinglichung ، إذ لا يمكـــن فصـــل الحضارة عن الاستخدام الشيطانى للعلم . وفى هذا الاطار كتب كل مـن هوركهايمر وأدورنو فى مؤلف دياليكتيك التنوير The Dialektik der Auufkarung أنه " لا يمكن فصل الرعـــب عـــن الحضـــارة ، إذ لا يستيطع الانسان القضاء على الرعب واستبقاء الحضارة " (٩٠) .

ويعتبر الموضوع الأساسى هنا – إذا استخدمنا عبارة فرانكفـــورت الأخاذة – هو أن نعزف عن الفعـــل ، وأن نعطـــى الأولويـــة لتمجيـــد الفكر والفتكير . وحسبما يؤكد هوركهايمر بأن " **العقل** " :

(يستطيع أن يحقق معقوليته من خلال التفكير فى مرض هذا العالم كما ينتجه الانسان ويعيد انتاجه ، وفى اطار هذا النوع من النقد الذاتى ، فإن العقل سوف يكون فى نفس الوقت أمينا مع ذاته ، وذلك من خـــلال محافظته على مبدأ الصدق وتطبيقه ، وهو الأمر الذى ندين به للعقـــل فقط وليس لأى دافع خفى آخر) (٩١) .

ويتمثل إلغاء الاغتراب بالنسبة لماركس فى القضاء على المجتمـــع الطبقى وسيطرة البشر على البشر التى تنتشر فى اطاره . أما بالنســـبة للنظرية النقدية ، فإن إلغاء الاغتراب يتحقق من خلال النقـــد الذاتـــى . وحسبما يعبر هوركهايمر عن ذلك قائلا : " نفـــترض امكانيـــة العقـــل وقدرته على النقد الذاتى ... أن الحقيقة ما زالت متيســـرة فـــى هـــذه المرحلة التى يسودها الاغتراب الكامل " (٩٢) .

٩- الشخصية الفاشية " التشخيص والنظرية "

يعتبر مؤلف الشخصية الفاشية أحد الأعمال الأساسية فـــى اطـــار العلم الاجتماعى الامبيريقى الحديث . " حيث الاتحـــاد بيـــن النظريـــة الألمانية والنزعى الامبيريقية الأمريكية " وهو الاتحاد التى أثبـــت أنـــه

مثمرا للغاية " (٩٣) . وبالنظر الى التوجهات الأساسية لمدرسة فرانكفورت ، فإن هذه الدراسة تشير الى حدوث انتقال فى موضع تأكيد النظرية النقدية بصورة عامة ، وخاصة فيما يتعلق باهتمامها بالفاشية . وهذا الانتقال لا يشير الى قرار بتجاهل العوامل الموضوعية الاجتماعية – الاقتصادية ، ولكنه انتقال نحو التأكيد على الجوانب السيكولوجية والذاتية للقضية . وأيضا على التحسين الممكن للموقف من خلال إعادة التربية ، وبتعبير هوركهايمر :

(قد يفاجأ القارئ بأننا قد فرضنا تأكيدا لا مبرر له على الجوانب الشخصية والسيكولوجية للتحيز Prejudice وليس على جوانبه الاجتماعية . ولا ينبغى أن يعزى ذلك الى تفضيل شخصى للتحليل السيكولوجى ، ولا الى الفشل فى تحديد سبب العدائية غير الرشيدة ، والتى يمكن أن نجد أساسها فى النهاية فى إطار حالة الظلم والاحباط الاجتماعى السائدة ، فنحن لا نهدف الى وصف التحيز ولكننا نحاول تفسيره من أجل المساعدة على استئصاله ... ونعنى بالاستئصال هنا إعادة التنشئة أو التربية وهى العملية المخططة علميا ، والتى تستند على أساس من الفهم الذى وصلنا اليه علميا لهذه الظاهرة) (٩٤) .

وفيما يتعلق بواقعة الابادة النازية Nazi Hoilocaust فإن جدول عملنا اليوم يتطلب منا " أن نقلل الداء الخبيث ونمنعه من الانفجار ثانية " (٩٥) . ويعتبر هذا الموقف النظرى والعلمى تحركا من موقف الماركسية الكلاسيكية التى تؤكد على أولوية البناء التحتى ، أعنى التراجع عن الفكرة القائلة بأن " وعى البشر ليس هو الذى يحدد وجودهم ، ولكن وجودهم هو الذى يحدد وعيهم " . بل أن ذلك يعتبر إبتعادا عن الفلسفة الإجتماعية المتشائمة التى يعكسها مؤلف ديالكتيك التنوير ، ذلك يعنى ان التحرك قد تم من نطاق حتمية انهيار الحضارة

البرجوازية إلى نطاق الإعتقاد فى اعادة التنشئة أو التربيــــة لأعضــــاء المجتمع الرأسمالى [1] .

وتهتم هذه الدراسة ببحث العلاقـــات المتبادلــة بيــن الأعــراض المتزامنة للشخصية من ناحية وبين التعرض للتحيز من ناحية أخـــرى وقد تحددت قضية الدراسة فى تأسيس ارتباط بين " الجــذور العميقــة لخصائص الشخصية من ناحية والتحيز الصريح من ناحيـــة أخــرى " وتقدير هذه الخصائص بواسطة مدخل تتعاون فى نطاقه علوما عديـــدة (٩٦) [2] . واستنادا الى ذلك يحدد المؤلفان افتراضاتهم الأساسية على النحو التالى :

(لقد وجه البحث الكائن بهذا المجلد بواسطة الفـــرض الرئيســى التالى : تشكل المعتقدات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لفــرد مــا نمطا شاملا ومتماسكا ، كما لو كانت مرتبطة مع بعضها العض بعقليـــة

١- أعتقد أن نغمة الحديث عن نقد المجتمع الرأسمالى مع المحافظة على بقائه يشكل أحـد جوانب الاخلاف بين النظرية النقدية الحديثة والنظرية الكلاسيكية (الماركسية) . ويرجع هذا التوجه الجديد لعاملين ، الأول أن جماعة النقد الحديثة (أعضاء فرانكفورت) ينتمون الى الطبقة البرجوازية أساسا ، والثانى أن المجتمع الرأسمالى ، خاصة رأسمالية الولايات المتحدة الأمريكية وبعض بلاد أوروبا هى التى استضافتهم بعد أن فروا هاربين من حملـة الابادة التى أسستها النازية لليهود . " المترجم "

٢- يبدو أن الجماعة اليهودية التى رفعت لواء الموقف النقدى لمدرســـة فرانكفــورت ، تحاول أن تجد سبب التحيز ضدها فى عمق بناء الشخصية الألمانية النازية ، التى يرمــز لها بهتلر . وليس فى السياق الاجتماعى . وهى بذلك لا تريد إدانة النظـــام الرأســـمالى ، بقدر شوقها الى أدانة الشخصية الألمانية النازية المضادة لها . وهى هنـــا تختلــف فـــى أسلوبها عن أسلوب التحليل والاسناد الذى اتبعه ماركس فى نقده المجتمع الرأسمالى . مرة أخرى يعبر الفكر النقدى لمدرسة فرانكفورت عن واقع يهودى خاص " المترجم "

Mentality أو روح Spirit ، وأن هذا النمـط يعتـبر تعبـيرا عــن الاتجاهات الكائنة فى عمق شخصيته [1] .

وقد انصب الاهتمام الرئيسى لهذه الدراسة على الفرد (الفاشســتى المحتمل) ، وهو الفرد الذى يتميز بأن بناؤه يدفعــه الــى أن يكــون معرضا بصفة خاصة للدعايات المضادة للديموقراطية) (٩٧) . وكما سوف نذكر ، كان لدى المؤلفين نموذجا Model نظريا محــدداً عــن الشخصية الفاشستية ، كامنا داخل عقولهم منذ وقت طويل قبل شروعهم فى هذه الدراسة الامبيريقية ، كما قدمت فى المجلد الذى اتخذ عنــوان (دراسات عن الســلطة والعائلــة Studien uber Autoritat & Famlilie . بالاضافة الى ذلك تناول إريك فــروم Erich Fromm قضية النزعة الفاشية فى مؤلفه (الهروب من الحرية Escape from freedom الذى كتبه أيضا فى فرانكفورت ، وفى هذا المؤلف نجـد أن إريك فروم قد عادل بين " الطبيعة الماسوشيستية والســادية Sado – Masochistic character " وهى الطبيعة التى تميز الشريحة الدنيــا من الطبقة المتوسطة الألمانية بالطبيعة الفاشيستية . ومن ثم فمن المعتقد أن تجعلنا هذه الطبيعة أكثر تعرضا للأيديولوجيا النازية . وحسبما يؤكد فروم " نحن نعنى بالطبيعة الفاشستية أنها التى تميز بناء الشخصية الذى يعتبر أساسا انسانيا للفاشية " (٩٨) .

١- يلاحظ أن تحليل النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت على هذا النحــو يختلــف عــن التحليلات الماركسية الى حد كبير ، فبينما تركز النظرية الماركســية علــى المتغــيرات الاقتصادية والبناء التحتى ، نجد أن النظرية النقدية تركز على نسق المعتقدات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية باعتباره من المتغيرات الرئيسية المفسرة للتفاعل . اضافة الى أنها تتناول طبيعة البناء النفسى للشخصية وما ترسب فيه باعتباره أنه المتغير الآخر الفــاعل ، القادر على تفسير سلوكه الاجتماعى . ذلك فى مقابل الاغفال الكــامل تقريبــا لفاعليــة المتغيرات الاقتصادية على نحو ما تذهب الماركسية ، أو اخضاع بنية النظام الرأســمالى الحديث ذاتها للتحليل والنقد " المترجم "

فإذا قارنا الاستبيان الذى الذى تم تطويره لدراسات السلطة والأسرة studien uber Athoritat und familie بالاستبيان الذى أسس لدراسة الشخصية الفاشية ، فإننا سوف نجد أن الأخير يبدو وكأنه امتدادا منطقيا للبرنامج الذى قدم فى فرانكفورت منذ حوالى عشر سنوات مضت ، وقد سلم المؤلفان باعتمادهم الكبير على أفكار فرويد : " حيث تعلمنا نظرية الشخصية الى حد كبير من فرويد ... " (٩٩) . ومن الواضح أن المؤلفان كانا على وعى بالمشكلة الصعبة ، تلك التى تتعلق بالصياغة الإجرائية Operationalization لنظرية التحليل النفسى الفرويدية ويتضح ذلك من العبارة :

(لقد فرض تصور المستويات الكائنة فى الشخص تحديا منهجيا محددا علينا ، حيث أوجب ذلك علينا ضرورة أن نؤسس الأدوات الفنية لبحث الآراء والاتجاهات والقيم الكائنة عند مستوى السطح ، وذلك بهدف الكشف عن الاتجاهات الأيديولوجية التى أعيقت (كبتت) بدرجة أكثر أو أقل ، وبلغت مستوى سطح الشخصية من خلال تجلياتها غير المباشرة فقط . وأيضا لكى نلقى الضوء على قوى الشخصية الكامنة فى لا شعور الذات أو الانسان) (١٠٠) .

وتشير هذه الأفكار الى هيجيلية فرويد Hegelianization of Freud : " حيث تتصل الآراء والاتجاهات والقيم عند مستوى السطح بالظاهرة Erscheinung عند هيجل ، وتتصل قوى الشخصية الكامنة فى لا شعور الانسان أو الذات بالجوهر Wesen الهيجلى " (١٠١) .

وقد حاول مؤلف الشخصية الفاشية ، عن طريق استخدام أدوات بحث ميتنوعة كالاستبيانات والمقابلات المتعمقة والاختبارات الاسقاطية أن يتغلغل فى بناء الشخصية ، ابتداء من مستوى " السطح " وحتى مستوى " اللاشعور " حيث يمكن استخدام الاستبيان بالنسبة للأول – وقد كان ذلك أقل تكلفة – بالاضافة الى استخدام المقابلات المتعمقة بالنسبة

للمستوى الثانى . وقد ساعدت النتائج التى تم التوص اليها من خلال إجراء المقابلات بجدورها على تحسين الاستبيانات فى كل مرحلة من مراحل المشروع [١] . وقد بدأت الدراسة ببحث عن الأيديولوجيا المضادة للسامية وكما حددها المؤلفان : " يعتبر التحيز أحد الأشكال الأكثر وضوحا للأيديولوجيات الاجتماعية المضادة للديموقراطية ، وفى هذا السياق تقدم النزعة المضادة للسامية نقطة بدء فعالة ومثمرة بالنسبة للدراسة النفسية الاجتماعية ، وباعتبارها حركة اجتماعية ، تعتبر النزعة المضادة للسامية ، بوضوح من أخطر التهديدات الرئيسية للديموقراطية . وفى هذا الصدد تعتبر النزعة المضادة للسامية من أقوى الوسائل السيكووجية بالنسبة للحركات السياسية المضدة للديموقراطية ، هذا الى جانب أنها تعتبر رأس الحرية الأكثر فعالية فى الهجوم الأول بنائنا الاجتماعى الكامل ... " (١٠٣) . [٢] .

١- يلاحظ هنا اختلافا واضحا فيما يتعلق بالمنهجية التى اتبعتها النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت فى دراسة واقعها ، حيث نجدها قد تخلت عن المنهج الجدلى والتحليل التاريخى كمناهج أو مداخل أثيرة لدى الماكسية التقليدية ، واتجهت المدرسة بديلا عن ذلك الى مناهج وأدوات البحث التى ينتشر استخدامها فى علم الاجتماع الغربى ، وهى المناهج التى تركز عادة على جمع مادتها من منطق تجزيئى . ولا يمكن النظر الى هذا الاستبدال المنهجى باعتباره يعكس حالة أو ظرفا عارضا ولكنه فى الحقيقة يشير الى اختلاف أبسمتولوجى واضح بين النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت ، ولنظرية الماركسية التقليدية . " المترجم "

٢- من الواضح أن رواد مدرسة فرانكفورت قد اعتبرت أن أى نزعة مضادة للسامية ، تعتبر مضادة فى ذات الوقت للديموقراطية . ومرة أخر تحاول هذه النظرية تحويل الظرف اليهودى الخاص الى ظرف انسانى عام من خلال صياغة ترادف بين= الديموقراطية والسامية ، ومن ناحية أخرى فإن الحكم على أى حركة سياسية يتم بالنظر الى موقفها من المسألة اليهودية وليس بالنظر الى أهدافها المجتمعية . هذا الى جانب عشق اليهود للديموقراطية داخل المجتمعات التى يعيشون فيها ، لأنهم سوف يتخلصون من أقليتهم فى المجتمع الديموقرلطى فى مواجهة الأخرين وإن لم يتخلصوا منها فيما بينهم وبين أنفسهم . هذا الى جانب أنهم نفعيون فى نظرتهم الى الديموقراطية ، فالاقتناع بها ليس عن مبدأ ولكن بنفع سوف يعود عليهم ، بدلالة القهر وعدم الديموقراطية التى يمارسها اليهود بالنسبة للعرب فى فلسطين المحتلة . " المترجم "

وبذلك تتمثل قضية البحث فى دراسة المعتقدات المتعلقة باليهود كأساس للاتجاهات المضادة للسامية نحو اليهود . وقد تم تأسيس خمسة مقاييس لقياس المعتقدات الشائعة والمتعلقة باليهود – كالنزعة العدوانية aggressivenss والاستياء Ofensiveness والتهديد Threatening والعزل أو الاقصاء Seclusiveness هذا بالاضافة الى الرغبة فى عزلهم عن بقية أعضاء المجتمع . وقد تربطن المقاييس الفرعية الخمسة حينئذ فى مقياس كلى لقياس النزعة المعادية للسامية "Total anti semitism scale (A – s) . والمقياس الذى نقصد به أن " يقيس استعداد الفرد لدعم أو رفض الأيديولوجا المضادة للسامية ككل " (١٠٤) . حيث استند هذا المقياس اى تصور محدد للأيديولوجيا المتعلقة : (بالآراء السلبية الشائعة التى تصف اليهود باعتبارهم مصدر تهديد ولا أخلاقيين . ويختلفون بشكل مطلق عن غير اليهود ، ولديهم اتجاهات عدائية تدفع نحو تأسيس أشكال عديدة من التقييد ، والأبعاد والقهر كوسيلة لحل " المسألة اليهودية ") (١٠٥) .

وقد كانت الارتباطات بين المقاييس الفرعية عالية من حيث دلالاتها . حيث تدرجت دلالة العلاقات الارتباطية بين كل مقياس فرعى على حدة من ناحية ، وبين المقياس الكلى (A – S) من ناحية أخرى من (٩٢,٠) الى (٩٤,٠) ، وهى دلالة عالية كافية لتأييد " الافتراض القائل بأن النزعة المضادة للسامية تعتبر إطارا عقليا عاما " . وقد اهتمت المرحلة التالية بالتحيز الذى يمكن ادراكه من منظور شامل ، ويعنى ذلك الكشف عن مدى اعتبار النزعة المضادة للسامية جزءا من أيديولوجية كبيرة تتعلق بالتمركز حول الذات . وقد عرف وليام جراهام سمنر W . C Sunner نزعة التمركز حول الذات Ethnocenterism لأول مرة فى كتابه (الطرائق الشعبية Folk Ways) فى عام ١٩٠٦ " باعتبارها الأيديولوجيا المتمركزة عنصريا ، والتى توافق على الأعضاء من الداخل الجماعة وترفض الأعضاء من

خارج الجماعة " (١٠٦) . ويحتوى بناء الأيديولوجيا المتمركزة حول عنصر الجماعة على التمييز بين داخل الجماعة وخارجها " باعتباره أحد خواصها الأساسية ، وباعتباره أساسا للتفكير الاجتماعى . ويمكن تحديد اليهود والزنزوج ، والأفراد الذين يشكلون أعضاء الطبقات الاجتماعية الاقتصادية الدنيا والمتطرفين Radicals ، باعتبارهم أهم الجماعات الخارجية . ويوجز المؤلفان تحديدا للأيديولوجيا المتمركزة حول الذات بقولهم :

(تستند النزعة المتمركزة حول الذات الى التميز الصارم والشامل بين داخل الجماعة وخارجها : فهى تتضمن الاتجاهات العدائية المتخيلة والسلبية والشائعة والتى تتعلق بالجماعات الخارجية ، وذلك فى مقابل الاتجاهات الايجابية المتخيلة والشائعة أو المسلم بها والتى تتعلق بداخل الجماعة . بالاضافة الى أنها تحتوى على نظرة فاشية متدرجة فيما يتعلق بتفاعل الجماعة حيث توضع الجماعات الداخلية فى مراكز السيطرة العليا . بينما توضع الجماعات الخارجية فى مكانة الخضوع) (١٠٧) . (١) ومن ثم ، فقد تم تأسيس مقياس النزعة المتمركزة حول الذات ، من خلال الاستعانة بمقاييس فرعية عديدة (الزنوج الأقلية ، والوطنيين) وذلك لقياس الاتجاهات والآراءى المتعلقو بالديموقراطية الزائفة ، أو تلك المضادة صراحة للديموقراطية وقد ترابطت المقييس الفرعية فى اطار " المقياس الطلى للنزعة المتمركزة حول الذات Total

---

١- يلاحظ أن رواد فانكفورت ينظرون الى الأيديولوجيا المتمركزة حول الذات - وهى الأيديولوجيا التى يمكن أن تنظر اليها باعتبارها أيديولوجيا المواطنة أو الانتماء لوطن وجماعة - نظرة ادانة وذلك من وجهة نظر الجمعة اليهودية ، التى تحاول السيطرة فى= أى مجتمع من المجتمعات التى تعيش فى اطارها ولو على حساب إفقاد أعضاء هذه المجتمعات عواطفهم القومية ، وما ضم جماعات الأقلية الأخرى الى الجماعة اليهودية التى تشكل الآن جوهر دولة إسرائيل تؤكد دائما على أيديولوجيا التمركز حول الذات والانتاء اليهودى ، وذلك فى مواجهة الجماعة العربية الفلسطينية ، باعتبار أنها جماعة خارجية من وجهة النظر اليهودية " المترجم "

Ethnocentrism الذى قسم بدوره الى عدة موضوعات . ومرة أخرى وجد الباحثان ارتباطا عالى الدلالة بين المقاييس الفرعية . وقد عمن نتائج التحليل الاحصائى الذى أجى للمقاييس الفرعية الافتراض القائل بأن " هناك شيئا يمكن اعتباره أيدويولوجيا عامة للتمركز حول الذات " (١٠٨) .

وقد ركزت الخطوة الثالثة على الأيديولوجيا الاقتصادية والسياسية، باعتبارها تعبيرا عن القوى الاقتصادية والسياسية للمجتمع ، وعلاقة هذه الأيديولوجيا بنزعة التمركز حول الذات . وفى هذا الاطار تم تعريف الأيديولوجيا " باعتبارها نسقا من الاتجاهات والقيم والآراء المنظمة " (١٠٩) . ، وبرغم أنه من المعتاد أن نساوى أو نربط بين كل من النزعة اليمينية أو اليسارية المتطرفة من ناحية ونزعة التمركز حول الذات من ناحية أخرى ، فقد اتقد المؤلفان أن " الفاشية التى تمثل الأيديولوجيا والبناء الاقتصادى والسياسى للجناح الأكثر تطرفا . تعتبر بالاضافة الى ذلك أحد الأشكال الخبيثة للنزعة المتمركزة حول الذات والمضادة للديموقراطية " (١١٠) .

ونظرا لأن أى من هذه المواقف المتطرفة لا يشكل أدنى تهديد حقيقى للمجتمع الأمريكيى ، فقد ركزت الدراسة على النزعة الليبرالية فى مقابل النزعة المحافظة ، استنادا الى الدراسات السابقة التى أجراها كل من لفنسون وسانفورد San Ford فقد تأكد لهما " وجود دليل واضح يوحى بوجود ارتباط سيكولوجى بين النزعة الليبرالية من ناحية ، والنزعة المضادة للتمركز حول الذات من ناحية أخرى " (١١١) [1]

١- من الواضح أن هذا الارتباط الذى ظهر كأحد النتائج للدراسة يتصل الى حد كبير بالافتراضات الأساسية المسبقة لنظريات فرانكفورت . هذا الى جانب وصم النزعة التمركزة حول الذات – حب الجماعة الأكبر لوطنها فى مواجهة الجماعة اليهودية – بوصمة المحافظة فى قلب مجتمعات تؤكد على الليبرالية . مرة أخرى تحاول الجماعة

وفى هذا الاطار فقد بذلت محاولة لقياس الأيديولوجيا الاقتصادية والسياسية بالنظر الى بعد الليبرالية – المحافظة ، وذلك عن طريق استخدام مقياس النزعة الاقتصادية المحافظة (P . E . C) . وقد أبرزت النتائج وجود علاقة إحصائية ذات دلالة ، ولو أنها ناقصة كيفيا، بين النزعة المحافظة ونزعة التمركز حول الذات من ناحية ، وبين النزعة الليبرالية والنزعة المادية للتمركز حول الذات من ناحية أخرى .

وقد شرع المؤلفان بعد ذلك فى تحليل الدين ، غير أن العوامل الموضوعية (كالطائفة الدينية والتردد على الكنيسة) لم تبرهن على أنها ذات دلالة . ومن ثم فقد تمت محاولة استخدام مقياس F- scale لقياس الميول الكامنة المضادة للديموقراطية . واستنادا الى البحوث التى أجريت فيما يتعلق بهذه القضية حتى هذه اللحظة ، فقد تم تحديد عدد من المتغيرات التى يمكن أن تشكل فى مجموعها المضمون الأساسى لمقياس (F) (الفاشية Fascism) وسوف نعرض فيما يلى لهذه المتغيرات وتعريفاتها :

١-النزعة التقاليدية Convenyional : وتشير الى التمسك الشديد بالقيم التقليدية للطبقة الوسطى .

٢-الخضوع الفاشى Authoritarain Submission : ويشيير الى الخضوع والاتجاه غير النقدى نحو السلطات الأخلاقية داخل الجماعة التى يضفى عليها الطابع المثالى .

٣-العداء الفاشى Authoritarian Aggerssion ويشير الى الميل الى مراقبة وإدانة ورفض ومعاقبة البشر الذين ينتهكون القيم السائدة

اليهودية من خلال مثقفيها - - نشر أفكار تؤكد على ضرورة احتضان الجماعات اليهودية فى المجتمعات الرأسمالية " المترجم "

٤-Anti intraception ويشير الى معاداة كل ما هو ما هو ذاتـــى أو خيالى أو لطيف المعاشرة Tender minded .

٥- النمطية والخرافة Superstition and stereotypy ويشير الـــى الاعتقاد فى التحتيم الخرافى لقدر الانسان ، والاستعداد للتفكير مـــن خلال مقولات ثابتة وصارمة .

٦-السلطة والقسوة ويشير Power and Toughness ، ويشير الـــى الاهتمام الأساسى ببعد السيطرة – الخضوع ، القوى – الضعيف ، القائد – التابع ، ثم التوحد مع ممثلى السلطة ، وبالتأكيد المبالغ فيــه على القوة والقسوة .

٧-الكلبية والنزعة الى التحطيـــم Drsyurctiveness وتشـــير الـــى العدائية المعممة ، وتشويه كل ما هو إنسانى .

٨-النزعة الى الاسقاط Projectivity وتشير الى الاعتقـــاد فـــى أن الأشياء الخطيرة والمتوحشة تظهر فى العالم ، اســـقاط الـــنزوات الشعورية فى اللاشعور على الخارج .

٩-الجنس Sex ويشير الى الاهتمام المبالغ فيه " بالوقـــائع الجنســـية " (١١٢) .

ويدور السؤال الرئيسى فى هذا الاطـــار حـــول الأســـلوب الـــذى استطاعت بـــه الشخصية الفاشية تطوير هذه الخصـــائص ومـــا هـــى الأسباب ؟ وقد قدمت إلـــزا فرنكـــل برونزويـــك Else – Frenkel Brumswik استنادا الى تحليلها للمقابلات التى أجرتـــها مـــع خمســـة

وأربعون فردا متميز وخمسة وثلاثون فرداً غير متميز فى اطار عينة أصلية يبلغ عددها نحو ٢٠٩٩ – نظرية الأنماط المتنامية التى تنتج الشخصيات الفاشية وغير الفاشية ، وقد أوجزت ذلك قائلة :

(حينما نتفحص موقف الطفولة لمعظم الأشخاص المتميزين فسوف نجد لينا تقارير عن الميل نحو النظام الصارم من جانب الآباء ، مع الحب المشروط بدلاً من الحب غير المشروط ، أعنى أن ذلك يعتمد على السلوك الذى يلقى قبولا من جانب الطفل . ويرتبط بذلك الميل الى استناد العلاقات المتبادلة الى أساس السياسات الداعية الى المساواة ...

ولأن الطفل مجبر على الخضوع الظاهرى للسلطة الأبوية ، فإنه نتيجة لذلك تظهر لدى الطفل عدائية وعدوانية تفتقد التصريف الملائم . ومن ثم فقد يصبح استبدال العداء المكبوت نحو السلطة باعتبارها المصدر الرئيسى للعداء نحو الجماعات الخارجية .

ويبدو أن الخوف والتبيعية لا تشجعان الطفل المتمركز حول ذاته على النقد الواعى للآباء . ولكن يبدو أن الشخص المتميز بصفة خاصة هو الشخص الذى يرتعد من التهديد بشبح الأب . ويبدو أن إبراز مظاهر الرجولة بصورة فجة وخادعة تعويضا لهذا الرعب .

ويمكن اعتبار الحقيقة التى تفرض ضرورة استبعاد المشاعر السلبية المضادة للآباء من الوعى بإعتبارها تسهم فى الإفتقاد العام للنظرة الثاقبة ، والدفاع الصارم ، وضيق أفق الأنا ، بإعتبار أن ذلك يميز الذين سجلوا درجات عالية فى هذا الصدد ...

ويميل أباء الأشخاص المتحيزين نحو الأهتمام الواضح بمشكلات المكانة أيضا ... وفى هذا الاطار يعتبر الشيء خيرا إذا لقى قبولا

إجتماعيا ، وإذا ساعد على تسلق السلم الاجتماعى ، و يعتبر الشىء شرا اذا كان متدينا من الناحية الاجتماعية ...

ويتوقع (الشخص المتحيز) – و يمنح ايضا – القبول الاجتماعى ، استنادا إلى اساس من القيم الأخلاقية الخارجية التى تحتوى على الطهارة ، والتأديب وما شابه ذلك . وهو يدين الأخرين بسبب عدم توافقهم ، مع مثل هذه القيم ... ومن ثم يوجه الآداء الوظيفى لأناه الأعلى super ego أساسا نحو عقاب الأخريين ، وادانتهم واستبعادهم، ومن الواضح أنه يعكس نموذج الأنضباط و النظام الذى تعرض له ..

ويمكن اعتبار الصعوبة التى تواجه الأطفال الذين نموا فى بيئة تشبه البيئة التى صورها الأشخاص المتحيزين – الذين لديهم صعوبة مماثلة فى تطوير علاقات شخصية وثيقة – أحد نتائج قهر أو كبت الميول العدوانية التى لم يتم صياغة تكامل لها أو التسامى بها ، والتى أصبحت غير محددة وذات حركة عشوائية (١١٣) .

ويؤكد الفصل الأخير على التطابق التام بين مدخل الفرد و نظرته فى مجموعة من المجالات المتنوعة كالعائلة ، والتكيف الجنسى، والدين ، والفلسفة الإجتماعية والسياسية . إذ يمكن تمييز السلوك والتفكير النمطى والثنائى المتدرج بالنظر إلى أنماط الخضوع والسيطرة التى تميز الشخصية الفاشية ، وهى الأنماط التى ترجع فى أصولها إلى علاقات الأب – الابن ، باعتبارها العامل الرئيسى المؤثر .

ويسلم المؤلفان بالنقائص التى تعرضت لها الدراسة بإعتبار أنها قد ركزت كلية على الجوانب السيكلوجية ، ومن ثم فقد إستبعدت العوامل التاريخية والقوى الأقتصادية ويمكن نسبة نواحى القصور هذه فى جانب منها إلى حجم العينة التى بلغت نحو (٢٠٩٩) . وحسب تعبير المؤلفين فانه " قد يصبح من الممكن من خلال دراسة حقيقية ممثلة أن

تقدر كميا قدر التحيز فى ثقافتنا ، وذلك لكى نحدد الصدق للارتباطات المتعلقة بالشخصية و التى حددناها فى هذا المجلد " (١١٤) . ومن ثم فقد تم التأكيد على إمكانية معالجة مظاهر المرض – التحيز – لأننا " فى بعض الأحيان قد نصبح سعداء لأننا أصبحنا قادرين على السيطرة على المرض حتى ولو لم نستطع علاجه أو الشفاء منه " (١١٥) وفى إطار ذلك فإنه يبدو أن الإنجاز الرئيسى لهذه الدراسة يكمن فى حقيقة اسهامها فى المعرفة المتعلقة بالشخصية الفاشية المحتملة " وهو الأمر الذى سوف يجعل معالجة أعراضها أكثر فعالية "

ويتعلق السؤال الثانى بماذا يمكن أن نفعله فيما يتعلق بالمرض ذاته ؟ وفى هذا الصدد أغفل استخدام العلاج النفسى الفردى (تغيير شخصية البالغ) وذلك بسبب العدد المحدود والمتيسر من المحللين النفسيين . ومن ثم يصبح التدريب أثناء الطفولة المبكرة هو الوسيلة الأكثر فعالية ، وذلك لأن البرنامج التدريبى الفعال يمكن – حتى فى إطار نمط الثقافة الحالية – أن ينتج شخصياتا ليست لديها نزعة التمركز حول الذات [١] . وفى الحقيقة يصبح حب الطفل ومعاملته بإعتباره كائنا انسانيا هو الأمر الرئيسى فى هذا الصدد (١١٦) . غير أن تأثير مثل هذا البرنامج التدريبى قد يتضاءل بسبب تأثير الأباء المتمركزين حول ذواتهم . ويبدو من الواضح حينئذ " أنه لا يمكن تحقيق تعديلات فى البناء الفاشى المحتمل بواسطة الوسائل السيكلوجية فقط ، حيث نجد أن هذه المهمة تشبه مهمة القضاء على العصاب أو الأنحراف أو النزعة

١– بسبب الحيز ضد الجماعة اليهودية فى أوربا عامة وألمانيا خاصة ، وهو التحيز الذى دفع هتلر إلى محاولة إبادتهم . ومن ثم نجد اهتمام مفكرى فرانكفورت بمحاولة جعل موضوع التحيز من الموضوعات ذات الطبيعة المرضية أولا ، أى بإعتبار التحيز مرضيا . وثانيا أن ينال قدرا من التركيز بالبحث والدراسة ، حتى يمكن تبنى الأساليب التى يمكن بواسطتها القضاء على هذا المرض وعلى الثقافة المتحيزة . ومرة أخرى نجد أن جماعة فرانكفورت – بإعتبارها جماعة يهودية – تسعى إلى تحويل الظرف الإجتماعى الخاص إلى حالة انسانية أو موضوعا انسانيا عاما . " المترجم "

القومية من العالم " (١١٧) [1] ويذكرنا ذلك مرة أخرى بجوهر دراسة ماركس الحادية عشر عن فيورباخ والتى تذهب إلى القول : " بأن هذه كلها نتائج للتنظيم الكلى للمجتمع ، ويمكن أن تتغير اذا تغير المجتمع فقط " (١١٨) . غير ان المعركة تصرخ طلبا للبحث الذى تشارك فيه عدة أنساق معرفة Interdisciplinary research وأيضا تعاون جهود كل العلماء الأجتماعيين ، فالقضية موضع الأهتمام من النوع الذى يتطلب تضافر جهود كل العلماء الاجتماعيين . وتحتاج أيضا إلى التربية المتنورة ، وذلك لأن الفاشية مفروضة على البشر ، وهى ضد مصالحهم الأساسية . وحينما " يصبحون على وعى كامل بأنفسهم وموقفهم فإنهم سوف يكونوا قادرين على التصرف بصورة واقعية وحقيقية " (١١٩) .

ولتجاوز مقاومة البصيرة الذاتية الثاقبة ومقاومة الحقائق الاجتماعية " فإنه ينبغى أن يؤدى العلاج النفسى الفردى دورا أساسيا . ولقد سمعنا ، فى الحقيقة " أنه يمكن تحسين العلاج النفسى الفردى وملاءمته حتى يمكن الأستفادة به فى العمل مع الجماعات ، أو حتى لإستخدامه على نطاق جماهيرى " (١٢٠) وحينما نقابل هذا التأكيد بما جاء فى العبارة السابقة ، والتى تؤكد على إهمال استخدام التحليل النفسى ، فإن ذلك فى حد ذاته يكشف عن الاتجاه المتأرجح أو غير الثابت للمؤلفين . ويمكن فهم بعض أسباب هذا التأرجح بالنظر إلى مكانتهم القلقة فى المجتمع الأمريكى كما تمت مناقشة ذلك أخيرا . حيث أكد المؤلفان على سبيل المزاح الذى اتخذ طابعا تأمليا أنه :

١- من الملاحظ هنا أن مدرسة فرانكفورت تساوى بين مرض العصاب والأنحراف من ناحية ، و النزعة القومية التى تعنى ارتباط الأغلبية بوطنها وأنتمائها إليه نوعا من المرض الذى يحتاج للغاؤه إلى إعادة تربية أجيال بكاملها . وهو الأمر الذى يوضح كيف تدرك الأقلية اليهودية كل مكونات الواقع المحيط ، وتفاعلاته من خلال مصالحها ومشاعرها الخاصة . " المترجم "

(برغم وجود سبب للأعتقاد بأن المتحـــيزين يكافــأون عـــادة بصورة أفضل فى مجتمعنا ، طالما أن القيم الخارجية هى المعنيـــة .. فإن هناك سبب قوى للأعتقاد بأن الشخص المتسامح يحصل فى العـــادة على اشباع أكثر لحاجاته الأساسية ... والدليل على ذلك أنـــهم اساســا أكثر سعادة من المتحيزين ... ومن ثم فإذا كان الخوف والميـــل إلـــى التحطيم يشكلان المصادر العاطفية الأساسية للفاشية فإن الحب يرتبـــط اساسا بالديموقراطية) (١٢١)

١٠ – المنهج السوسيولوجى

من خلال استعراض تاريخ علم الاجتماع ، تغتبر علاقـــة علـــم الاجتماع بعلم النفس صعبة ومعقدة . فليس هنـــاك بالنســبة لأوجســت كونت مكان لعلم النفس فى نظامه لترتيب العلوم . ولم يكن علم النفـــس كمجال مسلم به للبحث العلمى موجودا ، بالطبع ، فى ذلك الوقت وكـــان كتاب جوستاف فشنر Gustaw . T . Fechner الذى اتخـــذ عنـــوان أسس الفيزياء النفسية Elements der psychophysik هـــو الكتـــاب الأول فى مجال علم النفس التجريبى العلمى ، غير أنه لم ينشر حتـــى سنة ١٨٦٠ . وقد تاسس معهد فلهلم فوندت Wilhelm Wundt لعلـــم النفس – حيث يعتبر فلهلم فوندت عالم النفس الأول فى ليـــبزج ســـنة ١٨٨٩ (١٢٢) . وتعتبر نزعة دوركيم المضادة للنزعة السيكولوجية لها أسبابها التاريخية المحددة . ومع ذلك فقد حصل علم النفس أخيرا علـــى الاعتراف الأكاديمى به فى فرنسا موطن رأسه [1] . وقـــد كـــان علـــى

١– بعد وفاة دوركيم ، اتجهت مجموعة من تلاميذ دوركيم الذين قاموا بنشر دراساتهم فى المجلة الدولية لعلم الاجتماع ، التى أسسها رينيه وورمز كمقابل لنحولية الاجتماعية التـــى أسسها دوركيم ، بالمطالبة بضرورة أن بدخل علم الاجتماع فى الاعتبار التعميمات النفسية فى التفسير ونذكر من هؤلاء جاستون ريتشارد ، وهو ما يعنى أن تلاميذه ابتـــداء مـــن=

دوركيم فى حملاته العنيفة لتحقيق اعتراف مماثل لعلـــم الاجتمـــاع أن يحارب هذا العلم (يقصد علم النفس) الذى يحاربه فى دراسة الانسان. ومن ثم فقد كان عليه أن يوضح القدرة التفسيرية لعلم الاجتمـــاع ، وأن يرسم خطا فاصلا بين المجالين . فقد أعلن دوركيم " أنه ليست هنـــاك حالة يستطيع علم الاجتماع ببساطة فى إطارها أن يستعير مـــن علـــم النفس أيا من مبادئه ، وذلك لتطبيقه ، وكما هو على الحقائق الاجتماعية " (١٢٣) [1] وقد تمنى ماكس فيبر ، وهو عملاق آخر فى علم الاجتماع الحديث ، عاصر دوركيم ، أن يحدد الأساس لعلم اجتماع علمى فـــى ألمانيا المجاورة لفرنسا ، بحيث تمنى أن يصل التى تأليف هـــائل بيـــن العلوم الطبيعية Natur Wissenschaften والعلوم الثقافيـــة Kultur Wissenschaften . وذلك عن طريق استعارة فكـــرة السـلبية مـــن الأولى وربطها بفكرة التفرد Uniquneness الخاصة بالنزعة التاريخية

=موس ، ليفى بريل ، هاليفاكس ، ريتشارد ، اتجهوا الى اعطاء التعليمات النفسية مكانـــة بارزة فى التفسير منتهكين بذلك الاطار الدوركيمى الصارم " المترجم "

١- تعتبر دراسة إميل دوركيم فى " الانتحار دراسة فى علم الاجتمـــاع : Suicide " Astudy sociology " من الدراسات الهامة فى هذا الصدد . والتى حاول دوركيم مـــن خلالها أن يوضح فشل علم االنفس فى تفسير ظاهرة الانتحار فى المجتمع . حيث أكـــد أن العوامل الفردية التى يسوقها علم النفس لا تقدم تفسيرا كافيا للظاهرة موضع الاهتمـــام . ومن ثم فلكى نفهم هذه الظاهرة فهما حقيقيا ، فإننا نحقق ذلك من خلال ربطـــها بالســـياق الاجتماعى . ومن ثم وصل دوركيم الى طرح ثلاثة أنماط للانتحار . الانتحار الإيثـــارى الذى يقع حينما يقدم الفرد مصلحة الجماعة على مصالحه الخاصة ، بينما يقع الانتحـــار الأنانى فى المجتمعات المتقدمة التى تسودها درجة عالية من الفردية ، ويسعى الفرد بنـــهم وراء تحقيق رغباته الفردية بشراهة لا تنتهى إلا بالانتحـــار ، ثـــم الانتحـــار الأنومـــى Anomic – suicide وهو الانتحار الذى يقع حينما يعانى المجتمع مـــن ســـوء التنظيـــم الاجتماعى . وقد تابع دوركيم هذه النظرية فى مؤلفه تقسيم العمل الاجتماعى ، كذلك فـــى مؤلفه الأشكال الأولية للحياة الدينية . حينما حاول تفسير الظواهر الدينية والســـلوكيات أو العواطف النفسية المرتبطة بها بالنظر الى السياق الاجتماعى ، وهو ما يعنـــى أن جانبـــا أساسيا من المشروع الدوركيمى يستهدف ابراز فاعلية العوامل الاجتماعية فـــى تفســـير الظواهر الاجتماعية " المترجم "

من الثانية ، وذلك بالاضافة الى منهج التفهم Verstehen الذى اختاره كارل يسبرز ودلتاى من علم النفس .

ولا يؤيد علماء الاجتماع المحدثون الاسناد السوسيلوجى الخالص على الطريقة الدوركمية . وإن كانو يؤدون فكرة التكامل بين علم النفس وعلم الاجتماع . بل أن هناك بعض المنظرين الذين قرأوا هذه الفكرة فى أعمال سابقيهم ، فقد سلم تالكوت بارسونز على سبيل المثال " بالالتقاء بين دوركيم وفرويد " (١٢٤) . وقد واجه علماء الاجتماع المحدثون قضية أخرى تتمثل فى تنوع الاتجاهات السيكولوجية .

وأصبح السؤال الذى يطرح نفسه يتعلق بأى علم نفس نوافق عليه، ومن ثم نعمل على صياغة تكامل بينه وبين النظرية الاجتماعية ؟ وفى هذا الصدد تبنى منظرون مختلفون إختياراتاً متباينة . فقد استعار بارسونز عناصر معينة من النظرية الفرويدية ، بينما اختار هومانز النزعة السلوكية ، وقد ثار نفس التساؤل فيما يتعلق بالنظرية الماركسية حيث اتبعت الماركسية السوفيتية الخط الرسمى الذى يقر أفكار بافلوف Pavlov . وبدأ التحليل النفسى لفرويد بتأكيده المبالغ فيه على الجنس يرتاب فى الماركسية وغير قادر على التوافق معها . ويعتبر ليون تروتسكى Leon Trotsky هو الذى سعى وحده للدفاع عن التحليل النفسى الفرويدى . فقد حاول فى سنة ١٩٢٢ أن يحث بافلوف على استخدام تأثيره من أجل الحصول على إباحة حرية البحث فى علم النفس حيث كتب تروتسكى فى خطاب له الى بافلوف :

(يبدو لى أن أفكارى فيما يتعلق بالأفعال الشرطية المنعكسة تستوعب نظرية فرويد كمثال محدد على ذلك . حيث يعتبر التسامى بالطاقة الجنسية ليس إلا تأسيسا للأفعال الشرطية المنعكسة (n) على

أساس جنسى باضافة واحد (n) أو باضافة اثنين ، وكل الأفعال المنعكسة من الدرجات الأخرى .

وقد إعتقد تروتسكى أنه قد يصبح أمرا بدائيا وبسيطا للغاية أن نحاول التأكيد على التحليل النفسى باعتبار أنه لايتلائم مع النظرية الماركسية ، ثم يفيد عكس القضية ثانية (١٢٥) . غير أن ممثلى الماركسية الأوروبية قد توصلوا الى عدة محاولات لصياغة نوع من التكامل بين الماركسية وفرويد .

وتعتبر انجازات فلهلم ريش Wilhelm Reich وأريك فروم Eric Fromm وهربرت ماركيوز Herbert Marcuse من أفضل المحاولات الشهيرة فى هذا الصدد . ويستطيع الباحث أن يتعرف فى مؤلف هوركهايمر وأدورنو على مراحل هذا التكامل الذى يرتبط بقوة بنظريتهما عن الفاشية ، التى تعد بدورها جزءا مكملا لفلسفتها العامة فى التاريخ .

لتقييم اسهام مدرسة فرانكفورت نحو فهم الفاشية ، فإننا ينبغـــى أن نرى الموضوع أولا من خلال الفكر السوسيولوجى وفكر العلم السياسى وقد قام تيودور جيجر Theodor Geiger بواحـــدة مـــن محـــاولات التفسير السوسيولوجى الأولى لنشأة النازية Nazism . حيث نجده قـــد تناول فى دارسته الكلاسيكية : (التدرج الاجتماعى الطبقـــى للشـــعب الألمانى) العلاقة بين الطبقات الوسطى والنازية . حيث كشفت تحليلاته لإحصاءات التصويت فى السنوات الأخيرة لجمهورية فيمار Weimer Republic عن وجود علاقة بين انخفاض تصويت أحـــزاب الوســـط البرجوازية وزيادة تصويت الحزب النازى (N . S . D . A . P) . وتحاول فكرته أن توضح أن نجاح حركة هتلر لم تنبثق عن أية نزعـــة مثالية ، ولكنها نجحت أساسا كنتيجة للإحباطات الاقتصادية والماديـــة ، بالاضافة الى اليأس الذى أصاب كلا من الطبقة المتوســـطة القديمـــة ، وصغار رجال الأعمال ، والطبقة الوسطى الجديدة للعاملين ذوى الياقات البيضاء . وقد ذاعت أفكار جيجر هذه وانتشرت فى اطار علم الإجتماع السياسى الذى قدمه لبست Lipset (١٢٦) .

وفى أعقاب الحرب ناقش علماء الاجتماع الألمان هذه القضية مـــن جديد . وذلك برغم أن مناقشة القضية هذه المرة اتخذت أساســـا شـــكل التأملات الفكرية ، وليس البحث العلمى . فقد عبر ليوبولـــد فونفـــيزى Leopld Von Wiese عن الفوضى المستمرة بين علمـــاء الاجتمـــاع الألمان فيما يتعلق بموقفهم من الفاشية . وقد سمى هذه الحالة بالظـــاهرة الميتافيزيقية المبهمة التى يعجز عالم الاجتماع عن أن يسبر غورهـــا " (١٢٧) .

وتتمثل الطبيعة المحيرة والمعقدة لظاهرة الفاشية فى الحقيقة الغريبة التى تؤكد أنه بعد خمسين عاما من ظهور الفاشية الايطالية وبعد نحو ٤٠ عاما من ظهور النازية الألمانية ، وبعد ثلاث حقب من سقوط الاثنين معا – (وهى الواقعة التى فتحت أمام الباحثين فيضانا هائلا من المادة الوثائقية) – ، أنه برغم ذلك كله فليس هناك فى الأفق نظرية عامة تتعلق بالفاشية وتلقى قبولا أو اعترافا عاما .

وتقع محاولات العلوم الاجتماعية لتفسير ظاهرة الفاشية المعقدة وفى إحدى فئتين : حيث تتعلق الفئة الأولى بالنظريات المجردة الخاصة أساسا بالفاشية ، بينما تتعلق الفئة الثانية بالنظريات الشمولية . وقد بحثت النظريات المجردة – الفئة الأولى – المكونات الاقتصادية والاجتماعية والأيديولوجية للفاشية ، فى حين ركزت النظريات الشمولية – الفئة الثانية – على أوجه الشبه والتماثل فى السيطرة السياسية لكل من النظريابت اليسارية والنظريات اليمينية المتطرفة . معتبرة أيا منهما تعبيرا عن قلق عام انتاب المجتمعات الجماهيرية Mass societies فى القرن العشرين ، وبخاصة تلك المجتمعات التى تقلقها مشكلات التحديث (١٢٨) .

ومنذ وصول كل من ستالين Stalin وهتلر الى السلطة فى عام ١٩٢٩ ، ١٩٣٩ طرح كثير من المنظرين نظرية عامة تتعلق بالنزعة الشمولية . نظرية تستطيع أن تضم كلا من النظم الفاشية والشيوعية فى نطاق اطار مرجعى نظرى واحد . وعلى هذا النحو ذهب ليون تروتسكى " الى القول بأنه برغم الاختلاف العميق بين الستالينية والفاشية من حيث أصولهما الاجتماعية ، فإنهما تعتبران ظاهرتان متماثلتان . حيث نجدهما يبرزان فى كثير من خصائصهما تماثلا صارخا " (١٢٩) .

وبعد أن شاهد شومبيتر Schumpeter الأحداث فـــى روســيا ، تكون لديه تصور عن الاشتراكية الستالينية يختلف " عن الحضارة التى يحلم بها الاشتراكيون الأرثوذكس " فقد وجد اشتركية " تشبه فى كثــير من ملامحها ملامح الفاشية الحالية " (١٣٠) . وفى فترة سابقة إسـطتاع كارل مانهايم Karl Mannheim فى مؤلف الأيديولوجيــا واليوتوبيــا ideology and utopia الذى نشر فى سنة (١٩٢٩) فقط أن يقــارن الفاشية الايطالية باللينينية والستالينية الصاعدة . وقد حذر مانهايم مــن أنه " قد يكون من المضلل أن نغفل الاختلافات أثناء التأكيد على أوجــه التماثل " (١٣١) (١) .

وتؤكد النظريات الشمولية على أوجه التشابه فيما يتعلق بعمليـــات السيطرة وطرقها الأساسية . واستنادا الى ذلك تتميز النظـــم الشـــمولية بالمركزية الكاملة ، والتنظيم الدقيق لكــل مجــالات الحيـــاة السياســـية والاجتماعية والعقلية . فضلا عن ذلك ، التسليم الكامل بأساسية قيـــادة الحزب والأيديولوجيا داخل كل منها ، ويمكن إيجاز السياسة الشـــمولية من خلال مجموعة من الأعراض التى تشكل خصائصها الأساسية نذكر منها :

١- من الواضح أن النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت لا تحاول المفارقة بين الشـيوعية فى رسيا والفاشية ، وذلك باعتبار أن النظرية النقدية تعبر – فى اعتقادنا – عن موقـــف يهودى صارخ ، وإذا كانت الفاشية والنازية قد أذاقت اليهود لأسباب واضحة تاريخيا طعم الهوان ، فإن الشيوعية فى روسيا حاولت قهر مشاعر الأنانية والذاتية عند الأقلية اليهودية ، بل حاولت قهر مشاعر الانتماءات اليهودية لديهم ، ومحاولـــة اســتبدالها بالانتمــاءات السوفيتية والاشتراكية ، والمدهش فى الأمر أن اليهود نظروا ضـــد النازيـــة والفاشـــية ، ونادوا حتى بالديموقراطية فى محاولة للصعود من مكانة الأقلية فى ألمانيا الـــى مكانـــة= =الأغلبية . بينما فى الاتحاد السوفيتى نجد أن نضالهم اتخذ اتجاها مضادا . فبرغم أنهم قد أتاحت لهم الاشتراكية امكانية المساواة مع الآخرين (الأغلبية) فإننا نجدهم يتمركـــزون حول يهوديتهم وأقليتهم تحت دعوى التميز أو التفوق ومع ذلك ينظر مفكروهم فكرا نقديـــا ضد النظامين (المتماثلين) -- من وجهة النظر اليهودية – على ما بينهما من اختلافـــات هائلة " المترجم "

١- وجود أيديولوجية كلية وشاملة .
٢- وجود حركة جماهيرية مركزية وموحدة .
٣- السيطرة على كل وسائل الاتصال من خلال القهر .
٤- السيطرة البيروقراطية على الاقتصاد والعلاقات الاجتماعية .

وحتى الآن لم تقدم العلوم الاجتماعية تعريفا دقيقا ومحددا للفاشية بدرجة تصبح فى اطارها موضع قبول من الجميع . ومن وجهة نظر النظريات الماركسية عن الفاشية يعتبر الجانب الدعائى ، وهو الجانب الذى يتفق مع المتطلبات اليومية للخط السياسى للفاشية ، هو الجانب الذى سيطر على الاعتبارات العلمية والأكاديمية ، كما يتمثل ذلك بصورة أكثر وضوحا فى نظريات " الفاشية الاجتماعية Social Fascism " التى تجمع كل مبادئ الحزب الشيوعى مع بعضهم البعض ، وتصنفهم باعتبارهم فاشيين ، أو على الأقل لديهم ميولا فاشية (١٣٢)

ويبدو أن الاختلافات القومية جعلت خلق نظرية عامة عن الفاشية قضية لا يمكن تجاوزها ، وحتى بين النموذجين الشبيهين ، الفاشية الايطالية والألمانية ، توجد احتلافات هامة وفى هذا الاطار يقترح كارل ديتريش براشر Karl Dietrich Bracher أنه بدلا من الحديث عن الفاشية قد يكون من الأفضل الحديث عن الفاشيات Fascisms (١٣٣). والى حد كبير فقد اعتمد نجاح كل الحركات الفاشية على الدرجة التى استطاع بها الاقتصاد الرأسمالى أن يحقق التغيرات الضرورية اللازمة للتحديث بدرجة أكثر أو أقل ، الى جانب إعتمادها أيضا على رد الفعل الجماهيرى الحتمى سياسيا وتاريخيا . ويمكن القول بأن كل الحركات الفاشية كانت حركات يمينية مضادة للديموقراطية ، وموجهة ضد النظم الاجتماعية والسياسية التى تضم كلا من الديموقراطية الليبرالية ، والشيوعية – الاشتراكية . وعلى هذا النحو تعتبر الفاشية الألمانية حالة

فريدة فى أيديولوجيتها العنصرية Racist المتطرفة ، وأيضا فى سعيها من أجل السيطرة على العالم ، بالاضافة الى دوافعها الإمبريالية وكفائتها التكنولوجية .

ويبدو أن مدخل النظرية الشمولية قد بدأ يفقد إعجاب كثير من الدارسين الأكادميين به منذ الابتعاد عن فترة الحرب الباردة ، بالاضافة الى التغيرات التى حدثت فى نموذج المجتمعات السوفيتية بعد الفترة الستالينية . وقد أقر بيتر لودز Peter Ludz وهو العالم السياسى المتميز ، والذى تخصص منذ وقت طويل فى دراسة المجتمعات السوفيتية – بأنه قد تم التخلى كلية عن النظريات الشمولية كوسيلة تصورية ، منهجية (١٣٤) .

ويبدو أن آخرين ما زالوا يتمسكون بفكرة النزعة الشمولية بإعتبارها مفهوما مفيدا ، وليس بإعتبارها مجرد نتاج للفكر الأكاديمى الذى إرتبط بالحرب الباردة ، ومن ثم فقد أيدوا التطبيق المتباين لها . وبالنسبة لبراشر فإننا نجده يؤكد على إمكانية التكامل بين النزعة الفاشية والنزعة الشمولية (١٣٥) .

وبالنسبة للنظرية النقدية الخاصة بكل من هوركهايمر وأدورنو – وهى النظرية التى قاما بصياغتها فى الأربعينيات من القرن العشرين – تعتبر النظريات الفاشية انتقالا تدريجيا من نموذج محدد " للنظرية الفاشية " إلى نظريات ذات نزعة شمولية تمتلك اطازا فلسفيا واجتماعيا ومن ثم تحاول دراسة هوركهايمر " عن اليهود فى أوروبا " (ودراسته غير المنشورة عن " الدولة الفاشية ") أنة تهتم بالفاشية بالنظر الى الاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية ، بالاضافة الى نوع من التأكيد المحدد على العنصر أو المكون اليهودى (١٣٦) . وفى كتابه (دياليكتيك التنوير) و (خسوف العقل) أصبحت السيطرة ، وهى

المفهوم الرئيسى فى النظريات الشمولية ، هى المقولة الرئيسية ، الـــى جانب أنه قد تمت ملائمتها أساسا للمجتمعات الرأسمالية الغربية . وفـــى منتصف الستينات من القرن العشرين فقط طور ، أدورنو فــــى كتابــه الدياليكتيك السلبى Negative Dialektik man ، وماركيوز فى مؤلفه الانسان ذو البعد الواحد One Domensional نوعا مـــن النظريـــات الشمولية خاصة بهما . وتختلف هذه النظريات عن النظريات الآخـــرى السائدة فى هذا المدخل من حيث كونها تركز على اتجاه كل المجتمعـات الصناعية المتقدمة نحو السيطرة الكلية على نطاق عالمى .

وتتفق أفكار هوركهايمر الأقـــل إتســـاقا عـــن " العـــالم المـــدار Administered بصورة كلية " مع أفكار كل من أدورنو ومـــاركيوز . حيث وصل كل منهما الى نتائج عملية ذات طبيعة مختلفة . فقد وصـــل أدورنو الى نوع من العدمية Nihilism المطلقة ، وإتجه ماركيوز الـــى دعم ثورة الشباب ، وإمتلأ هوركهايمر بالشوق الى عالم آخر .

وفيما يتعلق بالفاشية ، يمكن تسجيل مواطن الضعف الأساسية فـــى النظرية النقدية فى القضايا التالية :

١-لم تتكامل المداخل والنتائج المختلفة لهذه الفترة فى اطـــار نظريـــة ذات معنى عن الفاشية أو فيما يتعلق بالنزعة الشمولية .

٢-لم يكن هناك تحليل امبيريقى للظـــروف الاجتماعيـــة والتاريخيـــة الواقعية ، وأن ما وجد فقط هو تفكير تأملى خالص ، حتـــى فيمـــا يتعلق بالفصول الخاصة بالتاريخ العقلى للأفكار . ويعتبر مؤلـــف لوكاش Luckacs بعنوان " تحطيـــم العقـــل Zerstorung der Vernunft سنة ١٩٤٩- إذا نحينا جانبا الفقرات الخلافية ، أعنـــى الدعائية – أكثر تفوقا من تحليله لتاريخ أفكار الفكر الألمانى غـــير

العقلانى ، وأكثر أكاديمية من أفكار التنوير (الغامضـــة) الــذى تحول الى خرافة . ومن الناحية التاريخية يسير العقـــل واللاعقـــل unreason متوازيان فى نطاق الفكر الغربى . وقد اقتصر الأخــير فقط على الأقطار التى يسرت الظروف الاجتماعية فى اطارها ذلك (١٣٧) .

ويبدو مؤلف " الشخصية الفاشية " برغم نقاط الضعف التـــى فيــه أكثر انجازات هذه الفترة قيمة وخلودا . ذلك برغم كونه موضع خــلاف كبير ، وأيضا برغم انتقاد الكثيرين له بالنظر الى اعتبارات أيديولوجيــة ومنهجية . إلا أنه ما زال يحتل مكانة ثابتة باعتباره دراسة كلاســـيكية فى علم النفس الاجتماعى الحديث ، وقد دفع هذا المؤلف الـــى إجــراء عشرات من الدراسات المتتابعة منذ نشره فى عام ١٩٥٠ (١٣٨) .

١٢ــ وطـــأة المنفـــــى

منذ أكثر من مائة سنة مضت كتب إنجلز الـــى مـــاركس " تعتـــبر الهجرة هى النظام الذى يحول كل شخص الى غبى Fool ، الى حمـــار ass ، الى وضيع Knsve مشهور إذا لم تنجح فى الهروب منها كليـــة ... " (١٣٩) وفى القرن العشرين ناضل كثير من المثقفين الأوروبيـــن ضد مشكلات وجود اللاجئ ، ثم حالته السيكولوجية التالية . وقد حاولوا كلهم أن يحلوا المعضلات والمشـــكلات بأســاليب مختلفـــة وإن كـــانت متطرفة إلى حد ما . ونذكر منهم إيرنست توللر Ernst Toller الـــذى شنق نفسه بفندق مانهاتـــن ، وإدجار زلســـلى Edgar Zilsel فيلســـوف العلم الذى انتحر أيضا ، وهو نفس ما فعله كيرت توشولســـكى Kurt Tucholsky وستيفان زيفــــايج Stsfan Zweig ، والــتر بينيـــامين Waltrer Bengamin . وبرغم أن المعالجة المستفيضة لهذه القضيـــة

تقع خارج نطاق هذه الدراسة ، ألا انني سوف ألمس من هؤلاء بعـــض الأمثلة التى تصلح أن تكون نماذج موضحة كل بطريقتها الخاصة .

فمثلا قد تملكت الحيرة كـــارل كــورش Karl Korsch المفكــر الماركسى المحدث والبارز ، حينما واجه العالم الجديد . فقد وجد الواقـع الاجتماعى الأمريكى " لا يمكن الدخول فيه عقليا " وكانه يرســم بذلــك ظلال ماركيوز " المجتمـــع ذو البعــد الواحــد One dimensional society " والفكر ذو البعد الواحد " . وقد كشف كورش على الأقل أحد الجوانب المحورية فى المجتمع الرأسمالى الأمريكى : والتى تتمثل فـــى مرونته الهائلة ، وقدرته على تحييد كل التناقضات الحقيقية ، واســتيعاب كل الاتجاهات المتضادة ، وربما يعتبر تشخيصه للمجتمع الأمريكى مـــن أكثر الشخصيات وضوحا فيما يتعلق بهذا الموضوع . وقد كتب كــورش فى رسالة له لبول بارتوس Paul Partos قائلا :

(يوجد فى أوروبا تناقضا مشروعا له ما يــبرره بيــن النظريـــة الوضعية التى تؤكد على الاستقرار ، وبين النظرية " النقدية " الدينامية . حيث تقدم الأولى الحـــل الفنـــى Technical والعقلانـــى للمشـــكلات المعاصرة ، بينما تفضح الثانية لا عقلانية هذه الحلول الفنية فى مواجهة المشكلات الحقيقية . ومع ذلك فلا يوجد بالولايات المتحدة مجال لمثـــل هذا التعايش . حقيقة أنه توجد مجموعة من النشاطات المفترضة بصورة مسبقة مثل التصحيح المستمر للحقائق التى تم بحثها واكتشاف المجــالات العلمية الجديدة . وتطبيق المناهج العلمية الجديدة والاستيعاب الفـــورى للإتجاهات الثقافية المضادة ، والتشبع بكل شئ غريب وغير مشـــروع ، هذا إلى جانب الصياغة النظامية Institiutionalization لمشـــروعات الأعمال ، والسياسة ، والفساد ، والسلطة والجريمة . وفى إطـــار هـــذه الظروف لا تعجل أفكار العلم الجديدة التوترات والصراعات ، ولكنـــها توفر المعدل اليومى " لوقود الآلة فقط (١٤٠) .

وقد ـد برتولد بريخت الذى كان كاتبا مسرحيا وشاعرا ناجحـا – فى الوقت الذى غادر فيه ألمانيا – من قطر الى آخر بواسـطة النازيـة المتقدمة : فقد إنتقل من النرويج الى الدنمارك الى السويد ، وبعد غـزو السويد استقر فى فنلنده حتى غزو الاتحاد السوفيتى فنلنده . وحينئذ شـق طريقه الى كاليفورنيا مارا بفلاديفوستوك ، معرضا نفسه للخطر أثنـاء رحلة طويلة عبر سيبريا ، وبعد أن وصل الى الشاطئ الغربى للولايات المتحدة الأمريكية ، قرر " أن يلتحق بالبائعين " فى سوق هوليـود " حيث يباع الكذب " غير أنه فى كل مكان كان يواجه بمن يطلب منـه " أكتب إسمك " وهو الطلب الذى كان يذكره بإفتقـاد المـنزل والأمـن ، وتوجز قصيدته " سوناتا فى المنفى " الوجود العقلى اللاجئ كما يدركـه فنان حساس :

(لأنى قد طردت من بلدى ، فإنه كان على أن أبحث كيـف أفتـح محلا جديدا ، أى محل أستطيع من خلاله أن أبيع ما أفكر فيه ، إن على أن أشق الممرات ، التى أنهكتها خطوات الذين لا أمل لهم ، وقد اتخـذت طريقى فعلا ، لم أكن أعرف حينئذ الى أين أذهب وحيثما ذهبت تسـمع أذنى " أكتب إسمك " يا للعجب هذا الاسم كان إسما لأحـد العظمـاء) (١٤١) . وفى عام ١٩٤٧ قامت لجنة نشاطات المنزل غير الأمريكـى بطرده من الولايات المتحدة . (١٤٢)

ويعتبر توماس Thomas Mann إسما عظيما آخر بـدأ إ قامتـه الأمريكية المؤقتة على الجانب اللايجابى ، حيث ألهمتـه فـترة الأفـق الجديد New Deal الى أن يصور الرئيس روزفلـت وسياسـاته فـى (رباعيات جوزيف Joseph – Tetralogy). وبرغـم ذلـك ، فقـد أصبحت المكارثية Mc Carthyism فى بداية الخمسنات من هذا القرن تخيف توماس مان . وقد دفعه الحنين إلى الوطن الأوروبـى – وهـو الحنين الذى تزاوج مع ما يسميه " بالفاشية الجديدة " فى أمريكا – الـى

العودة الى أوروبا . وقد وصف توماس مان حالته العقلية هذه فى رسالة له عام ١٩٥١ قائلا :

" إن لدى نوعا من الخوف غير العقلانى من أن أدفن فى هذا البلد الذى لا يعطينى شيئا ولا يعرف شيئا عنى " (١٤٣) [١] .

وبالنسبة للنظرية النقدية يعطى موجز أدورنو نظرة عميقة للحالة السيكولوجية " للمثقف من الخارج " وقد تأمل أدورنو بشأن صدمة الخبرات الجديدة والاتساع المخيف لكل شئ ، وتحوله فى النهاية الى شئ ، وقد عبر عن ذلك قائلا :

(لقد أصبح واضحا بالنسبة للمثقف فى الخارج أنه سوف يواجه بعملية استئصال ذاته باعتباره مستخدما وأهلا لدرجة عالية من الثقة ، حينئذ تصبح الحياة أكثر كثافة ، وفى هذا الاطار يتم التخلى عن المثقف العنيد الذى لا يستسلم ولا يقترب من الخط المرغوب منه السير وفقا له، حينئذ نجده يصاب بالصدمة لأن أشياء العالم قد تركزت فى شكل صخور ضخمة أمام أى شئ وأى شخص لم يصبح شيئا . ويعتبر رد فعل المثقف الذى يتميز بالرعب أحد مواطن الضعف فى جهاز علاقات السلع المتنامى بصورة شاملة) (١٤٤) .

١- من الواضح أن المفكرين اليهود لمدرسة فرانكفورت يعكسون مشاعر الخبرة الأليمة فى المجتمع الأمريكى الجديد ، حيث لم تكن الجماعة اليهودية قد وجدت لها مكانة مسيطرة فى المجتمع الجديد . فهم قد انقطعت جذورهم القوية عن مجتمعهم الأوروبى السابق (بخاصة ألمانيا – بعد التهديد بالقضاء عليهم) وهم قد هاجروا ، إلا أنهم لم يكونوا قد دخلوا بعد ، فى شبكة الحياة والعلاقات الأمريكية – وفى خلال فترة العزلة وعدم التكيف هذه ، كان من الضرورى أن تتعمق أحاسيس المنفى والغربة ، والعزلة المفروضة عليهم بواسطة الآخرين ، ومن ثم جسدوا ذلك من خلال كتاباتهم المرهفة " المترجم "

وتستطيع الدراسة التي تستند الى الإرتباط بين الجوانب السوسيولوجية والسيكلوجية لخبرات كل من هوركهايمر وأدورنو أن تقدم فهما عميقا فقط لجوانب كثيرة من عملهم في أمريكا . حيث واجه كل من أدورنو وهوركهايمر كل جانب من جوانب الحضارة الرأسمالية الأمريكية في الغالب بنوع من الصدمة والرعب ، وقد صور أدرنو هذه الظاهرة بصورة جيدة حينما قال :

(إن الأذى يصيب كل مثقف في المنفى بلا استثناء ... فهو يعيش في بيئة ينبغي أن تظل غير مفهومة بالنسبة له ، حتى ولو وجد نفسه في الاتحادات العمالية أو نطاق المواصلات العامة وكأنه في منزله ، ... فقد جرد من لغته ونزع من بعده التاريخي الذى تستمد معرفته قوتها منه) (١٤٥) .

وقد ظل الحنين الى المجتمع الأوروبى البرجوازى الليبرالى ، وأسلوب الحياة الخاص بالأعضاء المثقفين الذين ينتمون الى الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة ، هو الموضوع المتكرر أبدا في كتابات أدورنو، حيث نجده يكتب في " نطاق المجال الجنسى " قائلا :

(يبدو أن تقييما قد حدث في ظل الليبرالية على أساس مختلف ، حيث اتجه البشر المتزوجون وحتى وقت حديث جدا ، والذين ينتمون إلى مجتمع فاضل – إذ لم يعد أحبائهم ذوى السلوك الأخلاقى القويم ، والذين تربوا في ظل حماية ، قادرين على إشباعهم – الى تعويض أنفسهم بالممثلات والبوهيميات ، والبنات الناعسات والبغايا ، وقد اختفت امكانية هذه النغمة الاستثنائية بسبب تحقق عقلانية المجتمع . فقد ماتت البغايا ، ولم تعد الفتيات الناعسات موجودات في الأقطار الأنجلو – سكسونية والأقطار الأخرى التي تنتشر فيها الحضارة التكنولوجية) (١٤٦) .

ويشكل كل جانب محدود من جوانب المجتمع الجديد صدمة جديدة : " حيث جعلت التقنية الايماءات خشنة ومحددة ، وفعلــت نفـس الشــئ بالنسبة للبشر . ومن ثم نجد أن الانسان منا ينسى كيف يغلــق البــاب بهدوء وحذر ، وبصورة مؤكدة . فقد أصبح علـــى الانســـان أن يغلــق أبواب المركبات والثلاجات ... " (١٤٧) . وفى هذا الاطـــار تســاءل أدورنو وهو يمزح قائلا :

ماذا يعنى بالنسبة للانسان أن لا توجد شبابيك تدفع الى أسفل وإلـى أعلى . ماذا يعنى أن لا تكون هناك مقابض أبواب بل مفـــاتيح أبــواب تدار... ماذا يعنى أن لا تكون هناك أسوار للحدائق " (١٤٨) . بالاضافة الى ذلك هناك الصراع من أجل الوجود ، أو صراع الحياة والموت مــن أجل البقاء ، وقد كتب أدورنو فيما يتعلق بالمنافسة مع المفكريـــن مــن الوطنيين أو مع المفكرين من رفاقه فى المنفى ملاحظا :

(أن نصيب الغرباء من الانتاج الاجتماعى يعتبر ضئيلا ، ومن ثـم فهو يدفعهم الى مستوى آخر من المنافسة اليائسة فيمـــا بيــن بعضــهم البعض ، وهى المنافسة التى تقوم الــــى جـانب المنافســة العامــة أو تتجاوزها ، وذلك من شأنه أن يترك آثاره على كل شـــخص . وتعتــبر العلاقات المتبادلة بين المنبوذين Outcasts سامة بدرجة تتجاوز كثــيرا تلك القائمة بين الوطنيين) (١٤٩) [1] .

١- يبدو أن الخبرة اليهودية قد وعت هذا الدرس جيدا ، وبدلا من رفضه لأنه سبب لــها مشاعر مؤلمة وهى فى المنفى ، نجد أن هذه الخبرة قـــد أفرخــت فـــى عمــق بنائــها السيكولوجى ، بحث أصبح يوجه سلوكيات الدولة الصهيونية الآن فى فلسطين . وكـــان= =الشخصية اليهودية أصبحت تستعذب أن ترى الآخرين يتعذبون بنفس الخبرات والمشاعر التى تعرض لها اليهود تاريخيا " المترجم "

لقد أصبح الوقت من ذهب ، وتم استبدال سلوكيات الترحيب الشخصى كخلع القبعات ، ومصافحة اليد ، بكلمة (هالو) غير المبالية ، مثلما استبدلت الخطابات " بالاتصال بين المكاتب أو الظائف " بدون توقيعات . وفى مثل هذه " الغربة الكلية والشاملة " حيث أصبح انتصار الأمر الواقع فى نطاق العلاقات الانسانية بين البشر الذين تخلوا عن أى إلتزام أيديولوجى ، فى حد ذاته أيديولوجيا للتعامل مع البشر باعتبارهم أشياء " (١٥٠) . وفى هذا الاطار أدت مشكلات الوجود اللاجئ إلى تخلق حالة عقلية يصفها أجورنو قائلا :

(حيث يختزل الأفراد الى مجرد خبرات لحظية متتابعة لا تترك أثرا فلا قيمة لما كان عليه الانسان فى الماضى حينما يوضع فى مواجهه ماهيته – الآن ، وما يمتلك ، وما يمكن أن يكون مفيدا فى اطاره . ويقدم المعنى الجيد الذى يمكن أن يمنحه التهديد صراحة للمهاجرين فى ضرورة أن ينسوا كل ماضيهم – لأن الماضى لا يمكن أن ينتقل معهم . وأن يبدأوا حياة جديدة تماما – منبها قويا للقادم الجديد بشئ تعلمته ذاته منذ وقت طويل . لقد محى التاريخ كلية من داخل أى منا ومن داخل الآخرين . وذلك انطلاقا من الخوف من احتمالية أن يذكر الفرد بإنهيار وجوده ، وهو الإنهيار الذى أصبح يجد ذاته مستمرا (١٥١) . وبايجاز تعتبر كتابات المنظرين النقديين خلال هذه المرحلة ، عبارة عن تأملات نقدية محتمة وجوديا أساسا. أعنى أنها يمكن أن تشكل الفلسفة الوجودية لمجموعة من المثقفين اللاجئين والفارين من النازية الألمانية ، الذين لاحظوا الشر EVIL (" إذ تعتبر ملاحظة الشر مهمة مدهشة ") وصعقهم الوحشى المسمى بالفاشية ، وارتعدوا من الخوف " حينما إنهار وجودهم " وهى الخبرة التى تمت صياغتها فى مؤلف دياليكيتك التنوير .

المراجـــــع

1- Max Horkheimer (ed) studien uber Authoritat und Familie , Paris, 1936.

2-Georgi Dimitrov, selected works, Sofia, 1960 p. 88.

3- Max Horkheimer, "Die Juden und Europa, " ZFS, VII,1/2 (1939) .P. 115.

4- Ibid., p. 116.

5-Ibid., p. 120.

6- See James Burnham, Managerial Revolution, New York, 1941.

7- Immanuel Kant, Werke, Vol. VI, Brtlin, 1914, p. 318

8- Horkheimer, " Die Juden, " p. 186.

9- Ibid., p.128.

10- Ibid., p. 128.

11- Ibid., p.129.

12- See Gershom scholem, Water Benjamin –die Geschichte einer Freundschaft, Frankfurt am Main, 1975, Pp.276- 277.

13- Horkheimer, “ Die Juden, “ p. 132 – and see :

ومن أجل مناقشة سوسيولوجية لوضع اليهود الشرقيين فـــى ألمانيــا أنظر :

S. Adler Rudel, Gstjuden in Deutschland 1880 . 194 Tubingen, 1959.

14- Ibid., p. 133.

15- Ibid., p. 135.

16- Max Horkeimer and Theodor W. Adorono Dialektik der Aufkarung., Amsterdam 1947, Max Horkheimer , Eclipse of Reason, Nyo York, 1947, and Theodor W. Adorono, Minimaa Maralia, Frankfurt am Main, 1951.

17- Theodor W Adorono, Reflection Zur Klassnthorie “ Gesammelte schriften 8, Frankfurt am

ولد تيودور فيزنجرد أدورنو Theodor Wiesengrund Adorono. فى بلدة Frankfurt am Main فى ١٩٠٣ . وقد كان أبنـــا لمغنـــى

وتاجر نبيذ ألمانى يهودى ، أما أمه فـــهى ماريـــا كالفيـــال أدورنـــو ديلابيانا Calmaria velli – Adorono dellapiana وهى مسيحية ذات خلفية إيطالية . وقد درس أدورنو الفلسفة والموسيقى وعلم النفس وعلم الاجتماع فى جامعة فرانكفورت ، حيـــث تقـــابل مـــع مـــاكس هوركهايمر . وبعد حصوله على الدكتوراة سنة ١٩٢٤ بعد أن قـــدم رسالة عن هوسرل Husserl ، ذهب أدورنو الى فيينا Vienna لكى يدرس التأليف على يد ألبان برج Alban . وفى الفترة بين ١٩٢٨- ١٩٣٢ حرر مجلة فينسيا للموسيقى Anbruch . وفى ســـنة ١٩٣١ أكمل أدورنو أطروحته للأستاذية his habilitationsschrift وهـــى دراسة عن نظريات التصوف عند كيركجارد . وبعد أن تولى هتلـــر Hitler السلطة غادر أدورنو المانيا ، واســـتقر أولا فـــى أكســـفورد بإنجلتـــرا . ثم وصل الى مدينة نيويورك فى ١٩٣٨ حيث استقر بـــها ثلاث سنوات . وفى سنة ١٩٤١ لحق بهوركهايمر فى كاليفورنيـــا . حيث عاش حتـــى ســـنة ١٩٤٩ ، حينمـــا عـــاد الـــى فرانكفـــورت بألمانيا Frankfurt am Main . وقد كان أدورنو أســـتاذا للفلســـفة وعلم الاجتماع فى جامعة جوهان فولفـــانج فـــون جوتـــة Johann Wolfagang von Geothe فى فرانكفورت ، ثـــم أصبـــح مديـــرا للمعهد الشهير الذى أعيد تنظيمه حتى وفاته فى عام ١٩٦٩ .

18-Horkheimer, Eslipse, p. VII.

19- Horkheimer – Adorono . Dialektik . p.5.

20- Ibid., p. 20.

21-Ibid., p. 8.

22- Ibid., p. 74.

23- Ibid., p. 15.

24- R p. Wolff, B. Moore Jr. and H. Marcuse, A critique of Poure Toleeranc, Boston. 1965 . Pp.83.84.

25- Horkheimer – Adorono, Dialekitik, p. 256.

26- Ibid., p. 141.

27- Ibid., p. 265,

28 Ibid., Pp. 261- 262.

أهدى مؤلف الديـــاليكتيك The Dialektik الـــى فريدريـــك بولـــوك Friedrich Pollock ، الذى كان صديقا حميما لهوركهايمر ، والـــذى كان عالما اقتصاديا فى المعهد ، وهو الأمر الـــذى يفـــرض علينـــا أن نتعرض ببعض العبارات للعلاقة المتبادلة بين النظرية النقدية والاقتصاد السياسى ، وحسبما هو شائع تعتبر نظرية مـــاركس النقديـــة أولا نقـــدا للاقتصاد السياسى البرجوازى بصورة أساســـية ، حقيقـــة ان دراســـات ماركس الاصلية تقع فى نطاق الفلسفة ، غير انه بعد اكشافه ان تحليـــل المجتمع البرجوازى ينبغى بحثه فى اطار الاقتصـــاد السياســـى ، علـــم ماركس نفسه الاقتصاد السياسى حيث يدعى على لسان أدورنو أنه قـــال أخيرا أن الاقتصاد هو ببساطة علم كريه بالنسبة لـــه . وبـــالرغم مـــن صعوبة التتبع الدقيق لطبيعة تأثير افكار بولوك على كل مـــن أدورنـــو وهوركهايمر ، فإنه يمكن القول بأن الموضوعات الاساسية لفكر بولـــوك الاقتصادى قد قدمت " البناء التحتى الاقتصادى " العام للنظرية النقدية .

ويستند تأليف بولوك المبكر عن التخطيط السوفيتى الــى خبرتــه الاولى خلال رحلة له الى الاتحاد السوفيتى فى ناية العشرينات من هــذا القرن . وفى عام ١٩٣٢ اكد على اســتحالة التخطيــط فــى المجتمــع الراسمالى . وفى سنة ١٩٤١ أدركت " نظريته عن راسمالية الدولــة " اتجاهات متماثلة فى ألمانيا النازية ، والاتحــاد الســوفيتى والولايــات المتحدة ، والتى تعنى أن تقــوم الدولــة بوظــائف أو مــهام الأفــراد الرأسماليين . وعلى هذا النحو فقد تم استبدال السوق بالتخطيط المركزى الذى يتطلب جهازا بيروقراطيا قويا وشاملا يظهر بدوره نتيجة لاندمــاج بيروقراطية الدولة مع مستوى الإدارة العليا للإدارة الصناعيــة . وقــد استمر تحليل بولوك الى حد ما حسب نظرية جيمس بيرنــهام James Burnham عن الثورة الإدارية ، وهى النظرية التى تبالغ فى التــأكيد على أهمية الفصل بين الملكية والإدارة فى المجتمع الرأسمالى الحديث ، وهى فكرة خلافية وغير ماركسية ، وحسبما يذهب بولوك هناك تنظيمين سياسيين يرتبطان برأسمالية الدولة هذه :

التنظيم الفاشى كما فى ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتى ، والتنظيــم الديموقراطى كما فى الولايات المتحدة الأمريكية . ويمكن الكشف عــن إعتماد هوركهايمر الشديد على نظرية بولوك عن رأسمالية الدولة فــى مقالته الدولة الفاشية التى كتبها فى سنة ١٩٤٢ فى مجلة حرر للإحتفــال بذكرى وفاة بنيامين Ben jamin ، وقد أصبح هذا المجلد متيسرا بشكل جماهيرى فى سنة ١٩٧٢ .

لإستعادة إعادة للنشر الحديثــة لمقــالات Zeitschrift الخاصــة بفريدريش بولوك أنظر :

Studlen des kapitalismus, Hdmut Dubiel (Ed) Munchen, 1975.

ولإعادة التقييم الموثق بالمعلومات لموقف بولوك أنظر أيضا :
Giacomo Marramao, " Zum Verhaltnis von politischer Okonomic und kritischer Theorie " in Asthetik und Kommunikatiom, Heft 11, (Aprel 1973) , Pp. 79 – 93.

29- Horkhrimer, Eclipes of reason, p.VI.

30- Ibid., p. 8 – 9.

31- Ibid., p. 42.

32- Ibid., p. 45.

33- Ibid., p. 4.

34- Ibid., p. 11.

35- Plato 's The Republic, B . Jowett (Tramsl) New York, n. d. p. 278.

36- Max Weber, Economy and society. Guenther Roth and Claus Wittich (Eds) Vol. 1 . New York, 1968. P. 85.

37- Ibid., p. 85.

38- Horkheimer, Eclipse, p. 121.

39- Martin Heidegger, An Introduction to Metaphysics, Heidegger, وأنظر أيضا New Haven, conn, 1959, p. 199. " Nur noch ein Gott konn uns retten . Spiegel Gesprach mit Martin Heidegger am 23. Septemper 1966 " in der spiegel, xxx, 23 (1976) Pp. 193 – 219.

40- Horkheimer, Eclipse, p. 125.

41- Ibid., p. 93.

42- Ibid., p. 94.

43- Ibid., p. 94.

44- Ibid., p.95.

45- Ibid., p.95.

46- Ibid., p. 96.

47- Emile Durkeim, The Rules of Sociological Method, New York, 1964. P. 123.

48- Ibid., p. 123. Further, on Durkheim's view of Human Nature, see Emile, Durkheim, suicide, New York 1951, Pp. 246 – 257., also Emile Durkhim, " The Daulism of Human Nature and its social conditions " "

an Essays in sociology and philosophy, Kurt, H. wolf (Ed) New York 1964. Pp. 325 – 340.

49- Horkheimer, Eclipse, Pp. 100 – 101.

50- Emile Durkheim and Marcel Mauss, Primitive classification chicago, 1972.

51- Horkheimer, Eclipse, p. 108.

52- Horkheimer, - Adorono Dialektik Pp. 19 – 20 .

وقد صاغ لوكاش نفس القضية قبل ذلك حيث قال " تخلق الحضارة سيطرة الانسان على الطبيعة ، غير أنه خلال هذه العملية يقع الانســان نفسه تحت سيطرة الوسائل الأساسية ، التى ساعدته فى السيطرة علــى الطبيعة أنظر فى ذلك :

Georg lukcs " Alte kultur und nene kultur " in kommunismus 1/43 (1920) p. 1539.

53- Ibid., p. 40.

54- Horkheomer, Eclipse. p . 169.

55- Ibid., p. 171.

56- Ibid., p. 171 .

57- Ibid., p. 166.

58- Ibid., p. 168 .

٥٩- كتب ماركس وإنجلز قائلين : " تعتبر اللغة قديمة قـدم الوعـى ، فاللغة هى الوعى العملى ، وباعتبار أنها توجد بالنسبة للبشر الآخرين ، فإنها لهذا السبب تبدأ فى الوجود بالمثل بالنسبة لى شـخصياً ، حيـث تظهر اللغة – وهى فى ذلك كالوعى – من الحاجة الضرورية لتفـاعل مع البشر الآخرين وحينما توجد علاقة متبادلة فإن اللغة توجد بالنسـبة لى : فالحيوان ليس له علاقة مع أى شئ ومن ثم فهو لا يمتلك علاقـة . بالنسبة للحيوان . فإن علاقته بالآخرين لا توجد باعتبارها علاقة . وهو الأمر الذى يعنى أن الوعى يعتبر منذ البداية نتاجا اجتماعيـا ، ويظـل كذلك طالما أن البشر موجودين " أنظر فى ذلك :

Karl Marx and Frederick Engels, The German Ideology, New York, 1970. P. 51.

60- Horkheimer, Eclipse. P. 179.

61- Ludwig Wittgenstrin, Tractaus logico – philosophicus, Lonodo, 1961. P. 37.

62- Horkheimer, Eclipse, p. 179.

63- Ibid., p. 179.

64- Wittgenstein, Tractus, p. 151.

65- Max Horkhermir, Diesoziologie der Gegenwart (sprach – analyse von karl kraus) . " Karl – kraus- Archives, vienna.

66- William James, The avrieties of religious experience, New York, 1902. P. 120.

67- Horkheimer, Eclipse, p. 13.

68- Ibid., p.n 120.

69- Horkheimer, Eclipse, p. 14.

70- Ibid., p. 16.

71- Ibid., p. 24.

72- Ibid., p. 27.

73- Ibid., Pp. 47 – 88.

74- Ibid., p. 51.

ومن أجل تلخيص موجز لعلم الوضعية المنطقية يمكن أن نطلع على :

Hans Haeberli, Der Beg riff der Wissenschaft im logischen positivismuds, Bèrn, 1955.

75- Steven Mason, A History of scieces. New York, 1962. P. 349.

76- Horkheimer, Eclipse, p. 77.

77- Ibid., p. 77 – 78 .

78- Ibid., p. 82.

من أجل إجراء مسح نقدى لقضية الحدس أنظر :

Mario Bunge, Intuition and science, Engle wood Cliffs, N .J., 1962

79- Walter Rchm, Griechentum und Goethezeit, Bern,1952, p. 12.

80- Frieduch Schiller, On the Aesthetic Education of Man, New York, 1965, p. 40.

ومن أجل الاطلاع على دراسة سوسيولوجية حديثة للمـــهن كمحـــددات للنظر الى العالم أو الحياة ، أنظر :

Waltanschauungen Joseph Bensman and Robert Lilien feld, craft and consciousmess. Occupalional Technigue and the development of world images, New York, 1973.

81- George Lukocs, Die Theorie des Romans, New wied am rhein, 1963, p. 27. See slso Marx on Greek art in karl Marx , Grundise. Der Kritik der politischen Okonomie, Berlin, (East) , 1953, Pp. 30 – 31.

82- Horkheimer, Eclipse, Passim .

ويمكن للانسان أن يطرح تساؤلات فى هذا الموضع ، وذلك حينما يرى أن الوضعية تهاجم بشكل عام وشامل : أى وضعية ؟ ووضعيــــة مـــن ؟ حيث خضعت منذ بداياتها الأولى مع سان سيمون ، أوجســـت كونت وحتى رودلف كارناب Rudolf Carnap لتعديـــلات كثـــيرة . حيث لا يمكن للانسان أن يعقل كل هذه التغيرات . وللانسان أن يتساءل ما الذى يمتلكه إنجاز اثنان من عمالقة الفكر الوضعى ، مثـــل كونـــت وماش Mach أو فنجنشتين Wittgenstein من قواسم مشـــتركة . إذ يوجد لدى الوضعية الكونتية فلسفة للتاريخ (قانون المراحل الثـــلاث) وهى أيضا آدائية instrumentd ، وإميريقية ، وتؤكد على الملاحظة ، والتجريب والمقارنة التى تتم حسب برنامج واضح على الأقـــل ، أمـــا الوضعية المحدثة Neopositivism فهى مضادة للتاريخ ahistorical وحيادية من حيث النزعة الآدائية (فصل المعرفـــة عـــن الممارســـة ، باستثناء شكلها العلمى المتطرف) وأمبريقية ، وفضـــلا عـــن ذلـــك ، أضيفت عناصر جديدة ، كاستخدام المنط الرمزى ومبدأ الثبات .

83-Horkheimer, Eclipse, p. 76.

84- Thomas S. kuhn, "The History of Sciense, " in international Encyclopeclia of the social scences, vol. 14, David L. shills (Ed) . New York, 1968. Pp. 74 – 83.

85- A selection of the Moscow publication was published in Germany, see Wolfgang Endemann (ed) Karl Marx – Mathematische Manuskripte, kronbergl Taunus, 1975, Futher see kurt reiprich, Die phil-sophisch – natur wissenschaftliche vonKarl Marx und Friedrich Engles, belin (East) , 1969, and Dirk J . struik, " Marx and Mathematics, " in science and society x11,L (winter 1948), Pp. 181 – 196.

86- Joseph Needham, science and civilization , in China, vo1.2 London, 1956, p. 28.

87- Quotaltions Fromchairman mao Tse – tung , peking 1966, Pp. 204 – 205.

88- Karl Marx and Frederich Engles, The communist Manifesto . New York, 1971, p. 12 ans see :

وقد أوجز ماركس فى بداية سنة ١٨٤٤ دور العلوم الطبيعية وآثارهـــا كما يلى : " لقد طورت العلوم الطبيعية جهدا هائلا وتمكنت من صياغـة تراكم متزايد من المعطيات ... غير أن العلم الطبيعى قد غـــزا الحيـــاة الانسانية وحولها الى الطبيعة العملية من خلال الصناعة كوسيلة ، وقـــد مهدت للتحرير الانسانى ، برغم أنه من آثاره المباشرة زيادة الحط مـــن انسانية الانسان " أنظر فى ذلك :

Karl Marx, The Economic and philosophic Manuscripts of 1844, Dirk J. struik (Ed) New York,

1964, 142. See also Karl Marx Grundrisse, London, Penguin Book, 1973, Pp. 704 – 706.

وللاطلاع على تحليل سوسيولوجى لوجهة نظر كارل ماكرس عن العلم والتكنولوجيا أنظر :

J . D Bernal, Marx Penseur de la technigue, 2 vols, Paris, 1974.

89- Ibid., p. 13.

90- Horkheimer – Adorono , Dialektik, p. 256.

91- Horkheimer – Eclipse, p. 177.

92- Ibid., p. 177.

93- John Mzdge The Origin of scientfic sociology, New York , 1962, p. 9 . T . W . Adorono TheAuthoritarian personality , New York, 1950.

حيث يضم هذا المجلد حوالى ١٠٠٠ صفحة ، ويعتبر واحدا من نواتج سلسلة من الدراسات التى شجعتها اللجنة اليهودية الأمريكية . وقد رأس هوركهايمر قسم البحث العلمى فى هذه اللجنة . وبرغم أن اسمه قد ظهر فقط فى تقديم ومقدمة الكتاب ، إلا أننا نجد أنه قد كان لديه إهتماما واضحا بالمشروع خلال عملية إنجازه بكاملها . وقد عبر عن ذلك المؤلفين حينما قالوا :

" لقد لعب د . هوركهايمر دورا رئيسيا فى تأسيس هذه الدراســة ، وقد ظل مرتبطا بها حتى الانتهاء منها ، وقد أسهم بأفكاره ، وتوجيهه ، وتشجيعه ، ونشاطه الذى لا يكل فى دعم أهدافنا P . Ixiii "

94- Max Horkheimer and Samuel H . Flowerman " Forward to studies in prejudice, " in the Authoritarian Personality. T . W . Adorono etal. New York, 1950, p. VII .

95- Ibid., p V .

96- Ibid., p VI .

97- Adorono et al, the authorian personality . p. 1 .

98- Erich Fromm, Escope From Freedon, New York, 1965. P. 186.

99- Adorono et al. The Authoritarian, p . 5.

100- Ibid., P.p. 11 – 12 .

101- See ulrich sonneman, " Hegel and freud, " in psyche, 24.3 (1970) . Pp. 208 – 218 .

102- Adorono et al, the Authoritarian, p. 57 .

103- Ibid., p 57 .

104- Ibid., p 94 .

105- Ibid., p 71 .

106- William G. sumner, Folkways, Boston, 1966, Pp.12 – 15 .

107- Adorono et al, the Authoritarian, p. 150 .

108- Ibid., p 113 .

109- Ibid., p 151 n .

110- Ibid., p 151 .

111- Ibid., p 153 .

112- Ibid., p 228 .

113- Ibid., P.p 482 – 483 .

من أجل توضيح موجز للمكانة العلمية لنظرية التحليل النفسى لفرويـــد أنظر :

R . R . sears, survey of Objective studies of Psychoanalytics concepts, New York, 1943. Jean piaget, Main Trends in psychology, New York 1970.

114- Ibid., p 973 .

115- Ibid., p 973 .

116- Ibid., p 975 .

117- Ibid., p 975 .

118- Ibid., p 975 .

119- Ibid., p 976 .

120- Ibid., p 976 .

121- Ibid., p 976 .

122- Paul Fraise and Jean piaget (eds) Experimental psychology., its scope and Method New York, 1967. See also Edwin G. Boring, A History of Experimental psychology, 2nd .(ed) New York, 1950 .

123- Emile Durkhemie, The Rules of sociological method, New York, 1964, p. iii .

124- Talcitt Parsons, social structure and personality New York, 1970 p. see also Earnst W . Burgess, " The in fleunce of sigmund Freud upon sociology in the united ststes. " in American Journal of sociology. 45 (nov 1939) , Pp. 356 – 375 .

125- Issac Deutscher, The prophetunarmed . Trotsky : 1921 – 1929, New York . 1959. Pp. 180 – 181 , see also ,Jean Marti, " la psychoanalyseen Russie 1901 – 1930, " in critique (paris), x x II, 346 (March 1976) , Pp. 199- - 236, Wilhelm Reich, "Dialectical Materialism and psycho analysis " and psyche analy sisin the Soviet union, " in studies on the left, 6 , 4 , (1966), Pp. 5 – 57 , Michael schnder, neurosis and civiliztion. A Marxist, Freudi an synthesis, New York 1975.

ومن أجل تحليل مميز لتاريخ علم النفس لبسوفيتى أنظر :

John Mcleish soviet psychology : History, content, London, 1975.

126- Theodor Geiger, Die sixiale schichtung des seutschen Volks, stuttgqrt, 1932 : see also symor Martin lipset, Political Man, Garden city . N . Y . 1963, Pp. 149 FF .

127- Quoted in Heinz Maus, " Der achte Deutsche Soziologentag . " Die unschau , internationale Revue 11,1 (Juanary, 1947) , p. 87.

128- Karl Dietrich Bracher, zeitgeschicgtliche Kontroversonun Faschismus, Totalitarismus, Denokratie, sorie piper, Munchen. 1976, K. D . Bracher, The German Dictatorship, New York, 1970, see also

Wolfgang sauer, " National socialism : Totalitarianism or Fascism, " in American Historical Review, Lxx111,2 (1967) . Pp. 404 – 424 , wolfgang Wipperman, Faschism us theorien. Zun stand der gegen Wart – igen Siskussion, Darmstadt, 1972, and Reinhard Kuhnl, " Probems of theory of German Fascism, " in New German critiqve, No 4 (Winter 1975) , Pp. 26 – 50

129- Leon Trotsky, The Revolution Betrayed, what is the Soviet Union and where is it Going ? New York ,n. d. p. 145 .

130- Joseph A. schumpeter, capitalism. Socialism and Democracy, 3rd . New York, 1962. P. 375 .

131- Karl Mamnheum, ideology and utopia, New York, n. d. p. 145 .

132- See siegfried Bahne, " sozial Faschismus in Deutschland, zur Geschichte eines politischen Begriff, " in In ternational Revew of social History, 10.2 (1965), Pp. 211 – 245 .

133- Karl Dietrich Bracher, zeitgeschtluche knot roversen, p. 27 .

134- Peter C. Ludz, The chamging party Elite in East Germany, Com – bridge, / Mass and London , 1972 .

see especially chapter 1 : " The Theoretical Framr of refweence. "

135- Bracher, Zeigeschichtliche Kontroversen, p. 33.

136- Max Hokheimer, " Autoritarer staat, " in Gsesllschaft in ubergang, Aufsatze, Reden und vortrage 1942 – 1970, wernerBrede (ed) Frankfurt am Main, 1972, Pp. 13 – 35 .

137- George Lukads, Die Zerstorung der vernunft Berlin (East), 1954, see also Hajo Holborn, " Der deutsche Idealismus in sozial, geschilicher Beleuchtung, " in Historische Zeitschrift, 174,2 (Okt – 1952) . P.p 359 – 384 .

١٣٨- نشرت دراسة الشخصية الفاشية The authoritarian Personality فى سنة ١٩٥٠ . وقد كان توقيتا سيئا من وجهة نظر المكارثية الصاعدة . حيث كانت الشيوعية ذات الطبيعة العنيفة هى الأسلوب السائد تلك الأيام . ومن ثم فقد تخوف كثير من المثقفين الأوروبيين من اعادة تكرار وقوع التجربة التاريخية فى الثلاثينات من القرن العشرين وهى االتجربة التى يمكن أن تقود الى الفاشية فى الولايات المتحدة . وفى هذا الاطار ينبغى النظر الى الهجمات المركزة والموجهة ضد مؤلف الشخصية الفاشية ، التى شنها الرفاق اللاجئين بالاضافة الى الباحثين الأكاديميين الوطنيين . وقد أسهم الهجوم على الأسس الأيديولوجية والسياسية والمنهجية بالتأكيد فى قراركل من هوركهايمر وأدورنو العودة الى فرانكفورت أم مين ،

وحتى بالنسبة للمثقفين النقدميين مثل ديفيد ريزمان David Riersman نجدهم قد شاركوا فى هرقطة الحرب الباردة والفوضى الأيديولوجية . وقد كتب ريزمان قائلا : أن الحطر الحقيقى بالنسبة لأمريكا يمكن فى الشيوعية السوفيتية وليس فى عدد قليل من ملايين الفاشيين الذين نشأوا بيننا ، ثم سلم بأن " هناك بلا شك بضعة ملايين من البشر ذوى العقول الفاشية ، فى الولايات المتحدة " . ومع ذلك فإذا وجد خطر من القهر الدولى لأمريكا لبيوم ، فإنها سوف تهرب بدرجة أكثر من تهديد اتوسع السوفيتى ذو الطبيعة الشمولية ، أكثر من هروبها من مصادر الشخصية الفاشية الأمريكية .

138- David Riesman, " some Observations on social science Research, " in Antioch Revew, 1 (1951) Pp. 259 – 278.

ومن أجل تقييم نظرى أنظر :

Richard Christie and Marie Jahoda (Eds) Studies in scope and Method of the Authoritarian Personality, Glencoe, / IIIinois, 1954, Roger Brown, social psychology, chapter 10 . New York , 1965.

وللاطلاع على دراسات تتبعية عن الشخصية الفاشية أنظر :

R. christie and P . cook, " Aguide B the published Literature Rlating to the Authoritorian persona ality through 1956," Journal of psychology, 45 (1958) , Pp. 171 – 199.

أنظر أيضا :

J. P. and R. C. Dillehay , Dimensions of Authoritarianism , A Review of Research and Theory – Lexington. Ky., 1967.

139- Karl Marx – Friedrich Engels, werks vil. 27, Berlin (East) , 1963,p. 186.

140- Karl Koesch, " Uber die amerikanische wissen – schaft " in Aternative (Berlin) , 41 (April 1965) , 76 – 77 .

141- Bertolt Brecht, Cedichte 1941 – 1947 , Frankfurt am Main , 1964, p. 53.

142- Sander L. Gilman, " Bretolt and the F B I " in nation. (Nov. 30, 1974) , Pp. 560 – 562.

143- Quoted in Klaus schroter, thomas Mann, in selb stzeugnissen und Bilddokument en RoRoRo Monographie, Reinbek bei Hambury , 1964, p. 141.

144- Theodor W . Adorono Prisms, Cuitural criticism and society, London , 1967.p. 98.

145- Adorono, Minima Moralia, Reflectionen aus sem beschadigten Leben 6 th ed. Frankfurt am Main 1969 .

146- Ibid., p . 31 .

147- Ibid., p . 42 .

148- Ibid., p . 43 .

149- Ibid., Pp. 32 – 33 .

150- Ibid., p . 45 .

151- Horkheimer and Adorono, Dialektik der Aufklorung, p. 255 .

الفصل الثالث

علم إجتماع فرانكفورت

نظرية المجتمع

١- ألمانيا بعد الحرب

انتهت المرحلة الأوروبية من الحرب العالمية الثانية فى ٨ مايو سنة ١٩٤٥ بانتصار قوات الحلفاء على الفاشية . ونتيجة لذلك قسمت ألمانيا بين القوى المنتصرة الى أربعة مناطق محتلة ، وبرغم خوف الألمان الديموقراطيون من اعادة إحياء القوى الرجعية واستمرارها وهى القوى التى ساعدت هتلر فى الصعود الى السلطة فقد ميز توماس مان - حتى قبل انتهاء الحرب - فى رسالة له ، النظام الحالى . باعتباره مضادا للنازية ، إذ أكد أنه :

(لا تعنى مناهضة النازية فى رأى أن ساعى البريد الذى التحق يوما بالحزب ، يحرم عليه أن يحمل البريد بعد ذلك ، ولكنها تعنى قبل كل شئ ، تجريد كل المستفيدين من النظام النازى الموجود ، هؤلاء الذين أصبحوا وما زالوا أثرياء فى ظل هذا النظام ، وحرمانهم بلا رحمة من كل ثرواتهم ، تعنى أيضا حرمان هؤلاء الطفيليين السمان من كل تأثيرهم الاجتماعى والسياسى ، وذلك بدلا من أن نشرب كؤوس الشمبانيا كتعبير عن تعاطفنا الطبقى) (١) [1] .

وسوف نتذكر أيضا أن كل من هوركهايمر وأدورنو قد خافا من إمكانية أن تقود التطورات الى " عودة ظهور البربرية الحديثة منتصرة، وهى البربرية التى هزمت أخيرا فى ميادين القتال "

١- من الملاحظ هنا أن هدف منظرى مدرسة فرانكفورت ليس تحقيق العدل الاجتماعى كما تذهب الماركسية ، أو القضاء على الاستغلال الذى تخضع له طبقة البروليتاريا ، بل كان هدفها ضرب شريحة من البرجوازية بواسطة شريحة برجوازية أخرى . حيث وجه اليهود الذين أضيروا بسبب النظام النازى ، والذين غضبوا وطردوا عدائهم الى شرائح =الطبقة البرجوازية التى تحالفت مع النظام النازى ، وحصلت على كل الأرباح ، ومن ثم فالصراع الذى رأته النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت هو صراع داخل الطبقة البرجوازية ، وليس بينها وبين البروليتاريا حسبما تذهب الماركسية " المترجم "

وبحلول عام ١٩٤٩ والخروج من حالة الفوضى التى ميزت مرحلة مابعد الحرب ، ظهرت دولتان ألمانيتان Two Germanies باعتبارهما كيانان سياسيان منفصلان ، حيث جمهورية ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديموقراطية . ,اصبحت الأولى جزءا من حلف الأطلنطى Nato الغربى ، هذا إلى جانب أنها حافظت على بقاء الاقتصاد الرأسمالى والنظام السياسى – الديموقراطى البرجوازى . اما الثانية ، فقد تميزت بنظامها السياسى والاقتصادى الاشتراكى ، ومن ثم نجدها قد شكلت جزئا متكاملاً مع كتلة أوروبا الشرقية الاشتراكية . ويصف رالف دارندورف Ralf Dahrendorf التباين الصارخ بين الاثنين بقوله : " إذ قارن الانسان منا فرانكفورت وليبزج ، أو دسلدورف وستاد كارل ماركس Karl Marx Stadt ، بل أنه إذا قارن بين شرق وغرب برلين اليوم فإنه من المشكوك فيه أن يصل الانسان الى نتيجة تؤكد أن هاتين المدينتين كاناتا تنتميان الى نفس المجتمع . " وقد يندهش عالم الاجتماع حينئذ ثم يتساءل " كيف استطاعت كل هذه الاختلافات أن تظهر فى أقل من ٢٠ سنة " وفى حين تميزت ألمانيا الشرقية بسيطرة الصفوة السياسية على تحديثها " فإن النمو الاقتصادى المتفجر يتعبر هو الخاصية المسيطرة على تاريخ جمهورية ألمانيا الاتحادية القصير والمحدود . " وفى حين تمكنت ألمانيا الشرقية من إنجاز " برنامج التصنيع الثانى " باعتباره مفروضا مرة أخرى من أعلى نجد أن مجتمع ألمانيا الغربية فيما بعد ١٩٤٨ قد أعيد بناؤه تحت تأثير ادعاء اصلاح الأخطاء التى ارتكبتها ألمانية الاستعمارية .

وفى سنة ١٩٦٥ ، حينما أشرف برنامج أديناور Adenauer لإعادة بناء ألمانيا على الانتهاء . [١] . وأثناء ذلك كان دارندوف الليبرالى

١- بالطبع لم يكن المؤلف يتوقع التطورات التى حدثت أخيرا فى الكتلة الاشتراكية ، وبخاصة أوروبا الشرقية . حيث تميزت هذه التطورات بثلاثة أبعاد ، ويتمثل البعد الأول فى بداية الانفراج على الغرب ، الأمر الذى أدى الى نتيجتين . الأولى بداية النظرة المقارنة بين أسلوبى الحياة فى المعسكر الرأسمالى والمعسكر الاشتراكى . ومن ثم كانت=

ما يزال يلاحظ اتجاهاتا كثيرة ، " مضادة للثورة وهى الاتجاهات التـــى تشكل من وجهة نظره " عودة الى ما قبل البناء الحديث " حيث المبالغـة فى التأكيد على الامتيازات الأبويـــة المؤكـــدة فـــى الدســتور ، وهـــى الامتيازات المضادة لعملية العلمانية ، والتى تساعد بطريقة جانبية علـــى التعجيل من حياة مجتمع وجد فى غير زمانه . والى جانب أن ميزانيتـــه الشاملة قد كرست تطورات ما بعد الحرب ، نجده قد أوجز الاختــــلاف بين ألمانيا الاتحادية وألمانيا الاستعمارية عن طريق التأكيد بأن " النزعة الفاشية ذات الطبيعة التقليدية أصبحت مستحيلة فى المجتمع الألمــــانى " الحالى وخلال ذلك تم التسليم بالتأثير الاجتماعى " للمعجزة الاقتصادية " التى حققتها ألمانيا الغربية فى كل مجالات وتنظيمات المجتمع الألمانـــى . وفى هذا الصدد أشار دارندرورف الى " ظهور الصفوة الاقتصاديـــة " الجديدة باعتبارها واحدة من أكثر الحقائق دلالة على وقوع التغير . وهى الصفوة التى تختلف من حيث تكوينها عن الصفوات الاقتصادية الســابقة

=نتيجة المقارنة لصالح الأول على حساب الأخير . والثانية تمثلت فـــى الركـــود الـــذى أصاب النمو الاقتصادى فى أوروبا الشرقية . ونتيجة لذلك بدأ البعد الثانى حيـــث حـــاول الغرب التغلغل من خلاله فى المعسكر الاشتراكى ، مرة من خلال إدعاء حمايـــة حقـــوق الانسان ، ومرة أخرى من خلال خلق فجوة بين الطبقة العاملة والحزب الشـــيوعى فـــى المجتمعات الاشتراكية ، مثال إلى ذلك ما حدث فى بولندا ، ومـــرة ثالثـــة مـــن خـــلال المساعدات التى بدأ يقدمها لبعض الدول الاشتراكية مثل رومانيا ، بولندا ، يوغوســلافيا ، بحيث أسلمت هذه التفاعلات الى البعد الثالث الذى تمثل فى الأزمة البنائية التى بدأت تبرز داخل المجتمعات الاشتراكية ، حيث التناقض بين التوجهات الأيديولوجية الاشتراكية مـــن ناحية ، والمشاعر القومية والدينية من ناحية ثانية ، مـــع ازدهـــار الأخـــيرة ، وحيث التناقضات بين الجماهير من ناحية والحزب الشيوعى من ناحية أخـــرى ، بحيـــث نجد أن البلاد الاشتراكية بدأت تخوض عمليات اصلاح أو اعادة مراجعة دفعتـــها ، فـــى اتجاه الارتباط بالمعسكر الرأسمالى أو على الأقل التقدم نحو تبنى مقولاته . أبرز ما فـــى هذه التطورات انهيار سور برلين الذى كان يفصل بين الدولتين الألمانيتين ، وطرح مسألة توحيد ألمانيا من جديد وهو الأمر الذى انتهى بالتوحيد الفعلـــى لألمانيـــا وفقـــا للنمـــوذج الرأسمالى الغربى . وهى قضية سوف تؤثر فى المستقبل على طبيعة شـــبكة العلاقـــات الدولية من ناحية ، ومن ناحية ثانية على التوازن الدولى . ومـــا زلنـــا نتـــابع تداعيـــات الأحداث توقعا لظهور نظام عالمى جديد . " المترجم " .

تاريخيا عليها " ويعتبر دارندروف أن ظهور عالم تسوده القيم السـامية من أكثر الحقائق أهمية وإيجابية (٢) .

وعلاوة على ذلك يشـير الملاحظـون النقديـون الـى اسـتمرار المشكلات التى لم تجد فى نطاق ألمانيا النازية والاستعمارية حلا لـها ، وانتقالها الى جمهورية ألمانيا الغربية . وفى هذا الإطار يعتبر التركـيز المتزايد للثروة ووسائل الإنتاج واحدة من هذه المشكلات ، واستنادا الـى ذلك يؤكد المؤرخ ايمانويل جيـس Immanuel Geiss " أن الدوائـر القيادية فى ألمانيا الغربية قد ظلت هى ذاتها منذ Wilhelmain Reich " (٣) .

وقد كانت ألمانيا فى فترة ما بعد الحرب هى المجتمع الذى رجـع اليه هوركهايمر وأدورنو فى عام ١٩٤٩ ، مع اعتقاد بأنهم ينبغـى أن يصبحوا قادرين على العمل هناك أكثر من أى مكان آخر ، سواء علـى مستوى " النظرية أو مستوى الممارسة " . ومن ثم فقد أعيد بناء المعـهد وفتحه فى فرانكفورت am Main فى سنة ١٩٥١ ، وهى السنة التـى أصبح فيها هوركهايمر رئيسا لجامعة فرانكفورت .

وقبل أن نناقش مهمة النظرية النقدية فى فرانكفـورت am Main فى السنوات التالية للحرب . فإن علينا أن نوضح الحالة العامة التى كان عليها علم الاجتماع الألمانى فى الفترة التالية للحرب . إذ كان على علم الاجتماع الألمانى أن يؤسس بداية جديـدة فـى سـنة ١٩٤٥ . حيـث تأرجحت حالة علم الاجتماع فى عام ١٩٣٣ بين وضعين . فـهو إمـا يكون قد نفى (من خلال نفى أو هرب مفكريه) ، وإما قد أصبح جـزءا من النظرية النازية الى العالم Weltanschauug . فقد خاف النـازيون من علم الاجتماع وكرهوه . حيث نظروا اليه باعتباره العلم الذى يمتلـك القدرة على كشف الخرفات الاجتماعية .

وبعبارة أدورنو " لا تعتبر كراهية الاشتراكيون القوميون عن شئ أكثر من الخوف البسيط من ان تؤدى هذه المعرفة الى كشف القوى الحقيقية الحاكمة للمجتمع ، وعن تباين المصالح وعلاقات القوة " (٤) . ومن ثم فقد رفض التصريح بإجراء البحث الامبيريقى كلية . فى هذا الاطار غادر معظم علماء الاجتماع ألمانيا فى الحال ، إما بسبب توقعهم للإبادة الشخصية بسبب آرائهم السياسية أو بسبب أصولهم السلالية ، أو سعيا للتقليص الواضح لدورهم الأكاديمى – حيث ذهب كارل مانهايم الى إنجلترا وتيودور جيجر Theodor Geiger الى الدنمارك ، ورينيه كوينج Rene Konig الى سويسرا . وذهب أعضاء مدرسة فرانكفورت الى الولايات المتحدة [١] واعتنق قليل من علماء الاجتماع الباقين الأيديولوجيا النازية . الى جانب ذلك حاول بعض أعضاء جيل الشباب من علماء الاجتماع أن يتجنبوا فى بحوثهم المجالات ذات الحساسية الأيديولوجية . وأصبح علم الفولكلور الذى يتضمن توجيها أيديولوجيا قويا ، هو البديل لعلم الاجتماع . وقد علق رينيه كوينج على هذا الموقف قائلا :

(كان على هؤلاء الذين بقيوا فى ألمانيا أن يظلوا صامتين ، إذ نجدهم لم ينضموا الى مجموعة يمينية شبيهة بعلماء الاجتماع الذين تكيفوا مع الاشتراكية القومية ، من هؤلاء على سبيل المثال هانز فرير Hans Freyer ، أو الى مجموعة من العلماء المجردين من المبادئ الأخلاقية لكونهم الذين ارتبطوا بالنازية من أمثال جانثر إبسن Gunther

١- من الملاحظ أن هجرة أعضاء مدرسة فرانكفورت الى الولايات المتحدة الأمريكية ، هى التى شكلت أساسا لنشأة المدرسة النقدية هناك . وفى هذا الاطار تحول هدف المدرسة النقدية من تطوير القضايا الماركسية لكى تلائم الواقع المتغير ، الى هدف جديد يتمثل فى اتجاهها نحو تبنى موقف الانسان فى مواجهة بطش النظام . وقد كانت بذلك تحاول الحفاظ على أقليتها فى مواجهة المؤسسة الأمريكية خوفا من أن تتحول الى ذات الطبيعة والسلوكيات الفاشية . وهو الأمر الذى جعل نقدها يتجه بالأساس الى سطوة النظام وقهره وتجاوزه لنطاقات حرية الانسان . " المترجم "

Ipsen ، أندرياس والتر Andreas Walther ، وكارل هاينز فيير Karl Henz Pfoffer من بين كثيرين آخرين) (٥) [١] .

وخلال هذه الفترة واجه علم الاجتماع الجديد الناشئ أربعة عقبات أساسية :

وتتمثل العقبة الأولى فى اتجاه المجتمع الى حل المشكلات ذات الأولوية ، مثل توفير ضرورات الحياة الأساسية ، بحيث لم يترك ذلك مجالا كبيرا للجهود الثقافية فى الفترة التالية للحرب . وتتمثل العقبة الثانية فى تمكن اثنى عشر عاما من الحكم النازى من خلق فراغ فى الحياة الأكاديمية الى جانب الانعزال عن التطورات العالمية التى أصبحت يعمل بها . وهو الفراغ والانعزال الذى ينبغى تجاوزه . وتتحدد العقبة الثالثة بأن افتقاد تقليد البحث الامبيريقى الى جانب المكانة الغامضة التى يحتلها علم الاجتماع فى اطار الحياة الاكاديمية . أدى الى اضافة مشكلات جديدة بالنسبة للبدايات الحديثة للعلم . فقد كان على أدورنو أن يدافع عن أهمية تكنيكات البحث الامبيريقى ، على الأقل بعد رجوعه مباشرة . وعلى ذلك فبينما نجد أن أدورنو ينتقد جوانب التطرف فى علم الاجتماع الألمانى ، وهى الجوانب التى لها جذورها فى التراث الثقافى للعلم . نجده يعلن بنوع من التعاطف أن علم الاجتماع ليس علما انسانيا Geisteswissenschaft . هذا الى جانب أنه قد وجه الانتباه الى الحاجة الملحة الى التصحيح من خلال البحث الامبيريقى (٦) . وقد قيل لى أنه كان مايزال هناك ميلا لإخفاء الظواهر المجتمعية الواضحة

---

١ – من المنطقى أن يلقى أى عالم اجتماع ارتبط بأيديولوجيا المجتمع الألمانى أو ارتبط بالتوجهات النازية إدانة رواد فرانكفورت له . وهو الأمر الذى ينبغى أن نأخذه فى الاعتبار . فالإدانة تمت من وجهة النظر اليهودية التى لاقى أصحابها الأمرين من النظام النازى . غير أن ذلك لا يعنى ادانتهم من وجهة النظر الوطنية خلال هذه الفترة . فمن المنطقى والمطلوب أن يكون عالم الاجتماع لديه التزاما إجتماعيا بقضايا مجتمعه الوطنية والقومية " المترجم " .

فى اطار المقولات البراقة والطموحة ، ويعتبر القضاء على هذه الظواهر المقنعة إحدى المهام الأساسية للبحث الامبيريقى ، ولقد تأمل هوركهايمر بالمثل المكانة الغامضة التى يحتلها علم الاجتماع فى النطاق الأكاديمى اللألمانى قائلا :

(على نقيض ماهو قائم فى أمريكا وفرنسا ... لم يمتلك علم الاجتماع فى ألمانيا مكانة متفقا عليها داخل البناء العلمى المتدرج . حيث رتب بين العلوم الاجتماعية التى تضم عادة الاقتصاد وعلم السياسية ومن ثم فالعلم الاجتماعى فى ألمانيا لا يمكن أن يتطابق مع ما هو معروف وشائع عن العلم الاجتماعى فى الولايات المتحدة) (٧) .

وتتعلق العقبة الرابعة فى أن الجمهور العام منذ البدايات الأولى كان حائرا فيما يتعلق بالموافقة على علم الاجتماع كنظام عقلى يقف على قدم المساواة مع الفروع الأخرى للعلم ، وربما كان رافضا لذلك ، وقد تأكد هذا الاتجاه بصفة خاصة بعد أن شارك كثير من الدارسين لعلم الاجتماع فى حركة ثورة الشباب فى نهاية الستينات من هذا القرن . وقد عبر هيلموت شميدت Helmut Schmidt وهو عضو بارز فى البوندستاج Bundestag (البرلمان الألمانى) بصورة صريحة الى حد كبير عن وجهة النظر التى يعتنقها الجمهور الألمانى فى عبارته :

(نحن لا نحتاج إلى هذا العدد الكبير من علماء الاجتماع وعلماء السياسة الذين تخرجهم جامعاتنا حاليا . نحن نحتاج الى مهنيين يمتهنون مهنا حقيقية ، مهنا يحتاجها المجتمع بصورة ملحة ، فما يحتاجه المجتمع من اليوم مهنا ذات طبيعة عملية) (٨) .

ويبدو أن هناك ثلاثة أحداث اجتماعية – اقتصادية هى التى حددت طبيعة الاهتمام النظرى لمدرسة فرانكفورت بعد عودتها الى أوروبا ،

الأولى : الاستقرار المستمر والوفرة المتزايدة التى تمتعت بها المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ، وهى التطورات التى جعلت من غير المحتمل قيام الثورة الاشتراكية فى الغرب ، وبتعبير أدرونو " لقد دبت الحياة فى الفلسفة التى يبدو أنها قد أهملت لفترة لأن لحظة تحققها قد ضاعت " (٩) . فقد تميزت هذه الفترة بموقف " تسوده ممارسة متأخرة بلا نهاية " (١٠) . أما الحادثة الثانية فتتمثل فى خبرة أشوفيتز Auschwitz المؤلمة ، والتى عبر عنها أدورنو بقوله المأثور : " أنه لا وجود لشعر بعد أشوفيتز . " وتتصل الحادثة الثالثة بالتطهير المستمر الذى قام به النظام السوفيتى الستالينى المرعب ، ذو الطبيعة البيروقراطية الصارمة . وهو النظام الذى قتل الأمال الحالية فى بناء مجتمع اشتراكى من الدرجة الأولى فى الشرق . فلم يستطع كل من ماركس أو إنجلز أن يتنبأ بفشل الثورة الذى أصبح واضحا ، ولا بالمكان الذى نجحت فيه ... " (١١) .

وفى هذا الإطار نجد أن موقف مرسة فرانكفورت من الاتحاد السوفيتى قد تأرجح بين الصمت والإدانة ، بين المساواة بين النزعة الشمولية الحمراء والنزعة الشمولية ذات اللون البنى . بل أننا نجد المدرسة قد تجاوزت ذلك الى حد الكراهية الصريحة وهو الأمر الذى اتضح بصفة خاصة فى كتابات هوركهايمر [١] .

١- تتحدد كراهية مدرسة فرانكفورت للاتحاد الاسوفيتى والثورة الاشتراكية التى حدثت فيه لثلاثة اعتبارات . أول هذه الاعتبارات أن النظام السوفيتى - من وجهة نظر مفكرى هذه المدرسة – نظام شمولى يتجانس فى جوانب كثيرة مع النظام الفاشى الذى ساد ألمانيا فترة ما قبل الحرب ، والذى ذاق اليهود على يديه الهوان ، والثانى أن النظام السوفيتى نظام يؤكد على ديكتاتورية البروليتاريا فى مقابل القضاء على الطبقة البرجوازية التى ينتمى مفكروا مدرسة فرانكفورت إليها ويدافعون عن وجودها . أما الاعتبار الثالث فيتمثل فى موقف النظام السوفيتى من الجماعة اليهودية ، حيث حاول النظام السوفيتى خلق مساواة بينها والجماعات القومية والدينية الأخرى ، عن طريق الغاء كافة الحواجز الدينية والقومية ، وذلك بهدف تأكيد إخلاص الجميع للفكر الاشتراكى ، وهو ما ترفضه=

وقد استمرت رفقة هوركهايمر وأدورنو التى تأسست فى كاليفورنيا فى بداية الأربعينات من القرن العشرين ، فى فرانكفورت فى الخمسينات والستينات من هذا القرن . حيث نجدهم قد أكدوا المرة تلو الأخرى على اتحاد أفكارهما ، هذا الى جانب أنهم قد إشتركوا فى تأليف مؤلفات عديدة فى الفلسفة وعلم الاجتماع ، وبصورة خاصة مؤلف Soziologische Exkurse فى سنة ١٩٥٦ والعدد الثانى من المجلة الاجتماعية Sociologica II فى سنة ١٩٦٢ ، وهى المؤلفات التى تقترب كثيرا من الصياغات النظرية المتعلقة بعلم اجتماع مدرسة فرانكفورت . وبرغم أن كلا من هوركهايمر وأدورنو قد رددا كثرا وحدة أو اتحاد أفكارهما ، فإنهما بعد رجوعهما الى فرانكفورت على الماين am Main قد اضطلعا بمهام مختلفة ، حيث نجد أن أدورنو قد اضطلع بنصيب الأسد فى نقد علم الاجتماع الوضعى والامبيريقى ، وأيضا فى تقنين نظرية عن المجتمع وصلت الى أقصى اكتمالها فى مؤلفه الجدل السلبى Negative Dialektik (حيث كان هوركهايمر استاذا زائرا لجامعة شيكاغو فى الفترة بين ١٩٥٤ – ١٩٥٩ ، ثم أصبح أستاذا فخريا فى سنة ١٩٦٠) واستنادا الى ذلك سوف يركز هذا الفصل أساسا على كتابات أدورنو الفلسفية والاجتماعية ، مع بعض الاشارات العارضة لكتابات هوركهايمر فى الخمسنات من القرن العشرين ، ثم مناقشة موجزة لأفاكره الفلسفية الأخيرة .

=الجماعةاليهودية ، التى تشعر دائما بتميزها الخاص ، البرهنة على ذلك أن غالبية المنشقين= السوفييت على النظام الاشتراكى فى السنوات الأخيرة كـ ا من اليهود أساسا . " المترجم "

٢- نحو تقنين علم اجتماع فرانكفورت

تدور هذه المناقشة حول محاولة تقنين النظرية النقدية باعتبارها علم إجتماع ، تحت عنوان جديد هو " نظرية المجتمع " . وهو الجهد الذى تم بعد عودة كل كم هوركهايمر وأدورنو الى فرانكفورت . وفى هذا الاطار فإن جهدا قد بذل لتحديد علاقة النظرية النقدية بالمدارس التقليدية فى علم الاجتماع . عن طريق فحص نقد مدرسة فرانكفورت للاتجاهات السوسيولوجية الوضعية والامبيريقية من ناحية ، ثم توضيح موقفها النظرى والمنهجى من ناحية أخرى ، فنحن نبحث لتوضيح الغموض التصورى فى علم اجتماع فرانكفورت ، وكيف تجلى ذلك فى اطار تأكيدها على تمييع الفصل أو التمييز بين العلم والفن .

ويواجه تقييم علم اجتماع فرانكفورت ، أو نظرية المجتمع كما يفضل أعضائها تسميتها فيما بعد عام ١٩٥٠ (١) . عديدا من الصعوبات ، لأن هوركهايمر وأدورنو لم يصلا بعد الى أى تقنين نسقى لنظريتهما السوسيولوجية ، ويبدو أنهم بذلك كانوا يرفضون مجلدات الفكر الأكاديمى الألمانى التقليدى ، كعام اجتماع جورج زيمل Simmel ونظرية فيبر عن الاقتصاد والمجتمع Wirstchaft und Gesellschaf .

١- استخدم كل من هوركهايمر زأدورنو المصطلحات التالية بالتناوب كعنوان لنظريتهما الاجتماعية وبخاصة بعد ١٩٥٠ . هذه المصطلحات هى : النظرية النقدية ، النظرية النقدية للمجتمع ، علم المجتمع ، علم الاجتماع المهتم بأسس المذهب الدياليكتيكى للمجتمع أو ببساطة نظرية المجتمع . وسوف يستخدم المصطلح الأخير . أى مصطلح علم اجتماع فرانكفورت فى هذه المناقشة لتمييزه عن نظرية هوركهايمر النقدية فى الثلاثينات من هذا القرن . وقد تجنب كل من هوركهايمر وأدورنو استخدام مصطلح علم الاجتماع ، وقد قال عنه أدورنو أنها " كلمة شائعة وبغيضة Detestably

وفى هذا الاطار يتخلق لدى الإنسان فى بعض الأحيان إنطباعا بأنه بينما كان هوركهايمر وأدورنو يعكفان على صياغة نظرية عن المجتمع ، فإنهم نظروا الى علم الاجتماع باعتباره علما ثانويا أو إضافيا [1] . لذلك فقد عملوا على تأسيس نظرية عن المجتمع . ويمكن اعتبار هذا الاتجاه من بقايا موقف هوركهايمر الأول كما عبر نفسه عنه فى سنة ١٩٣٧ : " تواجه مهمة تحويل النظرية النقدية الى علم اجتماع ... بصعوبات بالغة " (١٣) .

وإرتباطا بذلك أكدت مدرسة فرانكفورت مرة تلو الأخرى على عدم إمكانية فصل الفلسفة عن علم الاجتماع لأسباب كثيرة . أولا لأن كلا من هوركهايمر وأدورنو قد تقلدا مناصب أستاذ كرسى الفلسفة وعلم الاجتماع فى جامعة فرانكفورت بعد رجوعهما الى ألمانيا . وثانيا لأنهم قد ميعوا الحدود المنهجية والتصورية للعلوم المتجاورة . هذا إلى جانب أنهم قد أصروا على استخدام المفاهيم الفلسفية الأساسية كالكلية Totality وأيضا استيعاب بعض العناصر من علم النفس الفلسفى لدلتاى ، وعلم النفس التأملى لفرويد ، وتقضى أى مناقشة لعلم

١- يبدو أن عداء منظرى مدرسة فرانكفورت لعلم الاجتماع الألمانى خلال هذه الفترة كان بسبب تاثير ثلاثة عوامل : الأول أن علم الاجتماع الألمانى وبخاصة أفكار ماكس فيبر وجورج زيمل لم يتفقا مع نقطة انطلاق مدرسة فرانكفورت التى انطلقت بدايات ماركسية فى المرحلة الأولى وإن لم تحافظ على خط الانطلاق بعد ذلك ، بل إننا نجد أن بعض المفكرين قدموا نظريات مضادة للماركسية كنقطة انطلاق وعلى رأسهم ماكس فيبر ، ومن ناحية ثانية فإننا نجد أن علم الاجتماع الألمانى كعنصر فى نسق التفكير العلمى اهتم بمشكلات العلم أو المجتمع كسياق اجتماعى لهذا العلم ، من ثم لم يتوقف كثيرا عند أزمة الجماعة اليهودية ، فقد اهتم زيميل بأشكال التجمعات البشرية والعمليات الأساسية فيها ، بينما اهتم فيبر بقضايا المنهج فى العلم الى جانب مشروعه النظرى الذى يدور حول إبراز فاعلية القيم البروتستينية فى نشأة النظام الرأسمالى اضافة الى البيروقراطية ونماذج السلطة . ويتمثل العامل الثالث فى أن بعض من علماء الاجتماع كانوا ذوى توجهات سياسية تتوافق مع النظام ومنهم ماكس فيبر " المترجم "

الاجتماع النظرى Pure لمدرسة فرانكفورت فى اطار معالجة جزئية غريبة على روحه ، نظرا لشيوع بُعد الكلية فيه . وكذلك يعتبر تشريح إنجازات مدرسة فرانكفورت ومناقشة موضوعاتها الواحد تلو الأخر من أكثر الممارسات التى يعترض لها أى باحث يؤمن بأفكارها .

ومنذ البداية نجد أن هدف البحث الاجتماعى Sozialforschung ، هو البحث الذى تشارك فيه أنساق معرفية متعددة . إذ يشير الالتزام بالتقسيم الأكاديمى الى الموافقة على تقسيم العمل السائد فى ~~المجتمع~~ الرأسمالى ، وذلك ينفى ~~هدف النظرية~~ النقدية لتجاوز هذا النمط من تقسيم العمل ، غير أنه بعد أن فشل برنامج هوركهايمر الكبير فى عام ١٩٣٧ ، تم الحفاظ على النزعة المضادة للتجزئة ولكن بصورة " ترنسندنتالية " معدلة ، كما عبر أدورنو عن ذلك :

(إذ كان الانسان منا قد تحدث فى المناقشات الصوفية الأخيرة المضادة للدراما anti – drama والمضادة للبطولة anti – hero فإن الدياليكتيك السلبى ينبغى أن يعرف بأنه ضد النسق anti – system ، بل أن العمل على تجاوز الفصل الشائع للفلسفة البحتة عن المجال العلمى العينى أو الصورى يعتبر أحد دوافعه الأساسية) (١٤) [١] .

١- من العوامل الأساسية لعدم اتفاق منظرى مدرسة فرانكفورت مع علم الاجتماع الألمانى . أن علم الاجتماع الألمانى يعتبر عنصرا فى بناء علم الاجتماع العام الذى انفصل عن الفلسفة ، وظهور تنظيره الخاص الذى أصبحت مقولاته النظرية توجه عمليات البحث فيه . بينما نجد أن أفكار مدرسة فرانكفورت ترجع مرة أخرى الى الفلسفة ، فهى تعالج قضايا الانسان فى مواجهة النظام الاجتماعى ، بصورة عامة وشاملة دون التأكيد على سياق اجتماعى محدد ، ومن ثم فأفكارهم تعبر عن خبرة ذاتية= =فى مواجهة العالم المحيط . وبذلك يمكن وضعها الى جانب الفلسفة الوجودية ، أو فلسفة العبث لألبير كامو ، باعتبارها رافدا فكريا له طابعه الفلسفى . " المترجم "

٣- نقد علم الاجتماع الوضعى الامبيريقى

شرع هوركهايمر وأدورنو فى محاولة لتقنين علم اجتماع فرانكفورت من خلال المواجهة الجدلية للنظريات المضادة التى تنتمى الى علم الاجتماع الوضعى أو علم الاجتماع الموجه إمبيريقيا ، حيث أخضعت قضايا هى لنوع من النقد الدقيق وإعادة فحص أفكارهما الأساسية . وذلك من خلال التركيز على الموضوعات السياسية التى برزت من خلال التطور التاريخى . وبإختصار نوجز النقد الذى وجهته مدرسة فرانكفورت حسبما يلى :

١-تحرك علم الاجتماع نحو الفصل الحتمى بين النظرية والمناهج من ناحية ، والمجالات العينية من ناحية أخرى .

٢-أدى الاهتمام المتطرف بنطاقات البحث المحدودة ، والتركيز على القضايا الجزئية الى افتقاد علم الاجتماع للكلية كنتيجة لذلك .

٣-افتقد علم الاجتماع معنى الظواهر المجتمعية أثناء سعيه وراء التكميم Quantification والدقة العلمية .

٤-أدى التزام علم الاجتماع الدقيق بنموذج العلم الطبيعى الى فصل الأخلاق عن المعرفة التى يمكن التثبت من صحتها . والى استبعاد الموقف الأخلاقى للباحث العلمى ، ومن ثم الى التأكيد على علم الاجتماع باعتباره علما مجردا من القيمة ، اعنى أن له طابعا آدائيا بالنسبة للقوى الاجتماعية المسيطرة ، وذلك باعتباره وسيلة للتحكم والسيطرة (١) .

---

١ – ثمة اختلاف واضح بين منطلقات نظرية المجتمع لمدرسة فرانكفورت وبين نظرية علم اجتماع العام . فعلى حين يسعى علم الاجتماع العام من اجل الحفاظ على المجتمع=

٥-أدى الفصل الصارم للعلم عن الفن الى افقار المشروع السوسيولوجى .

٦-أدت محاكاة نموذج العلم الطبيعى الى استبعاد التأمل ، وهو مصدر البصيرة النافذة فى الآليات المجتمعية ، ومن وجهة نظر أدورنو :

(تتداخل كل الاجراءات المهجية التى تقع فى نطاق ما يسمى بعلم الاجتماع كنظام عقلى أكاديمى فقط فى اطار معنى مجرد للغاية ، يؤكد على أنها جميعا تتناول بطريقة ما الظواهر المجتمعية . وبرغم ذلك فليس هناك اتحاد بين المنهج والموضوع) (١٥) .

وبالنسبة لموضوع البحث ، فليس هناك جديد فى علم الاجتماع وبرغم أن مذهب المجتمع ، علم الاجتماع أو نظرية المجتمع لها جذورها التاريخية المختلفة . حيث يمكن تتبع البدايات الفكرية لنظرية المجتمع حتى أفلاطون . وفى اطار ذلك تتشابه الفلسفة ونظرية المجتمع بصورة قوية . ويقدم مؤلف أفلاطون " الجمهورية Republic " – وهو أحد الكتب الرئيسية فى الفلسفة اليونانية – مذهبا للمجتمع الفاضل مرتبطا بنقد المجتمع الذى عاصره أفلاطون . وقد استخلص أفلاطون من ذلك أن التغيرات الدستورية قد تؤدى اسبدال حكم القوى بحكم الأقوى منه ، ورأى أن الحل الحقيقى يكمن فى التنظيم العقلانى لكل مجتمع . على أن يتزامن ذلك مع ضرورة تنشئة المواطنين على الفضيلة

=من حيث بقائه واستمراره ، ومن ثم اهتمامه بعمليات التنشئة والتنظيم والتكيف والضبط وحيث تعتبر أفكاره استمرارا لتراث التنوير الى حد كبير ، نجد أن نظرية مدرسة فرانكفورت تنطلق من نقد النظام الشمولى المتسلط ، ونقد النزعات الأبوية ، والسعى الى تحرير الانسان من قهر النظام ، رفض الكبت والكبت الفائض . فى هذا الاطار يمكن اعتبار علم الاجتماع الأول هو علم اجتماع النظام ، بينما علم الاجتماع الثانى هو علم اجتماع الانسان فى مواجهة النظام " المترجم " .

فقد اعتبر أن إدراك الفضيلة وتحديدها يشكل المهمة الدائمة للفلسفة . وهى الفلسفة التى تصبح بدورها أساسا للمجتمع العادل والفاضل .

وهنا نجد لدينا تداخلا أصيلا بين النظرية الاجتماعية والميتافيزيقا (مذهب الفكرة الجوهرية والخالدة) وفلفسة المعرفة . وقد أثر تصور أفلاطون على كل النظربات الاجتماعية التالية ، حيث نجدأن كل أشكال المجتمع المثالى التى قدمها المفكرون قد اتخذت من المجتمع القائم نقطة بداية لها .

ولتوضيح العلاقة الجدلية بين النظرية الاجتماعية والحقيقة المجتمعية ، نطرح سؤلا يتعلق بكيف أنه مع تحلل المجتمع الاقطاعى المغلق ذو التنظيم المتدرج ، أمكن استبدال مقولات الثبات بمقولات التطور ، واستبدال تاريخ الفلسفة بالأنطولوجيا كأساس لبناء المجتمع المثالى ، فمع تطور العلوم الطبيعية المنضبطة ظهرت الحاجة الى علم دقيق للمجتمع ، واسبدلت الدقة باعتبارها معيارا لفكرة المجتمع العادل والحقيقى ، وأدى ذلك الى تجنب " البحث الذى لا نفع له فى الطبيعة الداخلية العميقة غير المتيسرة ، أو فى التشكيلات الأساسية للظواهر الناشئة " (١٦) .

وتعتبر الملاحظة ، والتجريب ، والمقارنة ، هى المناهج التى رآها أوجست كونت Auguste Conte ملائمة للعلم الجديد للمجتمع السائد استنادا الى مسلمة " أن الحركات المجتمعية خاصعة لقوانين طبيعية ثابتة لا تتغير " واستبدل الوعى بالكلية الدينامية للمجتمع بالمناهج الوضعية . وانفصلت النظرية عن الممارسة لأن خلطهما قد يضر بهما معا . وهنا نجد أن عنصر الاستسلام كامن فى علم المجتمع الوضعى منذ بدايته . فقد كان الاعتقاد فى قابلية المجتمع الانسانى للكمال قضية خلافية فى الفترة التى عاشها كونت . فبالرغم من فكرته عن التقدم ووجهة نظره فى فلسفة التاريخ فى أكثر مستوياتها عمقا نجد " أن علم الاجتماع عند

كونت لا تاريخي أساسا " (١٧) . هذا الى جانب أنه كان صوفيا أيضا وذلك بسبب وجهة نظره القائلة بأنه إذا حدثت تدخلات – مثل الثورات – مضادة للقوانين المنبثقة عن مثل هذه التطورات الاجتماعية ، فإن المجتمع بالضرورة قد ينهار . وفى هذا الاطار فإن علم الاجتماع قد يساعد فى أحسن الأحوال على إختزال الأزمات . إذ يؤكد كونت أن " مانقصده ليس السيطرة على الظواهر ولكن تعديل تطورها التلقائى ، وهو الأمر الذى يتطلب المعرفة السابقة بالقوانين التى تحكمها " (١٨) . غير أن هذا الموقف يقود فى النهاية الى الموافقة على ما هو كائن :

(مكتوب بصراحة على جماهير جنسنا ، حسب قدرها الذى لا يمكن تجاوزه ، أن تظل مكونة من البشر الذين يعيشون بطريقة أكثر أو أقل استقرارا منفصلين عن الثمار الناتجة عمن عملهم اليومى . ومن الواضح أن المشكلة الحقيقية تتمثل فى تحسين الظروف الأساسية لهذه الأغلبية الكاسحة ... وأيضا فى القضاء النهائى على كل الطموحات الفارغة ، والتأمين الكامل للطبقة الحاكمة ضد كل هجمات الفوضى . إذ تعتبر الفلسفة الجديدة هى الفلسفة الوحيدة التى باستطاعتها أن توجه السياسيات ذات الطابع الشعبى " (١٩) .

وفى إطار العقيدة الوضعية يستسلم العقل الى اللاعقل . حيث تعمل الموضوعية المدعاة على إنقاذ المجتمع البرجوازى وتأمين الانتقال الى التنظيم الاجتماعى الجديد الأكثر تقدما واستقرارا . وقد استبدل شعار " أن ما ينبغى عليه أن يغير ما هو كائن " بشعار " الموافقة على ما هو كائن باعتباره ما ينبغى أن يكون " (٢٠) . وفى هذا الاطار قيل ، لنا أن الاستمرارية هى التى ميزت علم الاجتماع الوضعى الذى بدأ منذ كونت الى دوركيم وفيبر وباريتو .

وبمعنى آخر ، فإن افتقاد الاستمرارية هى التى ميزت علم الاجتماع، لأن المجتمع – باعتباره موضوعه الرئيسى – ملئ بالتناقضات . وبالتالى ، فإن على الانسان أن لا يندهش لحقيقة أن " العلم الذى يتناول المجتمع والظواهر المجتمعية والوقائع الإجتماعية لا يمكن أن يصاغ استنادا الى نوع من الاستمرارية " (٢١) .

ويؤكد أدورنو أن بداخل كل محاولة نظرية تهدف الى التأكيد على الانسجام – كما هى الحال النسق البارسونزى الشامل – يوجد جهد ضمنى من أجل القضاء على أى تناقضات حقيقة داخل المجتمع . فى حين أن هذه التناقضات تعتبر عناصر أساسية مكونة فى بنائه وبنفس القناع ، تقهر " الوحدة المثالية للعلم " التناقضات الكامنة فى موضوعه حيث لا يستطيع الاطار التصورى الذى يسعى الى استيعاب كل شئ مجتمعى – ابتداء من التشكيلات المجتمعية المعقدة – أن يصور الحالة التى تمتلئ فيها علاقة الفرد بالمجتمع بالتناقضات ، وذلك بسبب المصالح الفردية العمياء التى تنطلق لتعوق بناء المجتمع الذى يتم تأسيسه استنادا الى المصالح المجتمعية الجمعية .

ويرجع عدم التجانس " النوعى و المخيف " لعلم الاجتماع الى كونت ، الذى أراد إستنادا الى مثاله فى الإدراك – المستند الى العلم الطبيعى – أن يصوغ الظواهر المجتمعية كما لو كانت متماسكة مثل البرهنة الرياضية . وإستنادا الى ذلك فقد أسف للحالة الراهنة والمحزنة لعلم الاجتماع الذى لم يمتلك حتى هذه اللحظة مستويات الثبات والدقة التى إمتلكتها العلوم الفيزيقية ، وذلك بدلا من التفكير فى الطبيعة الخاصة لعلم الاجتماع والتساؤل حول إمكانية تأسيس التنبؤات فى علم الإجتماع ، بنفس دقتها فى العلوم الطبيعية . ومن ناحية أخرى ، يعتبر علم الاجتماع بالنسبة لكونت فلسفة أيضا ، بل أن كونت نفسه يعتبر فى ذات الوقت

عدوا للفلسفة " أو على الأقل عدوا لفرعها الميتافيزيقى ذى الطابع التأملى (٢٢) .

وقد كان الميل العلمى لعلم كونت الجديد ، رد فعل لمشكلات المجتمع الفرنسى فى الفترة التالية للثورة . وحسبما هو شائع ، فقد قسم كونت علم الاجتماع الى قسمين :

الثبات الذى يتناول النظام فى المجتمع ، والديناميكا التى تكرس نفسها لقضايا التقدم ، ذلك بالرغم من أن اهتمام كونت الرئيسى كان منصبا على الأخير . بمعنى كيف يمكن تحقيق التقدم المنظم " والموجه والذى يمكن السيطرة عليه . ويشترك علم اجتماع كونت مع نظيره عند سان سيمون فى أن لديهما ميلا تكنوقراطيا قويا ، برغم أن الأخير قد أكد الى حد كبير على العنصر الدينامى . وبعبارة أخرى أصبحت التكنولوجيا الاجتماعية هى الفكرة المحورية بالنسبة للعلم الجديد ، وحسبما يذهب أدورنو ، فإن ماركس نفسه قد شارك سان سيمون فى بعض هذا التأرجح – بل أننا نجد أن ماركس فيما يتعلق بهذا الموضوع، قد شارك كونت الذى لم يكن له سوى الإدانة – وذلك حينما بالغ ماركس فى التأكيد على أولوية التكنيك Technique – أعنى قوى الانتاج – فى العملية المجتمعية .

وفى هذا الاطار فإننا نجد أن لكثير من مشكلات علم الاجتماع جذورها فى أصوله المزدوجة والتى تتمثل فى " فلسفة " أوجست كونت من ناحية والتطور التدريجى لتكنيكات البحث الامبيريقى من ناحية ثانية، حيث لم يحدث فى الحقيقة ادماج لخطى التطور هذين . وفيما يتعلق بهذا الموضوع تتبدى مشكلة هامة تتمثل فى الميل نحو توسيع الفجوة بين النظرية والمنهج . حيث إتجه علم المنهج الى تأسيس ذاته كعلم مستقل له نطاقه الخاص ، بحيث اعتبر نفسه مسئولا أساسا عن اثبات أو تكميم ، وإعادة تكرار الاتجاهات والدوافع والآراء الذاتية والأنماط السلوكية ،

وهى كلها موضوعات مستبعدة من التحليل السوسيولوجى للتكوينات المجتمعية الموضوعية . وتتمثل الخطورة الرئيسية هنا فى الاستقلال المتنامى للبناء المنهجى المحدد ، ثم انتشاره فى نطاق علم الاجتماع بكامله ، أو بعبارة أخرى تأسيس أولوية المنهج على كل من النظرية وموضوع البحث .

وكما قلنا " فقد قادت التطورات فعلا الى الموقف الذى أصبح فى نطاقه ينظر الى النظرية فى علم الاجتماع اليوم باعتبارها شرا لابد منه، أو باعتبارها نوعا من تأسيس الفروض وليس باعتبارها شيئا ينبغى أن يوجد لأهميته فى ذاته " (٢٣) . ويعلق أدورنو على هذه الملاحظة المتشائمة قائلا :

" أنه يمكن تسمية علم إجتماع هذا علما بلا مجتمع ، مثلما كان باستطاعة الانسان أن يتحدث منذ خمسين سنة مضت عن علم نفس بلا روح " (٢٤) .

أما فيما يتعلق بالتطورات التى وقعت فى ألمانيا فى الفترة التالية للحرب ، فإننا نجد أن أدورنو يحدد الموقف فى ألمانيا بأنه موقف يتميز فعلا بالانقسام . حيث يحاول بعض أعضاء جيل الكبار تأسيس " أوصاف كلية خاصة بالمشكلات الأساسية للمجتمع المعاصر " بينما يركز أعضاء جيل الشباب ذوى النظرة الشكية على نطاقات الظواهر النوعية والمتداخلة ، وهى النطاقات التى يعتبرونها نطاقات متفق عليها وقابلة للتحقيق " . وبتعبير أدورنو ، يحاول الفريق الأخير أن يتفوق على الأمريكيين فيما يتعلق بنزعتهم الامبيريقية .

٤- الكلية والجدل والشعور الشامل بالذنب

ترتبط قضية إفتقاد الكلية بشدة بنشأة علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر باعتباره " علم الأزمـــة " وانفصالـــه بمجموعـــة مـــن الظواهـــر المجتمعية عن مجال الاقتصاد السياسى . حيث أصر الآباء المؤسســـون مثل أوجست كونت وهربرت سبنسر حينئذ على ضرورة تأسيس علـــم الاجتماع باعتباره علما شاملا . غير أنهم لكونـــهم جعلـــوا الملاحظـــة والتجريب والمقارنة هى منهجه الوحيد ، فإن علم الاجتماع الوضعـــى - نتيجة لذلك - لم يستطع أن يتجاوز الحصر التصنيفى ، كذلك لم يســـتطع إدراك تساند الظواهر الجزئية (العائلية ، الدين ، المهن ، إلخ ...) وقد أدى هذا التوجيه بصورة حتمية الى إفتقاد الكلية ، أعنى التصور الكلـــى للمجتمع .

وكما سوف نذكر لم يعين أدورنو دورا محوريا لمفهوم الكلية فـــى استعراضه لمؤلف كارل مانهايم (الأيديولوجيا واليوتوبيـــا Ideology and Utopia) ومن ثم فالاتهام المطروح يتمثل فى أن :

(الوعى بكلية المجتمع الدينامية قد استبدل بالاستقرار فـــى علـــم الاجتماع الوضعى ، حيث يمكن تأسيس الكل بعد اكتمال جمع القضايـــا الأساسية فقط . وحتى يحدث ذلك فإنه يمكن فهم الكل بمعنى كونه عالماً يتكون من عناصره (٢٥) . فقد أصبحت الموضوعات تناقش فى علـــم الاجتماع حسب أقسامها المجتمعية بدون إلقاء نظرة علوية شاملة علـــى تساندها .

وتلقى الادعاءات الأساسية فيما يتعلق بالعلم الاجتماعى الامبـــيريقى تأييدا - حسبما تذهب النظرية النقدية - طالما أن ردود الفعـــل الذاتيـــة يمكن تحديدها وصياغتها كميا بسهولة أكثر من تصور أبنيـــة المجتمـــع

بكامله ، وهى الأبنية التى تقاوم التناول الامبيريقي المباشـــر . وبذلـك تصبح الدراسة التفصيلية والدقيقة للتفاصيل الاجتماعية مكروهة ، وذلـك لأنه حينما ينظر الى التفاصيل باعتبارها الحقيقة الأكـــثر قـوة بسـبب طبيعتها المباشرة الواضحة ، فإن الإدراك العميق لهذه الكلية لن يصبـح من الممكن تحقيقه . فما زال من القضايا الخلافية حسبما يذهب أدورنو " أن يستطيع الباحث أن يبدأ فى الحقيقة من قيـاس الآراء وردود أفعـال الأفراد لينتهى بإستيعاب البناء الكلى والجوهر الاجتماعى " (٢٦) .

ولا يمكن الاختلاف بين نظرية المجتمع التى لها جذورهـــا عنـد أفلاطون وأرسطو وهيجل ، وبين علـم الاجتمـاع عنـد كونـت فـى الموضوع ولكن فى المفاهيم والمنهج والاتجاهات . وقد تطورت فكـرة نظرية المجتمع إستناداً الى " المبادئ المطلقة للوجود " بينما يعتبر علـم الاجتماع عند كونت تحررا من الثيولوجيا ومحاكاة للعلـوم الطبيعيـة ، ويعنى ذلك أن علم الاجتماع عند كونت يهدف الى تأسيس الإطـرادات والرتباطات السببية .

وتتناول النظرية الجدلية الكيلة المجتمعية ، وقوانين حركة المجتمـع ككل . وهى تهدف بذلك الى الفهم العميق للترابطات المجتمعية الناتجـة عن الشروط البنائية الأساسية ، كعلاقات التبادل . وبذلك يصبـح علـم اجتماع فرانكفورت علما اجتماعيا شاملا Macro – sociology ، لـه صياغته التصورية ومصطلحاته مثل الكلية والجوهر والمظهر ، وهـى المصطلحات التى تعتبر هيجيلية فى أساسها .

فى هذا الاطار أصبحت الكلية كمقولة فلسفية ، ذات أهمية جوهرية بالنسبة لنظرية المجتمع ، حيث يتضمن استخدامها رفض نزعة التجزئـة الأكاديمية Compartmentalization . وفى هذا الاطـار لا تعتـبر

الكلية مقولة تحليلية يمكن التثبت منها عمليا " بل تصبح متاحة أمامة الشرح والتفسير " (٢٧) .

وتعتبر الكلية مقولة جدلية تتعلق بالعلاقات المتبادلة ، وفى هذا الاطار يكتب أدورنو عن " الكلية المجتمعية " قائلا :

(إنها ليست لها حياة خاصة بها ومستقلة عن عناصرها المكونة . فهى تنتج وتعيد انتاج ذاتها من خلال جزئياتها ... وبالقدر الذى تكون فيه (الكلية) منفصلة عن الحياة الخاصة بتعاون عناصرها وتناقضها ، فإنه لا يمكن فهم أى من العناصر ، حتى ولو فى حالة آداؤه الوظيفى بدون النظر الى الكلية ، التى لها جوهرها الكامن فى حركة العناصر . فالنسق ، والجزئية لهما علاقاتهما المتبادلة ، ويمكن فهم أى منهما من خلال هذا التبادل فقط) (٢٨) . [١] .

واستنادا الى ذلك يعتبر المجتمع البرجوازى كلية متناقضة . فهو يوجد من خلال تناقضاته فقط ، وهو لا يمكن أن يلطف هذه التناقضات أو يلغيها .

وبالمثل تعبر الكلية عن مجموعة من العلاقات المتساندة وظيفيا ، وذلك لأن الافراد يعتمدوا على الكلية التى يشكلونها . وأكثر من ذلك ، فإننا نجد أن كل فرد يعتمد على كل فرد آخر داخل هذه الكلية . ويبقى الكل من خلال وحدة الوظائف التى ينجزها أعضاؤه المكونين فقط .

١- واضح هنا أن اللغة التى يستخدمها منظروا مدرسة فرانكفورت متأثرة بمفاهيم وتوجهات علم الاجتماع البرجوازى خاصة البنائية الوظيفية ، حيث يتكرر ذكر رواد علم الاجتماع الغربى ، اضافة الى الحديث بلغة وظيفية واضحة ، حيث الكل الذى يحتوى على الأجزاء ، التى تتبادل مع بعضها البعض من ناحية ، والتى تكتسب معناها من خلال وجودها فى اطار هذا الكل من ناحية ثانية ، وفى ذات الوقت تتضاءل الاستعانة بمفاهيم لغة التحليل الماركسية " المترجم "

ويجيب أدورنو على الانتقادات القائلة بأن الكلية تعتبر مقولة خرافية سابقة على العلم ، وأنها ليست شيئا سوى تلك الفكرة السطحية التى تؤكد أن كل شئ يرتبط بكل شئ آخر [1] قائلا :

(يمثل التجريد المتضمن فى فكرة النسق الذى يستند الى قيمة التبادل وهو الذى يتجاوز كل أشكال التباين الاجتماعى – سيطرة العام على الخاص ، سيطرة المجتمع على أعضائه الذين يأسرهم . إذ لا يعتبر النسق على الاطلاق ظاهرة محايدة اجتماعيا ، كما هى الحال بالنسبة لموقف المنطق فيما يتعلق بعملية الاسناد الى الوحدات ، كما يحدث بالنسبة لمتوسط وقت العمل الاجتماعى الذى ينبغى أن يقترح . إذ تكمن سيطرة البشر على الآخرين من البشر وراء اختزال البشر الى مجرد وسائل لقيمة التبادل أو حوامل لها .

حيث يتخذ التساند الكلى الشكل الواقعى الذى يخضع فيه كل شخص لقانون التبادل إذ رغب فى تجنب القضاء عليه ، بغض النظرعن كون الشخص موجه ذاتيا بالدافع الى الربح أم لا) (٢٩) . وتحدد الكلية كل الجزئيات التى تعتبر مظاهر أو حقائق للخبرة أو التجربة الحالية المباشرة ، والتى يتجلى العام من خلالها ، ويكشف الديالكتيك عن الاختلافات بين العام والخاص وهى الاختلافات التى يفرضها العام

١- تعتبر الكلية أحد المداخل الأساسية فى علم الاجتماع ، فبعد قيام علم الاجتماع وتأسيسه تخلق مدخلين أساسيين . المدخل الكلى الذى يؤكد على ادراك الحقيقة الواقعية بالنظر الى كلية المجتمع ، وطبيعة الدور الذى تؤديه هذه الحقيقة فى اطار الكل ، ومن أهم من بشر بهذا المدخل أميل دوركيم ، والمدخل الجزئى الذى يؤكد على ادراك الواقع باعتباره جمع من العناصر والجزئيات ومن أهم من قال به هربرت سبنسر . غير أننا نلاحظ أن من قالوا بالكلية هم أكثر المفكرين ميلا الى التجريد " ماركس ، دوركيم ، فيبر " . ومن قالوا بالجزئية هم أكثر من المفكرين ميلا الى ملاحظة التفاعلات الواقعية ، مثال ذلك عالم الانثروبولوجيا برنسلاومالينوفسكى ، الذى أكد أنه قد بحث فى جزر التروبرياند عن ميتافيزيقا العقل الجمعى (المرادف للكلية) لدوركيم فلم يجدها " المترجم "

(ليس للكلية حياة خاصة بها تتجاوز ما تضمه من عناصر ، فهى تنتج وتعيد انتاج ذاتها من خلال جزئياتها الخاصة ... ولا يمكن فهم أى عنصر خاص من مجرد آدائه الوظيفى بدون النظر الى الكل ، الذى يفرض جوهوه على حركة الجزء) (٣٠) . وبعبارة أخرى ، هناك علاقة جدلية بين الخاص والعام ، ومن ثم تعتبر النظرة العميقة فى الكلية هى الفكرة الهامة فى هذا الصدد .

وفى نطاق دياليكيتيك نظرية المجتمع ، يحتل العام The general (الكلية ، كلية المجتمع ، الموضوع) الأولوية أو الأسبقية على ما هو خاص ، وله تأثير حتمى عليه ، وذلك يعنى أن المجتمع يسبق الفرد وذلك حسبما يذهب أدورنو قائلا :

لقد أصبح الدياليكيتك ماديا فقط من خلال الإنتقال الى أولوية الموضوع " (٣١) . غير أن هذه الأولوية لا تعنى أن يقود التطور الاقتصادى للمجتمع الرأسمالى حتماً إلى الاشتراكية وذلك لأن " ترقع ماركس بأن أولوية قوى الانتاج فى العملية التاريخية سوف تؤدى بالضرورة الى تمزيق علاقات الانتاج كان توقعا مغرقا فى التفاؤل " (٣٢) .

ويؤدى نفى النفى ، فى الجدل الهيجيلى والماركسى ، الى وضع أعلى من الوضع السابق للشئ . غير أن ذلك لم يعد ممكنا بعد أشوفيتز Auschwitz وحيث يعتبر الجدل السلبى لأدورنو هو " نفى النفى الذى لن يصبح ثابتا " (٣٣) .

ووفقا لذلك لا ينظر الى الكلية باعتبارها مقولة إثبات أو تأكيد ، ولكن بإعتبارها مقولة نقدية وفى السنوات الأولى لمنتصف الأربعينات

من هذا القرن عبر أدورنو عن فزعه من المجتمع الرأسمالى من خــلال استخدامه لمصطلح الكلية قائلا :

الكل هو الزيف " (٣٤) . حيث تعتبر العلاقات الاجتماعيــة فــى المجتمع الرأسمالى علاقات متشيئة : وفى هذا الاطار تعتبر الكليــة ... هى المجتمع ذاته ، باعتباره شيئا فى ذاته ، بكل خطايا تشـيئه " (٣٥) . وبالتالى مع تحرير البشرية من حالة الخطيئة يتم حزف مفهوم الكليــة . وحسبما يذهب أدورنو ، نجد أن البشرية المحر ة لا تشكل كلية ، وعلــى هذا النحو تم إنتقاد الوضعية لأنها تفتقد الى خبرة الكلية ذات الســيطرة العمياء والطموح المدفوع بالشوق الى أن يصبح المجتمع على الأقــل " آخرا " .

ومن المهم أن نلاحظ كيف تقترب فكرة أدورنو عن الكلية بشدة من فكرة فرانز كافكا Franz Kafka الذى قدم على الأقل أفضــل وصــف لكثير من جوانب المجتمع الرأسمالى الحديث . وفى هذا الاطار نجـد أن جوستاف جانوش Gustav Janouch قد حرر محادثته مع كافكا فيمــا يلى :

(عرضت على كافكا بعض الكتب الجديدة التى نشرتها نويجبــاور Neugebauer . وبينما هو يقلب أوراق المجلد مع توضيحات جــورج جروز George Grosz قال :

" تلك هى الصورة المألوفة لرأس المال – الرجل الســمين الــذى يلبس القبعة العالية وهو يجثم على أموال الفقير ؟ ... قلت أنها مجــرد استعارة وهنا قطب فرانز كافكا عن جبينه ، وقال . أنت تقول " مجــرد استعارة " إن الاستعارة تصبح في عقول البشر صورة للواقــع ، وهــذا بالطبع خطأ . غير ان الخطأ موجود هنا فعلا " ... سألته هلى تعنــى أن الصورة زائفة ؟ ... أجاب أنا لم أقل ذلك تماما ... انها صورة صادقــة

وزائفة فى ذات الوقت . فهى صادقة بمعنى واحد فقط ، وهـى زائفـة لأنها تزعم إعتبار هذه الرؤية الناقصة كل الحقيقة . الإنسان السمين فـى القمة يجلس على أعناق الفقراء . وهذا صحيـح ، وإذا كـان الانسـان السمين هو الرأسمالية ، فإن هذا ليس صحيحا تماما . إذ يقهر الانسـان السمين الفقير فى اطار ظروف نظام محدد غير أنه ليس النظام ذاتـه ، وعلى العكس ، فإن الانسان السمين هو الآخر مقيد بالسلاسل أيضـا ، وهو ما لم توضحه الصورة . وعلى هذا النحو فالصورة ليست كاملـة ، ولهذا السبب فهى ليست جيدة . إذ تعتبر الرأسـمالية نظامـا للعلاقـات الاجتماعية يبدأ فاعليته من الداخل الى الخارج ، ومـن الخـارج الـى الداخل ، من أعلى الى أسفل ومن أسفل الى أعلى . كل شئ فيه نسبى ، وكل شئ فيه مقيد بالسلاسل ، فالرأسمالية تعتبر حالة بالنسبة لكل مـن العالم والروح) (٣٦) .

ولا ينبغى أن تنفصل فكرة الصدق العلمى عـن فكـرة المجتمـع الحقيقى ، وتتحدد مهمة النظرية الجدلية للمجتمع فى البحث عن الحيـاة الحقيقة والسعى نحوها . ففى مجتمعنا " أصبح الوجود سياقا عاما وآثما. وعلى هذا النحو تنبثق الحاجة الى التحرر من ظروف المجتمـع الـذى نعيشه اليوم ، من هذه الخبرة الآثمة " لأن خطيئة الحياة هى التى تفرض علينا أن نتفلسف " (٣٧) .

وهى تنبثق من الفكر أيضا لأن " التفكير يعتبر فى حد ذاته اتجاها ، يتضمن الحاجة – والحاجة الملحة منذ البداية – بداخله ، فنحن نبدأ فـى التفكير إنطلاقا من الحاجة " (٣٨) .

وتعتبر المقولات الوجودية ، كخبرة المعاناة ، والخطيئة ، وسـياق الإثم ، أكثر فائدة بالنسبة لنظرية المجتمع من القضايا النظرية للمنطـق الصورى أو فلسفة المعرفة التقليدية . إذ ينـاقض المنطـق الصـورى الدياليكتيك ، ويعتبر القضاء على التناقضات فى مقابل توضيـح معنـى

التناقضات المحتمة اجتماعيا من المواقف المتضادة التى لا يمكن المصالحة بينهما ، لقد قيل لنا أن " الدياليكتيك كمنهج يعنى أن نفكر فى التناقضات وذلك بهدف أنه بمجرد خبرتنا بالتناقضات فى الشئ فإننا نرفض التناقض ذاته " (٣٩) . ويوضح التفكير الجدلى الجوهر الكامن وراء المظهر : فهو يسلم بالعام فى الخاص الذى نخبره حاليا وبصورة مباشرة ، ومن ثم يصبح المظهر تجليا للجوهر وليس مناظرا له . ويمكن التعرف على العام فى الخاص عن طريق المعرفة بالعام فقط ، وهو يشكل كلية ، أعنى " كل مجموع التناقضات " (٤٠) .

ومن المؤكد أنه ليس هناك اتفاقا حول مصطلح الكلية فى الفلسفة أو فى النظرية الماركسية . حيث تتضمن الكلية أو الكل فى الفلسفة التقليدية وحدة الله والانسان والعالم . غير أن الله قد أبعد أخيرا الى نطاق الأساطير ، اما الانسان فقد أبعد الى نطاق العلوم الطبيعية الإجتماعية. وليس هناك فيلسوف فى عصرنا يستطيع صياغة قضايا صحيحة فيما يتعلق بالعالم الفيزيقى ، وذلك لأنه يفتقد هذه المعرفة المتخصصة . ويشير كارل لوث karl Lowith الى ألفريد هوايتهيد Alfred Whitehead بقدر الامكان ، باعتباره الفيلسوف الأخير الذى حاول أن يؤسس علما للكون Cosmology ، يستند الى معرفته العميقة بالطبيعة والرياضة (٤١) .

وقد فسر لوسيان جولد مان Lucien Goldman فلسفة كانت بإعتبار أن البحث عن مفهوم الكلية لديه يعد الخاصية المميزة لفلسفته (٤٢) .

ويكشف فحص كتابات المفكرين الماركسيين عن وجود معانى واستخدامات عديدة للكلية . فإذا بدأنا بماركس ، فإننا نجده ما زال يعتبر الكلية مقولة تحليلية : كلية علاقات الانتاج التى تكون البناء الاقتصادى

للمجتمع " وهو الذى يشكل الأساس الحقيق الذى يستند اليه البناء الفوقى السياسى والقانونى ، والذى ترتبط بـه أشكال محددة من الوعى الاجتماعى " (٤٣) .

وقد نظر لينين Lenin حسب نفس الخطوط ، إذ نجده يؤكد أنـه " لكى تتعرف فى الحقيقة على أى موضوع ، فإن علينا أن نضم كل جوانبه وندرسها ، كل ارتباطاته وتداخلاته " (٤٤) . وبنوع من التعاطف أكد لوكاش فى عام ١٩٢١ ، ليست أولوية الدوافع الاقتصادية فى التفسير التاريخيى هى التى تشكل الخلاف الحاسم بين الماركسية والفكر البرجوازى ، ولكن ما يشكل الخلاف الحاسم بينهما يتمثل فى وجهة نظرهما فى الكلية [1] وقد ظلت الكلية مقولة منهجية أساسا بالنسبة للوكاش . وكما عرفها لوكاش فى مؤتمر للفلاسفة الماركسيين عقد فى ميلانو عام ١٩٤٧ ، حيث نجده قد عبر عنها بقوله :

(يعنى التصور المادى – الجدلى للكلية المادية قبل كل شئ الوحدة الواقعية للتناقضات المتفاعلة ... وثانيا تعنى النسبية النسقية ادراك الكلية بالنظر إلى كل ما هو أعلى وما هو أسفل بالنسبة لها والتى تعنى أن كل كلية تتخلق من الكليات الخاضعة لها ، وتعنى أيضا أن الكلية موضع

١- ومن الواضح أن هناك اختلافات هائلة بين الكلية كما تراها النظرية الماركسية أو كما تراها النظريات ذات التوجه الوضعى . فبرغم اتفاقهما معا على أهمية الكلية كمقولة تساعد على إدراك الواقع نجدهما يختلفان بعد ذلك . إذ ترى الماركسية أن كمال الكلية واستكمالها يكمن فى المستقبل حيث المجتمع الشيوعى ، ومن ثم فالكلية الحاضرة هى كلية ناقصة يتولى الجدل نفيها . فهى كلية ما قبل التاريخ الانسانى . على حين نجد أن كلية الحاضر هى الكلية الكاملة التى ينبغى أن نحافظ عليها ، والتى يمكن فهم أى من عناصرها بالنظر الى الدعم الوظيفي الذى يؤديه لصالح هذه الكلية ، فهى كلية الحاضر فى مقابل كلية المستقبل عند الماركسية ، اما الخلاف الثانى فيكمن فى النسق الذى يشكل أساس هذه الكلية ، إذ يشكل الاقتصاد أساس الكلية عند الماركسية على حين تشكل القيم أساس الكلية فى الفكر الوضعى ، هذا الى جانب أن عناصر الكلية تعمل على نفيها لخلق كلية جديدة فى الماركسية ، بينما نجد أن هذه العناصر تعمل ايجابيا على دعمها فى النظريات ذات التوجه الوضعى . " المترجم "

الاهتمام تتحد الى حد كبير وفى نفس الوقت بواسطة كليات ذات مستوى أعلى من التعقيد ...) ، وتعنى ثالثا ، النسبية التاريخية للكلية ، ويعنـــى ذلك أن الطبيعة الكلية لكل كلية قابلة للتغير والتحلل ، وأنها تناسب فـترة تاريخية وواقعية محددة) (٤٥) .

وبالنسبة لماركسيو الأيام الأخيرة ، نجد أن معنى الكلية قد انتقـــل بدرجة أكثر نحو الأخلاق . وفى استخدام لوسيان جولد مان للمصطلـــح نجد أنه غالبا ما تتداخل فلسفة المعرفة ،والأخلاق ، والتصوف ، بصورة لا فكاك منها : (حيث تشكل الماركسية فى أشكالها الأساسية – العـــالم والمجتمع الانسانى) بالنسبة لى أكثر المقولات الفلسفية أهمية فى مجـال فلسفة المعرفة الى حد كبير ، كما فى مجال الأخلاق والتصوف ... وأنا لا أرى هذه الكلية كشئ موجود ومعطى ، ولكنى أراها باعتبارها هدفـــا ينبغى تحققه بالفعل ، فهى تستطيع وحدها خلق المجتمـــع الانســـانى ، النحن ، وكلية العالم ، والكون ،) (٤٦) . ولا نستطيع أن ندخل هنا فى مناقشة علاقة مصطلح الكليـــة Totality بالمفـــهوم المنـــهجى للكـل Whole أو النزعة الكلية Wolism كما استخدمه علماء الاجتماع فـــى القرن التاسع عشر (٤٧) .

٥- المعنى المفقـــــــــود

حسبما تذهب مدرسة فرانكفورت ، تعتبر العلوم الطبيعيـــة وعلـم الاجتماع الذى يحاكيها علوما للسيطرة إذا استخدمنا تعتبر ماكس شـــيلر Max scheler بينما تهدف نظرية المجتمع الى إستيعاب معنى الحيـــاة الاجتماعية .

(إذ لا يكمن دافعها الأصلى فى السيطرة على الطبيعة والمجتمـع ، ولكنها تبذل الجهد لكى تتغلغل إدراكيا فى الحياة الاجتماعية بالنظر الـــى المعنى الذى يخلعه البشر عليها) (٤٨) .

وقد قلنا انه :

(يبدو أن تقييد امكانية السيطرة على حقائق التجربة والاستبعاد الكامل للفكر التأملي لا يهدد فهم معنى ما هو مجتمعي فقط ، ولكنه يهدد فهم معنى علم الاجتماع ذاته أيضا) (٤٩) .

وقد أثير هنا موضوعان : دور المعنى ، والفكر التأملي في علم الإجتماع ، أعني أن فكرة المعنى ترتبط بالأدلة المنهجية للتفسير ، أما بالنسبة لنظرية المجتمع ، فنجد أن التفسير يختلف عن فعل التأكيد على المعنى المعطى ذاتيا للفعل من قبل الفاعل الذي ينجز الفعل ولديه معرفه به . وينبغي أن توضح الفكرة الجدلية أسلوب تشكيل الجوهر المجتمعي لمختلف المظاهر (٥٠) . حيث لا يتطابق الجوهر مع المعنى ، لأنه ليس ذاتا مفسرة لذاتها . ويعتبر القول المنهجي المأثور " أن على الجوهر أن يتجلى في الشكل الخارجي " صادق بالنسبة لنظرية المجتمع ، إذ يصبح لا معنى له أن نتحدث عن الجوهر او الجواهر ذات الصلة الوثيقة بالموضوع إذا لم نجعلها واضحة بواسطة التفسير Deutung " (٥١) . ويكمن الخطر الحقيقي بالنسبة لعلم الاجتماع في امكانية استقطابه بين أن يكون مجرد جمع للحقائق ، وبين أن يكون مجرد شعارات لا أساس لها فيما يتعلق بالنظرة العميقة الى الجوهر essences بأسلوب فينومينولوجيا هوسرل . ومن المؤكد أن المعنى الذاتي للتشكيلات الاجتماعية التاريخية ، وكذلك الأفعال الاجتماعية يعتبر الفكرة الأساسية بالنسبة للنظريات الاجتماعية لفلهلم دلتاي ، وماكس فيبر ، كارل مانهايم ، وألفرد شوتنز Alrred Schutz . ومع ذلك ~~فقد أصر~~ ماكس فيبر على الأقل على ضرورة إرتباط المعنى بنوع معين من التحقق من صحته : " مثل كل الملاحظات العلمية ، تناضل كل تفسيرات المعنى من أجل الوضوح ودقة الفهم والبصيرة التي يمكن التحقق منها " (٥٢) .

ويعتبر استخدام المعنى والتفسير Deutung في نظرية المجتمع خطوة نحو الخلف حيث المذهب الحدسي اللاعقلاني غير المنضبط .

٧-القيم والنظرية والممارسة

تكمن الجذور العميقة لإصرار نظرية المجتمع على وحدة القيم والنظرية والممارسة ، فى بحثها عن المجنمع الفاضل والعادل ، الذى له جذوره البعيدة فى الفلسفة الاجتماعية لأفلاطون ، الذى ربط بين تصميمه للدولة المثالية ، وبين نقده للمجتمع المعاصر له . ولما كانت المعرفة تحدد الممارسة الصحيحة ، فقد تمثل هدف أفلاطون فى تأسيس الوحدة بين النظرية والممارسة ، تلك التى اقترحها فى الحل الشهير للملك الفيلسوف حيث قال :

(إذا لم يصبح الفلاسفة ملوكا ، واذا لم يمتلك ملوك وأمراء هذا العالم روح وسلطة الفلسفة ، وإذا لم يتقابل المجد والحكمة السياسية فى شخص واحد .. فلن تستريح المدن من شرورها ، ولن يستريح الجنس البشرى من شروره أيضا ...) (٥٣) .

وبعبارة أخرى ، فإن ذلك يعتبر البحث الأول عن الوحدة بين النظرية والممارسة . وقد انبثقت فكرة أفلاطون عن المجتمع العادل من أفكاره الميتافيزيقية ، وهى الأفكار التى ارتبطت بها بشدة . وبإنهيار المجتمع الإقطاعى ، الذى كان يشكل نسقاً مستقراً ومغلقاً . وبظهور المجتمع البرجوازى بطبيعته الدينامية ، إستبدلت فلسفة التاريخ بالأنطولوجيا كأساس للمجتمع العادل ، واتباعاً لمسار العلوم الطبيعية المنتصر ، بإعتبارها وسائل للسيطرة على الطبيعة ، ظهرت الحاجة الى العلوم الاجتماعية كوسيلة للسيطرة على المجتمع . ومن ثم فقد قلد العلم الاجتماعى العلم الطبيعى عن طريق نقل تأكيده من التأكيد على مثال المجتمع العادل الى التأكيد على السعى وراء الدقة المنهجية .

وقد تخلت الفلسفة الكونتية ، بفصلها المعلن بين القيم والنظرية والممارسة ، عن فكرة التدخل الراديكالى فى الآلية الاجتماعية . وبتعبير

كونت " ليست المسألة هى السيطرة على الظواهر ، ولكنها تتمثل فى تعديل مسارها التلقائى فقط . وبالتالى فقد ظهرت مهمة توفير المعرفة المفيدة للهندسة الإجتماعية ذات الطبيعة المؤقتة (حسب تعبير كارل بوبر) ، وذلك للقضاء على القلاقل وحل المشكلات الاجتماعية " وقد حدد أوجست كونت هذه المهمة لعلم الاجتماع بكل وضوح (٥٥) .

ولا تكمن جذور تحديد البحث الاجتماعى الامبيريقى الحديث فى الأدب العالمى Universitas Litterarum التقليدى ، بل تكمن جذوره جزئيا فى بحوث التسويق ، وهى البحوث التى ترتبط بشدة بالنزعة البراجماتية . إذ تم تصميم أدواته حسب حاجات المهام الادارية والتجارية فهى تهدف الى تأسيس علم السيطرة وليس علم المعرفة البحتة

ومن الناحية التاريخية لم يتمثل ناتج هذه الممارسة فى فصل النظرية عن الممارسة فقط ، ولكن أيضا فصل المنظر عن الاستفادة من معرفته . وبمقارنة العلم الاجتماعى الآدائى بنظرية المجتمع ذات المهمة التفسيرية والتأملية ، فإن انفصال الأخيرة عن علم الاجتماع الأكاديمى ، والنظرية الماركسية ، وحتى عن موقفها فى الثلاثينات من هذا القرن أصبح واضحا . أما بالنسبة لعلم الاجتماع الأكاديمى (البرجوازى) فإن فائدته لتشكيل السياسة الاجتماعية – والتى تسمى عادة بالتكنولوجيا الاجتماعية أو التنظيم الاجتماعى – قد ساعدت على التمويل الحكومى والخاص الواسع النطاق لمشروع البحث الاجتماعى الامبيريقى . وبخاصة فى الولايات المتحدة خلال الفترة التالية للحرب العالمية الثانية . غير أن هذه النزعة الآدائية تعتبر أيضا الفكرة الأساسية بالنسبة لكل النظريات الماركسية إبتداء من الفكرة الحادية عشرة لماركس عن فيورباخ Feuerbach : والتى تؤكد " لقد فسر الفلاسفة العالم فقط بطرق مختلفة، مع أن الأهم هو أن نغيره " .

ولقد أدى التأثير الفعال للأحداث التاريخية الى تخلق وجهة النظـــر التى عبر عنها أدورنو :

" يكشف التفرّس فى الخطر عن نوع من الاعجاب " الذى يـــؤدى دوره باعتباره نوعا من الشرعية للهروب من للممارســـة . إذ يحتـــوى الجدل السلبى بصورة مسبقة على مكون مضاد للمارسة مبنيا بداخلـــه . وفى هذا الإطار كتبت أعمال أدورنو " بدون أى قصد عملى " إذ ينبغـــى أن يكون الفكر بالتحديد سلبيا ، وذلـــك لأن " الايجابيـــة أو الوضعيـــة Positivity تسير فى اتجاه معاكس للفكر " (٥٦) .

حيث تفترض الممارسة قبلا وجود الفرد الحر والمســـتقل ، وهـــو الفرد غير الموجود حاليا . وفى أحد المناسبات أعلن أدورنو أن " هـدف الممارسة الصحيحة قد يكون فى القضاء على ذاتها " (٥٧) .

٨-العلم فى مقابـــل الفـــــن

لقد أصر أدورنو دائما على التلازم بين النطاق العلمـــى والنطـــاق السابق على العلم ، وأيضا على وحدة الفن مع كل متضمناته ونتائجـــه . واستناداً الى ذلك تعكس الثنائية التقليدية الأكاديمية (ما هو علمى فـــى مواجهة ما قبل العلمى) بالنسبة لأدورنو إنشقاق الفكر الوضعى الـــذى يصنف بعض القضايا والأحداث بإعتبارها علميـــة ، وبعضـــها الآخـــر بإعتبارها قضايا أو أحداث خارجة عن نطاق العلم . ويحتوى نطاق مـــا قبل العلمى Pre scientific على كل عناصر العقلانية والخبرة التـــى لا يمكن أن تستجيب للمتطلبـــات المنهجيـــة الخاصـــة بـــالفعل الآدائـــى " instrumental (٥٨) .

ويؤكد أدورنو أن القاعدة الخاصة " بامكانية التكرار الشبيه بالتكرار الجماهيرى للعمليت الإدراكية ، والبصيرة النافذة فى العلوم الإجتماعيـــة تتجاهل سيطرة قوة الوعى الزائف ، وهى الســيطرة التــى ينبغــى أن نتفحصها نقديا (٥٩) .

فالعالم الاجتماعى الذى ينشأ فى ظل تأثير صناعـــة الثقافــة ذات الطبيعة القهرية ، والتى أصبحت تشكل طبيعته الثانية ، يصبح عـــاجزا وغير راغب – بإستخدام تعبير هيجل – فى تطوير موقفـــه النقــدى . وفضلا عن ذلك يتم دعم الاتجاه غير النقدى وتقويته من خـــلال رصــد الميزانيات للبحوث التى تستهدف التأكيد فقط على كل ما هـــو موجــود داخل النسق القائم ذاته . فقد تغلغلت المقاصد المتعلقة بدعم الترتيبـــات المجتمعية القائمة أو تغييرها داخل علم الاجتماع بل وكان لها تأثيرهـــا على تحتيم إختيار أى من مقولاته .

وبالنسبة لأدورنو ، فإنه من المفترض أن يكـــون منـــهج البحــث الاجتماعى ناقصا ، لأنه إذا اتفق على رد فعل الفاعل فى مواجهة القيمة باعتباره أكثر مصادر المعرفة صدقا ، فإن المعرفة التى نحصل عليـــها تصبح سطحية ومضللة ، ويعتبر ذلك صحيحا بصفة خاصة داخل نطاق الثقافة ، وقد بقيت قضية كيف نقيم الثقافة بإعتبارها قضية لا حـــل لـــها بالنسبة لعلم الاجتماع .

فالهدف الحقيقي ينبغى أن يتمثل فى إستيعاب الروح الموضوعيـــة بدلا من قياس ردود الفعل الذاتية . وحتى الهدف النهائى بالنسبة للبحــث الكمى ينبغى أن يتمثل فى تحقيق البصيرة الكيفية : " فالتكميم ليس هدفـــا فى حد ذاته ، ولكنه وسيلة لبصيرة كيفية ثاقبة " (٦٠) .

وبالنسبة لنظرية المجتمع ينبغى أن تبقى النظريـــة منفصلـــة عـــن البحث الامبيريقى ، إذ لا ترى النظرية أية ضرورة ملحة لكى نضمـــهما

فى متصل واحد بالقوة ، أو لتقليل تباعدها ، أو لأن نأتى بهما فى إطار وحدة يسودها الإتساق . بل تكمن المهمة الحقيقية فى ضرورة أن نعمل بفاعلية فيما يتعلق بالتوترات بينهما . فالنزعة الوضعية ليست شيئا سوى النزعة التطهرية فى الادراك مع عزوفها عن بعد الادراك التأملى .

وبصورة مطلقة تم رفض إعتبار إتفاق المجتمع العلمى مصدرا للحقيقة " إذ لا يمكن قياس المعرفة بالشرعية المجتمعية الموضوعية بواسطة الاتفاق المختلط Consensus omnium " (٦١) . وتعتبر نظرية المجتمع الفن مصدرا ثمينا للتبصر العميق فى المجتمع ، لأن " الفن معرفة مفسرة لذاتها " (٦٢) .

حيث تتعادل تأملات أدورنو فيما يتعلق بشرور المجتمع الرأسمالى – وهو المفكر الإنسانى والفنان الحساس – وفزعه فيما يتعلق بمستقبل الانسانية مع القوانين العلمية . إذ يعتبر علم الاجتماع فناً بالنسبة للقلة المختارة ، أعنى للصفوة الثقافية ، " حيث تصبح مقاومة الميول القهرية الكلية من نصيب الأقلية الصغيرة فقط " (٦٣) . لكن ماهو المنهج بالنسبة لعالم الإجتماع الفنان ويشير أدورنو ، استجابة لطلب منتقديه الوضعيين لنموذج بديل من الإجراءات المنهجية السوسيولوجية ، الى النقد اللغوى Sprachkritik لكارل كراوس بإعتباره المنهج الممكن . وبرغم أن مذهب كراوس النقدى كان موجها إلى الانتهاكات النحوية فى الصحافة " فإن نقده الفنى كان له منذ البداية بعده الاجتماعى ، حيث يعنى الاضرار باللغة بالنسبة لكراوس إضراراً بالظروف الإجتماعية " (٦٤) . فقد قدم تفحص اللغة الذى أنجزه كراوس أفكار ملهمة تتعلق بالمجتمع ، أكثر أساسية من النتائج السوسيولوجية الامبيرقية ، لأنها " قد أوضحت تسجيلا مرجعيا Seismographically للوحش monster الذى يجفل منه العلم الاجتماعى ويرفض تناوله " (٦٥) .

وعلى هذا تم استبدال التفسير ، والتوضيح والتأمل بمناهج العلم المتفق عليها ، حيث تمثل هدف أدورنو فى تجاوز المنهج والفكر التقليدى . وكما عبر عن ذلك فيما يتعلق بالمنظر النقدى قائلا :

(أنه لا يستطيع أن يوافق على الاسلوب المعتاد للفكر ، وهو الاسلوب الذى يقنع بتسجيل الحقائق وتجهيزها من أجل التصنيف الذى يتلو ذلك . بل يتمثل هدفه الرئيسى فى توضيح نطاق الحقيقة Facticity – التى بدونها لن تكون هناك معرفة حقيقية – عن طريق التأمل بأسلوب مختلف ، وبعيد جذريا عن قواعد الصدق العلمى المتفق عليها) (٦٦) . ونتيجة لذلك فليست مصادفة أن يختار أدورنو شكل المقال فى كتاباته . إذ يبدو المقال باعتباره – " شعراً ثقافياً " كمل يذهب لوكاش – الشكل الأكثر ملائمة للتعبير بالنسبة لأدورنو ، وهو الفنان بالمران والعاطفة . ومن وجهة نظر لوكاش ، يهتم العلم بالمضمون ، والحقائق والعلاقات المتساندة فيما بينها ، بينما يهتم الفن بالشكل والروح والمصير . فكل كتابة تصور العالم برموز تتعلق بالمصير ، أعنى ، أن قضية المصير تحدد قضية الشكل فى كل مكان . ولا تخلق المقالة شكلا جديدا تماما من لا شئ ، ولكنها تعيد تنظيم المادة الموجودة فعلا . ومن ثم يعتبر ناقد المقال حكما رسولا له دعوة أرسل من أجلها لهذا العالم " لكى ينبئ ولكى يكم " ويعتبر المقال محكمة Turibnal ، لا يعتبر الحكم هو العنصر الأساسى أو الحاسم فيها ، ولكن عملية المحاولة هى التى تشكل عنصره الأساسى ، ومثلما رأى لوكاش فى المقال الشكل الملائم للحكم على الثقافة البرجوازية السائدة فى مجتمع ماقبل الحرب العالمية الأولى " حيث عصر الخطيئة الكاملة " فإن أدورنو قد أصدر بنفس الطريقة حكما على المجتمع الرأسمالى الذى بلغ ذروته فى أوشفيتز Auschwitz .

٨- تقنيـــن نظرية المجتمـــع

يعرف أدورنو أن علم إجتماع فرانكفورت باعتباره : (البصـــيرة النافذة فى جوهر المجتمع ، أعنى ، النظرة العميقة فيما هو كائن ، ولكن بطبيعة نقدية ، فهى تقيم الحقيقة المجتمعية فى مواجهة ما تبدو عليـــه ، وذلك من أجل الكشف من خلال التناقضات عن إحتمالية تغيـــير البنـــاء الاجتماعى بكامله (٦٨) .

وينبغى أن تصوغ نظرية المجتمع قضاياها من منظـــور المجتمـــع الحقيقى العادل . ومع ذلك ، يذكرنا أدورنو وكأنه يسترجع تعريفه قائلا

(أنا أطلب منك ألا تسجل ما قلته وأن تبقى عليه باعتباره تعريفـــا لعلم الاجتماع ، لأن ما قلته ينتمى الى خصـــائص النظريـــة الجدليـــة للمجتمع ، وهى التى لا يمكن اختزالها الى تعريفات) (٦٩) .

وما يعنيه أدورنو فى هذا الصدد أننا من خلال تأسيس التعريفات قد نفرض أن يكون التفكير وفقا لمسارات الفكر التقليدى ، وفى هذا الاطـــار يعتبر تنظيم الأشياء بحسب مفاهيم صارمة جهدا غريبا من وجهة نظـــر النظرية النقدية . وعلى هذا النحو تقترب نظرية المجتمع اقترابا شـــديدا من نظرية التحليل التحليل النفسى الفرويدية ، حيث نجد أن فرويـــد قـــد تحول نحو العالم الظاهراتى المتلاشى ، بدلا من التركيز على القضايـــا الأساسية المحددة تحديدا حرفيا . غير أن هذا التحول ساعد فرويد علـــى البحث فى القضايا الأساسية التى تدرك " تـــاريخ الحضـــارة باعتبـــاره تاريخا للكبت " .

وترجع أصول نظرية المجتمع الى التصور السياسى الذى أسســـه الإغريق ، وأيضا الى رد الفعل المباشر للثورة الفرنسية حيث توضـــح عقيدة التنوير وتعاليم كانت Kant – التى تذهب الى القول بأن ، علـــى

البشر أن يمتلكوا الفرصة لكى ينموا أحرارا ويتحملوا التزام ذلك . وهى العقيدة التى بلغت ذروتها بقيام الثورة الفرنسية – أن هذه الطاقة التى يتم تحريرها والتى تتعلق بالقوى السياسية والاقتصادية ، قد أدت الى نشـــأة اختلافات هائلة فى الثورة والدخل . وفى هذا الاطـــار تظـــهر نظريـــة المجتمع حينما يصبح واضحا أن القضاء على النزعة الاستبدادية والبقايا الاقطاعية لم تم إنجازه بحسب ماهو متوقع . ذلك يعنى أن هذه النظريـــة قد بدأت بأفكار بابيف Babeuf وفيتشة Fichte اللذان لم يتوقفـــا عـــن تقييم المجتمع الذى نتج عن الثورة الفرنسية بالنظر الى مثله المعلنة .

ولقد إقتنع سان سيمون Saint – Simon وماركس اللذان ســـارا على نفس خط الرواد – بأنه يمكن تحديد شكل العلاقات الاقتصاديـــة ، وموقع الانسان فى عملية العمل الناتجة عن علاقات الثورة تحديدا عقليا. فخلال تطور النظام الرأسمالى اقتصر القرار العقلانى الواعـــى علـــى مجال الانتاج . ويرى هوركهايمر أن الاختلاف الأساسى بيـــن نظريـــة المجتمع وبين العلوم الطبيعية وعلم الاجتماع العلمى الطبيعى يتمثل فـــى القول : بأنه من غير المتوقع أن تفكر علوم الطبيعة والأحياء فى القـــوى التى تعتبر هذه العلوم عناصر مكونة لها . فهدفها السيطرة على الطبيعة بدون تفكير . وفى هذا الصدد يعتبر التحقق التجريبـــى مـــن الحقـــائق الإجتماعية ، وتسجيلها وتصنيفها فى مقابل البحث فى شرعية التنظيمات الإجتماعية القائمة من الموضوعات التى تفصل علم الاجتماع عن نظرية المجتمع ، إذ نجد بالنسبة لعلماء الاجتماع بمدرســـة فرانكفـــورت " أن الروح النقدية وحدها هى التى تجعل العلم أكثر من مجرد صورة مطابقة للواقع من خلال التفكير " (٧٠) .

وعلى هذا النحو تسعى النظرية النقدية التى تمتلك منظورا يؤكـــد على المجتمع العادل والحر ، وعلى هذا النمو المتكامل للفـــرد ، الـــى القضاء على هذا التطابق .

ويعتبر الجوهر Essence مصطلحا أساسيا بالنسبة لنظرية المجتمع ويتمثل المعيار الأكثر أهمية لإختيار قضايا البحث فى ضرورة أن تكون هذه القضايا أساسية ، حتى لو إكتشفنا أن هذه القضايا المحورية لم يتم تعريفها أو تحديدها بواسطة مصالح جماعات المصلحة أو مجموعات السلطة فى المجتمع . وفى هذا الاطار ينكر كل الوضعيون أى فصل بين المظاهر والجواهر . إذ تؤكد " القاعدة الوضعية للنزعة الظاهراتية " أنه ليس هناك اختلافاً بين الجوهر وبين المظهر أو الشكل الخارجى ، ويحدد كونت Conte الموقف الوضعى الكلاسيكى فى هذا الصدد بقوله

(توافق كل العقول المتنورة على أن دراستنا العلمية تقتصر على حدود تحليل المظاهر بهدف إكتشاف قوانينها الحقيقية ، أعنى علاقات التماثل أو التعاقب الدائمة التى قد توجد بينهما ، وأن هذه الدراسات لا تستطيع أن تتناول الطبيعة الداخلية للظواهر ، أو أسبابها النهائية أو الكافية ، أو الطريقة الأساسية التى دفعت بها الى الوجود) (٧١) .

ومن ناحية أخرى يؤكد مذهب هيجل Hegel أن الظواهر القابلة للملاحظة تعتبر تجلياتا للجوهر ، أو للحقيقة التى تستعصى على الادراك المعاد . وحسبما يذهب هيجل فإن الجوهر يتجلى فى الظاهرة . وفى هذا الاطار يعنى المذهب الوضعى – الذى يقصر البحث على الظواهر التى فى متناول الادراك المحسوس وتكنيكات البحث المتيسرة – القضاء على القضايا الأساسية ، وإلغاء الجواهر أيضا . ومن الأمور الحتمية أن تؤدى محاولة ملائمة قضايا البحث وتفصيلها Tailoring بحسب طرق البحث الموجودة ، والحكم على ملائمة هذه القضايا وفقا لذلك ، الى أن يصبح العلم خادما لصاحبه الممول .

ويكمن زيف علم الاجتماع الوضعى الامبيريقى بكامله ، ابتداء من دوركايم وحتى الممثلين المعاصرين لهذا العلم ، فى كونه يستبدل

الموضوعية الحقيقية بموضوعية تنتمى الى " الوعى الجمعى " . فإذا اعتقدنا فى أن روح أى مجتمع واقعى ، أو وعيه الجمعى ، يمكن أن تعبر عن جوهره ، فإن الفصل بين الوعى الحقيقى والوعى الزائف ينهار . ويستبعد مذهب دوركايم – الذى يؤكد على الحقائق الاجتماعية باعتبارها الأساس الوحيد والمشروع لأى معرفة سوسيولوجية – امكانية الحكم على المجتمع بالنظر الى معايير صادقة ، وفى هذا الاطار تتضمن الحقائق الاجتماعية ذات الطبيعة الموضوعية المزعومة باعتبارها تجلياً للوعى الجمعى – دافعاً ذاتياً كامناً ، طالما أن الفاعل Subject ينظر إليها باعتبارها المعيار الرئيسى للصدق استنادا الى مبدأ تأكيد الحواس لذلك .

ويدرس علم الاجتماع الامبيريقى سطح الظواهر الحقيقية والمجتمعية فقط ، وفى هذا الصدد يكتب أدورنو قائلا :

تجد الادعاءات الشاملة لطرق البحث الامبيريقى تأييدا طالما أنه يمكن اعتبار ردود الفعل الذاتية أكثر سهولة من حيث امكانية التحكم فيها ومعالجتها كميا ، بدلا من دراسة بناءات المجتمع فى كليتها ، وهى البناءات التى تستعصى على المعالجة الامبيريقية " (٧٢) .

وبرغم ذلك تتمثل المهمة الحقيقية فى اختراق السطح للكشف عن الجوهر . إذ ينبغى أن يقود البحث الاجتماعى الكمى فى النهاية الى بصيرة كيفية نافذة . ومن ثم ينبغى أن لا يصبح التكميم غاية فى حد ذاته بل وسيلة لغاية أخرى . وفى هذا الاطار لا تثق نظرية المجتمع فى زيف المظاهر .

وتعتبر " البناءات المترابطة " هى البناءات التى تحتوى على الأفراد ويظهرون من خلالها . بإعتبارهم أبنية أساسية (٧٣) . وفضلا

عن ذلك تعتبر القوانين الموضوعية لحركة المجتمع هي القوانين الأساسية التى تحدد مصير الفرد . وتعتبر أوشفيتز Auschwitz هي المثال الأول لجوهر الحضارة الحديثة . ويعتبر أدورنوقوله المأثور : " لا شعر بعد أوشفيتز " أساسياً بالنسبة لكل جهد عقلى . بمعنى أنه يشعر أن دراسة علم الاجتماع لا تصبح ممكنة بدون التأمل فى أوشفيتز ، وبدون أن يهتم كل باحث بمنع وقوع أوشفيتزات جديدة (١) .

وفى هذا الاطار فإن القضية الرئيسة لعلم الاجتماع الامبيريقى ينبغى أن تتمثل فى بحث دور ميكانيزم الاصلاح من خلال التسوية Mediation فى عملية التكيف داخل المجتمع الرأسمالى بواسطة هؤلاء الذين تتناقض مصالحهم الموضوعية مع هذا التكيف بصورة أساسية (٧٤) .

ولا تقتنع نظرية المجتمع بتأسيس الأبنية النظرية لتصنيف " واقع مظهرى " . فهدفنا أن تتغلغل داخل هذا المظهر لكى نكشف عن المبادئ الحقيقية أو قوانين الجوهر التى تحدد العمليات الاجتماعية . ويصوغ أدورنو ذلك قائلا :

كما لا تثق الفلسفة فى خداع المظاهر ، فإننا نجد أن نظرية المجتمع لا تثق فى الوجه الظاهرى للمجتمع ... ولكونها سوف تهتم بكل ما

١- يلاحظ أن منظرى مدرسة فرانكفورت قد حاولوا جعل واقعة الإبادة اليهودية فى أوشفيتز ، واقعة انسانية عامة لابد أن يتوقف عندها علم الاجتماع ، لأنها التى تكسبه طابعه . أما قول مفكرى فرانكفورت أن على كل باحث أن يهتم بمنع وقوع أوشفيتزات جديدة ، قول يعكس الخوف على الجماعة اليهودية وليس خوفا على الانسانية ، البرهنة على ذلك أنه منذ احتلال الصهاينة لفلسطين ، وهم يعرضون الفلسطينيين لعمليات إبادة كاملة ابتداء من مذبحة دير ياسين ، وحتى مذابح صابرا وشاتيلا ، من المدهش أن يطلب اليهود من العالم التألم أوشفيتز يهودية ، ولا يقلق الضمير اليهودى بالأوشفيتزات الفلسطينية التى ترتكب كل يوم " المترجم "

يحافظ على تماسك المجتمع فإنه من المحتمل أن نترك الصخرة التى يسكن تحتها الوحش " (٧٥) .

وتتميز نظرية المجتمع عن مدرسة بادن Baden School الداعية الى الكانتية المحدثة الى جانب أنها تتمسك بمبدأ القوانين التى تحكم الحركات البنائية للمجتمع . وفى هذا الاطار يمكن أن يكون قانون الميل الحتمى الى النمو والتوسع مثالا للقوانين التى تتعلق بجوهر المجتمع الرأسمالى ، ومن ثم يصبح الركود Stahnation خطرا ومؤشرا لإنهيار أو أزمة قادمة (٧٦) .

ويعتبر الجوهر essence هو " الشئ الذى يكمن مختفيا وراء المظهر المباشر للحقائق المفترضة ، فهو الذى يمنح هذه الحقائق طبيعتها " (٧٧) . ويمكن التعرف على الجوهر من خلال إدراك التناقض بين الحالة الراهنة للأشياء والحالة التى تحاول أن تكون عليها . ويعتبر الجوهر فى هذه الفترة جوهرا سلبيا ، ويعتبر القانون القدرى هو القانون الذى تخضع العملية التاريخية له (٧٨) .

ويمتنع المجتمع – باعتباره أحد الموضوعات المحورية بالنسبة لعلم الاجتماع – على التعريف . وفى هذا الصدد يمكن تحديد المفاهيم التى لها تاريخا فقط . فى اطار ذلك نجد ، أن ، المجتمع ليس " مفهوما قانونيا يمكن تثبيته بواسطة تعريف ، بل أننا نجده يحتوى على ثراء تاريخى لا حدود له " (٧٩) . ويأخذ أدورنو عن نيتشة اقتباسا يتفق فيه معه " تستعصى كل المفاهيم التى تلخص أعراض أى عملية كلية على أى تعريف . من ثم فباستطاعة الباحث فقط أن يعرف شيئا ليس له تاريخ " (٨٠) . وبمعنى جدلى ، نجد أن المجتمع ليس هو المجموع الكلى لكل أفراده ، وليس " كائنا فى ذاته حسبما يذهب نموذج الكائن العضوى " . ولكنه يشكل التفاعل المتبادل بين الأفراد ، بالاضافة الى

أنه ذات موضوعية تجعل نفسها مستقلة عنهم بل وتقف فى مواجهتهم (٨١) . ويعتبر المجتمع موضوعا ديناميا ، له آدؤه الوظيفيا أيضا ، ويتجلى هذا الجانب الدينامى فى الصراع الطبقى وقد ظل المجتمع كما هو برغم تأسيس مفهوم الصراع الطبقى المستمر ، وفى هذا الاطار فإنه لا يمكن استنباط مفهوم المجتمع من الحقائق الفردية ، الى جانب أنه لا يمكن اخضاع هذا المفهوم لعملية الاثبات الامبيريقى . " ويمكن لنظرية فعالة عن المجتمع أن توضح لنا الطبيعة الأساسية للمجتمع " (٨٢) .(١) ويعتبر المجتمع الحديث الحديث مجتمعا يتكون من العلاقات الترابيطية المسيطرة ، حيث نجده يتحدد أساسا بواسطة العلاقات المتبادلة . وفى هذا الصدد يتبع أدورنو كلا من ماكس فيبر وفيرناند تونيس tonnies

فى استخدامهما لثنائية المجتمع العام والمجتمع المحلى ، الى جانب أنه يربط هذه الثنائية بالفكرة الماركسية التى تؤكد استناد المجتمع الرأسمالى الى انتاج السلع ، وتقع عملية تكوين الحياة الاجتماعية gesellschaftung من خلال عملية التبادل ، التى تعتبر حقيقة اجتماعية اساسية . ويعتبر شكل التبادل العادل هو جوهر تكوين الحياة الاجتماعية Vergesellschaftung . ويقع التبادل فى المجتمع الرأسمالى عادة من خلال قدر النقود المتكافئ ، بينما يعتبر متوسط وقت العمل اللازم اجتماعيا هو الوحدة الحقيقية الكامنة وراء قدر النقود .

١- واضح هنا أن نظرية المجتمع لرواد فرانكفورت تدرك المجتمع بنفس منطق ادراك دوركيم له . ففى حوار الأخير مع المذهب النفعى أكد أن المجتمع لا يشتق خصائصه من خصائص الأفراد المكونين له . وإنما له خصائصه الأشمل التى تتخلق له من خلال حالة التفاعل الاجتماعى . نفس الأفكار تتردد حينما يؤكد أدورنو أنه لا يمكن استنباط مفهوم المجتمع من الحقائق الفردية ، وكذلك لا يمكن اخضاع هذا المفهوم لعملية الاثبات الامبيريقى . فقد أكد دوركيم أن مفهوم المجتمع يعتبر اطارا أو مفهوما تصوريا موجها ، اننا نكشف عن تجلياته التى تشير اليه ، ولا نكشف مباشرة عنه : " المترجم "

وتسيطر التناقضات وقوانين التبـادل وحالـة العقلانيـة الأدائيـة المتزايدة على المجتمع المعاصر . حيث تعتبر الكائنات البشرية مجـرد وسائل لمبدأ تبادل السلع ، وهو المبدأ الذى يكمن وراء سيطرة الانسـان على الانسان .

ويؤكد أدورنو أثناء محاولته اعادة تقدير القضية التى تدور حـول " هلّ أصبح ماركس شيئا قديما ومهجورا " إن النظام الرأسمالى قد وجـد موارده فى ذاته ، وهى الموارد التى تساعده على تأجيل انهيار نظامـه الى ما لا نهاية . وتتكون هذه الموارد من الزيادة الهائلة فى الامكانيـات الفنية والاستفادة الشاملة من تطبيق العلم من أجل السيطرة على الطبيعة والمجتمع . وقد أصبحت علاقات الانتاج أكثر مرونة الأن ممـا توقـع ماركس .

إذ لم تنف حقيقة غياب الوعى الطبقى للبروليتاريا فى المجتمعـات الصناعية الغربية وجود الطبقات التى يتحدد وجودها الموضوعى مـن خلال علاقاتها بوسائل الانتاج . ولعل السبب فى افتقاد الوعى الطبقـى يرجع الى فرضية ماركس المتعلقة بقدير حالة الافقار . بل أننا نجـد أن الطبقة العالمة بدلا من ذلك قد تكاملت مع المجتمع البرجوازى . ويعتقـد أدورنو أن خطأ النظرية الماركسية عن الطبقات يرجع فى هذا الموقـف الى أن التفسير الاقتصادى الموضوعى ، الذى طورته هذه النظرية ، قد إرتبط بنظرية قيمة العمل . حيث نجـد فـى هـذا الصـدد أن التقـدم التكنولوجى قد قلل من نصيب العامل فى انتاج فائض القيمـة . وفـى الغالب نجد أنه من المستحيل أن نؤسس موضوعيا تشكل الطبقات بـدون نظرية عن قيمة العمل . وذلك لأن هناك سيطرة على الجمـاهير مـن

خلال العملية الاقتصادية . غير أن القهر المجتمعى القديم إتخذ أشكالا جديدة بديلة ، هذا الى جانب أنه أصبح قهرا شاملا [1] .

ويعتبر أدورنو المجتمع الغربى المعاصر مجتمعا صناعيا بالنظر الى قوى الانتاج فى اطاره ، ومجتمعا رأسماليا بالنظر الى علاقات الانتاج . أى أن الانتاج يهدف زيادة الربح مثلما كان الأمر قبل ذلك بالضبط . ومن ثم يصبح تأسيس المجتمع الذى يؤكد على كبرياء الانسان – وهو المجتمع الذى كان حيالا بالنسبة لماركس وإنجلز فيما مضى – امكانية حقيقية . غير أن تناقضتانا من نوع جديد فى النظام العالمى – مثل سباق التسلح بين الشرق والغرب – جعلت ذلك أمرا مستحيلا . وفى هذا الاطار لا يمكن أن تتواجد فى المجتمعات الرأسمالية المتقدمة ندرة فى السلع والخدمات ، بالاضافة الى امكانية تخفيض ساعات العمل ، وهما الضروروتان اللازمتان لانتقال المجتمع الى مرحلة أعلى من وجهة نظر كارل ماركس . فقد أدى النمو السريع لقوى الانتاج الى امكانية وجود حياة بلا حاجة ينقصها الاشباع – وهى الحياة التى كانت أيضا نوع من الخيال بالنسبة لماركس وانجلز . هذه اليوتوبيا يمكن تحقيقها اليوم . بالاضافة الى أن التكنولوجيا المتقدمة توفر الشروط

١- تشكل هذه القضية موضع خلاف رئيسى بين النظرية الماركسية من ناحية ، ونظرية المجتمع من ناحية اخرى ، فبينما تؤكد الماركسية على أن قوى القهر هى قوى طبقية أصلا تنجز مهمتها من خلال الآليات الاقتصادية بالأساس ، نجد أن البروليتاريا برغم تعرضها للقهر تظل رافضة له حتى ينضج وعيها فتتحرك من خلال الأسلوب الثورى للقضاء على مصادر القهر . فى حين ترى نظرية المجتمع أن قوى القهر هى قوى اجتماعية أساسا ممثلة فى المؤسسة الاجتماعية القائمة والصفوة الممثلة لها ، أو هى قوى النظام الاجتماعى القائم ، هذا الى جانب ابتكار آليات ثقافية واجتماعية وسيكولوجية عديدة لفرض القهر ، والأهم من ذلك استيعاب البروليتاريا لمضمنات هذا القهر ، وهو الأمر الذى يسلبها امكانية الرفض أو الثورة ، باعتبار أنها قد استوعبت قيم القهر بداخلها ، تمثلتها وخضعت لها . " المترجم "

الموضوعية لكي " يصبح المجتمع اتحادا بين أفراد أحرار " بمعنى أن المجتمع يمكن أن يصبح " إطارا للحرية " كما تصور ماركس (٨٤) .

وحينئذ يصبح السؤال المحوري الذي ينبغي أن يطرح عن ، ماهو السبب في غياب أي قوى اجتماعية يمكن أن تستفيد من هذه الامكانيات؟ وما هو سبب غياب أي قوى اجتماعية متعارضة داخل المجتمع الرأسمالي الحديث ؟ . لقد أصبحت بروليتاريا ماركس خارج المجتمع البرجوازي ، وليس لها دور في الحفاظ على بقائه ، ومع ذلك فما زالت النظرية الأولى تتخيل امكانية الثورة بالنسبة للبروليتاريا .

وكرد فعل للتهديد الثوري المحتمل للبروليتاريا ، نجد أنه قد اتخذت بعض الخطوات لإدماجها في النظام ،وقد توازى مع علمية الادماج الموضوعية هذه عملية أخرى تتمثل في السيطرة على الوعي واللاوعي أيضا . ذلك لأن الوعي الطبقي لا يرتبط بطريقة ميكانيكية بالوجود الموضوعي للطبقات الاجتماعية . وخلال عملية ادماج البروليتاريا في النظام تصبح " صناعة الثقافة " ذات أهمية عملية بالنسبة للتحكم في كل من الوعي والوعي الفرعي (٨٥) .

ولقد أدى البحث عن الفاعل الثوري والفشل في العثور عليه إلى تبعثر مواقف منظري مدرسة فرانكفورت في الستينات من هذا القرن ، وهو الأمر الذي دفع الى انسحاب أدورنو الى برجه العاجي ، والى شوق هوركهايمر الى الله ، والى تحالف هربرت ماركيوز " المؤقت " مع الثورة الزائفة وأطفالها " إذا جاز لنا أن نستخدم هذا المصطلح الذي إستخدمه هابرماس لكي يعبر به عن حركات تمرد الطلبة الشباب .

تصر نظرية المجتمع على ضرورة عدم الانفصال بين النظم العقلية المتجاورة مثل علم النفس والتاريخ والاقتصاد ، إذا أردنا الوصول الـــى فهم لكلية الشروط والقوى المجتمعية . ومن ثم فإن عليها أن تذوب فـــى إطار علوم الانسان والمجتمع . ولا يمكن تحديدها فى إطار موضـــوع إهتمامها ، ولكن فى جهودها لكى تصل موضوعها بقوانين تكوين الحياة الاجتماعية Vergeseuschaftung (١) . وفى هذا الاطـــار لا يتمثـل الجانب الهام فى الانسان فى كونه عنصرا شبيها بالآخرين ، ولكن فـــى كونه كائنا إجتماعيا قبل أن يصبح فردا .

ويستحق كونت كل تقدير على إكتشـــافه أن الفـــرد يعتـــبر نتاجـــا للمجتمع ، غير أنه عن خطأ أكد على ضرورة أن يخضع الفرد للمجتمع وفى هذا الاطار تدرك مدرسة فرانكفورت علاقة الفرد بالمجتمع بمنطـق جدلى أو تاريخى ، فهى تعتقد – متفقة فى ذلك مـــع كـــل مـــن هيجـــل

١- من الجوانب الهامة التى تختلف فيها نظرية المجتمع – لمنظرى مدرسة فرانكفـــورت – عن النظرية السوسيولوجية ، فى كون الأخيرة أصبحت محدودة فـــى نطـــاق علـــم الاجتماع ، بينما الظاهرة الاجتماعية أو المجتمع كظاهرة يعتبر حقيقة أشمل من قـــدرة هذه النظرية – بتكوينها الحالى – ومن ثم يرجع منظرى مدرسة فرانكفـــورت مـــرة أخرى الى التفكير الموسوعى الشامل بشأن المجتمع ، بمعنى أن يكون المفكـــر الـــذى يتعرض لدراسة المجتمع ملما بالمعرفة الشاملة التى تتجاوز العلوم الخاصة . وقد تأكد هذا المدخل لمنظرى فرانكفورت تحت تأثير عاملين . الأول أن افكارهم تعتبر – على الأقل فى مرحلة البداية – امتدادا للنظرية الماركسية ، وهى النظرية التى قدمت رؤيـــة تتجاوز حدود العلوم فيما يتعلق بالمجتمع ، فرؤيتها شاملة لأنها تدرك أنها تتعامل مـــع حقيقية كلية . ويتمثل العامل الثانى فى الدعوة التى بدأت تظـــهر أخـــيرا مـــن أجـــل ضرورة التعاون بين مجموعة العلوم لإدراك الحقائق الواقعية ، أو الدعـــوة لمدخـــل التفاعل بين أنساق معرفية متنوعة لدراســـة حقـــائق المجتمـــع interdisciplinary approach " المترجم "

وماركس – أن الوعى الفردى ذاته يعتبر فى النهاية وعيا إجتماعيا . وبعبارة أخرى ، يرفض هذا التصور لعلاقة الفرد بالمجتمع كلا من الاسناد أو الرجوع إلى الفرد ، كما يفعل علم الاجتماع عند هومانز Homans ، أو الى فكرة أولوية المجتمع ، كما يؤكد عام إجتماع دوركايم ، وبتعبير أدورنو " ليس هناك وعيا للأنا بدون المجتمع ، وبنفس القدر ليس هناك مجتمعا بغير أفراده " (٨٦).

ووفقا لهذه العلاقة الجدلية : فإن الفرد الكامل النمو يعتبر إكتمالا للمجتمع الكامل النمو ، ومن ثم يصبح تحرير الفرد ليس تحريرا للمجتمع ولكنه تحريرا من الأوتومية atomization (٨٧) . وبطبيعة الحال ، فإن النمو الكامل يمكن أن يحدث من خلال مجتمع عادل وإنسانى فقط (١) . وحسبما تذهب نظرية المجتمع حينما تؤكد قائلة : ومن ثم تتمثل النتيجة الأكثر أهمية ، والتى يمكن أن نستنتجها من الفهم العميق للتفاعل بين الفرد والمجتمع ، فى أن الكائن البشرى يكون فى العادة قادر على تحقيق ذاته كفرد من خلال وجوده فى مجتمع إنسانى وعادل فقط . وتعتبر هذه الرؤية متضمنة فعلا فى المشروع الأفلاطونى الذى يؤكد أن التساند الإجتماعى والوظيفى يعتبر شرطا أساسيا لتحقيق الفكرة المغروسة داخل كل كائن بشرى . فباستطاعة المجتمع العادل فقط أن يتيح للانسان تحقيق أفكاره) (٨٨) . وبالنسبة لنظرية المجتمع فإن التأكيد على الكبرياء الانسانى والنمو الكامل للمجتمع ينبغى أن تكون له

١- من الواضح أن هناك خلافا أساسيا فى طبيعة العلاقة بين الفرد والآخر ، بين انلنظرية النقدية الأولى الماركسية (والنظرية النقدية الحديثة فرانكفورت) حيث تنظر الأولى الى هذه العلاقة بإعتبارها علاقة بين الفرد والطبقة ، وهى بطبيعة الحال علاقة خضوع ، وتحرير الفرد منها يعنى تغيير هذه البنية أو الغائها . بينما تنظر الثانية الى هذه العلاقة باعتبارها علاقة بين الفرد والمجتمع الذى سيطرت عليه الأوتومية ، وتحرير الفرد منها هنا يتمثل فى تحريره من نظام تسيطر عليه الأوتومية . يعنى تغيير هذا النظام بما يوافق امكانات الانسان وقدراته على التعبير . ويلاحظ أن النظرية النقدية الحديثة قد أعادت طرح المشكلة الهوبزية من جديد ولكن من منطق مختلف " المترجم "

الأولوية . وأن يكون ذلك جانبا مكونا فى تأسيس النظرية . وإذا كان المجتمع البرجوازى الأول قد أكد على فكرة إستقلال الفرد ، فإن هذه الفكرة قد إختزلت لأخيرا خلال مسار التطور التاريخى للرأسمالية التنافسية إلى مجرد أيديولوجيا . ومن ثم يصبح إلتزاما على نظرية المجتمع أن تعرى هذه الأيديولوجيا . وإذا كان هربرت سبنسر قد تنبأ بامكانية أن تؤدى التطورات المجتمعية إلى زيادة التباين والتكامل فى ذات الوقت ، فإن التطورات التى تلت ذلك أوضحت أنه كان على حق : فالفرد أصبح متكاملا بدرجة أكثر وأكثر مع المجتمع . غير أنه كان على خطأ حينما أكد أن تقسيم العمل الذى يدعم التباين فى مرحلة سابقة من التصنيع ، يعمل اليوم من أجل التأكيد على التوحيد . فقد قام تقسيم العمل – الذى وصل الى ذروته فى انتاج الجملة – بتفتيت عملية العمل الى أجزاء صغيرة للغاية ، بحيث أصبح من السهل استبدال عامل بآخر .[1]

وبدلا من التباين الذى كان من الضرورى أن يقود الى التفرد ، والى التوازن المضاد من خلال التكامل ، فإن التوحيد uniformizayion هو الذى تحقق . وذلك يعنى بالطبع الرجوع الى ظروف سابقة . وفضلا عن ذلك ، فإن علاقة الفرد بالمجتمع لا يمكن أن تنفصل عن علاقته بالطبيعة . فهناك تجمع أو ترابط بين هذه العناصر الثلاثة ، التى تضم تقسيم العمل ، وعلاقة الانسان بالمجتمع ، وعلاقة الانسان بالطبيعة ، فى هذا الاطار ينبغى على نظرية المجتمع أن تبحث

١- من الملاحظ أن النظرية النقدية تكشف لنا عن مزيد من الاغتراب الذى تخضع له الطبة العاملة فى المجتمع الرأسمالى الحديث . وإن كان ماركس قد اعتبر التخصص نوعا من الاغتراب لأنه يؤكد على استخدام احدى ملكات الانسان على حساب ملكاته الأخرى ، فإن النظرية النقدية قد أبرزت انتفاء العلاقة بين العامل وعمل بعينه ، وهو الأمر الذى يعنى ليس نفى ملكات العامل ما عدا ملكة واحدة ، ولكنه يعنى نفى كل ملكات العامل – ما دامت هناك امكانية لاستبدال أى عامل بعامل آخر لأداء نفس العملية – وعلى هذا النحو تصبح المهارة والابداع والمكات الخاصة مسائل لا قيمة لها فى اطار العملية الانتاجية من وجهة نظر المجتمع الرأسمالى الحديث . " المترجم "

هذه العلاقة المتبادلة من منظور ديناميات التاريخ . ولقد كان أرسطو هو أول من عبر عن هذه الفكرة بقوله : أنه إذ لم يحدث التساند بين الفرد والمجتمع ، فإن الإنسان يمكن أن يصبح فقط وحشيا أو إلاهاً . وقد أوجز هيجل نفس هذه الفكرة فى الفلسفة الألمانية الكلاسيكية بقوله : (يتكون التساند الحقيقى من وحدة الفردية والعمومية وتفسيرها فقط ... وهو الأمر الذى يعنى أنه بنفس القدر الذى يحصل فيه العام على وجوده الواقعى من خلال الفردى ، يحصل الفردى أو الخاص على الأساس الثابت والمضمون الحقيقى لواقعيته فيما هو عام) .

وقد صاغ هيجل الفكرة بصورة مختلفة الى حد ما فى مؤلفه الفينومينولوجيا The phenomenology حيث قال :

" يحقق الوعى الذاتى رضاؤه من خلال الوعى الذاتى الآخر فقط " (٨٩) . وفى هذا الاطار نجد أن التوتر والعلاقة المتبادلة بين الفرد والمجتمع هما اللذان ينتجان هذه الكلية الدينامية .

ويميل علم الاجتماع الوضعى الى اختزال البشر الى مجرد كائنات حية من مستوى أعلى ، أو إلى ممثلين للمجتمع لا قوة لهم [١] .

ويتم التوحيد بين الأفراد من ناحية والانجازات من ناحية أخرى ، والمساواة بينهما من خلال الانتشار الشامل لمبدأ قيمة التبادل ، الذى

١- يكتسب الانسان والوجود الانسانى أهمية خاصة فى نظرية المجتمع لمدرسة فرانكفورت . حيث الانسان الذى ينبغى حمايته وتحريره من قهر النظام أو المجتمع . وهى ترى الانسان هو الوجود الأولى بالرعاية الى حد كبير ، فهو الجوهر والأساس ، واستنادا الى ذلك فهى تتفق أو تختلف مع الاتجاهات الفكرية الأخرى ، فهى ترفض الاتجاه الوضعى ، خاصة الأفكار الدوركيمية التى تؤكد على الوجود المجتمعى الذى يبرز على حساب اختزال الوجود الفردى ، فدوركيم هوالذى أكد فى مؤلفه تقسيم العمل= =الاجتماعى أن المجتمع له حاجات ، ولسي الأفراد سوى أدوات لإشباع حاجات المجتمع . " المترجم "

يعنى اختزال العمل الإنسانى الى الفكرة المجردة المتعلقة بمتوسط وقت العمل . وفى هذا الصدد يكتب أدورنو قائلا :

(فوق كل أشكال التباين الاجتماعى المحددة وبعيدا عنها ، يمثل التجريد المتضمن فى نظام السوق سيطرة العام على الخاص ، وسيطرة المجتمع على أعضائه الأسرى ... إذ يفرض النسق الكلى على شخص أن يحترم قانون التبادل إذا كان يرغب فى البقاء حيا ...) (٩٠) . ويدفع انتشار هذا المبدأ كل العالم ، لكى يصبح متحدا ولكى يصبح كلا

وتحت وطأة السيطرة الكاملة للكلية ، لا يستطيع الأفراد عقلانيا تحديد حياتهم أو حياة الكل . فهم لا قوة لهم فى مواجهة النظام ويعبر أدورنو بإيجاز عن علاقة الفرد بالمجتمع فى عصرنا قائلا :

(لقد أصبح البشر متحدين ... فى الجانب الأعمق من أنماط سلوكياتهم مع مصيرهم فى المجتمع الحديث ... وعلى هذا النحو تكتمل الدائرة . حيث يكون على البشر أن يعملوا من أجل تغيير الظروف الحالية الراسخة للوجود ، أن سبب الوجود هذه الفكرة وصفاتها على البشر ، فهى قد جرفتهم بعيدا عن مرادهم من وجودهم ، حتى أنه أصبح من النادر أن يمتلكوا التلقائية اللازمة . (٩١)

ويبدو أن هذه التوجهات السوسيولوجية المتنوعة كعلم الإجتماع الوضعى عند دوركيم ، والكانتية المحدثة عند ماكس فيبر ، والنظرية الجدلية للمجتمع ، على خلاف واضح فيما يتعلق بعلاقة الفرد بالمجتمع . ففى نظرية دوركيم يجد الفرد نفسه فى مواجهة قوة (المجتمع – الكلية) تسمو عليه " وعليه أن ينحنى أمامها " (٩٢) . وبالنسبة لماكس فيبر ، يمثل المجتمع الجماهيرى ذو النزعة البيروقراطية المتزايدة ، سواء كان إشتراكيا أو رأسماليا " قفصا

حديديا " أما فى نظرية المجتمع فإننا نجد أن الكلية السالبة ذات القـــوة الهائلة هى التى تحدد كل التفاصيل الدقيقة للحياة الإجتماعية . وكذلـــك تلك المتعلقة بالحياة الخاصة وفى المجتمع المنشئ كلية " ليس هنــــاك شئ خاص حقيقى " " وليس هناك شيئا مفردا على وفاق مع الكل الذى لا يهدا " (٩٣) .

وعلى هذا النحو فإنه برغم الاتساع الشكلى Formal (بين هـــذه التوجهات السوسيولوجية المتنوعة) فإن هناك إختلافا أساسيا بينـــها ، إذ يوافق دوركيم عبى سيطرة الكل علـــى الفـــرد بإعتبـــار أن ذلـــك ضروريا ومبررا من الناحية الأخلاقية ، بينما يدرك فيبر ذلك بنــــوع من التذمر والتشاؤم . فى حين نجد أن نظرية المجتمع تنظر اليه بنوع من اليأس المطلق .

وتعارض كلا من النظرية النقدية ونظرية المجتمع صياغـــة أى مقولات مطلقة ، وتسعى من أجل النقد – الذاتى الدائم ، غير أنهما قـد إنتهكا هذه القضية كما يشير إلى ذلك ناقديهم . فمثلا تحولـــت خـــبرة الإبادة الجماعية Holocaust إلى قضيـــة سوســـيولوجية وتاريخيـــة مطلقة . وفى اطار ذلك تم الإحتفاظ بفكرة هيجل ومــــاركس القائلـــة بالعملية التاريخية والعالمية الحتمية التى تتحرك نحو هـــدف محـــدد . غير أن إتجاهها تم عكسه بطريقة سلبية ، حيث يصبح التاريخ " تقدمـا نحو الجحيم" (٩٤) .

وفى هذا الإطار لم يتضح التمييز بين الكلية التاريخيـــة للعـــالم ، وبين الكلية المجتمعية فى فكر مدرسة فرانكفورت ، وبمعنى ما ، فقـد تم إستنتاج بعض الأحداث التاريخية والاجتماعية للحضارة الأوروبيـــة من خلال الأبعاد التاريخية للعالم ، وأيضا من خلال مصـــير النـــوع البشرى . وفى هذا الإطار يكتب أدورنو : " يكتب أدورنو : "يعتـبر

العالم نظاما من الرعب " (٩٥) . وفى نطاق ذلك أيضا تم الابقاء على روح العالم Weltgeist لهيجل ، غير انها اتخذت طابعا سلبيا ، ومن ثم فقد أوجزت فكرة روح العالم Weltgeist السلبية على النحو التالى

(ليس هناك تاريخا شاملا يقود من العبودية الى النزعة ذات الطبيعة الانسانية الشاملة ، ولكن هناك التاريخ الذى يتحرك من الرمى بالحجارة الى القنبلة الذرية . انه التاريخ الذى ينتهى الى التهديد الشامل الذى تفرضه الانسانية المنظمة على الانسان المنظم ، والذى يتجسد فى القطيعة . إنه الرعب الذى تأكد لهيجل وجعله يقف على رأسه) (٩٦) (١)

١٠- تقييم

لقدير محاولة تقنين النظرية النقدية تحت إسمها الجديد " نظرية المجتمع " فإن على الباحث منا أن يحدد أولا ماهية علم الاجتماع . وفى هذا الصدد يصر معظم علماء الاجتماع المعاصرين على الطبيعة العلمية للعلم . إذ يؤكد هارى جونسون Harry M . Jonson مؤلف

١- يختلف تصور النظرية النقدية للتاريخ الاجتماعى للمجتمعات عن تصور النظرية الماركسية له . إذ تصور النظرية الماركسية التاريخ باعتباره جدلا بين طبقتين متناقضتين حيث ينحل التناقض فى كل مرحلة عن طريق نفى التنظيم الاجتماعى القائم والذى يسوده التناقض ، ليتخلق محله تنظيم اجتماعى جديد . فالتاريخ الانسانى هو تاريخ صراع الطبقات ، النبيل والعامى ، السيد والعبد ، والاقطاعى وقن الأرض ، البرجوازى والبروليتارى ، بايجاز التاريخ هو تاريخ الصراع بين المضطهدون والمضطهدين . فإن التاريخ عند ماركس له عادة طابعه الطبقى ، بينما التاريخ عند منظرى مدرسة فرانكفورت هو تاريخ قهر الانسان فى ظل الوجود الاجتماعى المنظم ، ونشر حالة الرعب التى يعيش فى اطارها وبهذا التصور للتاريخ نلمح المأساة اليهودية . فمن ناحية نجد أن المجتمعات المنظمة هى التى تولت قهر الجماعة اليهودية ، ومن ناحية ثانية فإن هذا القهر اتخذ طابع الرعب فى أغلب الأحيان . " المترجم "

الكتاب الجامعى الجيد (علم الاجتماع ، مدخل نظرى : Sociology A systematic introduction) علـــى إمتــلاك علــم الاجتمـــاع للخصائص التالية التى يمتلكها العلم : فهو علم امبـيريقى Empirical ونظرى Theoretical ، ذو طبيعة تراكميـــة Camulative وغـــير أخلاقى Nonethicl . (٩٧)

وهناك بالتأكيد بعض علماء الاجتماع الذين يختلفون مـــع " علـــم الاجتماع الذى يؤكد على الاتفاق " . ويوجز جوزيف بنزمان Joseph Bensmann أحد ممثلى هذا الموقف المنشق قائلا : " لم يتفق علمـــاء الاجتماع ولن يتفقوا على تعريف لعلم الاجتمـــاع ، وذلـــك لأن هـــذا التعريف يتضمن برنامجا للعمل الذى ينبغى إنجازه . (وطرق البحث، والمادة ، والأفكار التى يجب تناولها) . وأيضا العلاقة بالنظم العقليـــة الأخرى ... والاتجاه نحو المجتمع " (٩٨) .

وتتبنى هذه المناقشة الموقف الذى يؤكد أن علم الاجتماع يعتـــبر علما يتميز الى حد ما بخضوعه لتأثير بعض التطورات المناظرة فـــى العلوم الأخرى (٩٩) . وهناك فى الحقيقة – كما لاحظنـــا – خمســـة جوانب أساسية من هذه التطورات التى حدثت فى العلوم الإجتماعيـــة والفيزيقية الأخرى . الأولى فكرة الانقطاع discontinuity ، التـــى ظهرت فى علمى الطبيعة والبيلوجيا سنة ١٩٠٠ ، وقد حلت كل مـــن نظرية الجزئ فى الطبيعة ، ونظرية التحول أو التغير الجذرى فـــى البيولوجيا محل النظريات القديمة المتعلقة بالتطور المستند الى الانتقال المستمر الذى يتضمن أفكار التغير فـــى شـــكل قفـــزات متقطعـــة . وبأسلوب مماثل ، يوجد عدد قليل من علمـــاء الاجتمـــاع الذيـــن قـــد يتمسكون بالنظرية السبنسرية فى التطور الاجتماعى .

وإستثناء من ذلك نجد أن تالكوت بارســونز Talcott parsons فى نهاية الستينات من هذا القرن يضع مخططا جديدا لنظرية شــاملة عن التطور الإجتماعى ، وذلك على الرغم من رأيه القديم (الذى نشر فى ١٩٣٧) والذى قال فيه " بأن سبنسر قد مات " (١٠٠) . والثانيـة فكرة التكامل Complementarity ، كما نجد مثالا لها فى فيزيــاء نظرية نلس بور Neil's Bohr عن الألكترون باعتباره يتكون مــن جسيم أو خلية وموجه . وفى إطار العلوم الإجتماعية تزايـد إتفقـاق عديد من المداخل ، والنظريات الواضحة التعارض على تفسير نفـس الظاهرة (١٠١) . وقد توقع ماكس فيبر فكرة التكامل فى بحثه عــن العلاقة المتبادلة بين الأخلاق البروتستنتية وظهور الحضارة الرأسمالية

إذ نجده قد إختتم دراسته الكلاسيكية بعبارة : " غير أنــه ليـس هدفى بالطبع أن استبدل تفسيرا سببيا ماديا من جانب واحـد بتفسـير سببى روحى من جانب واحد للثقافة والتاريخ ، فكلاهما ممكن بنفـس القدر " وأخيرا نجد رالف دارندورف يؤكد على التكامل بين نظريـات الاتفاق ونظريات الصراع ، بإعتبارهما وجهان لعملة واحدة ، وذلـك بهدف إستكشاف الحقيقة المجتمعية (١٠٢) .

وتشكل النسبية Relativity الفكرة الثالثة ، وهى الفكـرة التـى قدمها أينشتين لعلم الطبيعة . هذه الفكرة لها أيضا ما يعادلها فى العلوم الإجتماعية وبخاصة فى الانثربولوجيا الثقافية . ونحن فى الحقيقة نجـد أن فكرة النسبية قديمة قدم علم الاجتماع ذاته . ووفقا لقانون الحـالات الثلاث لأوجست كونت ، فإن على الأسباب الأولى والنهائية – خـلال البحث عن المعرفة المطلقة – أن تفسح الطريق امـام البحـث عــن العلاقات من خلال الملاحظة الامبريقية ، والبرهنة المنطقية . وفـى هذا الصدد أكد كارل لوث Karl Lowith بصورة صادقة أن " فلسفة

كونت الجديدة تعتبر فلسفة ذات نزعة نسبية بـــالمعنى الموضوعـــى ، لكونها اهتمت أساساً بالعلاقات " (١٠٣) .

وفى هذا الاطار ينبغى أن نذكر الدور أيضا الذى قام به كل من ماكس فيبر وأميل دوركيم . إذ كتب فيبر خلال دراسته المقارنة بيـــن الحضارات العالمية قائلا : " سوف لا تنال مسألة القيمة النسبية للثقافة موضع المقارنة هنا كلمة واحدة " (١٠٤) .

والرابعة التحول إلى دراسة أصغر المكونـــات Microcosm ، وفى هذا الصدد نجد أن الفكرة التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر تتمثل فى أن بإستطاعة الباحث أن يطبق الفيزياء النيوتونية الخاصـــة بالرؤية بالعين المجردة لدراسة النواة أو الذرات ، بل أنه قد تم التخلى عن الفكرة التى تعتبر أن الطبيعة الذرية مجرد امتداد طبيعى للنمــوذج النيوتونى . فقد تم التسليم بأن الحقيقة البالغة الصغر هـــى بطبيعتـــها حقيقة مفسرة لذاتها .

وفى هذا الإطار تتمثل دراسة المكونـــات الصغـــيرة فـــى علـــم الإجتماع فى دراسة الجماعات الصغيرة . فقد إكتشف علماء الإجتماع أنه لكى نفهم الحقيقة الاجتماعية ، فإن علينا دراسة المكونات الصغيرة المكونة للحقيقة الاجتماعية ، وأنهم لا يستطيعون التمسك بأى قـــانون نيوتونى أو باسونزى فى نطاق دراسة المكونات الصغيرة . وفى هـــذا الاطار تم التسليم بالدور القيادى لجـــورج زيميـــل بالنســـبة لبحـــوث الجماعات الصغيرة التى أجريت بعد ذلك . وقد أكد جورج هومـــلنز – عن حق – على أهمية إسهام زيمل عن طريق نعته بأنه " رائـــد مـــا أصبح يعرف اليوم ببحوث الجماعـــة الصغـــيرة " (١٠٥) . وبـــهذه المناسبة ينبغى أن نتذكر السيطرة المتزايدة التى بدأت تمتلكها نظريات المدى المتوسط .

والخامسة هى اللاحتمية indeterminancy والسببية الاحصائية st tistical causality . وتؤكد فكرة اللاحتمية فى فيزياء الأجسام الصغيرة Microphysics التى ترتبط بإسم ويرنر هايزنبرج Werner Heisenberg انه لا يمكن تحديد مركز الألكترون وطاقته الدافعة فى ذات الوقت . وفى اطار العلوم الاجتماعية ، نجد أن اللاحتمية أكثر انتشارا فى نطاق الظواهر العقلية .

بالإضافة الى ذلك فقد حلت السببية الاحصائية – التى تستند الى نظرية الاحتمالية – محل السببية الميكانيكية والمطلقة التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر فيما يتعلق بالمكونات الصغيرة . وفى علم الاجتماع ، مهد ماكس فيبر الطريق فى هذا الإتجاه ، حينما إستبدل فكرة الحتمية بالنماذج الاحتمالية ، وفى هذا الاطار كتب فيبر فى تعريفه للقانون والسلطة قائلا :

(يتواجد القانون حينما توجد إحتمالية أن تسيطر على النظام مجموعة محددة من البشر يكون فى مقدورهم إستخدام القهر الفيزيقى والعقلى بهدف تحقيق التكيف مع النظام ، أو توقيع الجزاءات فى حالة الانحراف عنه ... وبصورة عامة ، فنحن نفهم السلطة باعتبارها الفرصة التى يتمكن فيها الانسان أو مجموعة من البشر من فرض إرادتهم بفعل شعبى ، ضد مقاومة الآخرين الذين يشاركون فى ذات الفعل) (١٠٦) .

وفى هذا القرن أصبح تقديم الاحصاء الاستنتاجى ، باعتباره وسيلة منهجية ذو أهمية محورية بالنسبة لتطور العلوم الاجتماعية . وبصورة محددة يمكن القول بأنه قد تحققت الصياغة الرياضية

Mathematization لكل من العلوم الاجتماعية والفيزيقيــة ، وهــى الصياغة التى تعتبر مؤشرا للنضج بالنسبة لكل العلوم (١٠٧) .

وبالمثل فقد أصبح الإستخدام المتزايد لنماذج والتأسيسات المنطقية اتجاها سائدا فى كل العلوم . وفضلا عن ذلك ، فهناك اتفاق عام بيــن علماء الاجتماع على مبدأين اضافيين : على ضرورة التحقـــق مــن الثبات Verification وعلى مبدأ أن يكون مجتمع العلماء هو الحكــم الوحيد على صدق النتائج العلمية . وينبغى التأكيد على حقيقة أن هــذه التطورات قد حدثت بصورة مستقلة . وينبغى الاضافة الــى ذلــك أن ماكس بلانك Max Blanck قد وجه إنتباه علماء الطبيعـــة بصــورة مبكرة فى ١٩١٤ الى استخدام الاحصائيات فى العلـــوم الاجتماعيــة (١٠٨) .

فإذا إستطعنا تحديد ما يعتبره مجتمع العلماء الاجتماعيين معــايير علمية – حتى ولو كانت هناك بعض الأصوات المنشقة على ذلـــك – فإننا نســـتطيع الآن فحــص النظريــات السوســيولوجية لمدرســة فرانكفورت فى العقود التالية للحرب ، وأن نحاول تقييمها بالنظر الــى المعايير المتفق عليها فى نطاق علم الاجتماع العلمى .

وفى هذا الصدد يبدو أن الإعلاء من شــأن elevation التــأمل والنظرة العميقة ، وتحول كل منهما الى طريقة سوسيولوجية ممتازة ، ورفض الاجماع الشامل Consensus Omnium " الشبيه بالاجمــاع الديموقراطى " الذى إرتبط بذلك ، كان له أساسه فى الاتجاه العقلــى للمثقفين ، وهو الإتجاه الذى لم يكن على توافق مع قواعــد المنــهج العلمى التى لاقت قبولا عاما . ولا يضمر أدورنو " للنزعــة الشــكية

المنظمة Organized scepticism التى تعتبر حجر زاوية آخر " للأخلاق العلمية " سوى الازدراء .

وفى هذا الاطار يمكن القول بأن النزعة الشكية قد تضافرت بقوة مع ظهور العلم الحديث ، حيث صاحبت عملية ظهوره الاطاحة بالدوجماطيقية والسلطة سواء فى المجالات السياسية أو الدينية . وقد تتبع هربرت بترفيلد Herbert Butterfield هذا الاتجاه تاريخيا حتى جوزيف جلانفل Joseph Glanwill الذى كان أول من أصر " على أهمية النزعة الشكية فى العلم وعلى نسق الشك المنهجى " (١٠٩) . وبالنسبة لأدورنو " فإن نزعة الشك البرجوازية تعتبر نزعة متبلدة Obtise " .

وفيما يتعلق بنقد علم الاجتماع الوضعى والامبيريقى ، أثار كل من هوركهايمر وادورنوكثيرا من الانتقادات الحقيقية والصادقة . ومع ذلك فإن نقدهم كان يفتقد الأصالة بصورة عامة . وارتباطا بذلك فإننا نجد أن علم الاجتماع الأكاديمى الأمريكى على سبيل المثال له نقاده من داخل المجتمع الأمريكى حتى منذ أيام ثوستون فبلن Thorstein Veblen ، ولعل روبرت ليند Robert Lynd ، وأدوين سازلند Edwin H. Sutherland ، و س . رتيت ميلز C. Wright Mills من أكثر هؤلاء النقاد أهمية (يشير التجاهل لأعمال س . رايت ميلز الى أفق منظرى فرانكفورت الضيق) (١١٠) [1] .

١- من الواضح أن ثمة خلاف بين الاتجاه النقدى لمنظرى مدرسة فرانكفورت وبين الاتجاه النقدى الذى قاده س . رايت مليز . حيث نجد أن الأخير يعتبر من ناحية امتداد للروح النقدية للنظرية الماركسية ، وان تركزت تحليلاته على بناء القوة فى المجتمع الأمريكى ، ليكشف عن القهر الذى يمارس على المجتمع ، ذلك فى حين أن منظرى مدرسة فرانكفورت لم يحالوا نقد المؤسسة السياسية ، ولكنهم نقدوا النظام الاجتماعى أو المجتمع من حيث سطوته على الانسان ، ومن حيث قهره له ، ومن ثم فهم يتجنبون عداء

ويقود تقييم نظرية المجتمع فى الفترة التالية لسنة ١٩٥٠ – على أساس مقارن استنادا إلى قواعد علم الإجتماع الحديث – إلى النتيجة التى تذهب إلى القول بأن النظرية النقدية قد إنتهكت قواعد علم الإجتماع العلمى بصورة واضحة . ومن ثم لا يمكن إعتبارها علما للإجتماع . و برغم أن التأكيد على مقولة الكلية قد يجعل من نظرية المجتمع توجها سوسيولوجيا كليا Macrosociological آخر ، غير أن أصرارها على الغاء الخط الفاصل بين العلم والفن ، بين الرؤية العميقة و التأمل ، بإعتبارهما مصدرا أساسيا للمعرفة السوسيولوجية ، لا يتوافق مع المنهجية السوسيولوجية العلمية فالعلم ذو طبيعة تراكمية ، وهو يتقدم بصورة لا نهائية من خلال عملية إضافة معرفة جديدة ، وتعبر عن ذلك العبارة الكلاسيكية التى قالها ماكس فيبر ، والتى ذهب فيها إلى : " أن العلم مقيد بمسمار التقدم " بينما نجد أن أعمال الفن " لا يمكن تجاوزها خاصة اذا كانت إنجازات عبقرية " . ونتوقع فيما يتعلق بقضية البحث عن المعنى – وهى القضية التى إرتبطت بذلك ، والتى ترجع جذورها إلى مذهب دلتاى وقد تبناها فيبر فى نفس الوقت – أن يحاول كل من فيبر و دلتاى أن يتوصلا إلى نوع من اجراءات التحقق من الثبات Verification procedures بالنسبة لها ، وهى الجهود التى رفضها منظروا فرانكفورت بصورة مطلقة بإعتبارها خطيرة ، وتتحدر نحو النزعة الوضعية .

المؤسسة السياسية . من ناحية ثانية فأننا نجد أن نقد س . رايت ميلز للنظام الأمريكى كان أكثر قوة ، وذلك لكون الناقد ينتمى الى المجتمع ، بينما لم يكن نقد فرانكفورت على نفس درجة القوة لأنهم مجموعة من النقاد الذين لجأوا الى المجتمع الأمريكى – خاصة المؤسسة السياسية – فوفر لهم الحماية . المترجم "

ويمكن القول بأن نظرية المجتمع تعتبر مزيجا من التـــأملات الفنية ، مرتبطة بالعناصر والمقولات الماركسية مع فلســفة متشــائمة للتاريخ . فإذا وافقنا على فكـــرة الحتميـــة الوجوديـــة Existential determination للنظرية الاجتماعية ، فإننا فى هذه الحالة ينبغى أن نتحــدث عــن " الحتميـــة الوجوديـــــة الفائضـــــة Existenial overdetermination" أو عن أدورنو " سجين ســـيرة حياتـــه " اذا استخدمنا تعبير هابرماس .

و تتميز الأسباب التى وراء موقف أدورنو فيما يتعلق بالقضايـــا موضع المناقشة بأنها ذات طبيعة مزدوجة . وإلى حد كبير فإننا نجــد أن لها جذورها فى تدريبه الموسيقى ، وفى تأثير الموسيقى الحديثـــة لمدرسة فينا عليه . ففى أعقاب إنتهائة فى سنة ١٩٢٤ مـــن رســالته للدكتوراه التى كانت بعنوان النظريات الجمالية عنـــد كـــير كجـــارد Kierkegaard ، قابل أدورنو ألبان بيرج Alban Berg وهو واحد من أكثر أساتذة الموسيقى شهرة ، وقرر أن يدرس التأليف الموســـيقى عليه فى "فينا" . ومن خلال هذه العلاقـــة تعـــرض أدورنـــو لآخـــر التأثيرات عليه . حتى ولو أنه قد وجد من الصعب أخيرا بعد حوالـــى أربعين سنة أن يكتب عن بيرج ، لأنه لم يقترب من أســـتاذه بدرجـــة كافية . ويعتبر هذا التأثير الموسيقى لمدرسة " فينـــا " علـــى أعمـــال أدورنو متنوعا . بل إننا نجد أدورنو قد سلم بأنه قـــد حصـــل علـــى خواص أسلوبه وتكنيكاته من أيامه فى " فينا " . ويعتبر الخوف والقلق بشأن الانسان الحديث والمغترب عنصرا له أهميتـــه فـــى اســـهامات أدورنو ، ويمكن تتبع تاريخه أيضا لتأثير هذه الفـــترة . وفـــى هـــذا الإطار يتذكر هانز أيسلر Hanns Eisler – أحد الدارســـين فـــى سكونبرج Schonberg – أستاذه الذى قال عنه " أنه كان يعبر عـــن مشاعر البشر الذى تجمعوا فى ملاجىء الغارات الجوية ، قبل فـــترة

من إختراع قاذافات القنابل " (١١١) . ويحتوى هذا الشعور بـــالطبع على إتجاه كلى وشامل من قبل أستاذة الموسيقى فى مدرسة "فينا" نحو الحياة والمجتمع . ويعتبر الإغتراب والقدرية ومشاعر الضعف مـــن المصطلحات الأساسية فى هذا الاطار . فالانسان من وجهة نظرهم لا يستطيع أن يغير العالم من خلال ملاجئ الغارات الجوية أو فى نطاقها وفى هذ الاطار أصبح البقاء Survival حيـــا هـــو الشـــئ الوحيـــد والأساسى الذى ينبغى الحفاظ عليـــه . ومـــن المؤكـــد أن الأحـــداث التاريخية التالية وخبرات الوجود العقلى والسيكلوجى اللاجئ هى التى عمقت هذا الشعور المبدئى عند أدورنو ، الى تلك المســتويات التـــى تجلت لديه ، مثال على ذلك حالة اليأس التى ظهرت فى مؤلفه الحدود الدنيا الأخلاقية Mimina Moealia الذى تضمـــن عنوانـــا فرعيـــا (تأملات من خلال حياة جريحة Reflection from an inijured life وفى العدمية Nihilism التى ظهرت فى مؤلف الجدل الســـلبى . (Negative Dialektik

وفى مقالة قصيرة عن تاريخ حياته الفكرية كتبها أدونو قبل وفاته بوقت قصير ، نجده يقدر تأثير خلفيته الفنية (الموسيقية) باعتبارهـــا شيئا تغلغل فى كل جانب من جوانب تفكيره ، بما فـــى ذلـــك قضايـــا المنهج فى العلوم الاجتماعية . وقد كتب فى هذا الصدد قـــائلا : " إن هناك شيئا محددا فى الموسيقى اعترض طريق انتقالى من الاهتمامات النظرية الى النزعة الامبيريقية ... لقد دخلت المجال المحـــدد لعلـــم اجتماع الموسيقى باعتبارى موسيقى أكثر من كونى عالما للاجتمـــاع " (١١٢) [١] .

١- الى حد كبير يعبر أدورنو فى هذه المرحلة عـــن الممارســـة الأكاديميـــة لمنظـــرى فرانكفورت ، فهم ليسو ذوى اتجاهات نقدية ثورية تهتم بالممارسة العملية اضاف الى النقد النقد النظرى ، ولكنهم كانوا فى الأساس رافضين النظام الفاشى ، وهـــاربون منـــه الـــى

ولقد بقى أدورنو فى الحقيقة فناناً طيلة حياته ، وقد كـان يكـرر بفخر التأكيد على فكرة وحدة العالم والفن فى نهاية الستينات من هـذا القرن . وفى قمة حركة إحتجاج الطلبة فى ألمانيا – الذيـن ضغطـوا عليه لكى يتخذ موقفاً عملياً – نجده يعلن أنا رجـل مـهتم بالنظريـة وأشعر أن الفكر النظرى قريب من أهدافه ملة فنان (١١٣) . وثانيـا فقد تجلى إهتمام أدورنو الرئيسى طيلة حياته بالحفاظ علـى سـلامته العقلية واستمرار شخصيته . فقد غادر ألمانيا هتلـر وعمـره واحـد وثلاثين عاما ، ثم وصل الى أمريكا وعمره خمسة وثلاثين عاما بعـد أربع سنوات قضاها فى انجلترا ، وارتباطا بذلك اعتبر أدورنو أن علم الاجتماع الامبيريقى غير النقدى ، هو العلـم الـذى يسـتمر لخدمـة المصالح التجارية والتكيف مع المجتمع الجديد فى أمريكـا ، يشـكل تهديدا واضحا لسلامته . وفى مقالته القصـيرة عـن تـاريخ حياتـه الفكريـة – التى كتبها قبل فترة قصيرة من وفاته – كشف أدورنـو عن كثير من جوانب علاقته بأمريكا بصفة عامة ، أو بعلم الاجتمـاع الأمريكى بصفة خاصة . وفى هذا الصدد نجده كتب قائلا :

(لقد تميز تطورى الفكرى حتى سن الرابعة والثلاثيـن بكونـه تأمليا خالصا ، وأنا أعتبر أن مهمتى ... هى أن أفسر الظواهر وليس التحقق من صدق الحقائق وتنقيتها وتصنيفها لكـى أجعلـها صالحـة ومتيسرة كمعلومات ، فذلك لا يتصل بفكرتى عن الفلسفة فقط ولكـن بفكرى عن علم الاجتماع أيضا . وحتى يومنا هذا ، لم أحاول الفصـل

النظام الأمريكى الذى اختلف من وجهة نظرهم عن النظام السابق الذى فـرض عليـهم ضروب القهر . ومن ثم فهم بسبب رفضهم الممارسة الثورية – كالماركسية – وبسـبب ميلهم الى تجنب النقد الحاد للنظام الأمريكى ، نجدهم قد اتجهوا الى نوع من النقد النظرى التأملى ، الذى يجمع بين الاستمتاع بروح النقد ، وفى ذات الوقت يجنبهم أضرار الموقـف النقدى الصلب . " المترجم "

بين النسقين المعروفين بصورة صارمة) (١١٤) . وقد تشكلت أفكـار أدورنو وإتجاهاته بصـــورة تامـة ، بواسـطة خلفيتـه الاجتماعيـة البرجوازية ، وأسلوب حياته المرتبط بذلك ، وتدريبه الموسيقى فـــى فيينا ، وأيضا بواسطة خبرته الاجتماعية والتاريخية التى نتجت عـــن صدامه مع الحضارة الأمريكية . وقد ناقشنا تأثير خبرته الفنية فى فينا على تفكيره . وبالاضافة الى تحليل حياته الفكرية فى المنفى فى نهاية الفصل الأول ، فإن هناك بعض الجوانب التى ينبغـــى أن تضـاف ، وهى التى تتصل بموقف أدورنو كلاجئ فكرى . وحسبما أشرنا ، نجد أن أدورنو قد صدم بكل جوانب الحضارة الأمريكية . ولكونه قد إنتقل فجأة من زخرفة ومتعة Gemutlich " فينا " وإطار القـــرن التاسـع عشر الذى يسودها ، عبر اكسفورد الى الأحياء المتخلفة فى نيويـورك Newyork ، ونيوجرسى Newjersey فإن ذلك كان من شـــأنه أن يصدمه ويؤلمه . وحسبما يتذكر قائلا :

(لم تكن قيادات مشروع برينستون princeton لبحث الراديـــو فى ذلك الوقت فى برينستون أو نيويـورك ، ولكــن فــى نيويـورك ونيوجرسى . وحسبما سافرت من خلال نفق ممتــد تحـت هدســون Hudson شعرت الى حد ما وكأننى فـــى مســرح الطبيعـــة لكافكـا Kafka بأوكلاهوما . لقد تأثرت إلى حد كبير بالإرتباك حول اختيـار الموقع الذى يندر أن تدركه أضواء المجتمـع الأوروبـى الأكــاديمى (١١٥) . وفى مقابلة لراديو هامبورج Hamburg وصـــف أدورنـو كيف أنه قاسى فى أمريكا حينما فرض عليــه أن يضفـــى " الطـــابع العلمى " على أفكاره وقد حل هذه المشكلة عن طريق ممارسة حيـــاة فكرية مصابة بالفصام Schizophrenic : " وقد قسم عمله الفكـــرى

إلى قسم للخاصة esotreic وقسم العامة exoteric [1] وقد جمع كتاباته المقصورة على الخاصة في ألمانيا في درج مكتبه بدون أي أمل للنشر بينما كانت كتاباته الشعبية أو العامة في انجلترا من أجل النشر (١١٦) وفي هذا الإطار يكشف النشر الأخير لمراسلات بين توماس مان وناشر أدورنو صمويل فشر Samuel Fischer صاحب دار نشر فيرلاج Fischer Verlag ذات الشهرة في فرانكفورت ما يلقى ضوءا كافيا على هذه القضية . ففي احدى الرسائل رد توماس مان ردا أقل حماسة على طلب أدورنو منه أن يتحدث نيابة عنه مع صمويل فشر ، وذلك لأن دار نشر (فشر فيرلاج) التي كانت توجد في استوكهلم Stockholm أثناء الحرب – رفضت مسودة كتاب أدورنو ، الحدود الدنيا الأخلاقية Mimina Moealia ، وهو المؤلف الذي نشر فقط بعد عودته الى فرانكفورت سنة ١٩٥١ (١١٧) .

وفي ظرف آخر كتب توماس مان الى أدورنو ، بعد أن تسلم كتابه " منظورات النقد الثقافي والمجتمع Prismen, kulturkritik und Gesellschaft " قائلا : " انني سوف أقرأ كتاب " النقد الثقافي والمجتمع Prismen, kulturkritik und Gesellschaft " حينما أكون أكثر يقظة ، فلكي أقرأ لك ينبغي ألا اكون متعبا " (١١٨) .

١- من الواضح أن الممارسة النقدية لمنظري مدرسة فرانكفورت كانت نوعا من الممارسة البرجوازية . حيث ممارسة النقد ولكن على المستوى النظري عن طريق التأمل في الواقع دون السعي أو العمل على تغييره ، وذلك لأنه واقع اجتماعي -- المجتمع الأمريكي – وفر الحماية لهم وذلك بالطبع على عكس النظرية الماركسية ، باعتبارها الإطار الكلاسيكي لنقد المجتمع ، حيث الإهتمام بالممارسة ، وضرورة توظيف النظرية والفكر النظري ، في انضاج الوعي من ناحية ، وإكتشاف الوسائل لتغيير الواقع من ناحية أخرى . فماركس الذي قال لقد تحدث الفلاسفة كثيرا عن تغيير العالم لكن المهم أن نغيره . " المترجم "

وتحكى تعليقات أدورنو على حياته الفكرية قصة مسودة كتابه (فلسفة الموسيقى الحديثة The philosophy of modern music) الذى أعاده ناشره الأمريكى مع تعليق عليه قائلا " سئ التنظيم " حيث يعلق أدورنو على هذه الواقعة قائلا " لقد قلت لنفسى ، على الأقل لا يمكن أن يحدث ذلك لى فى ألمانيا " (١١٩) . وقد أكد أدورنو على اللغة بإعتبارها أحد الأسباب الرئيسية لعودته الى ألمانيا بالرغم من أوشفيتز Auschwitz حيث قال :

(إن عودتى إلى ألمانيا لم تكن مدفوعة بحاجة ذاتية فقط ، أو بمرض الحنين الى الوطن . ولكن كان هناك أيضا سبب موضوعى : (يتمثل فى اللغة ، لم تكن حقيقة أن الانسان لا يستطيع التعبير عن كل ظلال سلسلة تفكيره وإيقاعه بلغة اكتسبها حديثا هى فقط التى دفعته الى العودة ، ولكن لأنه من الواضح ايضا أن اللغة الألمانية لها علاقة متميزة بالفلسفة ، وبخاصة قضايها التأملية) (١٢٠) (١) .

وفى حالة أدورنو أضيفت صعوبة أخرى الى الطبيعة المعقدة والمعضلة للغة ، وهى الصعوبة التى تتصل بالكتابة بلغة " مستعارة " وفى كتاب له عن هنريك هاين Heinrich Heine الشاعر اليهودى

١- يلاحظ هنا استناد كثير من أفكار النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت الى الخبرة اليهودية فى معسكرات الاعتقال وانطلاقها منها . اضافة الى ذلك يحاول منظروا فرانكفورت التنظير لهذه المعاناة ، بمحاولة جعلها خبرة انسانية عامة ، إذ يرغب منظروا فرانكفورت فى جعل رموز المعاناة اليهودية فى معسكرات الاعتقال رموزا انسانية عامة يمكن أن تحل محل الرموز الشعبية التي تدور حولها . أساطير مختلف المجتمعات . نلمح هنا النزعة اليهودية الأنانية التى تحاول استبدال التراث الانسانى لمختلف المجتمعات بتراث يهودى يعبر فى غالبه عن خبرة خاصة أو ظرف خاص : وما دمنا نتحدث عن المعاناة ورموز المعاناة ، لماذا لم يقلق الضمير اليهودى لمنظرى فرانكفورت برموز المعاناة والعذاب الفلسطينى على يد اليهود فى دير ياسين ، وصابرا وشاتيلا ، واطلاق الرصاص اليهودى الآثم لقتل براءة أطفال الحجارة . " المترجم "

الألمانى – الذى كان معاصرا لكارل ماركس – يقـــدم لنـــا أدورنـــو موجزا وافيا عن هذه القضية . إذ يقول :

(يتناقض الوضوح والفصاحة التى حققها استخدام هـلين Heine للغة الدارجة مع استخدام الأهالى للغتهم الوطنية . إذ نجد أن الشخص الذى لا يكون فى وطنه ، بداخل اللغة التى يستخدمها باعتبارهـــا آداة فقط) (١٢١) .

ولا تشير هذه القضية الى موقف هاين فقط ، ولكنـــها تســاعدنا بنفس القدر على فهم موقف أدورنو باعتباره اعترافا له . وهى تعـــبر بشكل مقنع عن الموقف بالنسبة لهوركهايمر أيضا ، وهـــو الموقــف الذى ناقشناه فى الفصل الأول ، وعلى أى حال تكمن هنا الاجابة على السؤال المتعلق بخصائص أسلوب أدورنو ولغته ، اللذين كانا موضـــع سخرية من قبل ناقديه باعتبار أنه " أدورنو " الألمانى " (١٢٢) .

١١- نظرة هوركهايمر الى العالم فى الفترة الأخيرة

تتم الاشارة غالبا الى تحول الروح النضالية والمتفائلة للنظريـــة النقدية فى مرحلتها الأولى ، الى استسلام النظرية النقدية فى مرحلتـــها الأخيرة وتشاؤميتها ونزعتها الصفوية Elitism ، وذلك بعد رجـــوع هوركهايمر وأدورنو الى ألمانيا . ويتحدث بعض الملاحظيـــن عـــن الانقطاع داخل النظرية النقدية أو بالأصح خيانة المنظريـــن النقدييـــن الذين تكيفوا مع المجتمع الألمانى فـــى الفـــترة التاليـــة للحـــرب [1] .

١- ذلك يؤكد وجهة نظرنا فى رواد فرانكفورت باعتبارهم قد قدموا فكرهم النقدى دفاعـــا عن المصلحة اليهودية التى هددتها النازية ، ومن ثم فحينما انتهت النازية ، وانتفى تـــهديد المصالح اليهودية ، تحقق تكيفهم من جديد مع المجتمع الألمانى ، وهو الأمر الذى يؤكـد=

وإندمجوا فى بنائه الأكاديمى . وفى هذا الاطار قدم جورج لوكاش هذا التعليق المدمر على مدرسو فرانكفورت فى الفترة التالية للحرب حيث قال :

(لقد سكن قطاع واضح من المثقفين الألمان البارزين بما فيهم تيودور أدورنو فى " فندق البحيرة الكبير " الذى قمت بوصفه حينما انتقدت شوبنهاور " بإعتباره فندقا جميلا مزودا بكل صنوف الراحة ، ويقع على شاطئ بحيرة ... حيث يمكن أن يؤدى التأمل اليومى فى البحيرة ، والأكلات الفاخرة والتسليات الفنية ، الى رفع مستوى المتعة الناتجة عن صنوف الراحة الخادعة المقدمة) (١٢٣) . ويسمى لوكاش هذا الاتجاه العقلى بأنه " راحة ترتدى قناع عدم الراحة "

ولقد أدى افتقاد إلنظرية النقدية الأولى للعلاقة بين النظرية والممارسة إلى تخلق درجة من الغموض ... وفى هذا الصدد ، لا يوجد إنقطاع حقيقى فى داخل النظرية النقدية ، ولكن هناك نوعا من الإستمرارية . وحينما سئل هوركهايمر عن سبب عودته الى التشاؤم فى الستينات من هذا القرن ، قال أنه لكى يجيب ، فإن من الأفضل له أن يتحدث عن العودة . وقد أكد برنامج هوركهايمر فى عام ١٩٣٧ فعلا على سيطرة العناصر الأخلاقية على تراكم المعرفة المتخصصة ، حيث قال :

(بالرغم من اتساع نطاق التفاعل بين النظرية والعلوم الخاصة التى على النظرية أن تحترم تقدمها ، والتى كان للنظرية عليها تأثيرا

=النظرة الأنانية لرواد هذه المدرسة ، التى تعنى بالدفاع عن المصالح الخاصة بالأقلية اليهودية فقد بغض النظر عن مصلحة الأغلبية أو القوى المطحونة فى ظل النظام القائم . " المترجم "

دافعا وتحريريا لعشرات السنين ، فإن النظرية لا تسعى ببساطة الـى زيادة المعرفة على هذا النحو ، وإنما يتحدد هدفها فى تحرير الانسان من العبودية) (١٢٥) .

وقد أت سيطرة العناصر الآخلاقية على العناصر السوسيولوجية فى النظرية النقدية الأولى ، إلى إرجاع كل فروع المعرفة بصورة مطلقة إلى علم الأخلاق Ethics ، ثم الى بعض المبادئ الأخلاقية ، ثم إلى الثيولوجيا " والحنين الى الله " وقد قدم هوركهايمر المرحلة التالية للحرب بالصايغة التصويرية التالية :

(يعتبر الشهداء الذين قضى عليهم بسبب جحيم المعاناة والتفسخ أثناء مقاومته للغزو والقهر هم البشر الحقيقيون فى زماننا ، وليسوا شخصيات الثقافة الشعبية المصابون بالغرور والعجرفة التقليدية ، ويعتبر الشهداء المجهولون فى معسكرات الاعتقال ، هم رموز الانسانية التى تناضل من أجل أن تولد . وتكمن وظيفة الفلسفة فى ترجمة أفعالهم الى لغة ينبغى أن تسمع ، حتى لو كان ذلك من خلال أصواتهم الضعيفة التى أسكتها الطاغية) (١٢٦) . وبعدعشرين سنة أخرى يكرر أدورنو القضية التى تؤكد أن النظرية النقدية فى مرحلتها الأخيرة تخضع لضغط الانسان من أجل التعبير عن ذاته " حيث تعتبر الحاجة الى اتاحة الفرصة للمعاناة كى تتحدث عن ذاتها ، المقدمة لكل صدق . فالمعاناة هى الموضوعية ، والتعبير عنها يتحقق موضوعيا " (١٢٧) .

وقد تم نشر مجلدين لمجموعة مقالات مجلة هوركهايمر الدورية، بإشراف ألفريد شميث Alfred Schmidt – وهو أحد المنظرين النقديين من الجيل الثانى – الذى أشرف على تحريرها . وقد اتخذ هذا

النشر عنوانا فرعيا هو (توثيق A Docomentation) كى يشـــير الى طبيعتها التاريخية ، ولكى يؤكد على إنفصالها عن الموقف الفكرى الحالى للمؤلف . ونقرأ فى تقديم هوركهايمر قوله :

(لايرجع سبب ترددى لإعادة نشر مقالات المجلة الـــــدورية هذه - والتى لم تكن متيسرة لوقت طويل - بدرجـــة ضئيلـــة الـــى الإعتقاد بأنه ينبغى على المفكر أن ينشر الأفكار التى يرتبط بها بـدون أى تحفظ) (١٢٨) . وقد لاحظ هوركهايمر أن الســياق الاجتمــاعى والتاريخى قد تغير بصورة جذرية عن السياق الذى نشر فيه كتاباتـــه الأولى . حيث بدت هذه الفترة وكأن الثورة البروليتارية على وشـــك الانفجار . بينما نجد أن البروليتاريا قد أدمجــت اليــوم فــى النظـام الرأسمالى . ومن وجه نظر ماكس هوركهايمر تعتبر تعاليم كل مـــن ماكس وإنجلز غير كافية ، سواء فيما يتعلق بتفسير التطورات الداخلية للأمة ، أو فيما يتعلق بالعلاقات الخارجية بين الأمم . ثم يختتم ذلـــك قائلا : " أن الاشتراكية التى نظر اليها فيما سبق باعتبارها الفكرة التى تتعلق بتحقيق مضمون الديموقراطية ، قد أسئ استعمالها فى بعـــض الأقطار بحيث تحولت الى وسيلة للحكم والســيطرة . (١٢٩) وقـد ادعى هوركهايمر أنه يشارك فى كثيرمن دوافع وأفكار حركات الطلبة فى الستينات من القرن العشرين . ذلك لأنهم يشتاقون الـــى الأفضـل والى المجتمع العادل . وبرغم ذلك فإن الاختلاف بينه وبيـــن الطلبـة يتركز فى استخدام القوة . وفى أواخر حياته قبل هوركهايمر أن يدافع عن النزعة المحافظة والنزعة المتشائمة والعالم الحـــر . وفـــى هـذا الاطار نجده يؤكد أن النزعة الحقيقية المحافظة ، التى تـــهتم بجديـة بالميراث الروحى ، هى فى الحقيقة عاطفة ثورية ، وتعتــبر النزعـة الميتافيزيقية المتشائمة - التى تعتبر عنصرا متضمنا فـــى أى فكـر مادى عبقرى - هى النزعة الأثيرة لديه . فالعالم الحر هو الجزيـــرة

التى تقع نهايتها فى محيط أنظمة الرعب التى تعنى نهاية الحضارة . والتى تعتبر النظرية النقدية جزءا منها ، ومن ثم فعلى المفكر أن يدافع عن العالم الغربى الحر . " وهو يؤكد أنه يعتبر شرفا بالنسبة لكل مفكر وواجب عليه أن يقيم العالم الحر بالنظر الى مثله المعترف بها ، أن يقف منه موقفا نقديا . وفى ذات الوقت يدافع عنه ضد أى نوع من الفاشية الهتلرية Hitletrite كانت أم ستالينية Stalinist أو غير ذلك " (١٣٠) [١] .

ويبدو أنه كان من السهل على هوركهايمر مغوار " العالم الحر " أن يتوحد مع الامبراطور فلهلم الثانى Wilhelm11 للرايخ الألمانى . ومن ثم فقد كان من الغريب للغاية بالنسبة لرجل كان يشغل فى وقت ما مديرا لمعهد يهتم " بالدراسات المتعلقة بالتحيز العنصرى " أن يكتب قائلا :

(أن مسئولية كل مواطن فى الغرب فى القرن العشرين تعتبر مسئولية متعددة ... حيث أصبح تهديد الحرية من الخارج واضحا ، وفى هذا الاطار وجدنا أن فلهلم الثانى - الذى لم يوهب النبوة صراحة - يتحدث فى العقد الأول من القرن العشرين عن تهديد الجنس الأصفر ، وبرغم الحفاظ على العلاقات الاقتصادية مع الشرق، الا أننا ينبغى أن ننظر اليوم الى هذا الأمر بكل جدية) (١٣١) [٢] .

١- نلاحظ هنا الدفاع الذى قدمته مدرسة فرانكفورت عن النظام الرأسمالى ضد أى شكل من أشكال الفاشية . وذلك باعتبار أنه النظام الذى وفر المأوى لهم ، ومن ثم يمكن القول بأن الفكر النقدى فى جانب كبير منه يعتبر دفاعا عن مصالح الأقلية اليهودية المثقفة ، ومحاولة خلق الاطار الاجتماعى الملائم دائما لحركتها الحرة لتحقيق مصالحها . " المترجم "

٢- يبرز هنا الوجه الموحش للعنصرية اليهودية التى تجلت بعد ذلك بأوضح ما يكون فى النزعة الصهيونية . والغريب فى الأمر أن الجماعة اليهودية تدين أى تحيز ضدها من=

ومن ثم ينبغي على الفلسفة (والنظرية النقدية) حسبما يذهب هوركهايمر أن تواجه الشرق . فهو يؤكد أن المنافسة مع الشرق لا تتصل فقط بزيادة الانتاج ، ولكنها تتعلق أيضا بالصدق أو الحقيقة ، وهى الرسالة التى يعتبرها الغرب أثيرة لديه .

ونتيجة لذلك إعتنق هوركهايمر أخيرا نوعا من العقيدة الواحدانية التى تذكرنا بمراحل التطور الفكرى لأوجست كونت الذى تحرك من العلم الى ديانة الانسانية . وفى هذا الصدد يرى هوركهايمر أن الصدق لا ينفصل عن الايمان بديانة الإله الواحد . وأنه من العبث أن نسعى الى الارتباط بمعنى مطلق بدون إله . ثم يؤكد أنه لا قيمة لأى فعل هنا أو لتحرير المضطهدين من الظلم بدون الاشارة الى ما هو إلهى . وعلى هذا النحو تختلف هذه الديانة الوحدانية Theism عن أى ديانة منظمة ، فى كونها ديانة ترنسندنتالية . فهى لا تتكون من أى نظام دينى بعينه ، ولا هى تعتبر دراسة دينية ، ولكنها بدلا من ذلك تعتبر تعبيرا عن الشوق ، الشوق الى ما بعد العدل الكامل . الذى لم يتحقق أبدا على الأرض . وفى هذا الإطار تمنحنا الثيولوجيا الأمل فى إمكانية أن لا يسكن الظلم فى هذا العالم الى الأبد . ومن ثم فينبغى رد قضايا الأخلاق والمذاهب الأخلاقية الى الثيولوجيا . فكل شئ يتصل بالأخلاق يرجع فى النهاية الى الثيولوجيا . وفى هذا الصدد يشارك هوركهايمر أدورنو فى الإعتقاد بأن الخطيئة الأولى Original تعتبر من المكونات الهامة فى تعاليم كل من الديانة اليهودية والمسيحية .

=قبل الآخرين عن طريق توجيه اتهام معاداة السامية مثلا . غير أن ذلك لا يمنع فى ذات الوقت أن تتحيز عنصريا ضد جماعات أخرى ، كالتحيز ضد الزنوج ، والملونين ، والعرب فى فلسطين المحتلة . " المترجم "

(فهى التى حددت التاريخ حتى الأن ، وما زالت تحدده بالنسبة للمفكرين .

وهى ممكنة فقط فى نطاق الإعتقاد فى قضية أن الله قد خلق البشر بارادة حرة ، واذا كان الفعل الأول للانسان قد اتجه الى إرتكاب الخطيئة الاولى . فانة استناداً الى الاساس يمكن تفسير التاريخ البشرى ثيولوحيا (١٣٢)

وتعزى النزعة الشكية للنظرية النقدية أساسا الى الخبرات التاريخية للمنظرين النقديين بما يتعلق بكل من الفاشية والستالينية ، وما يسمونه اخيرا بالحضارة الأمريكية الرأسمالية . ومع ذلك تكمن البداية الرئيسية لهذه النزعة الشكية الشاملة التى سادت النظرية النقدية أخيرا فى كتابات هوركهايمر فى سنة ١٩٣٥ . فقد كتب فى مقاله له عن الطبيعة الزائفة للعدالة الكاملة قائلا :

(لقد اتخذ النقد الفعالة للحالة الراهنة – وهو النقد الذى تم التعبير عنه فى الأزمنة الأولى باعتباره نوعاً من الاعتقاد فى الحكم السماوى – شكل الصراع من أجل أشكال أكثر عقلانية للحياة المجتمعية . ومثلما لم يسطتع العقل بعد كانت – برغم أنه كان يعرف أفضل – أن يتجنب السقوط بلا معنى فى إطار الأوهام المتشتتة والمتكررة والتى لا معنى لها . فإنه برغم الإنتقال من الشوق الدينى إلى الممارسة الاجتماعية الواعية ، نجد أن الاعتقاد فى العدل الكامل إستمر وهما قائما أيضاً ، يمكن أن نهجره إلا إننا لا نستطيع التخلى عنه . ومن المستحيل أن يصبح هذا العدل حقيقة فى قلب التاريخ . حيث أنه حتى لو تأسس المجتمع الفاضل . وتم القضاء على الفوضى

القائمـــة ، فإنه لن يكون هناك تعويض عن عذاب العصور الماضية ، وأيضا لن يكون هناك نهاية لمحن الطبيعة ومخاطرها) (١٣٣) .

وباستطاعة هوركهايمر أن يبرر الحياة الانســانية Humanae Vitae والمنشور البابوى الذى يحرم علــى الكــاثوليك اســتخدام أى طريقة صناعية لتنظيم النسل . وحينما سئل لماذا يتفق مع البابا حــول هذا الموضوع ، فإننا نجده قد دافع عن وجهة نظره قائلاً :

(للنظرية النقدية الأولى ، باعتبارها منظراً نقديا مهمة مزدوجـة. هذه المهمة التى تتمثل فى تحديد ماينبغى تغييره . غير أن علينا أيضـاً أن نشير الى ما ينبغى أن يبقى . إن علينا أن نشير الى الثمــن الــذى علينا أن ندفعه لهذا الاجراء أو ذاك ، لهذا التقدم أو ذاك ... إننا ينبغى أن نشترى الحبوب فى مقابل موت الحب الجنســـى فــالحبوب تقتــل الشوق [١] . وذلك لأن الحب يستند الى الشوق الى المحبوب ، وهـــو ليس محررا من الجنس . وكلما كان الشوق أكثر للاتحاد بالشـــخص المحبوب ، كلما كان الحب أعمق ، فالحبوب تجعل روميو وجولييــت كائنات متحفية) (١٣٤) .

ومن السهل أن نفهم كيف إرتبــط الحنيــن الــى حيــاة العائلــة البرجوازية الألمانيـــة التقليديـــة بقــوة بــهذه النظــرة الــى العــالم Weltanschauung ، التى هى بطبيعتها نظرة غير نقدية ، بل هـــى

١- يقصد هنا حبوب منع الحمل ، أو الحبوب التى قد تؤثر على الجنس ، فتجعل الانسان أقل رغبة ، وربط النظرية النقدية هنا لمشاعر الحب بالرغبة الجنسية ، قد تم الـــى حــد كبير تحت تأثير أفكار فرويد . إذ نجد أن أفكار فرويد عن الجنس ، والكبت ، تترد كثـيرا فى كتابات منظرى فرانكفورت ، وبخاصة فيلسوف الشباب هربرت ماركيوز " المترجم "

لا تشكل نظرية بأى معنى . وفى هذا الاطار يعلن هوركهايمر ، بأن الأم التى تمتهن مهنة تختلف كلية عن الأم التى يتركز هدف حياتها فى تربية الأطفال . فالمهنة تشئ reifies التفكير . وإذا تم تحرير المرأة فإنها لن تكون قادرة بعد ذلك على إشاعة الحب الذى كانت قادرة عليه قبل ذلك . ولقد كان نيتشة على حق حينما قال أن المرأة تفقد بتحريرها أكثر الأشياء التى تمتلكها أهمية ، وهو الفكر غير فرانكفورت ، وغير البرجماتى أيضا (١٣٥) [1] .

وقد شكل الوعى المتأرجح بالإنتماء الى الصفوة أحد المكونات البارزة للنظرية النقدية . ونقول وعيا متأرجحا لأن الاهتام بالجماهير إرتبط بالخوف من هذه الجماهير أو الجهل بمصالحها بالنسبة لمنظرى

فرانكفورت . وتعتبر نزعة الانتماء الى الصفوة هامة على المستويات العملية والنظرية . ولقد كان الدور المعين للمنظر النقدى – الذى يقف فوق الجماهير أو بعيدا عنها – واضحا فعلا فى سنة ١٩٣٧ وفى هذا

١- تتأثر نظرية المجتمع (مدرسة فرانكفورت – فيما يتعلق بأفكارها عن المرأة بثلاثة أبعاد أساسية . البعد الأول التنظير الخاص بكل من اميل دوركيم وماكي فيبر . حيث التأكيد على تباين طبيعى فى القدرات ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار حين توزيع العمل الاجتماعى ، إستنادا الى المقولة الشهيرة فى تقسيم العمل الاجتماعى ومن ثم فالرجل مؤهل لبعض الأعمال والمرأة مؤهلة لأعمال أخرى . ولا يعنى ذلك تمييزا لنوع على آخر . ومن ثم تصبح رعاية شئون المنزل وتربية الأبناء وظائف أساسية تمتلك المراة القدرة على أدائها . البعد الثانى طبيعة العائلة اليهودية ، حيث تلعب دورا بارزا فى الحفاظ على التراث اليهودى من خلال نقله الى أجيال الصغار أثناء عملية التربية ، ومن ثم تاكيد منظرى فرانكفورت على هذا البعد نقلا عن الخبرة اليهودية ، ويتمثل البعد الثالث فى الحالة التى وصلت اليها الحضارة الغربية ، حيث اختفاء الجماعية من الأسرة وشيوع الفردية ، وخروج الأبناء الى الحياة دون تربية ناضجة ، الأمر الذى يؤدى الى اهتزاز بنائهم القيمى . ومن ثم يصبحون معرضون للانحراف وادمان المخدرات وغير ذلك من الشرور الاجتماعية . المترجم "

الإطار ينظر هوركهايمر إلى صفـــوة المنظريـــن النقديـــن المثقفـــة بإعتبارهم " جماعة من البشر صغيرة عدديا " عادة ما يكـــون الحـــق دائما معهم . وقد حدد ماركس بصورة مؤكدة الدور الريادى للمنظرين حينما تنبأ قائلا :

(بأنه فى الوقت الذى يقترب فيه الصراع الطبقى مـــن الســـاعة الحاسمة ... فإن مجموعة من البرجوازية تنضم الـــى البروليتاريـــا ، وبصفة خاصة مجموعة الأيديولوجيين البرجوازيين ، الذيـــن رفعـــوا مكانتهم الى مستوى الاستيعاب النظرى للحركـــة التاريخيـــة ككـــل) (١٣٦) .

وقد قدم خضوع الجماهير للفاشية للمنظرين النقديين سببا كافيـــا لعدم الثقة فى الجماهير ، وعلى سبيل المقارنة فإن على الباحث منا أن لا ينسى أنه بينما حزن هوركهايمر وأدورنو " للاستعداد غير المفـــهوم من قبل الجماهير المتعلمة تكنولوجيا للخضوع لتسلط أى طغيان " فإننا نجد أن أعمال المقاومة الفرنسية ومثقفوها قد دخلوا فى صراع الحيـــاة والموت مع الفاشية . ولم يكن لدى هوركهايمر شيئا يمكن قوله عـــن الجماهير السوفيتية والمواطنين اليوغسلاف الذين حاربوا جيوش هتلـــر الغازية ، أو عن الفلاحين الصينيين الذين حاربوا الامبريالية اليابانيـــة كما حاربوا حكامهم المستبدين بنفس القدر .

١٢- ماركس يقلب رأسا على عقب

يذكر هوركهايمر أستاذه هانز كورنيليـــوس Hans Cornelius بإعتباره إمبيريقيا كانتيا محدثا ، وفنانـــا ونـــاقدا ليبراليـــا للمجتمـــع البرجوازى ويذكر شوبنهاور ، بإعتباره الناقد المحـــافظ للمجتمـــع ، والذى كان له تاثيره على تفكيره منذ البداية . فقد يسر الجانب النقـــدى

فى فلسفة شـــوبنهاور Schopenhauer إنتقـــال هوركـــهايمر الـــى الماركسية لأن :

(التعاليم الماركسية تعتبر إحتجاجاً ضد الموقف الذى تحققت فـى إطاره مثل الثورة البرجوازيـــة – الحريـــة ، المســـاواة ، الاخـــاء ، Liberte , egalite fraternite's – بالنسبة لأقليـــة صغـــيرة فـــى المجتمع أكدت أن هذه المثل خاصة بها) .

ويستنتج هوركهايمر من ذلك قائلا " وعلى هذا النحو التقى هـذان المفكرن بالنسبة لى " (١٣٧) .

لقد أثرت إمكانية الثورة فى ألمانيا على العمل النظـــرى النقـــدى إبتداء من سنة ١٩٣٣ وحتى سنة ١٩٤٠ . " وحينما صعد هتلر الـــى قمة السلطة تمنى كثير من البشر الاطاحة الثورية به ، غير أن هـــذا الأمل كان الى حد كبير نوعا من الوهم ، أو الحلم . وهو الأمل الـــذى سيطر على عملى خلال الفترة اعتبارا سنة ١٩٣٣ فصـــاعدا " (١٣٨) ومن وجهة نظر هوركهايمر ، فإنه فى ظل ظروف مختلفـــة ، مـــن الضرورى أن يرتبط الفكر المعارض أو الرفض بالفكر المحافظ .

(نحن لا نحتاج فقط الى وقف انهيار الشخصية المستقلة ، ولكـن حسبما يذهب ماركس ، نحن نحتاج الى توسيع نطاق الحريـــة التـــى يتمتع بها المقاول فقط – والتى تقتصر فى أيامنا هذه على مجموعـــة صغيرة – كى يتمتع بها كل المجتمع) (١٣٩) .

ومن الواضح أن هذا الموقف يستند الى تشويه الرؤية الماركسـية لمجتمع المستقبل ، وهى الرؤية التى تعنى " انه مجتمع مـــن الأفـــراد

الأحرار الذين ينجزون أعمالهم بوسـائل أعمـال مشـتركة ، وهـو المجتمع الذى يستفاد فيه من كل قوى عمل الأفراد بصـورة واعيـة بإعتبارها قوة عمل المجتمع المترابطة " (١٤٠) . ويمثل هذا التنظيـم للمجتمع شيئا مختلفا عن توسيع نطاق حرية المقاول لكى تشمل كـل المجتمع . وذلك لأن الرأسمالى ذاته ، يعتبر بالنسبة لماركس ، عبـدا لوعيه المتشيئ . وينتقد هوركهايمر ماركس من جوانب عديـدة . إذ يؤكد أن ماركس كان على خطأ حينما تنبأ بحتمية المسار التـاريخى نحو تحقيق الحرية ، إذ نجد أن التيار يسير فى إتجاه السيطرة الإدارية الكاملة . هذا الى جانب أن ماركس لم ير الجدل التاريخى بين الحريـة والعدل . إذ نجد أن مفاهيم العدل ، والمساواة ، والحرية تعتبر بالنسبة لهوركهايمر مفاهيم منعزلة عن بعضها البعض ، حيث يقول :

(تعتبر العدالة والحرية مفاهيم جدلية ، وذلك لأن العدالة الأكـثر تعنى الحرية الأقل ، كما تعنى الحرية الأكثر العدالة الأقل . وتعتـبر الأخوة Fraternite والمساواة egalite والحريـة Liberate وعـدا مدهشا . ولكنك إذا أردت الإحتفاظ بالمساواة فـإن عليـك إنتقـاص الحريـة ، وإذا إحتجت الاحتفاظ بالحرية فإنك لن تستطيع الاحتفـاظ بالمساواة) (١٤١) .

ويعتبر إدعاء هوركهايمر حول رفض ماركس وصف أو تصـور " المجتمع الخير " فهما خاطئا لماركس . مع ذلك ، فإنه ابتداء من سنة ١٨٤٨ إقترح ماركس وانجلز بعض الاجراءات " المناسبة والتى يمكن ملائمتها عموما " بالنسبة للمجتمع الجديد ، بعـد الاطاحـة بـالحكم البرجوازى ، مثال على ذلك الغاء حقوق الثروة والتأريث ، الإلـزام المتساوى للجميع بالعمل ، وغير ذلك ، غير أننا نجدهم قبل ذلك قـد رأوا بصورة أكثر رومانسية أن :

(المجتمع الشيوعى هو المجتمع الذى لا نجد فيه لأى شخص مجالا محددا لنشاطه ، ولكن باستطاعة أى شخص أن يصبح منجزا فى أى فرع يرغب فيه ، إذ يكون باستطاعة المجتمع أن ينظم انتاجه العام ، من ثم تجعل من الممكن بالنسبة لى أن أفعل شيئا اليوم ، وشيئا آخر غدا ، أن أزاول القنص فى الصباح أو صيد السمك بعد الظهر ، وأن أرعى الماشية فى المساء ، وأمارس النقد بعد العشاء) (١٤٢) .

١٣- الفكر اليهودى ومدرسة فرانكفورت

تحتوى الفلسفة النقدية لكل من هوركهايمر وأدورنو على بعض العناصر الاساسية من الفكر والتراث اليهودى ، وربغم أن اليهودية Tudaism كانت كامنة ولا تمثل حجر الزاوية فى المرحلة الأولى ، إلا أنه يمكن تتبعها فى فكر مدرسة فرانكفورت خلال الخمسين سنة التى تمثل كل تاريخها . ويمكن لبعض المسودات المتعلقة بالحقائق الأساسية الخاصة بسير الحياة الذاتية الفكرية أن تساعد على زيادة فهم فكر كل من هوركهايمر وأدورنو .

وحسبما أشرنا فى الفصل الأولَ ن فقد ولد هوركهايمر لعائلة يهودية محترمة وثرية ، مدركة لتراثها وواعية به ، ولقد ظل تأثير هذه الخلفية العائلية وذكريات الطفولة أساسيا بالنسبة له بقية حياته . ولم يكن ذلك بالتأكيد من قبل المصادفة ، بل أضحى أمرا له قيمته الرمزية ، وقد كانت آخر محاضرة ألقاها هوركهايمر ، قبل وفاته بأسابيع قليلة ، عن اليهودية عند (الجماعة الثقافية اليهودية Jewish Cultural Community) بزيورخ (١٤٣) .

ويمكن إيجاز جوهر الفكر اليهودى عادة فى أربعة موضوعات أساسية (١٤٤) . الأول ، الأخلاق التى تؤكد على نزعة الايمان بإله واحد ، ويعنى ذلك الطابع غير المشروط للسعى أو الطلب الأخلاقى

Ethical demand . وبعبارة ليو ، - بائيك Leo – Baeck ليست اليهودية ذات طبيعة أخلاقية ، ولكن الأخلاق تشكل مبدأها وجوهرها الأساسى أيضا " . والثانى ، الوعى بالرسالة أو المهمة التاريخية ، أعنى الوعى بأنهم شعب الله المختار ، الواعى بهذه الرسالة Massianism والثالث ، العدل والفضيلة ، والتى يعبر عنها مصطلح Zedakah غير القابلة للترجمة الدقيقة . والرابع الاهتمام بالعدل الاجتماعى .

ولمناقشة تأثير التراث اليهودى على تفكير فرانكفروت ، فإن على الباحث منا أن يهتم بالدور الذى لعبته اليهودية فى المجتمع الأوروبى بعد الثورة الفرنسية بصورة عامة ، والعلاقة المتداخلة بين الفكر الاشتراكى الماركسى والميراث اليهودى بصفة خاصة . حيث نجد أن معظم الإنجازات العلمية والفلسفية لليهود فى أوروبا منذ الثورة الفرنسية أنجزها المفكرون اليهود المستوعبون ، والذين ناضلوا من أجل ربط أنفسهم بالحركات الراديكالية والليبرالية ، وذلك حتى يتمكنوا من الاستيعاب كلية داخل الثقافة الأوروبية ، وقد إتخذ رد فعل اليهود على تحريرهم فى الفترة التالية للثورة الفرنسية فى أوروبا شكلين : الأول ، محاولة الاستيعاب الكامل فى النظام القائم ، ويتمثل الثانى ، فى النقد الفكرى وهو الجهد الذى يهدف الى " تقييم النظام بالنظر الى قيمة المعترف به " . وقد لاحظ هوركهايمر بصورة صحيحة " أن النقد والاسيعاب شكلا عنصرين لنفس عملية التحرير " (١٤٥) . وعلى هذا النحو كان كثيرا من المستوعبون اليهود فى التاريخ الألمانى أكثر إخلاصا للإمبراطور من المواطنين Burger الآخرين ، غير أنهم لم يكونوا أقل حساسية فى مواجهة اليهود الشرقيين الذين ما زالوا مستمرين وفقا لأساليب حياتهم القديمة . ومن ناحية أخرى ، فقد تحول كثيرا من " اليهود غير اليهود – non

Hewish Jews " الذين كانوا ثورا عظاما فى الفكر الحديث ، الى الإشتراكية [1] . بإعتبارها تشكل نظرتهم الى العالم ، هذا الى جانب كونها " علم " التقدم . ويوجز إسحق دويتشر Isaac Deutscher هذا الوقف فى مقالته المستقبلية Seminal التى اتخذت عنوانا " اليهود غير اليهود " The non Jewish Jew " قائلا : (ينتمى اليهودى المنشق – الذى يتجاوز اليهودية – الى الترث اليهودى ، وإذا أردت أن تتعرف عليه ، فإن بإمكانك أن تنظر الى آخر Akher باعتباره نموذجا أصليا لهؤلاء الثوار العظام الذين كان لهم دورهم فى الفكر الحديث : مثل سبينوزا Spinoza ، وهاين Heine ، وماركس Marx ، روزا لوكسمبورج Rosa Luxemburg وتروتسكى Trotsky و فرويد Freud . إذ يمكنك إذا رغبت فى ذلك أن تضعهم داخل إطار التراث اليهودى . فقد ذهب جميعهم الى ما هو أبعد من حدود اليهودية ، هذا الى جانب أنهم كلهم وجدوا اليهودية ضيقة ، وقديمة ومحددة للغاية ، وقد بحث جميعهم عن المثل ، وتحقيق هذه المثل خارج نطاق اليهودية ، إلى جانب ذلك فهم أيضا يمثلون مجموع وجوهر أكثر ما هو عظيم فى الفكر الحديث ، إضافة إلى أنهم مجموع وجوهر أكثر الثورات الفكرية شمولا فى القرون الثلاث الأخيرة ، تلك الثورات التى وقعت فى نطاق الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة) (١٤٦) .

١– يشير ميل كثير من المفكرين اليهود إلى الإرتباط بالفكر الاشتراكى واعتناقه والدعوة له إلى إعتبارين . الأول ، يتمثل فى أن القول بالإشتراكية كاساس لوحدة المجتمع أو كاساس للشرعية أو الاتفاق الاجتماعى سوف يعنى الغاء الفصل بين الجماعات على أساس الدين أساس التحيز ضد الجماعة اليهودية من قبل الآخرين بينما يشير البعد الثانى الى ان التأكيد على الاشتراكية كأساس للشرعية سوف يلغى أهمية البعد القومى ، وهى مسألة هامة بالنسبة لجماعة تفتقد الانتماء القومى وينقص تكوينها إمتلاك هذا الإنتماء ، ومن ثم فاسقاطه سوف يشكل خسارة للآخرين وليس للجماعة اليهودية ، وبذلك تلعب الاشتراكية دورها فى تخليص الجماعة اليهودية من أحد أبعاد التحيز ضدها . " المترجم "

ونستطيع أن نضيف الى قائمة الأشخاص التـــى قالـــها أســماء أشخاص ليسوا أقل بروزا ، منـــهم أينشـــتين Einstein ، ســكنبرج Schonberg ، لوكاش Lukacs ، ودويتشر نفسه . وحسبما يذهـــب دويشر ، هناك أشياء مشتركة بين هؤلاء اليهود المنشقين . أولا ، أنهم من أنصار الحتمية ، الذين يعتقدون أن هناك اضطرابـــات أساســية ، يعنى أن الكون – من وجهة نظرهم – محكوم بالقوانين . والثـــانى ، أنهم يعيشون على الحدود بين حضارات عديدة ، ومن ثم فهم يدركون الواقع بإعتباره ديناميا وليس ثابتا . والثالث أنهم يعتنقون تلك المعرفـة التى لا تنفصل عن الممارسة ، والرابع أنهم يعتقـــدون فـــى تضـــامن البشر فى إطار تحرر انسانى شـــامل . (١٤٧) . ويوجــد إختـــلاف واضح فيما يتعلق بهذه القضية المعقدة والمتشابكـــة ، وهى القضيـــة التى تتصل بيهودية ماركس . وهى أيضا القضية التـــى دار بشـــأنها حوار بين الشباب اليهود أنفسهم . فمثلا نجد العالم السياســـى شـــلومو أفنيرى Sholmo Avineri يشخص ماركس باعتباره " مضاد عنيـــد للسامية " inveterateanti semite (١٤٨) . بينما نجد بعض رجـــال الدعاية الذين ذهبوا بعيدا الى حد نشر المقالة الماركسية عن " المسـألة اليهودية " تحت عنوان " عالم بلا يهود " ، وهو العنـــوان الـــذى لـــم يستخدمه ماركس . بينما تدرك جماعة أخرى من الدارســـين اليـــهود إبتداء من مارتن بوبير Martin Buber وحتى كـــارل لـــوث Karl Lowith ، من ايرنست بلوخ Eernst Bloch وحتى حنـــا أردنـــت Hannah Arendt التعاطف الانجيلى الكامن فى كل أعمال ماركس ، وهم يؤكدون ان سعيه العاطفى ووعيه بالدعوة Messionic من أجـل العدل ، والرؤية الماركسية للمجتمع الخيالى بكل المصالحة المطلقـــة للتناقضات بين الطبقات الاجتماعية ، أو بين الانسان والانســـان ، أو بين الانسان والطبيعة ، تعتبر كلها بالتحديد جـــزءا لا ينفصـــل عـــن التراث اليهودى .

وقد تتبع كارل لوث ، الفيلسوف الألمـــانى البـــارز ذو الخلفيـــة اليهودية الأفكار الملهمة للبيان الشيوعى حتى الوعى اليهودى بالرسالة Jewish Messianism والنزعة النبوية Prophetism ، حيث كتـب فى ذلك قائلا :

(لا تعتبر القضية الرئيسية فى البيان الشيوعى هى التناقض بيـن البرجوازية والبروليتاريا باعتبارهما حقيقتين متعارضتين ، لأن الـذى يجعلهما متعارضتين هو أن أحدى الطبقات أبناء الظلام بينما الطبقـــة الأخرى من أبناء النهار . وبنفس القدر تعتبر الأزمة النهائية للنظـــام الرأسمالى . التى تنبأ بها ماركس إستنادا الى التنبؤ العلمى هى الحكـم النهائى . وبرغم تأكيد قانون العملية التاريخية الـذى لا يرحم علـــى ذلك ... فقد كان يهوديا يؤمن بالعهد القديـــم ذو المكانـــة المقدســـة ، ويمكن للنزعة المتعلقة بـــالوعى بالرســـالة Messianism اليهوديـــة القديمة والتى لم تتغير منذ ألفى سنة من التاريخ الاقتصادى ، إبتـــداء من عصر الحرف الى عصـــر الصناعـــات الكبـــيرة – والاصـــرار اليهودى على الفضيلة المطلقة ، أن يفسر الأســـاس المثـــالى لمادية ماركس . وبرغم تحول البيان الشيوعى الى كونه دلالة علمانية منـذرة فإنه ما زال يحتفظ بالملامح الأساسية للايمـــان او الوعـــى بالرســـالة Messianic : " الذى يتمثل فى التأكيد على الأمور التى نـــأمل فـــى تحقيقها " (١٤٩) .

ويمكن تتبع القضايا – المتعلقة بـــالإلتزام الأخلاقـــى والنزعـــة المتعلقة بـــالوعى بالرســـالة Messianism ، والإهتمـــام بالعدالـــة الاجتماعية – خلال تاريخ فكر فرانكفورت إبتداء من الثلاثينات مـــن هذا القرن ، وحتى توقفها فى نهاية الستينات من هذا القرن . فلقد دفـع

الفكر اليهودى – بإعتباره حجر الزاوية ، إلى جانب الرغبة فى العدالة الاجتماعية – هوركهايمر الشاب إلى الماركسية بإعتبارها البديل الواقعى الوحيد لنزعة الشمولية التى تهدد الحق ، وهى النزعة التى تنتمى الى هتلر فى ألمانيا فى الثلاثينات من هذا القرن . هذا وقد أبعدته قسوة الشمواية اليسارية لستالين عن الماركسية فى الأربعينات من هذا القرن ، بعد مرور عشر سنوات . ومن ثم لا يعتبر " التحول " النظرى لهوركهايمر ، ولكن التفاعل الجدلى بين الواقع الاجتماعى والاستجابة النظرية ، هو المسئول عن الانتقال الذى حدث فى النظرية النقدية . إذ تعتمد النظرية الاجتماعية الى حد ما على شخصية المنظر ، غير أن المنظور النظرى للمنظر يعتمد فى التحليل النهائى ، على تفاعله مع البيئة ، وعلى علاقته مع البشر الآخرين ، ذلك لأن حياته ونشاطه النظرى يعتبرا جزءا من عصره ، فهو يعتبر جزءا من كل اجتماعى وتاريخى أكبر ، أو أنه جزءا من كلية .

وقد أكد فكر فرانكفورت على الحاجة ، وأخيرا على الشوق – والشوق فقط – الى مجتمع عادل يستند الى العقل . فمنع الصور كان طاعة للوصية الثابتة التى تذهب الى القول " لا ينبغى أن تصنع صورة منقوشة لنفسك " أو شبيهة بأى شئ آخر موجودا فى السماوات العلى " (١٥٠) . ويشير هوركهايمر أخيرا الى هذا الجانب من التراث اليهودى ويبرز الإختلاف بين تراث ماركس اليهودى وبين تفكيره بهذه الطريقة ، ثم يقول هوركهايمر : " لقد تأثر ماركس فى نظرى بالوعى بالرسالة Messianism اليهودية ، بينما يتمثل الشئ الذى تأثرت به التحريم المفروض على التصوير ، أعنى أن الله لا يمكن أن يصور ، ولكنه يصبح موضوعا للشوق فقط " (١٥١) . وفى الحقيقة فإنه برغم سيطرة اليهود فى تاريخ أوروبا الحديث " وتمثيلهم البارز " غالبا فى كل فروع الحياة الفكرية ، يوجد قليل من الرسامين اليهود

العظام . وربما كان فرانز كافكا Franz kafka الكاتب اليهودى الألمانى فى براغ . أكثر الملاحظين احساسا بكثير من الظواهر للمجتمع الرأسمالى الحديث (كالاغتراب والبيروقراطية) ، ومن ثم فقد علق على هذا الأمر قائلا : " ليس بيننا نحن اليهود رسامين ، نحن لا نستطيع تصوير الاشياء تصوريا استاتيكيا . بل نراها دائما من خلال عملية التحول ، فى حالة من الحركة أو فى حالة من التغير " (١٥٢) . وتمتلئ رسومات مارك شاجال Marc Chagall ، الذى يمثل استثناءا من ذلك بالحركة والانسانية والتغير .

ويمكن أن نجد تفسيرا لاتجاه هوركهايمر المتأرجح نحو اسرائيل من خلال " توحده المتطرف Over Identficaation " مع الثقافة الأوروبية ، وبالمثل رفضه الدائم طيله حياته للنزعة القومية من أى نوع . وهو من مؤيدى الرأى القائل بأن قيام الصهيونية (وهى واحدة من أكثر الحركات القومية أخيرا) ، قد اصبح متيسرا بسبب إفتقاد الإعتقاد فى إمكانية التعددية السياسية – والثقافية ، التى قامت النزعة القومية المتطرفة ، والنزعة العسكرية فى القرن العشرين بالتأكيد عليها والتعجيل بها . ويعبر هوركهايمر عن ذلك قائلا :

(تمثل الصهيونية ، التى لا تثق فى إمكانية النزعة التعددية ، أو فى ثقافة الفرد المستقل فى أوروبا ، رد فعل اليهودية على إمكانية الهجوم الوشيكة عليها فى القرن الأخير ، وهو رد الفعل الذى تميز بالراديكالية والاستقلال فى ذات الوقت ، لقد شكل اثبات صحة الصهيونية أكثر الجوانب حزنا فى التاريخ الحديث لكل من أوروبا واليهودية (١٥٣) .

وقد سلم هوركهايمر بالدلالة التاريخية البارزة والمباشرة لتأسيس الدولة اليهودية ، غير أنه لم يستطيع أن يوفق تماما بين قيام الدولة وبين تنبؤ العهد القديم بأرض الميعاد . وقد تأمل هوركهايمر فيما يتعلق بهذه القضية فى احدى محاضراته الأخيرة حينما تحدث عن الصعوبة التى يواجهها فى حالة الموافقة على حقيقة دولة اسرائيل اليهودية التى كان عليها أن تتأسس فى مكان آخر من هذا العالم .

(لقد ذكر الانجيل أن الشعب المختار من بين كل الأمم سوف يقوده السيد المسيح الى أرض اليهود صهيون Zion . وما زلت أفكر كيف تسنى لدولة اسرائيل – التى أناصرها بالتأكيد – أن تفسر هذه النبوءة التى جاءت فى العهد القديم . والسؤال هو هل اسرائيل إذا هى صهيون الانجيل ؟ ، وحسب طبيعة الأمور فإن حل هذه القضية يكمن فى حقيقة أن اضطهاد اليهود قد يستمر بالرغم من قيام دولة اسرائيل . وعلى هذا النحو تعتبر اسرائيل أرضا تعيش فى حالة خطر مثلما كان اليهود شعبا يعيش دائما فى خطر . ولهذا السبب فإن على الباحث منا أن يناصر اسرائيل . من الحقائق الثابتة أن اسرائيل تمنح ملجأ آمنا لكثير من البشر [1] . غير أنه فى حدود معرفتى سوف يبقى القول بأن وجود اسرائيل يعتبر تحقيقا لنبوءات العهد القديم قضية قابلة للنقاش) (١٥٤) .

١- يبدو أن ماكس هوركهايمر – اليهودى – يدرك الأمن بمنطق اسرائيل وهو الأمن الذى ترسمه دماء الضحايا من الشعب الفلسطينى والعربى . ويصاب الانسان منا بالدهشة حينما يتحدث مفكر عن الحرية الانسانية ، والتحرر من القهر ، والبحث عن المساواة ، ثم يطالب بمناصرة اسرائيل ، التى تضرب عرض الحائط بهذه المبادئ بالنسبة للفلسطينيين العرب . وهو الأمر الذى يؤكد أن النظرية النقدية من وجهة نظرنا ، ليست سوى محاولة لتقديم الشعب اليهودى والصهيونى الى العالم باعتباره الشعب المضطهد الذى يحتاج الى دعم العالم فى بحثه عن الحرية التى يتمتع بها فعلا بينما يحرم منها آخرين . " المترجم "

ولكى نفهم التأثير اليهودى على تفكير كـــل مـــن هوركـــهايمر وادورنو منذ الأربعينات من هذا القرن بصورة كاملـــة ، فـــإن علـــى الباحث منا أن يذهب الى ما وراء هذه القضايا الشائعة فى اليهوديـــة التقليدية ، وينظر الى تنوع الخبرات والاستجابات اليهوديـــة لخـــبرة أوشفيتز التاريخية . ويميز جورج شتاينر بين أربعة نماذج لليهود فـــى عصرنـــا " اليـــهود الأرثوذكـــس Orthodox ، اليـــهود الصهاينـــة Zionist، اليهود الأمريكيـــن American ، واليـــهود الأوروبييـــن الباقين . وينظر اليهود الأرثوذكس الـــى خـــبرة الإبـــادة الجماعيـــة Holocaust بإعتبارها فصلا مأساوياً فى الحوار الدائم بين الله وشعبه المختار . بينما ينظر اليهود الصهاينة الى إسرائيل بأعتبارها النتـــاج الإيجابى للقتل الجماعى ، وبدلا من إثقال أنفسهم باحياء تذكارات هـــذه المخاطر ، فإنهم توجهوا بنظرهم الى الأمام ، حيث بدأ تاريخـــهم الآن فقط ، وتختلف علاقة اليهود الأمريكيين بالتـــاريخ الحديـــث اختلافـــا جذريا عن علاقة الأوروبيين به ، حيث نجـــد أن الإبـــادة الجماعيـــة بررت بالنسبة لهم الهجرة الى أمريكا . ومـــن ثـــم فباســـتطاعتهم أن يفهموا أن الابادة الجماعية بمعنى ثقافى ، " بيد أنه ليس لهذه الخـــبرة دلالة شخصية مباشرة بالنسبة لهم ... وفى أمريكـــا يتصنـــت الآبـــاء اليهود على أبنائهم بالليل ، ولكن لكى يتأكدوا أن السيارة أدخلت الـــى الجراج ، أو لأن هناك حشد بالخارج . غير أن ذلك لا يحـــدث فـــى سكارسدال Scarsdale (١٥٥) . وقـــد يقـــول الاســـرائيلى لليـــهود الأوربيين الذين بقيوا أحياء مثل شتاينر وهوركهايمر و أدورنو " لماذا أنتم لستم هنا ؟ وتكمن الاجابة على هذا السؤال فى طبيعـــة النمـــوذج الرابع لليهودية ، التى " سوف تبدو بالنســـبة لليـــهود الأرثوذكـــس أو الاسرائيليين بإعتبارها اليهودية التى هزمت نفسها ، ومن ثم فـــهى لا تلقى قبولا " . وسوف تبدو أيضا " فكرة : (أن اليهود قـــد أصابـــهم الضرر فى كل مكان بسبب كارثة الإبادة الأوربية ، وفكـــرة أن هـــذه

المذبحة فقد تركت كل الذين بقيوا احياء (حتى ولو كانوا الآن بعيـــدا عن مسرح الأحداث ، بشرا عاجزين ، كمـا حـدث بالنسـبة لـنزع الإصابع) (١٥٦) . باعتبارها فكرة بعيدة وذات طبيعة درامية مبالغـا فيها بالنسبة لمعظم اليهود الأمريكيين . وقد شكلت خبرة أوشــفيتز – التى تمثل جرحا لا يندمل ، والخوف من إمكانيـــة حدوثـها ثانيـة – الحالة السيكلوجية لعقلية الأوربى الذى بقى حيا بعـد عمليـة الإبـادة الجماعية . ولعل أفضل وصف لها ذلك الوصف الذى قدمه جـــورج شتاينر ، الذى يوفر لنا الأساس لفهم الكثير مـن كتابـات كـل مـن هوركهايمر وأدورنو فى مرحلتها الأخيرة . حيث كتب شتاينر قائلا :

(إستناداً الى وجهة نظر أبى (التى أوضحها لى حينما ترك فيينا سنة ١٩٢٤) قدمت الى الولايات المتحدة في يناير سنة ١٩٤٠ أثنـاء الحرب الزائفة . لقد تركنا فرنسا حيث ولدت وكبرت فى ظل حالة من الأمان . ولم يحدث أنى كنت هناك حينما استدعيت الأسماء للخدمـة العسكرية ، ومن ثم لم أقف فى الميدان العام مع الأطفـال الآخريـن الذين كبرت معهم أو أرى أبى وأمى اللذان اختفيا حينما أغلقت ابـواب القطار . غير أنى من ناحية أخرى ما زلت حيا لم يصبنى أذى . فـإذا لم أكن على اتصال بجيلى ، وإذا كان ذلك الشئ الذى انتابنى وسـيطر على مشاعرى وعاداتى قد صدم كثيرا من هؤلاء الذين كنـت أعمـل معهم أو على ألفة بهم ، باعتباره شيئا مصطنعا Artificial وفاسـدا للغاية ، فإن ذلك لأن البؤس الناتج عن ما حدث فى أوربا لا ينفصـل عن هويتى . حقيقة أنى لم أكن هناك ، ولكن مصادفـة حـظ سـعيد بالتحديد هى التى نزعت اسمى من القائمة) (١٥٧) .

ويوحى العنوان الفرعى لمؤلف أدورنو " الحد الأدنى للأخـلاق Minima Moralia تأملات من قلب حيـاة جريحـة Reflection

from an injured life بمشاعر مماثلة . حيث قدم أدورنو أفكـــارا تتفق إلى حد ما مع أفكار شتاينر فيما يتعلق بوصف خبرة البقاء حيـــا فى مؤلفه الجدل السلبى ، حيث قال :

(تستحق المعاناة الدائمة التعبير عنها ، بإعتبارها عذابا للإنســان الذى كان عليه أن يصرخ : ومن ثم فقد يكون من الخطأ أن نقول أنــه لم يعد يكتب شعرا بعد أوشفيتز . ولكنه ليس مـــن الخطـــأ أن نثـير المسألة الثقافية الأقل والتى تدور حول التساؤل القائل ، هل بامكـــانك أن تواصل الحياة بعد أوشفيتز – وبخاصة إذا كان هذا الانســـان قـد هرب بالصدفة ، إنسانا كان ينبغى بكل الاعتبارات أن يقتل ، ومع ذلك فهو ما زال مستمرا فى الحياة) (١٥٨) . وتعتبر حالة أدورنو بالنسبة للمؤثرات اليهودية حالة معقدة للغاية، إذ نجده يعبر عن التزامه بحظـر التصوير قائلا :

(يسعى الباحث المادى الذى يشتاق الى ادراك الشئ الى النقيض إذ يؤدى غياب الصور إلى إمكانية إدرك الشئ بصورة كاملة .

ويلتقى هذا الغياب مع الحظر الثيولوجى على التصويـــر . وقـد حولت النزعة المادية هذا الحظر الى شكل دنيوى من خـــلال تحريـم تصوير اليوتوبيا ايجابيا ، وهو الأمر الذى يشكل مضمون ســـلبيتها) (١٥٩) .

وينتقد أرنولد كونزلى Arnold Kunzlui المؤلف السويسرى – الذى كتب دراسة ماركس السيكولوجية فى ذكراه – أدورنو " بســبب تأكيده الدوجماطيقى الطائش على الحظر المطلـــق (١٦٠) . وهــو ينسب " جدل أدورنو السلبى " الى صدامه مع اليهودية ، ثم يؤكـــد أن أدورنو قد حول مشاعر الذنب المتعلقة به إلى ظرف إنسانى عام ، لــه

بعده التاريخى العالمى . وكما هو شائع ومعروف ، نجد أن أدرونو قد أسقط كلمة Wiesengrund – وهو إسم عائلة أبوه اليهودي – عند وصوله الى أمريكا ، ومنذ ذلك الوقت إستخدم إسم أدورنو الذى ينتمى الى أمه غير اليهودية . وقد إختزل كلمة (إسم) Wiesengrund الى حرف W بإعتباره حرفا أوليا كبيرا لا معنى له فى وسط إسمه ، وهو الحرف الذى يمكن أن يفهم بإعتباره يشير الى إسم (والتر Walter) أو إسم (وليام William) أو أى شئ آخر . ويتساءل كونزلى " هل لا يحتوى مؤلف (الجدل السلبى) على عناصر شخصية للشعور بالذنب بالنسبة لإنسان بقى حيا بينما كان مقدرا عليه أن يموت ؟ " (١٦١) (١) .

ويبدو أن تعبير أدورنو عن نفسه باعتباره " الانسان الذى هرب بالصدفة ، الانسان الذى كان ينبغى بكل الاعتبارات أن يقتل " تعبيرا يؤكد هذه المسألة .

١- نستطيع بوضوح أن ندرك عدم تكيف منظرى مدرسة فرانكفورت مع المجتمع الأمريكى وخوفهم من امكانية التحيز ضدهم ، الأمر الذى جعل مفكرا مثل أدورنو لا يبرز اسمه اليهودى ، ويبرز بدلا من ذلك اسمه المسيحى انتماءا لأمه المسيحية . وتتجلى حالة عدم التكيف هذه فى العودة الى ألمانيا ، حينما انتهت الحرب ، وأصبحت الظروف ملائمة . " المترجم "

المراجع

المراجع

1-unpublished letter Thomas Mann to Frank kingdon, Feb. 15 1945 in Thomas Mann Archives, Zurich, switzerland.

2-Ralf Dahrendorf, Society and Democracy in Germany, Garden City, N.y . 1969, Pp. 412 – 418.

3-Immanuel Geiss and Volker Ullrich (Eds) , Fun Fzehn Millionen beleidighe Deutsche oder Woher Kommt die C D U ? Rrinbek bei Hamburg, 1940, p.7.

وللتعرف على تاريخ وعلم اجتماع مجتمع ألمانيا الغربية فـــى الفـــترة التالية للحرب أنظر :

Ernst – ulrch, Huster, et al . , Determinanten der Westdeutschen Restauration 1945 – 1949 , Frankfurt am Main , 1973 , urs Jaeggi, Kapital und Arbeit in der Bundespupublik, Frankfurt am Main, 1973. See also G. Hallgarten and J. Rodkau, Deutsche industrie, P{olitik, Von Bismarck bis heute , Frankfurt am Mainkoln, 1974, En 20 collotti, storia delle due Germanie, 1945 – 1968, Torino , 1968.

ولقراءة مناقشة رفيعة للمناخ السياسى والعقلى أنظر :

Iring Fetscher, " Philosophie der politik in Deutschtand " in contemporary, Philosophy A survey, Raymond klibansky (Ed), Fireze, 1971, Pp. 279 – 291.

4-Theodor W . Adorno , Gesammelte schriften, Band 8, Frankfurt am Main , 1972, p. 500.

5-Rene konig, " Die situation der emigrierten deutschen so ziologen in Europa, " KZFSS,XI,I (1959) P.p. 113 – 131 . see also Heinz Maus, " Bericht uber die soziologie in Deutschland 1933 bis 1945 " in KZFSS,XI,I (1959) P.p 72 – 92 .

6-Adorno, Gesammelte sch riften, Band 8, p. s81.

7-Max Horkheimer , surveg of the sociol sciences in western Germany, Washington, D. C. ,1952.p. VII.

8-Die zeit (Hamburg) , (oct . 29., 1968) p. 2.

9-Theodor W. Adorno, Negative Dialektik, Frankfurt am Main, 1966,p.13.

10-Ibid , p.13.

11-Ibid . p.314.

12-Institute Fur sizialforschung, soziologische Exkurse, Frankfurt am Main, 1956, Max Horkheimer and Theepdor W . Adorno , sociologica, II Frankfurt am Main, 1962 .

13-Max Horkheimer, " Traditionelle und kritische The orie, "ZFS, VI, 2 (1973) .P.189.

14-Adorno , Negative Dialektik , p.8.

15- Adorno, Gesammelte schriften, Band 8, p. 168.

تحقق قدر كبير من نقد مدرسة فرانكفورت لعلم الاجتماع الوضعى فيما يسمى بـ Positivismusstreit فى الستينات من هذا القرن بمشاركة تيودور أدورنو ، هانز ألبرت ، رالف دارندوف ، جريجون هابرماس ، هارولد باليوت Harold pilt ، كارل بوبر Kark R. popper . ولم تحاول تقديم مناقشة تحليلة للصراع الوضعى Positivismusstreit هنا ، ولكننا استفدنا فقط من اسهام أدورنو فى هذه المناقشة ، أنظر فى ذلك :

Theodor W . Adorono et al,. Der positivismusstreit in derdeutschen soziologie Neuwied – Berlin, 1969, see also , T. W. Adorno et al., The Positivist Dispute in German sociology, London, 1976.

16- Soziologische Exkurse. Pp. 17 – 180

17- Ibid ., p. 12.

18- Citedin soziologische Exkurse, p. 13.

19- Ibid ., p. 13.

20- Ibid ., p. 14.

21- Theodor W, Adorno , Vorlesung zur Einleitung in die soziologie , Frankfurt am Main, 1973, p. 10.

22- Ibid ., p. 12.

23- Soziologische Exkurse, p. 108.

24- Ibid ., p. 16.

25- Ibid ., p. 12.

26- Theodor W. Adorno , stichwortr, Frankfurt am Main, 1969. P. 121.

27- Adorno , Gesammelte Schriften., Band 8 , p. 292.

28- Ibid ., p. 549.

29- Ibid ., p. 294.

30- Ibid ., P.p. 549 – 550.

31- Adorno , Negative Dialektik, p. 396.

32- Adorno , Gesammelte schriften, Band 8 ,p. 363.

33- Adorno , Negative Dialektik, p. 396.

34- Theodor W. Adorno , Minima Moralia, frankfurt am Main , 1969.p.57.

35- Adorno , Gesammelte Schriften, Band 8 , p.292.

36- Gustav Janouch, conversations with kafka, New York, 1971, Pp. 151 – 152. For a perceptive analsis of kafka 3 worls, see wilhelm Emrich, Franz kafka. A critical study of his writtings, S. zeben Buehne (Transl) New York , 1968.

37- Adorno , Negative Dialektik, p. 355.

38- Ibid ., p. 397.

39- Ibid ., p. 146.

40-Throdor W. Adorno , Aufsatze zur Gesellschaftstheotie, Frankfurt am Main, 1970, p. 105.

41-Woza heute noch philosophie ? Spiegel – Gesprach mit dem philosophen larl lowth, Der spiegel, 23,43 (Oct.20,1969,) Pp. 204 – 211.

42- Lucien Goldmann. Lmmanuel kant, London, 1971.

43- Karl Marx, A contribution to the critique of political economy, New York , 1970, p.20.

44- V . I. Lenin, selected works, Vol. I X, New York. 1943, p. 66. See also Geprg lukacs, Geschichte und Lassenbewusstsein, Berlin, 1923, p.39.

45- Gyorgy Lukacs, A Marxista Filozofia Feladotai az uidemokraciabàm (the Tasks of Marxist philosophy in New Democracy) Budapest, 1948, Pp. 11 – 12 , see also silvie Ruker, " Totalitatals thisches und asthetisches problem " in Text + kritik, 39/40 (okt. 1973) , Pp. 52 – 64 ., Istvan Meszaros, Lukacs, Concept of Dialectic, London, 1972.

46- Lucien Goldman, lmmanuel kant ,p.50.

47- see Ernest Nagel, On the statement "the Whole is More Than the Sum of its Parts " in language of social Research, Paul F . Lazarfeld , 1955. Pp. 519 – 527.

48- Horkheimer, and Adorno , sociologia 11 , p. 14.

49- Soziologische Exkurse,p.107.

50- Adorno , Gesammethe Schriften, Band 8 .p. 320.

51- Ibid ., Pp. 315 and 320.

52- Max Weber, Economy and society , vol, 1 , p.5.

53- Patos' the Republic, B. Jowett (transl) New York, n, d, p. 203.

54- Auguste Comte, Course de philosophie positive, vol. Iv, Parts, 1908, p. 214.

55- Ibid ., Pp.106 – 107.

56- Adorno , Negative Dialektik, p. 28.

57- Theodor W. Adorno , stichwrote, p. 178.

58- Adorno, Gesammelte Schriften, Band Pp. 299 – 300 .

59 - Ibid ., P. 324.

60- Ibid ., P . 327.

61- Ibid ., P . 327.

62- Ibid ., P . 337 , and see also Robert Nisbet, sociology a an Art From, New York, 1976.

63- Ibid ., P . 327.

64- Ibid ., P.p 329 – 321 .

65- Ibid ., p . 329.

66- Teodor W, Adorno. Prims, London, 1967, p. 7.

67- Geiry lukacs, Soul and Form, Cambridge, Mass, 1974, Pp. 1 – 18. And Theodor Adorno " Der Essayals Form, " in Noten zur literatur 1, Frankfurt am Main, 1956, Pp. 9 – 19.

68- Teodor W. Adorno , Vorlesung, p. 16.

69- Ibid ., P.p 16 – 17 .

70- Soziologosche Exkurse, p. 18.

71- Comte, Cours de philosophie positive, vol 11. P. 338.

72- Adorno , stichworte, p. 121.

73- Adorno , Vorlesung, p. 22.

74- Adorno , Gesammelte schriften, Band 8 p. 287.

75- Horkheimer, and Adorno , sociologica 11 ,p. 205.

76- Adorno, Vrolesung , p. 43.

77- Adorno , Negative Dialektik , p. 167.

78- Ibid ., p . 167.

79- Adorno , Vorlesung, p. 30.

80- Ibid ., p . 31.

81- Ibid ., p . 41.

82- Adorno, Gesammelte Schriften, Band 8 , p. 11.

٨٣- لقد صاغ ماركس المشكلة على النحو التالى : " يشكل اعتماد المتبادل والمتعدد الجوانب بين الأفراد غير المهتمين كل بالآخر ارتباطهم الاجتماعى . ويتم التعبير عن هذه الراوبط الاجتماعية من خلال القيمة المتبادلة ... وتتواجد قوة التأثير التى يمارسها كل فرد على نشاط الأخرين أو على الثروة الاجتماعية بداخله باعتباره مالكا لقيمة تبادل ، أو مال ، ، ويحمل الفرد قوة تأثيره الاجتماعية ، وبالمثل ارتباطه الاجتماعى فى جيبه ... وعادة ما يمتلك كل فرد القوة الاجتماعية على هيئة شئ ، فإذا سرقت الشئ الذى تتجسد فيه هذه القوة الاجتماعية ، فإنه يكون عليك أن تعطيها الى الأشخاص لكى يمارسوها على الآخرين . وتعتبر علاقات التساند الشخصية هى الأشكال الاجتماعية الأولى ، التى تنمو فى اطارها نسق الاعتماد الموضوعى هو الشكل الثانى الكبير الذى تتشكل فى اطاره نسق الخلايا الاجتماعية العامة والعلاقات الشاملة والحاجات العامة والطاقات الشاملة لأول مرة .

وتعتبر الفردية الحرة هى التى تستند الى النمو الشامل للأفراد ، وأيضا الى خضوعهم لحياتهم المشاعية ، وعلى الأنتاجية الاجتماعية باعتبارها المرحلة الثالثة " أنظر فى ذلك :

Karl Marx, Grundrisse, introduction to the critique of political Economy, London, 1973, P.p 157 – 158.

84- Theodor W . Adorno " Spatkapitasmus oder undustriegeseuschaft ? in Gesammelle schriften, Band 8, Pp. 344 – 340 .

٨٥- قد يلاحظ أن هذه العمليات تتفق مع النظرية الماركسية ، التـــى تؤكد أن " الدولة ليست شيئا سوى اللجنة التنفيذية للطبقة الحاكمـــة " فقد كان من المتوقع أن تستخدم البرجوازية كل قوتها بغرض اسـتقرار النسق . فإذا كان ماركس على حق فى قوله : أن الطبقة التى تملـــك وسائل الانتاج المادى فى متناولها ، لها سيطرتها فى نفس الوقت على وسائل الإنتاج العقلى " ومن الواضح أن " وسائل الانتاج العقلى هـــذه تستخدم للتحكم فى الوعى .

وتخلقت شرائح عديدة تنتمى الى الطبقة الوسطى فى الفترة التالية للحرب باعتبارها مناطق عازلة بين قمة وقاع هرم أو شكل التـــدرج الاجتماعى فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، ومع ذلك فإننا نلاحـــظ فى أيامنا هذه عملية دمج البروليتاريا الرثة Lumpenpoletariat فى النظام عن طريق خلق نظام الرفاهية الموسع . وقد تخصصت شريحة لها أهميتها من المثقفين الأكاديميين وعلماء الاجتماع ، وعلماء النفس، وعلماء الاقتصاد فى تطوير النظريات والبناءات التنظيمية " للتحكـــم فى الفقر " بينما تستخدم طبقة وسطى أخرى " برجوازية الرفاهيـــة " برامج الفقر والرفاهية هذه .

لقراءة مناقشات ممتازة حول هذه القضية أنظر :

Joseoh Bensman and Aethur vidicjh, the New American society, Chicago, 1971. Especially chapters, 10,11 and 12, Frances Fox Pivan and Richars A. Cloward, Regulating the poor, New York, 1917.

86- Adorno, Negative Dialekitk, p. 270.

87- Max Horkheimer, kritik der instrumentallen vernunft, Frankfurtam Main, 1967, p. 130.

88- Soziologische Exkurse, .p. 48.

89- G. W. Hegel, werke, Band2, p. 146.

90- Adorno, Gesammelte Schriften, Band 8. P. 294.

91- Ibid. p. 18.

92- Emile Dunlheim, the Rules of socioloical Method, New York, 1964, p. 123.

93- Adorno, Negative Dialektik. P.p. 153 – 154.

94- - Adorno, Minima Moralia, p. 314.

95- Ibid. p.145.

96- Adorno, Negative Dialektik ,p. 312.

97- Horry M. Johnson, sociology: Asystematic introduction, New York, 1960, p. 2.

98- Joseph Bensman, "Forword" to Bernard osenbery, the province of sociology, Freedom and Constraint, New York, 1972. P. v.

٩٩- استنادا الى محاضرات البروفيسور الكسندرفنش Alexander Vucinich فى مقرر علم اجتماع المثقفين " وسمنار " علم اجتماع العلم الذى انعقد فى جامعة ألينوى Illinois حيث أجدنى قد اعتمدت كثيرا عليها فى كل ما يلى ، واقد استفدت ايضا من مؤلف :

Louis de Broglie, the Revolution in physics, New York, 1953, Ludwig von Bertamfby, problems of life, New York, 1960. Pp. 17 ft. Robert Merton, on theoretical sociology, New york . Jean Piaget, the place of the sciences of Man in the system of sciences, New york, 1974, and Jean Piaget, Logique et connaissaance, New york, fique, Paris, 1967, and Sagsse et illusians de laphilosop hie, Paris, 1968.

١٠٠- من أجل صياغة دقيقة لذلك أنظر :

Talcatt parsons, " A Paradigm of Evolution ? change, " in (societies, Evolution ary comparative perspectives, Engleewood Cloff, N, J. 1966, P.p 21 – 24.

١٠١- وفقا لما يذهب ماكس فون ليو Max Van Laue حيث قال " يؤسس تاريخ علم الطبيعة دائما أمثلة جديدة للأسلوب غير المتوقع

الذى تتطابق من خلاله نظريات مستقلتان تماما عن بعضهما البعض ، وطورتهما مدرستان متخلفتان ومع ذلك ترتبطتان . على سبيل المثـال البصريات Optics والديناميكا الحراريـة Thermodynamics او نظرية الموجات Theoryالخاصة بأشعة إكس x Rays ونظريـة الذرة atomic theoryالخاصة بالتبلور ، انظر فى ذلك :

History of physics, New york, 1950, P.p. 8 – 9.

102-Max Weber, the Protestant Ethic and the spirit of capitalism, Yew york 1958. P. 183. And Ralf Dahrendorf, " Out of Utopia" in American Journal of sociology Lxiv, (1958).

وقد أكد لويس كوزر Lewis Coser على تكامل الاتجاه الوظيفى مع الماركسية : حيث قال " بالتحديد ، فإنه بسبب التنظير فـى أسـلوب السائد للاتجاه الوظيفى المعيارى قد أباح لعلم الاجتماع الأمريكـى أن يصل الى درجة من التقدم لم تتحقق فى ذلك الوقت فى اى مشـروع سوسيولوجى آخر . فإنه قد آن الأوان لإصلاح التوازن مـن خـلال التأكيد على القيمة التفسيرية للصياغات التصويرية المهملـة . تلـك المتعلقة بعوامل السلطة ، تسليمى بضرورة أن ينال علـم الاجتمـاع الماركسى اهتماما جادا باعتباره قادر على تصحيح بعض التـأكيدات السائدة ، وأيضا باعتباره مشروعا نظريا فى حد ذاته " أنظر :

Lewis A. Coser, Continuities in the study of soccial conflict, New york, 1967, p. 140.

وفى هذا الاطار يؤيد بيير فاندبيرج Pueerre Van elen Berghe على علم اجتماع " يحقق قدرا من التـــوازن بيـــن الاســـتقرار وبيـــن مصادر التغير الخارجية والداخلية المتعددة ، بين الاتفاق والصـــراع ، بين التوازن وعلم التوازن " أنظر فى ذلك :

Pierre Van den Berghe, : Dialectic and Functianalism : Toward a theoretical synthesis, " American socoiological Review, xxviii, ?. 1963,Pp. 695 – 705."

103- Karl Lowith, Meaning inHistory, chicago, 1962. P.70.

104- Max Weber, the Protestant Ethic…p. 29.

حيث نجده " قد ناقش النزعة العقلانية الخاصـــة والمتمـــيزة للثقافـــة الغربية " مؤكدا " أن ما يعتبر عقلانيا من وجهة نظر محددة قد يعتـــبر لا عقلانيا من وجهة نظر أخرى ، أنظر فى ذلك :

Ibid,. p. 26. CF. Emile Durkheim, the rules of sociological Method, New york, 1938. Pp. 41 EF.

105- George C. Homans. " social Bethaviar Exchange, The American Journal of sociology Lxlll, May 1958, p. 597.

106- Hams Gerth and C. Wright Mills, (Eds) From Max Weber : Essays in sociology, New york, 1958.p. 180.

107- On this, see Salomon Bochner, the Role of Mathematics in the Rise of science, Princeton, N.J,.1966,

108- Max Plamck, physikalische Abhhandlungen und vortrage, vol. 3. Braunschweig, 1958,p.79.

109- Herbert Butterfield, the Origins of Modern Science, New york , 1962,p. 196.

وقد لخص بياحيه Piaget أهمية الفصل بين العلم والفكر التأملى بقوله : " برغم أن الفكر التأملى خصب وربما ضرورى بإعتباره مقدما تساعد على إنجاز كل أنواع البحوث ، فإنه بإمكانه أن يؤدى فقط الى صياغة الفروض الشاملة حسبما نريد . وللتأكيد خطأ لما أننا نبحث عن الثبات من خلال مجموعة من الحقائق التى يمكن الوصول اليها تجريبيا ، أو من خلال الاستنباط الذى يتطابق والرياضة الدقيقة (كما هى الحال فى المنطق) فإننا نجد أن معيار الصدق يمكن أن يبقى ذاتيا فقط ، كما هو الحال فى الرضاء بالحدس ، أو الدليل الذاتى ، إلخ ، ... وحينما يتصل الأمر بمسألة القضايا الميتافيزيقية التى تتضمن القيم المتآزرة التى حكم عليها بأنها ذات أهمية أساسية ، وهى القضايا التى تقدم بذلك عوامل الإعتقاد والايمان ، فإن التفكير التأملى يبقى هو الطريقة المنهجية الوحيدة والممكنة ، غير أن التفكير التأملى يظل مرتبطا بالشخصية الكلية للمؤلف ومن ثم فبإمكانه أن

يقود الى الحكمة أو الايمان العقلانى ، غير أنه لا يعتبر معرفة مـــن وجهة نظر محكات الصدق الموضوعية السائدة بين الأفراد "

Jean Piaget, Sagesse et illusions de la philosophie, paris, 1968. Pp.. 20 – 21.

110- See Robert S. Lynd, knowleclge for what ? the place of sociol science in American cultre, Princeton, 1939, and C. Wriht Mills, the sociolgical imagination, New, york, 1959.

111- Quoted in George Lukacs, schriften zur ideologie und politik, Frankfurt am Main, 1967, p. 627.

أنظر فى ذلك عبارة أدورنو الذى قال فيها : " أن كل ثقافة مـــا بعـــد أوشفيتز ، بما فيها نقده الحاد ، تعتبر زبالة Garbage " فهو يعتقد أن ثقافتنا سيئة لأن بناؤها مؤسس من dogshit أنظر :

Negative Dialektik, p. 357.

112- Adorno, stichworte, p. 119.

113- Gesprach mit Theodor W. Adorno , " Der spiegel, May 5 , 1969, Pp. 204 – 209.

114- Adorno, stichworte , Pp. 113 – 114.

115- Ibid., p. 117.

116- Gesprach mit Theodor W. Adorno, " In Aussug des Gelstes. Bericht uber eine sendereine, Radio Bremen (Ed). Bremen, 1962, Pp. 126 – 128.

117-Thomas Mann, Briefwechsel mit seinem verleger Gottfried Bermann Fisher, 1932 - 1955 . Frankfurt am main, 1973, Pp.462, and 478 .

118- Thomas Mann's unpublished letter to T.W. Adorno February 12, 1952, in Thomas Archives Zurich , Switzerland .

119- Adorno, stichworte, p.108 .

120- Ibid.,p.110.

121- Theodor W.Adorno, " Diewunde Heine," in Noten zur Literatur 1, Frankfurt am Main, 1965, Pp. 148-149 .

١٢٢ – فى الغالب ظهرت صعوبة فيما يتعلق بالترجمات لم يتم تجاوزها . حيث نجد أن مترجموا مؤلف أدورنو (prisms) وهو الكتاب الأول الذى ترجم إلى الإنجليزية ينعتوا هذا المؤلف فى المقدمة بقولهم : أنهم قد ترجموا مالا يمكن ترجمته وقد اشار باير . W. R Beyer وهو ناقد ماركسى " الى الأفكار العادية التى تقدم فى لغة

مصطنعة " مثل أن " على الباحث أن يفصل بين القضايا العقلية للعلم وبين قضاياه الواقعية ، وهو الفصل الذى انعكس بصورة باهتة فى صياغتهم الشكلية ، وقد كان تشيئو العلم Fetishization هو النتيجة الحتمية لذلك " فليست هناك فكرة مؤكدة تتعلق بالحقيقة بدون إحتوائها على فكرة تتعلق بالنظام الإجتماعى المثالى ، حتى لو كانت لاتستطيع أن تقوم بذاتها بإعتبارها صورة حقيقية للأمور التى يجب أن تتحقق " " وأن المشكلات الفلسفية لا يمكن حلها عن طريق فرص تجاهلها ، ومن ثم إكتشافها بعد ذلك تحت تأثير (a derniene nouveaute) ويعتبر أدورنو (durchvergesllschaftete Geseellschaft) ومثالاً آخر للمصطلحات التى لا يمكن حلها ، أنظر

Wilhelm Ramund Beyer, Die sunden dre Frankfurt schule, Berlin (East), 1971, Pp. 45, 143 and Passim.

أنظر أيضا أقوال أدورنو العديدة فيما يتعلق بقضية اللغة ، على سبيل المثال " أن الأفكار التى لايمكن أن تفهم ذاتها هى وحدها التى تعتبر حقيقة . وفى هذا الإطار تعتبر الفلفسة بالنسبة لأدورنو ، فكرا طليقا أو حرا ، وهى تعتبر أختا حقيقية للموسيقى " وينبغى أن يجتمعا ، وفى ذلك أنظر : (Negative Dialektik , Pp. 45.55 and 113.)

وقد قال أدورنو محتجا فى أحد المناسبات : " أنا لا أريد أن يفهمنى أحد " " إقتبس ذلك من :

Martin Puder, " Die Frankfurter schule und die Neue Linke " in Neue Deutsche' Hefte, 18, 1 (1971), Pp. 115.

وحسبما يذهب بول لازارسيفيلد Paul Lazarfeld قائلا :

" من المستحيل أن نعيد كتابة كل المقالات التى كتبها أدورنو بالألمانية بلغة أخرى ، إذ يكون للعبارات الطويلة ، وايقاع الكلمـــات وتراكـم الأسماء وفى الغالب تتكرر ذات الأسماء ولكن بمعانى مختلفة الى حـد ما عادة تأثيرها المنحدر على القارئ ... ورد ذلك فى مؤلــف بــول لازارسيفلد :

Qualitative analysis, Hisstorical and Critical Essays, Boston, 1972, P. 162.

وقد ألهمت لغة أدورنو " اللهجة الجميلة " ومتضمناتها أثنيــن أبــرز كتاب ألمانيا بالنسبة للأشعار التالية ، وهى :

Gunter Grass, " Adorno zunge " in Gesammelte Godishte, Neuwied – Berlin, 1971. P. 121. Hans Magnus Enzensberger, " schwierige arbeit ", (Fur tneodor W. Adorno) in Blindenschrift,furt am Main, 1965,Pp.58 – 59.

123- On the " break " in Horkheimer thought, see Michael theunissen, Gesellschaft und Geschichte, Berlin,1969, Pp. 14Ft. For Lukacs critique see George Lukacs, Die theorie de Romans, Neuwied am Rhein, p.17.

124- Max Horkheimer. Die sehnsucht nach dem ganz Anderen, Hamburg, 1970. P.5.

125- - Max Horkheimer , " philosophie und kritische theorie "ZFS, VI, (1937), p. 626.

126- - Max Horkheimer , Eclipse of Reason, New york, 1974, p. 161.

127- Adorno , Negative Sialektik, p.p27.

128-- Max Horkheimer , kritische theorie, vol.1. Frankfurt am Main , 1968. P. x.

129- Ibid., p. x1.

130- Ibid., p. x1.

131- Max Horkheimer , " On the Concept of Freedom, " Diogenes (Paris), No. 53 (1966) p. 79.

132- Horkheimer , Die Sehnsucht, p. 65.

133- Max Horkheimer , " Nochbemerkung. " ZFS, 1v, 2 (1935) , p. 307.

134- Horkheimer , Die sehnsucht, Pp. 73 74 .

135- Ibid ., p. 81.

136- Karl Marx and Fenderick Engels, the communist Manefesto, New york, 1948, p. 19.

137- Max Horkheimer , Verwaltete welt ? Ein Gesprach, Zurich. 1970 p. 9.

138- Ibid ., p.26.

139- Ibid ., p. 28 .

140- Karl Marx, Capital, Ferderick Engels (Ed) , vol 1,3 rd, New york, 1970, .p. 78.

141- Horkheimer, Die Sehnsucht, p. 86.

142- Max Horkheimer , and Fresderick Engels, the German ideology, New york, 1970. P. 53.

وقد جمع رالف دارندوف قائمة بالاشارات الى مجتمع المستقبل فـــى أعمال ماركس وإنجلز ، انظر :

Ralf Dahrendorf Die idea des Gerechten in Denkenvan Karl Marx , Hannover, 1971, Pp. 167 – 182.

See also Schlomo Avineri, " Max Vision Of The Future, " in Dissent (summer 1973), Pp. 323 – 330. Iring Fstscher, " Marx Engels, and the Future society, " in survey, 38 (oct, 1961), Pp. 100 – 110; Thilo Ramm, " Die kunftige Gesellschaftsordnung nach der theorie von Max und Engels, " Marsxismusstudien 11, iring Fetscher (ed). Tublngen, 1957. 77 – 119.

143- " Das Judentum und die krise der Religion, " Israelitisches Wochenblatt (Zurich) , 73. 25 (June 22,1973) p. 24. See also Ernst ludwig Ehrlich, " Max Horkheeimer's stellung zumjudentum, Emuna (Frankfurt am ammain) viii, 6 (Nov – Des. 1973) Pp. 457 – 460 .

144- For the following, see lea Baeck, the Essence of Judaism,mNew york, 1970 . see also Julius Guttmann, " The principles of Judaism, " In Conserative Judaism, xiv, 1 (Fall 1959), Pp. 1 – 24; For asystematic presentation see Albert H. Fridlander, lea Baech, Teacher of theresienstadl – New york, 1968, and A . H Friedlaander " leo Baeck und seine Auffassung von leid ," in Emuna, x, 1/2 (March – April 1975), Pp. 36 – 42,. Further, Hans liebeschutz, von Georg simmel zu Franz Rosenzweig, Tubingen, 1970, chapter 2.

145- Max Horkheimer, zur kritik der insrtmentallen vernunfft, Frakfurt am Mair , 1967,p. 307 . see also Jacob, katz Emancipation and Assimilation, studies in Modern Jewish Hisitory, Westmead, Farnborough, hants, England, 1972.

146- Isaac Deutscher, the Nen – Jewish Jew and other Essays, New york, 1968. P. 26. For a critical discussion of Deutschers, views on Israel, see Michaelandmann, Des Israelplseudos der pseudolinken, Berlin, 1971. Especially the Essay " Antwort an Isaac Deutscher " , Pp. 36 – 78.

147- Ibid ., Pp. 35 – 37.

148 Shlomo Avineri, " Max and Jewish Emancipation, " in Journal of the History of ideas, xxv, 4 (July – ssept1964), Pp. 445 – 450 ; and see Edmund silberner, " was Marx an antisemite ? in Historica Judaica (New york), xi (1949), Pp. 3 – 52.

149- Karl lowith, Meqning in History, chicago, 1962,p., 44, see also Martin Buber, Paths in utopia, Boston, 1960. For more details, see Gustav Mayer, " Der Jude in karl Marx , " in Neue Judische Monatshfte, 11, (April 25. 1918), Pp. 327 – 31.

E. J Lesser, " Karl Marx als Jude, " in Der Jude (Berlin), viii, 3 (1924), Pp. 173 – 181. Hans Lamm," karl Marx and des Judentum, " in Karl Marx 1918 – 1968. Neue studien zu person und leher, Mainz, 1968, Pp. 11 – 66 ; George Lichtheim, " socialism and Jews, in Sissent (July – Aug. 1968), Pp. 314 – 342; Roberts . wishrich, Revolutionary Jews. From Marx Trotsty, London, 1976.

وقد علق البروفيسور لاندمان M. Londmann على الجذور المتعلقة بـــالوعى بالرســـالة Messianism المشـــتركة بيـــن الاشـــــتراكية والصهيونية حيث أكد أن الأولى تمثل التراث الشامل للوعى بالرســـالة Messianism بينما تتصل الثانية بالجانب الخاص فى هذا الـــتراث ، أنظر :

Michael Londmann, Anklage gegen dievernunft, stuttgart, 1976,p. 218.

150- The Holy Bible. P. 72.

151- Horkheimer , Die sehnsucht, p. 77.

152- Janouch, Canversations, P.152.
ولقراءة مناقشة تفصيلية عن هذا الموضوع ، أنظر :

Pierre Jaccard , " kunst und Religion, Das verbot bildicher Darstellungen in alten Judentum und in Islam. KZFSS. 21, 3 (sept. 1969), Pp. 453 – 462;

Alfred Vagts, " Die Baek institute, 9,33, (1966), Pp. 85 – 90.

153- Horkheimer , zur kritik,p. 309.

154- Horkheimer, Die schnsacht, Pp. 77 – 78.

155- George steiner, Language of silence, New york, 1972, p. 144.

ولقراءة معالجة مماثلة لهذه القضية أنظر :

Mane's sperber, " churban order Die unfassbare Gew issheit, " in Die kontroverse ; Hannach Arendt, Euchmann und die Juden, Munchen, 1964, Pp. 9 – 32.

156- Ibid ,. P. 144.

157- Ibid ,. P. 150.

158- Adorno, Negatire Dialektik , p. 353.

159- Ibid ,. P. 205.

160- Arnold kunzli, Aufklarung und Dialektik, Freiburg, 1971, p. 146.

161- Ibid ,. P. 146.

خاتمـــــة

لقد ناقشنا فى بداية هذه الرسالة التقويمات المتعارضة لعلم الإجتماع وفلسفة مدرسة فرانكفورت . هذه التقييمات التى بـدأت مـن الرفـض الكامل (مثلما ذهب رنيه كوينج) للنظرية النقدية ، وحتى الموافقة عليها بإعتبارها أساسا ملائما لعلم الاجتماع الجدلى فى المستقبل (مثلما ذهب هيلموت شلسكى Helmut Schelsky) . وتتأرجح معرفـة علمـاء الإجتماع الأنجلو – أمريكيين بمدرسة فرانكفورت من المعرفة السطحية إلى المعرفة المبهمة أو الغامضة بها

وفى محاولة الوصول إلى تقويم لمدرسة فرانكفورت حاولت هـذه الدراسة أن تفحص نقديا كتابات كل من ماكس هوركـهايمر وتيوديـو أدورنو ، وقد تركز هذا البحث حول ثلاثة موضوعـات أساسـية الأول البرنامج الأصلى ، الذى يتعلق بتقديم نظريـة عامـة عـن المجتمـع الرأسمالى الحديث ، والثانى إدعاء النظرية النقدية أنها تمثل إسـتمرارا للنظرية النقدية الأصلية التى صاغها ماركس ، والثالث الصدق العلمـى للنظرية النقدية فى ضوء قواعد وقوانين العلوم الاجتماعيـة والطبيعيـة المتفق عليها .

وبإيجاز تؤكد النتائج التى وصلنا اليها أن النظرية النقدية قد فشلت على هذه المحاور الثلاثه .

أولاً : أن إنجازات النظرية النقدية تتضاءل بصورة واضحة بالنسبة للوعد أو البرنامج الأصلى لهذه النظرية ، ولعل ذلك فى جـانب منـه بسبب الظروف التاريخية . وبرغم أن فكرة البحث التى تتعـاون فيـه انساق معرفية عديدة Interdisciplinary research كانت فكرة بـارزة خلال الخمسين عاما التى تشكل تاريخ المعهد ، غير أن هذه الفكرة ظلت على مستوى البرنامج فقط ، حيث لم يتم تحقيـق منطقـها أو آلياتـها التفصيلية . هذا الى جانب عدم تحقق التكامل العميق بين الدراسات التى

أنجزها الأفراد أعضاء المعهد . ذلك بالاضافة الى عدم الوصول الـــــى تقنين نظرى للمعرفة التى تم الحصول عليها منهم ، وذلك ربما لأن كلا من أدورنو وهوركهايمر لـــم يتلقيـــا تدريبـــا كافيـــا لبحـــث الأســـاس الإجتماعى – الإقتصادى إمبيريقيا ، بل لم تكن لديهم الرغبة فى ذلـــك ، ومن ثم نجدهم قد كرهوا البحـــث الامبيريقى الذى يتناول فقـــط – مـــن وجهة نظرهم – السطح الخارجي لظواهر المجتمع ، وليـــس جوهـــره (وبرغم أن النظرية النقدية قد أكدت منذ بداية نشـــأتها علـــى النزعـــة التاريخية ، إلا أننا لا نجد مؤرخا واحدا بين أعضاء المعهد خلال حياتها التى استمرت خمسين عاما) .

وفى إطار الموضوع الثانى ، نجد أن النظرية النقدية قد تحللت من العقيدة الماركسية الاساسية ، التى تؤكد على وحدة النظرية ، والبحـــث الامبيريقى والممارسة الثورية . ولقد دفعت الحيرة التى وقعـــت فيـــها النظرية فى البداية الى إنسحاب أدورنو الى برجه العاجي وسعادته بذلك، وبالمثل الى شوق " هوركهايمر الى الله والعـــالم ، وبـــالطبع ، يصبـــح الموضوع الأساسى هنا هو تخلى النظرية النقدية عن المنهج الماركســـى من أجل التأمل الميتافيزيقى . وقد أشار جورج لوكـــاش منـــذ حوالـــى خمسين عاما الى " المنهج " بإعتباره الجانب الأكثر أهمية فـــى الفكـــر الماركسى " ولغرض المناقشة نفترض أن لوكاش قال

(لقد رفض البحث الأخير كلية كل قضايا ماركس ، كل على حدة، وإذا كان الأمر على هذا النحو . فإنه يبقـــى فـــى مقـــدور ماركســـى " أرثوذكسى " أن يوافق على كل النتائج الحديثة بدون تحفظ ، ومـــن ثـــم يرفض الأفكار الماركسية ، بدون رغبته فى التخلى عن أرثوذكسيته ولو للحظة واحدة ، وحينئذ فإننا نجد أن الماركسية الأرثوذكســـية لا تعنـــى القبول غير النقدى لنتائج البحوث الماركسية ، فهى لا تعنى " الإعتقـــاد " فى هذه القضية أو تلك وهى لا تعنى أيضا أن تكـــون تفســـيرا لكتـــاب

مقــدس بل على العكس من ذلك ، فإن الأرثوذكسية تشير الى المنــــهج Method فقط . فهى عبارة عن الإعتقاد العلمى بأن الجدليــــة الماديــة تعتبر الطريق الى الحقيقة ، وأن منهجها يمكـــن أن يطـــور ، ويوســـع ويعمق وفقا للقواعد الأساسية التى أرساها مكتشفوها) (١)

فلم يتحقق التوقع الماركسى المتعلق بإستقطاب الطبقات فى إطـــــار المجتمع الرأسمالى (البرجوازية فى مواجهة البروليتاريا) مـــع تحقــق البؤس The Vereiendung بالنسبة للطبقة الأخيرة ،والصدام الحتمـــى بين المفكرين المتخاصمين . وهو التوقع الذى بدأ يتلاشـــى مـــع قـــدوم الثلاثينات من هذا القرن العشرين . لقد نجحت الرأسمالية المتقدمة فـــى البقاء ، وقد استطاعت حل أزماتها وتناقضاتها ، ومن خلال الإصلاحات التى تمت فى الولايات المتحدة ، ومن خلال إجراءات الثورة المضـــــادة فى ألمانيا فى الثلاثينات من هذا القرن . ومن ثم فإن علـــى البـــاحث – إستنتاجا من هذه الوقائع التاريخية – أن يتخلـــى كليـــة عـــن المنـــهج الماركسى ، وهو ما يعنى التخلى كلية عن البحث فى الأساس الاجتماعى – الاقتصادى ، والهروب فى نطاق الفكر التأملى ، وهو أمر لا يغتفـــر لتيار سوسيولوجى يدعى وراثته لهذا الفكر . وفـــى اطـــار الموضـــوع الثالث ، يتمثل فشل مدرسة فرانكفورت فى إســـتيعاب فلســـفة العلـــوم الإجتماعية والطبيعية الحديثة ، إذ نجدها قد رفضت الدعـــائم المنهجيـــة الأساسية للعلم الحديث كالتجريب ، والتكميم والتحقق من الثبات ، وبـــدلا من ذلك نجدها قد قدمت فلسفة طبيعية جديدة و " علما " كيفيا وتأمليـــا . هذا إلى جانب انها قد إستبدلت علم الإجتماع العلمى بنوع مـــن التـــأمل الفنى – الذى يقتصر على الصفوة فيما يتعلق بشرور المجتمع الرأسمالى أو الإشمئزاز والرعب من الفاشية .

وتكمن جذور كثير من نقائص مدرسة فرانكفورت فـــى الظـــروف التى أحاطت بهؤلاء المثقفين . حيث كانت أفكارهم " وجودية بمعنى مـــا Scinsgebunden " حسب تعبير كارل مانـــــهايم . فبعـــد أن بـــدأوا

بالتحليل النقدى للمجتمع الألمانى والمجتمعات الأوربية الغربية ، فإننا نجدهم على نحو مفاجئ قد انتقلوا الى أمريكا . غير أنهم لم يشاركوا فى علاقات قوية مع أى من شرائح المجتمع الأمريكي المثقف ، هذا إلى جانب أنهم لم ينجحوا فى فهم التراث الثقافى والاجتماعى لهذا المجتمع .

وفى السنوات التالية للحرب مباشرة كانت الفلسفة الوجودية الفرنسية هى الأكثر ذيوعا ، ومن ثم الفلسفة التى شكلت موضوعا للحوار حينئذ . وقد قدم جورج لوكاش تقويمه النقدى لهذه الفلسفة فى مقالته " الوجودية أم الماركسية " فى سنة (١٩٤٧) وهو التقويم الذى تتجاوز أهميته نطاق إهتمامه . حيث كتب لوكاش عن " الفلسفة التى تشكل بداية لعصر جديد " قائلا : " حيث لم تظهر حتى الآن بدون منهج حقيقى أصيل ولقد كان الأمر كذلك بالنسبة لفلاسفة الماضى العظام ، أفلاطون ، أرسطو ، ديكارت ، سبينوزا ، كانت ، هيجل ، فما هى وجه الأصالة فى منهج المذهب الوجودى " (٢) .

ولقد مرت فترة خمسة وعشرون عاما منذ أثار لوكاش هذا السؤال . فقد توارت الوجودية الفرنسية ، ويبدو أن الزمن قد أكد تقدير لوكاش لها . باعتبارها " موضة Fad عابرة " . وفى الحقيقة ، فإننا يمكننا طرح تساؤل لوكاش الآن فيما يتعلق بالنظرية النقدية " ما هو وجه الأصالة فى منهج النظرية النقدية ".

ومن الواضح أن الاجابة ليست مرضية ، وبمعنى حقيقى ليست هناك نظرية نقدية واحدة ، ولكن هناك النظريات النقدية لكل من هوركهايمر وأدورنو ، هربرت ماركيوز . بل أن الباحث يستطيع أن يذهب الى أبعد من ذلك ليتحدث عن النظريات النقدية لهوركهايمر وحده . نظرياته فى الثلاثينات ، الأربعينات ، الستينات من هذا القرن

(٣) . وتعتبر العناصر ذات الطبيعة الأخلاقية فقط هى العناصر الثابتة فى النظريات النقدية ، وذلك مثل قلقهم فيما يتعلق بالمصير البشـــرى واهتمامهم الانسانى فيما يتعلق بمستقبل الحضارة الغربية .

وتتمثل احدى النتائج الرئيسية لهذه الدراسة ، فـــى أن النظريـــة النقدية تعتبر فى التحليل النهائى فلسفة وجودية أخرى . وإذا وافقنــا على قول هيجل المأثور " إن الفلسفة تدرك منها زمانها فى الأفكــار " فإن ذلك ينطبق على المذهب الوجودى ، كما ينطبق بالتـــأكيد علـــى النظرية النقدية ، التى تعتبر تعبيراً محــدداً عـــن ظــرف إجتمــاعى وتاريخى ، وعن موقف جماعـــة إجتماعيـــة تتكـــون مـــن المثقفيـــن البرجوازيين اليهود والهامشيين .

ودائما ما يذكر المذهب الوجودى بإعتباره تعبـــيرا عـــن أزمـــة الفلسفة ، أو تعبيرا نظريا عن الإنهيار أو عن موقف الحاجة الى إعادة البناء ، فتركيزها كان على الفرد ، على إغترابـــه ، " ونبـــذه بعيـــدا Thrown – outness " إذا استخدمنا تعبير هيدجـــر Heidegger . ويعتبر عصر الإنجيل موقف أزمة تم تسجيله . وفى هـــذا الإطـــار – ينبغى النظر الى ظهور الفلاسفة باعتبـــارهم الأنبيـــاء الوجودييـــن ، وبخاصة أيوب Job الذى نادى صارخا فى الظلمات بســـبب إفتقـــاده الثروة والسلطة والسعادة ، وأيضا بسبب معاناته . ولا يحتاج كـــارل ماركس الشاب بإعتباره واحدا من " الوجوديـــين " المعـــاصرين لأى توضيح آخـــر . وبالتـــأكيد كـــان لســـورين كـــير كجـــارد soren kierkegaard (١٨٥٥ – ١٨١٨) تأثيرة على أدورنو وقـــد كتـــب أدورنو أطروحتـــه للأســـتاذية His Habilitation sschrift عـــن كيرجاد الذى بقى له تأثيره المستمر عليه وبنهاية القرن التاسع عشـــر ظهر فريدريك نيتشـــة Friedrich Nietsche (١٩٠٠ – ١٨٤٤)

الذى يعتبر مؤسسا جديدا للمذهب الوجودى – الذى تأثر بشوبنهاور – والذى كان له تأثيره البارز على كل من هوركهايمر وأدورنـــو (٤) . وقد بدات عملية التأثير صراحة بشوبنهاور واستمرت بسيجموند فرويد الذى يعتبر مؤثرا هاما آخر بالنسبة للنظرية النقدية . وبمعنى شـامل ، يحتوى الوجودى الحديث على تنوع هائل من المفكرين والكتـاب ذوى التوجهات العقلية والسياسية المتنوعة . وهو التنوع الــذى يبـدأ مـن هيدجر Heideggre و كارل يســبرز Jaspers ، شـيلر Scheler وبوبر Buber ، وروزنزويج Rosenzweig وحتى ريلكيـه Rilke ، كافكا kafka ، سارتر Srter ، كامى Camus وهوركهايمر وأدورنو

وقد أدرك كل من هوركهايمر وأدورنو أفكارهما على هذا النحو، بل أننا نجدهم قد صوروا نظرياتهم باعتبارها نظريــات وجوديـة . ويعلن هوركهايمر فى مقالته – التى تتخذ طابع البرنامج – بعنـوان " النظرية التقليدية والنظرية النقدية " أن النظرية النقدية للمجتمع تكشف فى كليتها بصورة مؤكدة عن إلتزام وجـودى متمـيز " (٥) وبنفـس المنطـق ، يؤكـد مؤلـف جـدل التنويـر The Dialectic of Enlightenment ، وهو المؤلف الأساسى للنظريـة النقديـة فـى منتصف الأربعينات من هذا القرن لقد إقتصر التاريخ بداخلى وداخـل الأخرين بيعيدا عن الخوف الذى يمكن ان يذكر الفرد بإنهيار تكـامل وحدته ، وهو الإنهيار الذى تجسد بواسطة قهر التاريخ " (٦) . وعلـى هذا النحو يكمن تكثيف بعض المصطلحات الأساسية للفلسفة الوجوديـة مثل الأبعاد Vedrangung والقلق Angst والوجود Existenz فـى عبارة واحدة متميزة . ويبدو أن إستخلاصنا النـهائى فيمـا يتعلـق بمدرسة فرانكفورت يتفق بصورة أساسية مع إسـتخلاص جـيرجون هابرماس فيما يتعلق بأدورنـو ، وإستخلاص الفريد شـميث Alfred Schmidt فيما يتعلق بهوركهايمر . وقد سمى هابرماس أدورنو فـى

١٩٦٣ " المثقف المتفلسف " " (٧) ونحن قد نضيف تعبيرا هو " المثقف المتحدث في علم الاجتماع A Sociologizing intellectual " وبعد ستة سنوات من وفاة أدورنو ، عرض هابرماس بصورة موجزة وذكية الطبيعة المعضلة لأفكار أدورنو قائلا : (بعد سقوط القناع النظرى ، الذى فرضته عبقرية أدورنو على ضعفنا المنهجى ، فإننا نجد أنفسنا من جديد مجردين من اى منهجية) (٨) .

وقد كتب الفريد شميث ، أقرب تلاميذ هوركهايمر اليه فى نعيه لأستاذه هوركهايمر متحدثا عن :

(الصعوبات الحقيقية التى تواجه أى مفسر لإنجازات هوركهايمر خلال حياته ، وذلك لأنها تنوعت وتميزت بالصراعات والكوارث التى منى بها هذا القرن ... فهى تحتوى على ... الدوافع العامة للفلسفة ... وهى الدوافع التى لا يمكن التعبير عنها بقضايا موجزة ، والتى لا يمكن أن تسلم نفسها الى الإختزال الى مجرد موقف Position يمكن تفسيره) (٩) .

فإذا تساءلنا أخيرا فيما يتعلق بمنظرى مدرسة فرانكفورت ، فإننا نجد ايرنست بلوخ Ernst Bloch يقدم العبارة التالية ذات الطبيعة الصارمة ، والتى يقول فيها : (يمكننى أن أسمى معهد البحث الاجتماعى التابع لمدرسة فرانكفورت بأنه معهد الكذب الإجتماعى . فأنا لم أوفق أبدا على نزعتهم التشاءومية . فهم ليسوا ماركسيين وليسوا ثوارا ، وأن ما قدموه هو مجرد نظرية متشائمة عن المجتمع . وقد كانت لى صلتى وقت ما بأدورنو بالرغم من أننا لم نتفق أبدا على مفهموم يوتوبيا . أما فيما يتعلق بهوركهايمر . فإننا نجده قد أصبح رجعيا reactionary) (١٠) .

وقد إتخذت مجموعة مقالات هوركهايمر المنشـــورة فـــى ســنة ١٩٦٨ عنوان (Kritische Theorie Eine Dokumentation) .
وفى الحقيقة يمكن النظر إلى النظرية النقدية بإعتبارها وثيقـــة علـــى تحليل أو إنهيار المجتمع البرجوازى القديم فى وسط أوربا ، وأيضـــاً على المصير المأساوى لمجموعة من مثقفى هذا المجتمع .

المراجع

1-George Lukacs, Geschichte und Klassenbewusstsein Berlin, 1923. Pp. 13 – 14

2- George Lukacs, A polgari Filozofia valdsaga (the crisis of Bourgeois phillosophy), Budapest, 1947,p. 130.

٢- يمكن قبول تأكيد كل من هوركهايمر وأدورنــــو علـــى وحــدة أفكارهما حتى الأربعينات من هذا القرن فقط . وليس بالنسبة لكـــل أعمال حياتهم . بالمقابلة المنظمة بيــن أفكــار كــل مـــن أدورنـــو وهوركهايمر تقع خارج نطاق أهداف هذه الدراسة ، ومع ذلك فهناك اختلافا رئيسيا ينبغى أن نذكره ، وهو الاختلاف الذى يتمثـــل فـــى الاستيعاب المتباين لتراث الفسلفة الألمانية ، ومثال على ذلك ، بينمــا نجد تأثير شوبنهاور بارز على هوركهايمر ، نجد تأثير هيجل علـــى أدورنو مقابلا لذلك .

٣- كتب أدورنو فى سنة ١٩٣٨ الـــى والـــتر بنيـــامين Walrer Benjamin مؤكدا أن " الله يعرف أن هنـــاك صدقـــا واحـــدا " ... وهناك الكثير الذى يتعلق بهذا الصدق فى مؤلف نيتشـــة Nietzsche (اصل الاخلاق Genealogy of Morals) اكثر مما فى مؤلـــف بوخازين A . B . C . " أنظر فى ذلك :

Theodor W. Adorno , " Letters to Walter Benjamin " in Harry Jihn (Transl) New left Review, 81 (sept – Oct. 1973.) p. 72.

5-Max Horkheimer, Critical theory p. 227.

6-Horkheimer, - Adorno, Diaktik p. 216.

7-Jurgen Habeermas " Ein philosophierendr im philosophisch – Politische Profile, FrankFurt am Intollektue Main, 1971, Pp. 176 – 184. See also Claus Grossner Anfang und Ende der Frankfurter Schule (Theodor W. Adorno / Max Horkheimer , " in verafall der philesophie, Hamburg, Rrinbek bel Hanburg, 1971, Pp. 106 – 122 and Eugene Fleischmann, " Fin de la sociologice Dlaectique ? Essaid' apprecation de L'ecole de Francfort; " Archives Europeennes de sociologie, XIV, 2 (1973) , Pp. 155 – 184.

8-Cited in clous Grossner, Verfall der philosophie, Reinbek bei Hamburg, 1971. P. 15.

9- Alfred Schmidt, Zur Idee de Kritischen Theorie, Munchen, 1974, p. 137.

10- Interview with Ernst Bloch by Jean – Michel Palmer." La Traversee du Siecle d'Ernst Bloch, Voyage a " Blochigen " Les Nouvelles Litterairses (April 29, 1979). Pp. 89 and (May 6, 1976) Pp. 8 – 9.

••••••••••••

مختويات الكتاب

مدخـــــل

الفصل الأول

النظرية النقدية لماكس هوركهايمر

الفصل الثانى
المرحلة المتوسطة فى تاريخ النظرية النقدية
فترة المواجهة مع الفاشية ونقد الهيمنة

الفصل الثالث
علم اجتماع فرانكفورت
نظرية المجتمع